ج. ر. جونز

الحصار العثمانى للقسطنطينية

سبعة مصادر معاصرة

دراسة وترجمة وتعليق

دكتور حاتم عبد الرحمن الطحاوى



ج. ر. جونز

الحصار العثمانى للقسطنطينية
سبعة مصادر معاصرة
٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م

دراسة وترجمة وتعليق
دكتور حاتم عبد الرحمن الطحاوى
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى
٢٠٠٣م

عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

هذه هى الترجمة الكاملة لكتاب

The Siege of Constantinople 1453
Seven Contemporary Accounts
Translated by , J. R. Melville Jones
Amesterdam , 1972 , (137 Pages)

المستشارون
د. أحمد إبراهيم الهوارى
د. شوقى عبد القوى حبيب
د. قاسم عبده قاسم
مدير النشر
محمد عبد الرحمن عفيفى
تصميم الغلاف منى العيسوى

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
٥ شارع ترعة المريوطية – الهرم – ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693
E-mail : dar_Ein@hotmail.com

الإهـــداء

إلى داليا .... حبّة القلب .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

فتح القسطنطينية حادث لايتكرر مثله فى التاريخ طويلاً . إذ إنّ روما الجديدة » التى أراد لها منشؤها قنسطنطين الكبير أن تكون نسخة شرقية من «روما القديمة» أبت إلا أن تحمل اسم الرجل الذى بناها على أنقاض مستعمرة «بيزانتيوم» اليونانية القديمة ، واختارت لنفسها مصيراً يتناقض مع «روما القديمة» فى كل شئ : كانت «روما القديمة» فى رحلتها صوب الغروب على حين كانت «روما الجديدة» تصعد الدرجات الأولى نحو مجدها ؛ كانت «روما القديمة» تتحدث اللاتينية وترى الأمور والأشياء بعيون غربية وتتعامل مع الأشياء بهوى أوربى ووجدان غربى، على حين جاءت «روما الجديدة» بلسان يونانى شرقية السمات ذات ملامح يونانية وبلقانية وأناضولية ؛ كانت «روما القديمة» معقل الوثنية وموطن البانثيون الرومانى المعروف ، أما «روما الجديدة» فقد ارتبط تاريخها كله بالمسيحية . وحين انتشرت المسيحية فى أرجاء أوربا كانت «روما القديمة» معقل الكاثوليكية، على حين ظلت «روما الجديدة» معقل الأرثوذكسية إلى أن ورثتها موسكو بعد أن صارت عاصمة أكبر دولة إسلامية فى القرن الخامس عشر الميلادى وتغير اسمها من مدينة قنسطنطين (القسطنطينية) إلى عاصمة الإسلام (اسلامبول) .

هذا التحول الأخير فى مصائر وتاريخ مدينة قنسطنطين هو موضوع هذا الكتاب الرائع الذى نقله إلى العربية الدكتور حاتم عبد الرحمن الطحاوى ، وله فى هذا الموضوع سابقة جميلة وحميدة وهى ترجمته الممتازة لكتاب فتح القسطنطينية الذى نشرته دار عين قبل سنة من الآن.

والكتاب الذى تقدمه دار عين للقارئ العربى ترجمة لسبع روايات معاصرة لأحداث الحصار العثمانى لمدينة القسطنطينية: وهو الحصار الذى انتهى بفتح المدينة وتغيير إسمها وتاريخها : مرة وإلى الأبد. وتتحدث هذه المصادر السبعة عن أحداث الحصار ووقائعه فيما يشبه اليوميات بحيث تنقل إلى القارئ صورة تفصيلية عما جرى فى ذلك اليوم الحاسم من سنة ١٤٥٣م : وبحيث يرى القارئ أن ما جرى فى ذلك اليوم لم يكن مجرد غزو – تكرر آلاف المرات فى تاريخ البشرية– كما أن المدينة المفتوحة لم تكن مثل أية مدينة أخرى من آلاف المدن

المنثورة على سطح الكرة الأرضية ، لقد كان فتحًا فريدًا لمدينة فريدة : كان حادثًا تاريخيًا فذًا من تلك الأحداث التى غيرت مجرى التاريخ على مرّ العصور .

بيد أن الدكتور حاتم الطحاوى لم يكتف بترجمة النصوص- وهو عمل جليل على أية حال- وإنما قدم لها بدراسة رصينة ومسهبة ، كما كتب تعليقات مفيدة فى الهوامش لتجلية النص وتوضيحه وتفسير غوامض السطور التى يحملها كل نص من هذه النصوص السبعة.

وعلى أية حال ، فإن فتح القسطنطينية جزء مهم من تاريخ الأمة الإسلامية عامة، والمنطقة العربية بشكل خاص، ينبغى أن نكثّف دراستنا له . وقد عشنا زمنًا على ما أخرجته الأقلام الأوربية- بما فيها من إنحيازات وشائعات تاريخية- عن الدولة العثمانية : بل إننى لا أبالغ إذا ما قلت إن البعض منّا ما يزال سادرًا فى هذا «الضلال» التاريخى- على الرغم من محاولات المراجعة ووضع أجندة جديدة لدراسة التاريخ العثمانى أو التاريخ العربى فى ظل الحكم العثمانى- بسبب الأفكار والمفاهيم التى أرساها المؤرخون الأوربيون وتلقاها تلاميذهم فى الفترة الباكرة من تاريخ الدراسة التاريخية العربية فى الجامعة المصرية.

إن ما يقدمه هذا الكتاب ينبغى أن يكون متبوعًا بمحاولات أخرى للوقوف على مصادر تاريخ الدولة العثمانية الحقيقى حتى يمكن أن تكون لنا رؤيتنا الخاصة . ومن ثم ، فإن «دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية» تسعد بتقديم هذا الكتاب للباحث والمؤرخ الجاد الدكتور حاتم الطحاوى، والله الموفق والمستعان

دكتور قاسم عبده قاسم

مقدمة الترجمة الإنجليزية

إنه لمن السهل المبالغة فى الأهمية التى نتجت عن سقوط مدينة القسطنطينية فى تاريخ الغرب الأوربى، فإلى ذلك ترجع العديد من الأحداث والتطورات المواكبة ، مثل زيادة الاهتمام بالمعرفة الكلاسيكية ، وزيادة رقعة أراضى الإمبراطورية العثمانية ، وحركة الكشوف الجغرافية باتجاه الغرب، التى قادت إلى الاستقرار الأوربى فى الأمريكتين. تلك الحركة التى ظهرت إرهاصاتها منذ وقت بعيد .

وإذا كان سقوط القسطنطينية يمثل جزءًا من عملية تاريخية حتمية ، فقد ظهر أيضًا كلحظة ذات أهمية تاريخية قصوى فى مسيرة الحضارة الغربية . ولهذا السبب ، فإنه لمن المثير أن بقيت بعض الروايات المتعلقة بسقوط القسطنطينية كى تتم ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية . وإن كان ذلك قد تم متأخرًا للغاية.

إن رواية (المؤرخ البيزنطى) كريتوفولس Kritovoulus، التى وردت تحت عنوان «تاريخ محمد الفاتح» ، قد ترجمت بواسطة س.ت . ريجز C.T. Riggs وطبعت فى جامعة برنستون Princeton فى العام ١٩٥٤م، (وأعيد طبعها فى مطبعة جرينوود Green Wood بنيويورك).

وقمت فى العام ١٩٦٩م، بإصدار الترجمة الإنجليزية لرواية نيقولا باربارو تحت عنوان : يوميات حصار القسطنطينية ١٤٥٣م، فى مطبعة Exposition بنيويورك، وعدت هذه الرواية الأكثر أهمية من بين كافة الروايات الأخرى. لأن مؤلفها وضع إطارًا زمنيًا لمعظم أحداث ووقائع الحصار، كلما كان ذلك مواتيًا .

تبدأ الروايات التى بين أيدينا بتقرير وضعه الفلورنسى جياكومو تيدالدى Giacomo Tedaldi ، الذى لا نعرف عنه أية معلومات بخلاف ما ذكره هو عن نفسه فى سياق تقريره.

ولاتتميز روايته بحس أدبى، باستثناء الإيجاز فى الكتابة، وربما، ما طبع أسلوبه من مباشرة. وتنبع أهمية روايته من كونها توفر معلومات قيمة حول ما كتبه الآخرون. كما أنها تعد المصدر الوحيد المتعلق ببعض النقاط ذات الأهمية الثانوية.

عاشت عدة روايات لتيدالدى، ومن الواضح أنه لدى مقارنتها ببعضها البعض، وعبر الدليل الباطنى الذى قامت بتوفيره تلك الروايات، أمكن معرفة أنه لم يجر نسخها من تقرير تيدالدى الأصلى.

ويبدو أنه عندما وصل إلى نجروبونت ، برفقة الآخرين الذين استطاعوا الفرار من القسطنطينية ، قام تيدالدى بتدوين روايته كما هى، وبعد ذلك جرى ترجمتها .. أو كما أرى- وهو ما أعدّه الأكثر احتمالاً- أنه قد جرى تدوينها لأول مرة باللغة الفرنسية، كما قام تيدالدى بحكاية روايته باللغة الإيطالية، أو بخليط من اللغتين ويوضح هذا لماذا يشير فيها إلى شخص ثالث ولماذا تظهر بعض الأسماء التى ذكرها بشكل ملتبس .

تم نشر الرواية بشكل أخير باللغة الفرنسية واللاتينية. مع إضافة صورة وصفية للسلطان (محمد الفاتح) ، فضلاً عن إشاعات عن خططه المستقبلية *.

والمخطوطة التى اعتمدت عليها هذه الترجمة ، هى الأقدم من بينها (المكتبة الوطنية. باريس، رقم ٦٤٨٧ ، ١٨-٢١ ff) والتى تحمل تاريخ ٣١ ديسمبر ١٤٥٣م. وبها إضافات تحتوى على وصف دقيق (صورة) للقسطنطينية ، لاتختلف سوى بقدر يسير للغاية عن الخريطة المعاصرة لحصار المدينة.

وهناك رواية لشاهد عيان أخر. هى الرسالة التى قام بكتابتها ليونارد الخيوسى، الأسقف اللاتينى لمدينة ميتيلين Mytilene إلى البابا نيقولا الخامس Nicolas V فى مدينة روما. والمؤرّخة بتاريخ ١٦ أغسطس ١٤٥٣م، حيث تم الانتهاء من كتابتها، عقب سقوط القسطنطينية وما زال الحدث ماثلاً فى ذاكرة المؤلف.

وتمثّل هذه الرواية إحدى أكثر المصادر التاريخية أهمية فيما يتعلق بالمواقع والأوضاع العسكرية التى اتخذها كلاً من المحاصرين الأتراك، والبيزنطيين المحاصرين .

كان ليونارد الخيوسى قد وصل إلى القسطنطينية لمساعدة الكاردينال الروسى ، ايزيدور من كييف Isidor of kiev ، على إتمام عملية الاتحاد الكنسى بين الكنائس الرومانية (الكاثوليكية) ، والكنائس البيزنطية (الأرثوذكسية)، وأبدى تعاطفًا ملحوظًا مع أصحاب هذا الاتجاه.

ونتيجة لهذا ، فقد تم التحفظ على روايته من قبل المعارضين والثائرين على عملية الاتحاد الكنسى، كما اتسمت روايته بنزعة تهدف إلى التقليل من الدور الذى لعبه البيزنطيون فى الدفاع عن القسطنطينية.

---

* تمت مناقشة المخطوطات لرواية تيدالدى بواسطة : M.L. Concasty " Les Informations de Jacques Tedaldi Sur le Siege et la Praise de Constantinople ", in . Byzantion . 1954 . pp. 95-110 .

واعتمدت فى هذه الترجمة على النص المطبوع فى J. P. Migne , Patrologia Graeca, 159, cols. 923-943 مع التدقيق فى المخطوطة التى ورد عنها هذا النص المطبوع، والموجودة فى مكتبة الفاتيكان تحت رقم ٤١٣٧، الأمر الذى أتاح لى إدخال تصحيحات طفيفة على هذا النص.

ظهرت الترجمة الايطالية لرواية ليونارد الخيوسى بواسطة ف. سانسوفينو F.Sansovino فى كتابه «تاريخ العالم وأصل الإمبراطورية التركية» الكتاب الثالث، الصفحات ٣٠٤-٣١٣، بعد أن تمت مقارنتها بالنص اللاتينى .

ومن الواضح أنها ليست ترجمة حرفية، وتبدو أحيانًا فى صورة ترجمة تمّت على عجل، دون تدقيق، مع بعض الحذف البسيط، وبشكل خاص فيما يتعلق ببعض الأمور التى لم تلق ضوءًا مناسبًا على ما قام به البنادقة .

الرواية الثالثة فى هذا الكتاب ، لم يقم بروايتها شاهد عيان، فقد قام بكتابتها المؤرخ لاونيكوس خالكو كونديلاس، أو (خالكونديلاس) ، الذى كان من مدينة أثينا ، على حين سكن بمنطقة البلوبونيز Peloponnese ، ويتألف كتابه «التاريخ التركى» من عشرة كتب، ويدور حول صعود الإمبراطورية العثمانية أكثر مما يتناول اضمحلال العالم البيزنطى. كما أن روايته لحصار القسطنطينية، التي وردت لديه فى الصفحات ٢٠١-٢١٤ ، من الكتاب الثامن، قد تعلقت بكافة ما جرى من أحداث ، خاصة الأحداث الظاهرية منها، كتلك المتعلقة بالنزاعات المذهبية ، وعمليات الخداع السياسى لدى البيزنطيين بالقسطنطينية (وهو الوحيد الذى ذكر فى إشارة خفية أنه كانت هناك اتصالات سريّة أنذاك بين القائد العسكرى البيزنطى الأعلى لوكاس نوتاراس وإيطاليا) .

وعبر لغته الرصينة، وأسلوبه الكلاسيكى فى الكتابة، فإننا نعرف منه الكثير من المعلومات التاريخية حول الإمبراطورية البيزنطية، وداشيا Dacia وبلاد اليونان ، وحول حضور الكاردينال الروسى من سارماتيا Sarmatia ، وعن كون النبى محمد هو «بطل» الأتراك فضلاً عن ذكره للمقاييس المستخدمة أنذاك مثل Harmostes و Prytanics و Stades من وقت لآخر .

وتقترب فحوى رواية خالكو كونديلاس أحيانًا من الواقع، فى غير مجازفة. وتمّت كتابتها عبر استخدام ستّة صيغ من النثر.

وفى هذه الترجمة التى جرت اعتماداً على النص المطبوع فى :

Migne, Patrologia Graeca 159, Cols 345 - 397 .

وتمّت مقابلتها بطبعة داركو Darko الجيدة فى بودابست Budapest ١٩٢٢م، تم تحاشى معظم التعبيرات اللغوية ، القديمة والمهجورة ، فى رواية خالكو كونديلاس ، وذلك لعدم أهميتها من الناحية التاريخية وعلى نحو مماثل، فإن استخدامه لكلمة "Tririeme" (السفينة ثلاثية المجاديف) . بدأ أنه غير دقيق كمصطلح بحرى. على الرغم من أن العديد من الكتاب المعاصرين لسقوط القسطنطينية (بما فيهم أصحاب الروايات الأخرى فى هذا الكتاب) قد استخدموا هذه الكلمة لوصف نوع محدد من السفن .

ومن ناحية أخرى ، فإن التاريخ البيزنطى ، للمؤرخ ميخائيل دوكاس ، الذى تعلق بأحداث ووقائع حصار القسطنطينية فى الفصول ٣٣-٤٢ ، يقترب فى لغته بشكل بعيد من الأعمال البيزنطية المعاصرة ، غير الأدبية.

على أنه لمن المبالغة القول بأن لغة دوكاس شعبية. وبسيطة ، سواء فى مفرداتها أو فى بنائها وتركيبها ، فاللغة ، حتى ذلك الوقت، كانت أكثر اقتراباً من أسلوب ثيوكيديديس، عنها من لغة الوثائق المعاصرة، وعلى سبيل المثال ، فإن الروايات البيزنطية حول معاهدات السلطان محمد الفاتح مع الجنوية والبنادقة . لاتظهر أى استخدام للصيغ اللغوية الكلاسيكية.

وعلى الرغم من أن طبيعة اللغة التى استخدمها دوكاس تبتعد بقدر كاف عن اللغة الشعبية، فقد شعر أنه ليس مضطراً للحديث عن أشياء عبر استخدام مسميات لها، بخلاف المسميات المعروفة لها فى زمانه ، وهكذا قام بتضمين لغته بعض الكلمات ذات الأصل الإيطالى ، والتركى، والسلافى. كما أن استخدامه يبين أنه لم تكن هناك محاولة لتخليد قواعد التركيبات اللغوية الكلاسيكية .

تعد رواية دوكاس واحدة من أطول الروايات، لكنها كنموذج للكتابة التاريخية، لاتعد من أكثرها أهمية، وذلك لأنه جرت كتابتها بعد الحصار العثمانى للقسطنطينية بعدة سنوات ، كما أن معظم الأحداث التى جرت سابقاً تم وصفها من قبل آخرين .

وبهذا الخصوص ، فإنه مما يجلب الانتباه ، قدرته على وصف الشخصية التاريخية، ووصف المشهد التاريخى بشكل درامى، وهو ما جعل الكتاب المتأخرون يعتمدون عليه ، ربما بشكل أكبر مما يدركون بأنفسهم .

أما الميزة الكبرى الأخرى لدوكاس ، فتكمن فى ذكره لبعض التفاصيل حول الصراع بين دعاة الاتحاد الكنسي، ودعاة الانشقاق الكنسى، وهى تفاصيل لانجدها لدى أى مؤرخ آخر.

لكن، وعلى الرغم من كل تلك النقاط الإيجابية ، فمن الصعب أن نغفر له إدماجه العديد من مراثى النبى إرميا Jermiah حول سقوط أورشليم فى كتابه دون تغيير ، فى تقليد للمؤرخ البيزنطى نيكيتاس خونياتس. وتمت الترجمة من طبعة جريكو Grecu ، بوخارست Bucharest ١٩٥٨م.

أما الرواية التى تتبع رواية دوكاس فى هذا الكتاب ، فهى غامضة بشكل ما وهى تظهر تحت اسم من يدعي كريستوفورو ريشيريو Christoforo Riccherio، فى عمل تمت طباعته فى البندقية عام ١٥٦٨م، وتم ذكره سابقًا فيما يتعلق بليونارد الخيوسى بواسطة سانسوفينو Sansovino فى كتابه «تاريخ العالم».

ليست هناك أية إشارة حول الأصل الذى كتبت به رواية ريشيريو ، التى ظهرت فى الصفحات ٣١٥-٣١٨ من الكتاب الثالث، ولاتوجد أية مخطوطة باقية لتلك الرواية .

على أية حال ، فلايوجد شئ فى هذه الرواية ، يوحى بأنه لم يحدث ، وهكذا فربما أمكننا اعتمادها كرواية مختصرة وسريعة لمعظم أحداث الحصار، بواسطة شخص كان موجوداً آنذاك ، ومانحًا بعض التفاصيل حول بعض الأحداث الهامة ، ولكن دون أية أهمية كبرى.

أمّا الرواية الإيطالية التى بقيت عن سقوط القسطنطينية ، فقد تمت روايتها بواسطة جورجي دولفين Zorzi Dolfin ، فتعد أدناها أهمية وأصالة ، ولهذا السبب فقد تم إيراد بعض المقتبسات منها فى هذا الكتاب. وظهرت هذه الرواية فى عمله المعروف باسم Cronaca . الذى يحتوى على تاريخ البندقية حتى العام ١٤٧٨م، والذى يشبه كتاب سانسوفينو حول تاريخ العالم، فقد احتوى على مقتبسات من بعض المصادر والوثائق الأصلية .

لقد تمت طباعة الأجزاء المتعلقة بحصار القسطنطينية ، مع بعض الفقرات المتعلقة بالأحداث التاريخية المعاصرة فى مدينتى روما والبندقية بواسطة G. M. Thomas , in , Sitzungsberichte der Königl. bayer . Akedemie der Wissenschaften 1868 , pp. 1-41 .

وهذا هو النص الذى تم استخدامه من أجل ترجمته فى هذا الكتاب.

على أنّ معظم أحداث رواية دولفين بمثابة نسخة آخرى، وأحيانا ما كانت لاتتصف بالدقة، لرسالة ليونارد الخيوسى ، ولهذا السبب فقد جرى إهمالها .

إن فقرة وحيدة ، وهى تلك التى تمت طباعتها فى نهاية تلك الرواية ، قد وردت فى التقرير الموجز لفيليب من ريمينى Philip of Rimini (المحفوظ فى مكتبة مارشيانا بالبندقية . القسم اللاتينى، ١٤ ، ٢٥٠) والتى أشار فيها دولفين إلي وصف السلطان محمد الفاتح بواسطة جياكومو لانجوتشى Giacomo Languschi، والتى ضمّنها فى كتابه.

ومن المؤكد أنه أغفل عن غير قصد أية إشارة ، أو التعبير بالشكر، لاوبرتينو بوسكولوسمن بريشيا Ubertino Puscules of Bresica، صاحب القصيدة المتعلقة بالقسطنطينية (الكتاب الرابع، السطور ١٤٨-١٩٦، ٢٠٥ - ٢٢٦) حيث أن الفقرات الثانية والثالثة لديه ، قد تم اقتباسها لتظهر عند دولفين.

لقد سببّت رواية دولفين بعض الارتباك والتشويش لدى الكتاب المحدثين الذين مالوا إلى القول بأن دولفين قد استخدم تقاريراً لشاهد عيان آخر. لكن الأمر ليس كذلك، فإن المصادر الوحيدة لروايته (بإضافة ما ورد لدى بوسكولوس) هى التى قام بذكرها .

كما إن المقطع الذى تسبب فى حدوث حالة من سوء الفهم، هو عرضه حول تفوق وتميز حيث تم اقتباسه بشكل مباشر من المقطع الثانى لرسالة ليونارد الخيوسى.

أما آخر الوثائق الواردة فى هذا الكتاب فهى رسالة قام بكتابتها البودستا (القنصل) الجنوى السابق لمستعمرة بيرا التجارية ، على الجانب المواجه لخليج القرن الذهبى ، قام الكاتب فيها بوصف سقوط القسطنطينية بشكل مختصر، ضمن رسالته إلى أخيه .

وتمت دعوة البودستا لوميللينو Lomellino للاستمرار فى ممارسة مهام منصبه بعد انتهاء مدته ، حيث وجد نفسه مسئولاً عن ضمان سلامة مواطنيه .

إن رسالته ، التى تمت كتابتها بلاتينية سيئة للغاية ، توحى بأنه شعر أن الأعمال التى قام بها الجنوبية تتطلب بعض الحماية .

وتمت ترجمة هذه الرسالة من النص الذى جرت طباعته فى :

Notices et Extrats des mss. de la Bibliotheque du Roi XI , 1827 , pp. 75-59 .

وكملحق إضافى لرسالة لوميللينو ، تمت ترجمته النص اليونانى لمعاهدة السلطان محمد الفاتح مع الجنوية، والتى عقدت بعد سقوط المدينتين (القسطنينية - بيرا) وتم هذا عبر الاعتماد على النص المحسّن للمخطوطة الموجودة فى المتحف البريطانى -Egerton Collec)

E. Dolleggio d'Alessio , " Le Texte والتى تمت طباعتها بواسطة tion, no. 2817) grec du Traité Conclu par les Génois de Galata avec Mehmet II le Iev Juin 1453 ", in Hellenika, XI, 1939, pp. 115-124 .

إن أحد أهم المصادر المتعلقة بسقوط القسطنطينية لم يرد فى هذا الكتاب ، وهى بالتحديد الأجزاء الموجودة فى الكتاب المعروف باسم Chronicon والخاص بالمؤرخ البيزنطى جورج فرانتزس George Phrantzes (وإن كان الصحيح هو سفرانتزس Sphrantzes) والتى تتعلق بأحداث تلك الفترة، حيث أن ترجمة ذلك العمل، مع التعليقات الإضافية عليه، لهو الآن فى طور الطباعة ، بواسطة الدكتور م.ج كارول M. G. Caroll وإننى لمدين لها بتفسير وتوضيح العديد من النقاط الصعبة والملتبسة التى ظهرت أثناء إعداد هذه الروايات للترجمة . وهكذا سوف تصبح أية ترجمة أخرى لفرانتزس فى هذا الكتاب، هى مسألة تتسم بالتزيّد .

إننى أمل ألا يكون هناك خطأ ما ، أو نوع من سوء الفهم عبر الصفحات التالية ، حيث أقوم بالترجمة عبر أكثر من لغة . وهكذا فقد كانت نيمسيس Nemesis * تقبع فى الانتظار دائمًا .

وهناك فائدة أخرى أيضًا ، فأحيانًا ، ومن أجل إيجاد نصوص جيدة للعمل عليها، فإن المؤرخين البيزنطيين بشكل عام قد استفادوا من استعمال الجزء البسيط من الخبرة التى تم تطبيقها ، مع بعض السلبيات ، بخصوص نصوص اسخيليوس Aeschylus أو شيشرون Cicero.

---

* انها نيميسيس Nemesis التى أوحت إلىّ بذلك ، فى ترجمة نيقولو باربارو التى تم ذكرها سابقًا ، من أجل افتراض أن "el galina" (الدجاجة) هو لقب بندقى للدعابة والتدليل ، الخاص بأنطونيو فلاماتى An- tonio Filamati . وكان فى الحقيقة اسم قائد السفينة القادمة من كريت، ياليناس Yalinas .

•يذكر البروفسور جونز – فى لغة أدبية بديعة– أن الإلهة نيمسيس (الهة الانتقام من الغرور الجامح والمتهور عند الاغريق) هى التى أوحت له بأن لقب الدجاجة The Hen, elgalina كان لقبًا خاصًا بالربان انطونيو فيلاماتى . لكنه كان فى الأصل يحقى الربان الكريت ياليناس قائد الشينية الثالثة حيث استطاعت الشينيات الثلاثة الفرار من القرن الذهبى ابان اقتحام العثمانيين للقسطنطينية فى يوم ٢٩ مايو ١٤٥٣م •عن ذلك انظر الترجمة العربية التى قمت بها ليوميات نيقولو باربارو، ص١٨٠ (المترجم).

وبسبب الحاجة إلى ترجمات باللغة الإنجليزية للوثائق ، كما هو حادث الآن، وخاصة تلك التى احتفظت بقيمتها عبر لغات أخرى، وبخاصة اللغات القديمة فإنه لمن الرائع أن نفعل كل ما في وسعنا من جهد تجاه المادة العلمية الموجودة أينما وجدت . والحقيقة فإن الذى لايعمل لايخطئ: Chi non fa, non Sbaglia .

ولقد أضفت بعض الإضافات المناسبة على النص ، عبر اقتراح بعض الهوامش.

ولم يكن متاحًا لهذا العمل أن يتم دون المساعدة المقدمة من المكتبة الأهلية بباريس Bibliotheque Notional, Paris ، ومكتبة مارشيانا بالبندقية Biblioteca Merciana, Venice ، ومكتبة الفاتيكان وتسهيلات الاستعارة التى قدمتها مكتبة رايد Reid بجامعة غرب استراليا .

ويجب على التعبير عن الشكر والعرفان بالجميل إلى مؤسسة نوفيلد Nuffield للدعم والمساندة خلال الفترة التى بدأ خلالها هذا العمل، وكذلك إلى مؤسسة مير Myer للدعم الذى قدمته لى لزيارة المكتبات العالمية ، عندما كانت عملية المراجعة النهائية فى طور التنفيذ .

ج . ر . جونز

دالكيث ، غرب استراليا

يولية ١٩٧٢م

مدخل
دراسة تاريخية للنصوص

مدينة القسطنطينية وتطورها - الشقاق الدينى بين كنيستى القسطنطينية وروما وأثره على سقوط القسطنطينية ١٤٥٣م- المسلمون العرب والقسطنطينية- الأتراك العثمانيون والامبراطورية البيزنطية- دراسة نقدية للروايات السبع ومقارنتها بالروايات العثمانية .

أمر الإمبراطور الرومانى قسطنطين العظيم Constantine The Great (٣٠٥-٣٣٧م) بتشييد مدينة القسطنطينية فى العام ٣٢٤ للميلاد، فى موضع مدينة يونانية صغيرة كانت تدعى بيزنطة Byzantion . وأقيمت الاحتفالات عند الانتهاء من بنائها فى الحادى عشر من شهر مايو عام ٣٣٠م لتصبح بعدها عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية (١).

وكانت سياسة تشييد المدن الجديدة . ومن ثم اتخاذها عاصمة للإمبراطورية الرومانية موجودة من قبل فى التراث السياسى الرومانى ، إذ قام الإمبراطور دقلديانوس Diocletian (٢٨٤-٣٠٥م) بتأسيس مدينة جديدة بالقرب من نيقوميديا Nikomedia لتصبح عاصمة جديدة له (٢).

فكرّ الإمبراطور قسطنطين فى تغيير عاصمة دقلديانوس، إذ كان مقتنعًا بالأهمية الاستراتيجية لبيزنطة ، فضلاً عن أهميتها الاقتصادية والعسكرية، فقد كانت تمثل مدخلاً للبحر الأسود، وتقع عند نقطة تلاقى طريقين عسكريين كبيرين، الأول هو الطريق الأوربى المعروف بطريق إجناسيا Via Egnasia، والثانى هو الطريق القادم من خلقدونية Chal-kedonia إلى نيقوميديا ، إلى مناطق أخرى باتجاه الشرق (٣).

١- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، ج١ ، التاريخ السياسى، القاهرة، ١٩٦١م، ص٢٠: موس ، هـ. ب ، ميلاد العصور الوسطى ٣٩٥ - ٨١٤ ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، السيد الباز العرينى ، القاهرة ، ١٩٦٧م، ص٢٨ .

٢- سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص١٤ .

٣- انظر: O.D.B, vol , I, p. 508 .

وعلى الرغم من هذا ، فقد احتفظ الموقع الجغرافى لمدينة بيزنطة بينور ضعفه الواضح، لكون أسوارها البرية غير محمية بحواجز طبيعية ، كبعض المدن الأخرى .

تم تشييد مدينة القسطنطينية ، لتزيد مساحتها عن موقع بيزنطة القديمة، وتم بناء المركز الجديد للسلطة الإمبراطورية، المكوّن من القصر الإمبراطورى. وميدان السباق Hippodrome فى مكان بيزنطة القديم [١]، حيث تم شق شارع محاط بالأعمدة على جانبيه بواسطة الإمبراطور سبتميوس سيفروس Septimius Severus وامتد هذا الشارع إلى بوابة المدينة القديمة .

بالإضافة إلى ذلك أمر الإمبراطور قسطنطين بإقامة ميدان دائرى الشكل، خارج البوابة، ليلتقى بالشارع الرئيسى بالقسطنطينية الذى عرف فيما بعد باسم الميز Mese[٢] فى خط مستقيم باتجاه الغرب، وامتد الشارع الجديد لمسافة أكثر من كيلو متر غربى ذلك الميدان، ليتفرع بعدها، فيتجه فرع منه باتجاه الجنوب الغربى نحو البوابة الذهبية، بينما يتجه فرع آخر إلى الشمال الغربى ليلتقي مع الأسوار الجديدة للقسطنطينية التى رسمت قوساً من بحر مرمرة Propontis إلى خليج القرن الذهبى، ومن الميدان الحديث المسمى ساماتيا[٣] Samatya (Psaathia) إلى المنطقة المسماة Cibali .

لم يتم إقامة أية استحكامات دفاعية باتجاه البحر، عند تشييد مدينة القسطنطينية، لأنها لم تتعرض لأية تهديدات أو غزوات بحرية فى تلك الآونة.

١- بنى ميدان السباق Hippodrome فى عهد سبتميوس سيفروس ، فى عام ١٩٦م ثم أكمل الأمبراطور قسطنطين بناءه ، وكان محور الحياة البيزنطية، ففيه تجرى المسابقات والاحتفالات واستعراض الأسرى، وكان يتسع لستين ألف مشاهد، وتوجد به المقصورة الإمبراطورية الكبرى. وحفل الهيبدروم بالعديد من المسلات والتماثيل الشهيرة التى تم نقلها من مصر وروما وبلاد اليونان عن ذلك انظر : موس ، المرجع السابق، ص١٤٦-١٤٧ . O. D. B. vol . 2. pp. 934-935

٢- شارع الميز Mese هو الشارع الرئيسى الذى يمتد وسط القسطنطينية . ويتركز به المحلات التجارية بالقسطنطينية، عن ذلك انظر:

Stöckle, A. Spärömische und Byzantiniche Zünfte. Untersuchungen Zum Sogenanten Eparchikon Biblion Leos des Weisen. Wiesbaden, 1963, pp. 71-72 ; O.D.B. vol . 2. pp. 1346 - 1347 .

3- Van Millingen. A. Byzantine Constantinople , The Walls of the City and Adjoining Historical Sites. London , 1899, pp. 2-3 .

كان الامبراطور قسطنطين العظيم بعيد النظر لدى بنائه مدينة القسطنطينية ، إذ وضع ضمن حساباته الزيادة السكانية المطّردة التى لابد ستلحق بالعاصمة الرومانية الجديدة، وهكذا فقد اتخذ العديد من الترتيبات الخاصة بتزويد السكان بالمؤن والإمدادات. وتوفير الحبوب والغلال التى كانت تصل من مصر إلى القسطنطينية [١]، التى بلغت ٨٠ ألف حصة تموينية .

تزايدت أعداد سكان القسطنطينية فى القرن الرابع والخامس الميلاديين. وتسببت تلك الزيادة السكانية بشكل تدريجي فى زيادة أعداد واتساع مساحة مخازن الغلال فى ميناء القسطنطينية، وكذلك زيادة مطردة فى إمدادات المياه .

ومن الصعب تحديد أو تخمين أقصى عدد وصل إليه سكان مدينة القسطنطينية، حيث تتراوح الآراء حول بلوغهم رقمًا ما بين ربع المليون إلى المليون نسمة .

وهكذا أصبحت القسطنطينية مركزًا استهلاكيًا كبيرًا، ولابد أن السبب فى ذلك يرجع إلى نظام الإمدادات من الحبوب ، الذى اعتمد على مصر بشكل رئيسى، فضلاً عن إمداد السكان الدائم بالخبز والزيوت ، وكذلك توفير سبل الراحة كما هو متوقع فى أكبر المدن البيزنطية، كوجود الحمامات العامة[٢]، ووسائل الترفيه والتسلية ، كالمسارح والسيرك ، الأمر الذى ساعد على جذب العديد من السكان للاقامة الدائمة فى القسطنطينية.

وعلى الرغم من اعتراف الامبراطور قسطنطين بالمسيحية كدين رسمى، فقد احتفظت مدينة القسطنطينية المبكرة بالعديد من التماثيل الوثنية خاصة فى الأكروبول Acropolis، مما ساعدها على الاحتفاظ بشخصيتها الوثنية .

قام الإمبراطور قسطنطين ببناء ثلاث كنائس فى المدينة، كنيسة القديسة إيرين St. Irene التى تم استخدامها ككتدرائية ، وكنيسة القديس أكاكيوس St. Akakios بالقرب من البوابة الذهبية، وكنيسة القديس موكيوس St. Mokios فى منطقة المدافن خارج أسوار القسطنطينية[٣].

١- عن ذلك انظر: رأفت عبد الحميد ، «مصر والعرش البيزنطى» ، بحث منشور فى كتاب مصر وعالم البحر المتوسط ، إعداد وتقديم رؤوف عباس، القاهرة ١٩٨٦م، ص٧٧-٧٨ .

٢- موس ، المرجع السابق، ص١٦٥ .

٣- انظر : . O. D. B. vol , I. p. 509

بعد ذلك قام الإمبراطور قسطنطيوس الثاني Constantius II (٣٣٧-٣٦١م) ببناء كنيسة الرسل المقدسة Holy Apostles [١] إلى جوار ضريح الامبراطور قسطنطين العظيم.

أظهر نجاح القوط الشرقيون فى هزيمة الإمبراطور الرومانى فالنز Valens (٣٦٤-٣٧٨م) عند مدينة أدرنة Adrianople عام ٣٧٨م[٢] الحاجة إلى إيجاد دفاعات ضرورية وقوية لمدينة القسطنطينية، وهكذا تم إقامة أسوار بريّة للمدينة فى العام ٤١٣م. وامتدت تلك الأسوار مسافة كيلو متر ونصف باتجاه الغرب، بعد أن تمت إضافة مساحات جديدة للمدينة.

بعد ذلك بوقت قصير تم إقامة سور دفاعي امتد من سليمبريا Slymbria إلى البحر الأسود، على مسافة ٦٥ كيلو مترًا من القسطنطينية. وعرف هذا السور بسور أناستاسيوس Anastasios، أو السور الطويل، حيث امتد بطول خمسة وأربعين كيلو مترًا.

وعلى أية حال، فقد كان هذا السور مفيدًا لبعض الوقت، حتى جرى إهماله فى القرن السابع الميلادى، بسبب صعوبة المحافظة عليه فى حالة جيدة، وإعادة ترميمه.

وكان بمدينة القسطنطينية ثلاثة آبار كبرى للمياه، مفتوحة للسكان بشكل دائم، وذلك فى الأماكن المعروفة باسم ايتيوس Aetios ٤٢١م، وأسبار Aspar ٤٥٩م، والقديس موكيوس St. Mokios ٤٥٩م[٣].

١- انظر O.D.B, vol. I, p. 509، ويبدو أن الإمبراطور قسطنطين هو الذى شرع فى بنائها أولاً انظر: يوسابيوس القيصرى، حياة قسطنطين العظيم، ترجمة القمص مرقس داود القاهرة، ١٩٧٥م، ص١٥٤. الذى يذكر أن قسطنطين أمر ببنائها، واتخذها مقرًا لدفنه، إذ أراد أن يشارك جسده شرف الرسل».

انظر أيضًا: ابن خرداذبة (أبو القاسم عبدالله)، المسالك والممالك، ليدن، ١٨٨٩م، ص١١٥، حيث يشير أنه توجد كنيسة داخل القسطنطينية «بنيت على اسم بطرس وبولس والحواريين».

وتحدث مؤرخ الحملة الصليبية الرابعة التى استولت على القسطنطينية عام ١٢٠٤م، عن كنيسة الرسل، وفخامتها، وما بها من ثروات، وذكر أن بها سبع جثث للرسل، وأن بها قبر الإمبراطور قسطنطين وأمه هيلينا، وبعض الأباطرة البيزنطيين، انظر: روبرت كلارى فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، ترجمة وتقديم حسن حبشى، القاهرة، ١٩٦٤م، ص١٢٩.

وعلى أية حال استمرت كنيسة الرسل المقدسة حتى الفتح العثمانى للقسطنطينية ١٤٥٣م، حيث قام السلطان محمد الفاتح ببناء المسجد المعروف باسمه، فوق مكانها.

٢- سعيد عاشور، المرجع السابق، ص٦٦.

٣- O.D.B, vol. I, p. 510.

وبذل الأباطرة البيزنطيون جهوداً قوية ومستمرة من أجل رفاهية القسطنطينية، وتوفير سبل الراحة لسكانها ، عبر إقامة العديد من المؤسسات والمباني العامة ، مثل مخازن الغلال، وإنشاء الموانئ مثل ميناء ثيودوسيوس Theodosius على بحر مرمرة .

كما امتلك العديد من سكان العائلات الأرستقراطية ، وموظفى الحكومة فى القسطنطينية العديد من الإقطاعات والممتلكات ، وأقاموا بها العديد من المبانى من أجل راحتهم .

ويدلنا التقرير الإحصائى الوحيد للقسطنطينية فى القرن الخامس الميلادى، وهو المعروف باسم Nottita Urbi Constantinoplutania على قائمة بأربع عشرة منطقة حضرية ، والمبانى الكبيرة والخاصة. وتقع اثنى عشرة منطقة منها، داخل أسوار القسطنطينية ، بينما تقع المنطقة الثالثة عشرة فى منقطة عرفت باسم Sykai ، وهى التى عرفت فيما بعد باسمها الشهير ، غلطه Galata على حين ظلت المنطقة الرابعة عشرة والأخيرة مجهولة فى مكان ما بجوار خليج القرن الذهبى.

كما ذكر التقرير وجود خمسة قصور بالقسطنطينية، وأربع عشرة كنيسة، وثمانى حمامات عامة ، و١٥٣ حماماً عاماً، وأربع ميادين كبرى، وأربعة موانئ ، و٥٢ شارعاً محاطاً بالأعمدة و٣٢٢ شارعاً أخر، فضلاً عن ٤٣٨٨ منزلاً [١].

وبمقتضى التشريعات التى تم وضعها ، كان بالقسطنطينية منازل عديدة لأصحاب المكانة الاجتماعية المنخفضة ، وكذلك للفقراء، وكان ارتفاع تلك المنازل يجب ألا يتعدى مائة باردة. كما وضعت ترتيبات معينة من أجل رؤية البحر، وجرى تحديد المسافة الواجبة بين كل منزل وآخر ، وكذلك العرض الذى يجب أن تكون عليه شوارع القسطنطينية ، وهكذا ...

وفى النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى، وإبان الصراع الداخلى الذى لحق بالمدينة نشب بالقسطنطينية العديد من الحرائق وأعمال العنف، كان أبرز نتائجها تدمير نصف مدينة القسطنطينية تقريباً .

وبعد ذلك حدث ما اصطلح على تسميته حركة التمرد والاحتجاج بالسيرك، التى عرفت تاريخياً باسم ثورة نيقا Nika فى العام ٥٣٢م ، تلك الحركة أو الثورة التى تركت وسط المدينة رماداً نتيجة ما قامت باضرامه من حرائق[٢].

١- انظر : O.D.B, vol. I, p. 510 .

٢- عن ثورة نيقا عام ٥٣٢م. انظر ما يلى : =

ويعد هذا من أهم الأسباب التى دفعت الإمبراطور جستنيان Justinian (٥٢٧-٥٦٥م) إلى الاتجاه نحو تشييد العديد من المبانى الجديدة. وإعادة إعمار المبانى والمنشآت التى لحقت بها نيران الحرائق، كما اهتم جستنيان بإنشاء وإعادة إعمار الكنائس، فقام ببناء كنيسة أيا صوفيا Hagia Sophia (١) وكنيسة القديسة إيرين St. Irene (٢)، وكنيسة القديسين سرجيوس وباخوس St. Sergius and Bakchos ، كما أقام كنيسة كبرى ، تتصف باتساع مساحتها ، هى كنيسة القديس بوليكتوس St. Polyeaktos .

وخلال القرن السادس لميلادى، تناقص عدد سكان مدينة القسطنطينية على نحو خطير، وربما كان ذلك بسبب وباء الطاعون الذى اجتاح المدينة فى العام ٥٤٢م.

واستمرت عملية تشييد المبانى فى القسطنطينية تمضى بنشاط حتى بداية القرن السابع الميلادي، إلى أن أصابها التوقف كما توقفت فى العام ٦١٨م عملية إمداد القسطنطينية بالقمح والغلال المصرية.

وعانت القسطنطينية فى أعقاب ذلك من أول حصار عبر تاريخها ، فى العام ٦٢٦م من الآفار والفرس كما تعرضت لقطع معظم إمداداتها من المياه العذبة ، فضلاً عن تخريب وتدمير الأحياء الأوربية والآسيوية المجاورة للقسطنطينية .

Procopius of Caesarea, Secret, History . Trans. by A ttwater. R, Michigan, 1961, pp. = 35-38 ; Barker, J. W, Justinian and The Later Roman Empire, Wisconsin, 1966, 166, pp. 82-91 .

وانظر كذلك : رأفت عبد الحميد محمد، «الثورة الشعبية فى القسطنطينية ٥٣٢م»، بحث فى كتابه: بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، القاهرة، ١٩٩٧، ص١٩٩-٢٤٩ .

١- الحقيقة أن بداية بناء كنيسة أيا صوفيا إنما يرجع إلى الإمبراطور قسطنطين العظيم ، وربما قام خلفه الإمبراطور قسطنطينوس (٣٣٧-٣٦١م) باعادة بنائها . لكن يتبقى أن جستنيان قام باعادة بنائها مرة أخرى وتعميرها الذى استغرق خمس سنوات حتى العام ٥٣٧م . عن بناء جستنيان لأيا صوفيا انظر:

Procopius of Caesaria, Buildings. Trans. by . H. B . Deaving & G. Downey , London , 1940, Barker, Op. cit, pp. 177-184 .

ستيفن رنسمان، الحضارة البيزنطية . ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٣١٨ .

٢- قام الإمبراطور جستنيان ببناء هذه الكنيسة فى القرن السادس الميلادى، وكانت تقع إلى الشمال الشرقى لكنيسة أيا صوفيا ، أنظر:

Barker, Op. cit, p. 182 .

وقبل أن ينتهى القرن السابع الميلادى، كان الأسطول البحرى الإسلامى يقوم بحصار القسطنطينية ٦٧٤-٦٧٨م. وفى مستهل القرن الثامن الميلادى ، وبالتحديد فى العام ٧١٥م تعرضت القسطنطينية تحت قيادة الإمبراطور أنستاسيوس الثانى Anastasios (٧١٣-٧١٥م) إلى هجوم إسلامى جديد أسفر عن طرد جميع السكان الذين لم يتمكنوا من توفير إمداداتهم اليومية لفترة ثلاث سنوات . ولم يستطع البقاء فى القسطنطينية إبان فترة الحصار الإسلامى ٧١٧-٧١٨م[١]، سوى عدد قليل للغاية من السكان .

وحدث زلزال مروع بالقسطنطينية ، قام بإسقاط الجزء الأكبر من أسوار المدينة [٢]. وتبعه بعدة سنوات وباء الطاعون ٧٤٧م، الذى ألحق خسائر بشرية كبرى بسكان القسطنطينية .

ونتيجة لما تعرضت له القسطنطينية وأسوارها من أعمال الحصار ، ونتيجة لذلك الزلزال وما ترتب عليه من آثار ، فقد تمت زيارة إنشاء المبانى والمنشآت ذات الأغراض الدفاعية بالقسطنطينية فى الفترة من ٦٠٠-٧٨٠م.

وبنهاية الفترة الأيقونية (٧١٧-٧٩٧م) بلغ سكان القسطنطينية عشرات الآلاف ، يعيشون تحت ظلال آثار المجد الغابر للمدينة وكان بها مخزن وحيد للغلال ، وميناء واحد (من أربعة موانئ سابقة) هو الذى استمر فى أداء وظيفته التجارية ، بعيداً عن الأغراض العسكرية، واختفى ذلك العدد الكبير من الحمامات العامة ومن المسارح.

وقامت الإمبراطورة ايرين Irene (٧٩٧-٨٠٢م) بتشييد بعض المبانى القليلة بالقسطنطينية، وبعد ذلك قام الإمبراطور ثيوفيل Theophilus (٨٢٩-٨٤٢م) بإعادة ترميم الأسوار البحرية للقسطنطينية .

ثم قام الإمبراطور باسل الأول Basil I (٨٦٧-٨٨٦م) بجهود حقيقية لإعادة بناء الكنائس التى أصابها الدمار، وكان عددها حوالى الواحد والثلاثين.

١- عن الحملة العسكرية الإسلامية لفتح القسطنطينية ونتائجها ، انظر ما يلى، ص٥١-٥٢ .

٢- تعرضت مدينة القسطنطينية طوال تاريخها للعديد من الزلازل فى الأعوام: ٣٦٥م ، ٤٣٨م، ٤٤٧م، ٥٢٥م، ٥٥٧م ، ٧٤٠م ، ٨٨٦م ، ٩٦٩م ، ٩٨٩م ، ١٠٦٤م ، ١٢٩٦م ، ١٣٤٦م . عن ذلك انظر:
O.D.B, vol , I, pp. 669-670 .

وبدأت بعد ذلك محاولات تهدف إلى محاكاة البذخ والكرم الإمبراطورى الممثل فى الإمبراطور جستنيان ، حيث قام الأباطرة بعد ذلك بإعادة إعمار وتشييد القصور الإمبراطورية والكنائس ، والنزل والأماكن المخصصة للفقراء والمرضى.

ومما لاشك فيه أن القسطنطينية قد شهدت فى القرن التاسع الميلادى زيادة تدريجية فى النمو السكاني ، نتيجة تنامى وتزايد الأنشطة التجارية بها .

وهكذا فإن «كتاب الوالي "The Book of the Eparch" (١) قد تحدث باستفاضة عن أهمية السلع والبضائع الموجودة فى الأقاليم البيزنطية ، أو التى جرى استيرادها من الأراضى الأجنبية ، كالحرير والكتان، والعسل، الشمع ، الصابون وغيرها .

كما ازدهرت صناعة المنسوجات بالقسطنطينية، ومع ذلك فلم يتم الاهتمام بعملية تصديرها، كما تم رفع إيجار المحلات والدكاكين الموجودة على جانبي الشارع الرئيسي.

كذلك فإن السماح لأمراء كييف Kiev الروس بممارسة التجارة فى البحر الأسود قد ساعد على انتعاش التجارة فى القسطنطينية(٢).

١- قام الإمبراطور البيزنطي ليو السادس Leo IV (٨٨٦-٩١٢م) بتصنيف كتاب والي المدينة Eparchikon Biblion خلال الأعوام ٩١١-٩١٢م، مستنداً إلى الأعراف والقوانين السابقة، ولهذا الكتاب عدة ترجمات فرنسية وإنجليزية، انظر:

Nicole, le Livre du Prifit ou l'edit de L'Empereur Leon le sage , sur les Corporations des Constantinople, Genevensis, 1894 ; Boak, A.E.R , "The Book of the Prefect ", in J.E.H.B.I, 1929; Frieshfield, E, Roman Law in The Later Roman Empire, Cambridge, 1938.

واعتمدت على الترجمة العربية للكتاب: ليو السادس ، كتاب والي المدينة، ترجمة وتعليق السيد الباز العريني ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد التاسع عشر ، الجزء الأول، مايو ١٩٥٧م، ص١٣٥-١٨٧ .

٢- انظر : كتاب الوالي، الفصل التاسع : ٢١، ص١٦٢ : قسطنطين السابع بورفير وجنتيوس، ادارة الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة وتعليق محمود سعيد عمران ، بيروت ، ١٩٨٠، ص٦٤ .

Geanakopolis , D. J, Byzantium, Church, Society and Civilization Seen Through Contem-Porary Eyes, London , 1984 , p. 284 .

واستقر التجار الروس فى حى خاص بهم: بالقسطنطينية بمقتضى معاهدة ٩١٢م. وكان اسمه حى القديس ماماس St. Mamas ويمكنهم المكوث به لمدة ستة أشهر لممارسة تجارتهم . انظر:

Lopez, R, " Foriengers in Byzantium ", in , B.I.H.B.R, XLIV, Rome, 1974 , p. 348 ; Pirenne, H, Economic and Social History of Europe, London , 1978, p. 24 .

كما انتشرت المصانع فى القسطنطينية فى القرن العاشر الميلادى، وكانت تتألف من نوعين، المصانع الخاصة بالإمبراطور Basilik Ergodsia، والمصانع التى تعود لكبار الأثرياء البيزنطيين، والتى يمكن أن نطلق عليها مصانع القطاع الخاص Erasteria، والتى لاقت طلباً فى أسواق القسطنطينية(١).

ومن الجدير بالذكر أنه على كثرة المصانع الإمبراطورية ، فإنها عجزت أحياناً عن توفير احتياجات الدولة والجيش من السهام، وأشرعة السفن الحربية وغيرها(٢) .

كما أنتجت المصانع الإمبراطورية فى القسطنطينية العديد من الملابس الحريرية الأرجوانية، والتى كثيراً ما كانت موشاة بالخيوط الذهبية. كما امتلأت حوانيت القسطنطينية وأسواقها بجميع سلع الشرق والغرب، كل سلعة فى مكان واحد للتسهيل على المشترين كما انتشرت المصارف على امتداد الشوارع الرئيسية من أجل تغيير العملة للتجار الأجانب .

وشهد القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلادين مزيداً من التوسع التجارى فى القسطنطينية . وأصبحت المهن الحرفية أكثر فائدة ، ولعب التجار البيزنطيون دوراً هاماً فى الأمور السياسية ، وتطورت مهن وحرف جديدة ، كصناعة الأبواب البرونزية التى جرى تصديرها إلى إيطاليا(٣).

على أن التطور النوعى الأكبر فى القسطنطينية ، تمثل فى إقامة الأحياء التجارية الأجنبية، فعلى حين أقام التجار الروس منذ القرن العاشر الميلادى فى حى القديس ماماس St. Mamas فى نهاية البوسفور ، فإن التجار الإيطاليين من مدن أمالفى، البندقية، بيزا، جنوا، أنكونا(٤)، وكذلك التجار الألمان قد حصلوا على ممتلكات بطول خليج القرن الذهبى، فى مواجهة غلطة Galata ، وحصلوا على تسهيلات وامتيازات ضخمة فى تجارتهم وفى أحيائهم التى كان بها المنازل ، والمخازن المخصصة للسلع والبضائع ، فضلاً عن كنائس خاصة بهم.

١- انظر: وسام عبد العزيز فرج ، الدولة والتجارة فى العصر البيزنطى الأوسط (من نهاية القرن السابع حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى) ، الحولية التاسعة، الرسالة الثانية والخمسين، كلية الآداب ، جامعة الكويت، ١٩٨٨م، ص٢٣ .

٢- نفسه .

٣- انظر . D. D.B, vol . I , p. 511

٤- عن ذلك انظر: حاتم الطحاوى، بيزنطة والمدن الإيطالية (العلاقات التجارية ١٠٨١-١٢٠٤م) القاهرة ١٩٩٨م) .

وبلغ عدد السكان اللاتين فى القسطنطينية في نهاية حكم الإمبراطور مانويل كومنينوس Manuel Comnenus (١١٤٣-١١٨٠م) حوالى الستين ألفًا [١]، ويدل هذا على مدى الأثر الذى أحدثته الامتيازات التجارية للتجار الإيطاليين، والازدهار التجارى للعاصمة البيزنطية فى القرن الثانى عشر الميلادى.

لقد نالت النيران التى تم إضرامها بمبانى القسطنطينية إبان اقتحام الحملة الصليبية الرابعة لها ١٢٠٣م [٢]. والاحتلال اللاتينى للمدينة ١٢٠٤-١٢٦١م. من ازدهار ومكانة القسطنطينية التى خضعت لعملية سلب منظم من قبل الصليبيين اللاتين .

بعد أن تم استعادة القسطنطينية من قبضة اللاتين بفضل الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوغس Michael VIII Palaelogus (١٢٥٨-١٢٨٢م)[٣]، فإن أباطرة أسرة باليولوغس لم يهتموا سوى بتشييد بعض المبانى ذات الصبغة الدينية، كالأديرة والكنائس.

١- انظر: Eustathios of Thessaloniki, The Capture of Thessaloniki . Trans. by John R. Melville Jones, Canberra, 1988, p. 35 .

وتقلصت أعداد التجار الغربيين والسكان اللاتين، فى القسطنطينية نتيجة مضايقات السلطات والسكان البيزنطيين، فوصل عددهم فى العام ١٢٠٤م إلى ثلاثين ألف .

انظر : ابن العبرى (غريغوريوس أبو الفرج)تاريخ الزمان، ترجمة الأب اسحق أرملة ، بيروت ، ١٩٩١م، ص٢٤١ . الذى يدعوهم «بالتجار الفرنج» : حاتم الطحاوى، المرجع السابق، ص١٠٥-١٠٦ .

انظر أيضًا : عبد العزيز محمد عبد العزيز، العلاقات البيزنطية- اللاتينية فى عهد الإمبراطور مانويل الأول كومنينوس (١١٤٣-١١٨٠م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة عين شمس ، ٢٠٠٠، ص١٠٥ . وإن كان الباحث يعترض على افتراض وجود هذا العدد الكبير من اللاتين فى القسطنطينية آنذاك.

٢- عن الحرائق التى أصابت القسطنطينية جراء هجوم الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٣-١٢٠٤م انظر روبرت كلارى، ص٨٥؛ فلهاردوان، فتح القسطنطينية ، ترجمة حسن حبشى، جدة، ١٤٠٣هـ، ص١٠٣ ، Madden , T.F, "The Fires of the Fourth Grusade in Constantinople 1203 - 1204 , A Damage Assessment" , in BZ, vol , 84-85, 1991 - 1992, pp. 76 , 90-92 .

٣- عن ذلك انظر: اسحق عبيد، الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغس (١٢٦١-١٢٨٢م) ، بيروت ، د.ت ، ص٤٠ ، ٤١ .

وبدأت مدينة القسطنطينية رحلة انحدارها منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، حيث ضرب ضعف والهوان أطنابه بها، وترك لنا الرحالة الأوربيون الذين مرّوا بالمدينة أمثال بيرو طافور Pero Tafu ، وكلافيجو Clavigo ، وبرتراندن دي لا بروكيه Bertranden De le Bro-quer وبوند لمونتي Buondelmonti وصفًا للقسطنطينية بوصفها مدينة مهجورة بشكل جزئى ، مقارنة بمدينة بيرا Pera الصغيرة (غلطه Galata) المواجهة للقسطنطينية والتابعة تجار الجنوية.

وعندما تمكن الأتراك العثمانيون من اجتياح القسطنطينية فى العام ١٤٥٣م، كان عدد سكان المدينة قد تراجع بشكل كبير ليصل إلى خمسين ألف نسمة تقريبًا.

(٢)

نظرًا للطابع الهيلينى الذى غلّف العقلية البيزنطية، وارثة الحضارة والفلسفة اليونانية، فقد نزع الفكر البيزنطى إلى إعمال العقل فى كافة مناحى الأمور العقيدية ، وهو الأمر الذى فضى إلى أن يصبح المجتمع الرومانى الشرقى، الذى اعتنق بعضه المسيحية سرًا ، ثم عتنقها غالبيته جهرًا بعد مرسوم ميلان عام ٣١٣م[١]، واعتراف الإمبراطور قسطنطين العظيم المسيحية كدين رسمى فى الإمبراطورية الرومانية عام ٣١٦م مجتمعًا عقائديًا بطبيعة تكوينه. وانعكست العقيدة على كافة المجالات المتعلقة بحياة السكان البيزنطيين [٢].

واستمرارًا لسياسة اعتزاز البيزنطيين بعقيدتهم ، وأفكارهم وراؤهم التى تنبثق منها، ودور كنيستهم فى المجتمع البيزنطى، فقد تبوأ بطريرك كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية ، ومكانها كنيسة أيا صوفيا ، مكانة عليا لاتقل هيبة واحترامًا عن مكانة الإمبراطور البيزنطى. الأمر الذى جعله يشعر باستقلالية وأهمية كبرى تجاه رعاياه . كما أن بطريركية القسطنطينية قد رفضت – وباستمرار – الانضواء تحت لواء كنيسة روما الكاثوليكية فى الغرب.

١– انظر : سعيد عاشور ، المرجع السابق، ص٢٧ ، ٣١ .

٢– الدلالة على ذلك يذكر القديس جريجورى أسقف نيسا Nyssa (٣٤٠–٤٠٠م) أن جميع سكان القسطنطينية ، حتى العمال والعبيد انشغلوا باللاهوت بشكل غير طبيعى «فإذا قصدت صرافًا لتغيير نقودك حدثك عن الخلاف بين الأب والابن. وإذا سألت صاحب مخبز عن سعر الرغيف ، رد عليك بأن الأب لابد أن يكون أعظم من الابن، وإذا طلبت من الحمامى فى القسطنطينية أن يعد لك الحمام، أجابك أن الابن وجد من لاشئ». انظر: سعيد عاشور ، المرجع السابق، ص٣٥ : عادل زيتون ، العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطى والغرب اللاتينى فى العصور الوسطى، دمشق ١٩٨٠م، ص٣٢٥ هامش (٣٠) .

تعززت مكانة بطريرك كنيسة القسطنطينية نتيجة الامتيازات التى أسبغها عليه مجمع القسطنطينية المسكونى Oecumenical عام ٣٨١م(١)، الذى كان من ضمن قراراته الاعتراف بأن بطريرك القسطنطينية يجب أن يلى فى المكانة بابا كنيسة روما مباشرة ، باعتبار مدينة القسطنطينية هى «روما الجديدة».

وتواصلت رحلة صعود البطريرك البيزنطى، إذ تمكن فى مجمع خلقدونية Chalkedonia عام ٤٥١م، وعبر القرار الثاني والعشرين، من اتخاذ لقب «مسكونى»(٢).

ونتج عن نجاح الفتوحات الإسلامية فى القرن السابع الميلادى فى ضم أراضى الشام حيث كنيستى أنطاكية والقدس، وفتح مصر حيث كنيسة الإسكندرية، أن أصبح بطريرك كنيسة القسطنطينية هو الممثل الوحيد للكنيسة الأرثوذكسية الإمبراطورية، وهكذا أصبح بمثابة البابا الفعلى فى المشرق.

راقبت كنيسة روما النفوذ المتزايد لكنيسة القسطنطينية بحذر وقلق بالغين، خاصة بعد صدور قرارات مجمع خلقدونية التى منحت البطريرك البيزنطى نفس امتيازات البابا فى كنيسة روما .

١- انظر نص قرارات مجمع القسطنطينية ٣٨١م لدى :

Schroeder, O. P., Disciplinary Decrees of The General Councils. Text, Translation and Commentary London, 1937, pp. 59-68.

وخاصة القرار الثالث من قرارات المجمع الذى ينص على أن بطريرك كنيسة القسطنطينية يجب أن يحظى بالشرف والمكانة بعد بابا روما ، لأنه يمثل مدينة «روما الجديدة» وحسب ما ورد فى الترجمة الإنجليزية :

"The bishop of Constantinople Shall have The Primary honor after The bishop of Rome, because The same in New Rome". p. 65.

٢- انظر نص قرارات مجمع خلقدونية ٤٥١م لدى :

Schroeder, Op. cit, pp. 78-127.

وانظر القرار الثامن والعشرين والأخير pp. 125-127 الذى يذكر تساوى بطريرك كنيسة القسطنطينية فى الشرق والمكانة مع بابا روما.

"The bishop of New Rome Shall enjoy The Some honor as the bishop of old Rome" p. 65.

وعلى الرغم من المعارضة التى أبداها البابا ليو الأول Leo I (٤٤٠-٤٦١م) ضد قرار مجمع خلقدونية ، فقد استخدم البطريرك البيزنطى، لقبه الجديد «المسكونى» منذ العام ٥٨٨م . وجاء هذا الأمر بمثابة تقويض للنظرية البطرسية الرومانية ، التى منحت بطرس (أمير رسل المسيح) الإمارة على الكنيسة العالمية .

وهكذا فقد اعتقد الفكر الكنسى البيزنطى أنه يجب أن يتساوى بطريرك القسطنطينية فى المرتبة والمكانة والنفوذ الدينى مع البابا فى روما، لأن مدينتهم القسطنطينية هى الآن مدينة «روما الجديدة».

على حين اعتقد آباء كنيسة روما بشكل دائم، أن سمو كنيستهم إنما يرجع إلى ما ورد على لسان المسيح -عليه السلام- إلى حوارييه بطرس: «وأنا أقول لك أيضًا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات. فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطًا فى السموات. وكل ما تحلّه على الأرض يكون محلولاً فى السموات»(١). وليس إلى الوضع السياسى للإمبراطورية الرومانية (٢).

وفى القرن الثامن الميلادى، ازداد سلطان ونفوذ بطريرك القسطنطينية الأرثوذكسى على حساب البابا الكاثوليكى فى روما، وذلك عندما أقدم الإمبراطور البيزنطى ليو الثالث Leo III (٧١٧-٧٤١م) على نقل مسألة الإشراف على كنائس جنوب إيطاليا ، وبلاد اليونان ، وأجزاء من البلقان إلى سلطة بطريرك القسطنطينية ٧٣٢م (٣).

واتسعت هوة الخلاف الدينى والسياسى بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما إبان عهد الأسرة الإيسورية (٧١٧-٨٠٢م) ، وذلك بسبب موقفها المناهض لعبادة الأيقونات(٤) داخل

١- إنجيل متى، ١٦ : ١٨-١٩ .

٢- ستيفن رنسمان ، المرجع السابق، ص١٣٨ .

٣- هسى ، ج.م. العالم البيزنطى، تقديم وترجمة وتعليق رأفت عبد الحميد، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٢٢٠ .

٤- الأيقونة لفظ يونانى معناه الصورة أو الرسم، استعمل للإشارة إلى الصور والأشكال الدينية. وتنقسم سياسة تحطيم الأيقونات إلى مرحلتين الأولى ٧٢٦-٧٨٧م، حتى عقدت الإمبراطورة إيرين Irene المجمع المسكونى السابع، وأعادت الاعتبار للأيقونات ، والثانية ٨١٥-٨٤٣م، إلى أن أعادت الإمبراطورية ثيودورا عبادة الأيقونات انظر: عادل زيتون ، المرجع السابق، ص٣٢٧ ، هامش (٣٩) .

الإمبراطورية البيزنطية . حيث فسّرت كنيسة روما تلك الحملة بأنها هرطقة أخرى جديدة داخل الكنيسة البيزنطية، وأرسل البابا جريجورى الثانى Gregory II (٧١٧-٧٣١م) إلى الإمبراطور البيزنطى ليو الثالث الايسورى مهدداً إياه بالعقاب (١).

وعندما قام البابا جريجورى الثالث Gregory III (٧٣١-٧٤١م) بعقد مجلس كنسى فى روما، قرر فيه توقيع الحرمان الكنسى Excommunication على أعداء الأيقونات ، رد الإمبراطور البيزنطى ليو الثالث على ذلك بإرسال أسطول بحرى للقبض على البابا جريجورى الثالث ، لكن الأسطول البيزنطى تحطم فى البحر الادرياتى . وهو ما جعل الإمبراطور البيزنطى يأمر بجمع الضرائب من صقلية ومدن جنوب إيطاليا، بعد أن قام بمصادرة ما كانت تحصل عليه البابوية من دخل الجنوب الإيطالى .

ولم يكتف ليو الثالث بهذا، بل قام بضم كنائس مدن جنوب إيطاليا إلى بطريركية القسطنطينية بدلاً من تبعيتها لكنيسة روما. وهو ما أصاب العلاقات بين الطرفين بضرر بالغ(٢).

لم تلبث العلاقات بين القسطنطينية وروما أن ازدادت توتراً من جراء التحالف الذى جرى بين البابوية وحكام غرب أوربا ، وهو ما تمثل فى قيام البابا ليو الثالث Leo III (٧٩٥-٨١٦م) بتتويج شارلمان Charlemagne زعيم قبائل الفرنجة فى نهاية قداس عيد الميلاد لعام ٨٠٠م (٣)، فى كنيسة القديس بطرس فى روما، بوصفه إمبراطوراً جديداً للإمبراطورية الرومانية .

وقع خبر تتويج البابا الكاثوليكى للزعيم الجرمانى المتبربر ، شارلمان، إمبراطوراً على الرومان، وقع الصاعقة على المستويين السياسى والدينى فى القسطنطينية، إذ كان البيزنطيون يعتبرون أنفسهم الرومان الخلصاء بعد اجتياح القبائل الجرمانية للغرب الأوربى ، فكيف يأتى اليوم الذى يتوج فيه أحد البرابرة إمبراطوراً رومانياً ... وبمباركة البابا نفسه.

١- اسحق عبيد، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس، حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين (٨٦٩-١٢٠٤م) القاهرة، ١٩٧٠، ص٤ .

٢- نفسه، ص٥ .

٣- عن تتويج البابا ليو الثالث لشارلمان امبراطوراً عام ٨٠٠م انظر:
Einhard and Notker The Stammer , Two Lives of Charlemagne, London , 1967, p. 81 .

على أية حال، فبعد عدة عقود من ذلك التتويج وفى العام ٨٧١م أرسل الإمبراطور لويس الثانى Louis II (٨٥٠-٨٧٥م) أحد خلفاء شارلمان، رسالة إلى الإمبراطور البيزنطى باسل الأول Basil I (٨٦٧-٨٨٦م) يذكره فيها بأنه ليس إمبراطورًا رومانيًا ، وذلك لسببين الأول أنه يونانى، والثانى لأن البابا الكاثوليكى فى روما لم يقم بتتويجه، ولن يقوم أيضًا بتتويج خلفائه أبدًا لأن البيزنطيين لايتبعون قانون الإيمان الصحيح ، ولهذا فإن إيمانهم بعد مغلوطًا وضالاً[١].

يتضح مما سبق أن عوامل الشقاق الدينى والسياسى كانت موجودة بشكل دائم ومستمر بين كنيستى روما والقسطنطينية .

وبدأ الصدام يأخذ شكلا جديدًا بين العالمين اللاتين واليونانى عندما انتهزت كنيسة روما الفرصة السانحة للتدخل فى شئون الكنيسة البيزنطية وإخضاعها لها، إبان النزاع البيزنطى الداخلى بين البطريرك اجناسيوس Ignatios (٨٤٧-٨٥٨م) وغريمه فوشيوس Photios.

قامت الإمبراطورة ثيودورا Theodora ، الوصية على العرش، بتعيين إجناسيوس على كرسى البطريركية فى القسطنطينية، وقام الأخير بادارة أمور الكنيسة بصرامة بالغة ، كما قام بحرمان معارضيه وطردهم من مناصبهم الأسقفية وهو ما أثار مجموعة من المثقفين البيزنطيين ، على رأسهم فوشيوس، الأستاذ بجامعة القسطنطينية ، الذى احتفظ بخلاف كبير مع الإمبراطورة الأم ثيودورا ، ومع أعوانها مثل البطريرك إجناسيوس ، والوزير ثيوكتستوس Teoktistos الذى قام بارداس باغتياله . وهو ما أثار إجناسيوس عليه، خاصة بعد ارتكاب بارداس للعديد من الجرائم الأخلاقية، فقام بحرمانه من أداء الطقوس فى كنيسة أيا صوفيا[٢].

ثار بارداس لما حدث ، وقرر تدبير مكيدة أسفرت عن اقتناع الإمبراطور ميخائيل الثالث Michael III (٨٤٢-٨٦٧م) ، بنفى البطريرك إجناسيوس ، وإقالة الإمبراطورة ثيودورا ، وكان من الطبيعى بعد ذلك أن يتم تعيين فوشيوس على كرسى البطريرك فى كنيسة القسطنطينية (٨٥٨-٨٦٧م) [٣].

١- اسحق عبيد، المرجع السابق، ص٦ .

٢- نفسه ، ص٧ .

٣- انظر: Runciman , S. Eastern Schism, Astudy of the Papacy and The Eastern Church-es during The XI and XIIth Centuries, Oxford, 1956, p. 23 .

استغل بابا روما نيقولا الأول Nicholes I (٨٥٨-٨٦٧م) ما جرى فى القسطنطينية من اضطرابات ، فكتب للإمبراطور البيزنطى مبديًا دهشته من خلع البطريرك إجناسيوس دون علم البابا وأنه سوف يرسل مندوبين من لدنه للتحقق من هذا الأمر، كما اختتم رسالته طالبًا أن يعيد الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثالث حقوق البابوية فى صقلية ومدن جنوب إيطاليا(١).

على الرغم من حضور مندوبين من البابا إلى القسطنطينية عام ٨٦١م ومقابلة اجناسيوس، فان البطريرك البيزنطى السابق، فاجأهم بقوله إنه لايحق لهم استجوابه (٢). وهى دلالة لاتخفي على المتابعين للعلاقات الدينية فى كنيستى روما والقسطنطينية.

وهكذا رفض البطريرك الأرثوذكس المخلوع أن يتم اختراق كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية من قبل كنيسة روما الكاثوليكية .

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد أرسل الإمبراطور البيزنطى برسالة حادة للبابا نيقولا الأول يحذره فيها من التدخل فى أمور كنيسة القسطنطينية .

وبالإضافة إلى هذا، نجحت البعثات التبشيرية البيزنطية إلى جانب القوات العسكرية لبيزنطة فى التبشير بالمسيحية الأرثوذكسية فى بلغاريا ، التى تم إخضاعها لكنيسة القسطنطينية (٣).

وعندما رأى البابا الأول رد الفعل البيزنطى على تدخله ، أرسل للإمبراطور ميخائيل الثالث رسالة يذكره فيها أن الأباطرة البيزنطيون جميعًا مجرد هراطقة ، خارجين عن الإيمان القويم. كما استنكر حمله لقب «إمبراطور الرومان» فضلاً عن ذلك انتهز نيقولا الأول الفرصة لتأكيد النظرية البطرسية من جديد معطيًا حق الكرازة لكنائس روما وأنطاكية والإسكندرية فقط ، حيث أنها تابعة لبطرس الرسول ومرقص الإنجيلى . وأوضح البابا للإمبراطور البيزنطى أن كنيسة القسطنطينية لاتستند إلى أى سند رسولى مطلقًا ، ولهذا فإنه يتوجب عليها ضرورة الإذعان والخضوع لكنيسة روما(٤).

١- عادل زيتون ، المرجع السابق، ص٣٣١ .

٢- عندما رجع مندوبى البابا إلى روما وأخبروا البابا بما حدث. استشاط البابا غضبًا ، وأعلن عدم اعترافه بفوشيوس بطريركًا على كنيسة القسطنطينية انظر: Runciman, Op. cit, p. 24 .

٣- Runciman , Op. cit, p. 24 .

٤- اسحق عبيد ، المرجع السابق، ص٨ .

انتهز البابا التحول الذى حدث فى موقف بوريس الأول Boris I (٨٥٢-٨٨٩م) ملك البلغار تجاه بيزنطة بعد رفض كنيسة القسطنطينية الموافقة على تعيين بطريرك بلغارى فى مملكته. واستقبل البابا رسل بوريس، كما بعث بعدد من الأساقفة لتحويل المسيحيين البلغار باتجاه كنيسة روما الكاثوليكية (١).

وهكذا أمر بوريس بطرد كافة الأساقفة البيزنطيين من بلغاريا. حيث عادوا إلى القسطنطينية ليخبروا فوشيوس بحلول الأساقفة اللاتين مكانهم، كما أنهم قاموا بتزييف قانون الإيمان النيقى بعد أن أضافوا إليه أن «الروح القدس ينبثق أيضًا من الابن».

وهكذا فعلي حين ثبتت كنيسة القسطنطينية على قانون الإيمان المتفق عليه فى مجمع نيقيه ٣٨١م، والذى وافقت عليه كنيسة روما آنذاك، فإن الأخيرة أصبحت الآن تصرّ على إضافة الابن Filioque (٢).

كتب البطريرك فوشيوس مقالاً هاجم فيه انحراف قانون الإيمان عند اللاتين بسبب إضافة «الروح القدس المنبثق من الابن أيضًا» موضحًا أن مثل هذه الإضافة البدعة تؤدى فى النهاية إلى الخلط بين طبيعتى الأب والابن (٣). وهكذا قام فوشيوس بتقويض النظرية البطرسية ، إذ بيّن للعالم المسيحى انحراف قانون الإيمان الغربى ، وجرّد روما من الإمارة الكنسية.

بعد قيام باسل المقدونى Basil (٨٦٧-٨٨٦م) باغتيال الإمبراطور ميخائيل الثالث ليحتل العرش البيزنطى الشاغر، قام بإعادة إجناسيوس إلى كرسى البطريركية فى القسطنطينية، وقام الأخير بعقد مجلس كنسى فى أكتوبر ٨٦٩م أفضى إلى توقيع عقوبة الحرمان الكنسى على فوشيوس ، فضلاً عن لعن تعاليمه ووصمها بالهرطقة (٤).

١- عادل زيتون، المرجع السابق، ص٢٣٢ .

٢- كان مجمع نيقيه ٣٢٥م قد قرر أن «الروح القدس تنبثق من الأب» . لكن كنيسة روما أضافت فيما بعد «والابن Filioque » لتصبح «الروح القدس تنبثق من الأب والابن» ، وهو ما أصبح عقبة كبرى ودائمة فى سبيل توحيد كنيستى القسطنطينية وروما، انظر : عادل زيتون ، المرجع السابق، ص٢٣٢ : رنسيمان ، المرجع السابق، ص١٤١ .

٣- عادل زيتون، المرجع السابق، ص٢٣٢ .

٤- قرر مجمع القسطنطينة ٨٦٩-٨٧٠م، حسب القانون الرابع به، خلع فوشيوس من البطريركية، انظر Schroeder, Op. cit, p. 160 .

انظر أيضًا : رنسيمان ، المرجع السابق، ص١٢٩ ، حيث يرى أن سقوط فوشيوس سببه انتهاجه سياسة اكليركية متعجلة .

وينبغى هنا ملاحظة أن ذلك المجلس الكنسى قام بحرمان فوشيوس بسبب صداقته للقيصر بارداس ، وبوره فى خلع إجناسيوس من كرسى البطريركية ، وأن كنيسة روما لم يكن لديها أى تأثير فى هذا القرار . بل على العكس ، فإن البطريرك الجديد - القديم إجناسيوس اتبع نفس سياسة فوشيوس إزاء كنيسة روما . ورفض ادعاءاتها بالسمو والسيادة على الكنيسة العالمية، بل إن كنيسة القسطنطينية فى عهده نجحت فى إعادة بلغاريا إلى حظيرة الإيمان الأرثوذكسى ، مما سبب لطمة قوية للكنيسة الكاثوليكية فى روما.

بعد وفاة البطريرك إجناسيوس عام ٨٧٧م[١]، أعاد الإمبراطور باسل الأول فوشيوس ليتبوأ كرسى البطريركية فى كنيسة القسطنطينية مرة أخرى .

وهكذا اضطرت البابوية للتعامل مع فوشيوس من جديد، وبدأت فى تغيير سياستها العلنية تجاهه ، من الشدة إلى اللين[٢].

عقد فوشيوس مجلسًا كنسيًا فى القسطنطينية ٨٧٩-٨٨٠م، شارك فيه مندوبون من بطريركات الإسكندرية وأنطاكية والقدس فضلاً عن كنيسة روما التى أرسلت مندوبيها لتأييد فوشيوس[٣].

لكن ما يلفت الانتباه فى هذا المجلس الكنسى، أن فوشيوس أصرّ على موقفه وعلى ضرورة التشديد على قانون الإيمان النيقى السابق الموافقة عليه، ودفع المجتمعين إلى اتخاذ قرار بأن بابا روما يتساوى فى المرتبة والمكانة مع باقى البطاركة الأربعة (القسطنطينية - أنطاكية- القدس- الإسكندرية)، وأن البابا ليس له سمو أو سلطان دائم على الكنيسة العالمية، وهكذا فليس هناك مبرر لأخذ موافقته عند اختيار بطريرك جديد لكنيسة القسطنطينية.

١- قام البابا بانزال عقوبة الحرمان الكنسى على اجناسيوس، قبل أن تصله الأخبار بوفاة الأخير عام ٨٧٧م، عن ذلك انظر: Runciman, Op. cit, p. 26 .

المرسلين البولسيين، الاجتهاد فى سبيل الاتحاد، حريصا ، ١٩٣٩م، ص٥ .

٢- رنسيمان ، المرجع السابق ، ص١٤٢ .

٣- تم فى هذا المؤتمر لعن من قاموا بادانة فوشيوس من قبل ، وقبلت كنيسة روما قرارات ضد المجتمع، ورضيت عن خضوع الكنيسة البلغارية للكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية تحت قيادة فوشيوس. انظر عادل زيتون ، المرجع السابق، ص٣٢٣ : المرسلين البولسيين ، المرجع السابق، ص٦ .

عندما علم البابا يوحنا الثامن John VIII (٨٧٢–٨٨٢م) بقرارات مجلس القسطنطينية السابق، قام بإصدار قرار اللعنة على البطريرك البيزنطى فوشيوس، وهو الأمر الذى استمر عليه خلفاءه البابوات حتى العام ٩١١م.

إذا كان هذا هو موقف البابوات من فوشيوس ، فإن العكس تمامًا كان هو السائد فى بيزنطة ، إذ رفع البيزنطيون فوشيوس إلى مرتبة القديسين، وظلّت تعاليمه وأقواله ضد كنيسة روما والنظرية البطرسية، وضد انحراف قانون الإيمان فى الغرب، هاديًا لسائر البطاركة البيزنطيين من بعده[١].

ساد السلام بين كنيستى القسطنطينية وروما فى بداية القرن العاشر الميلادى بتولى البطريرك نيقولا مستيقوس Nicholas Mysticus [٢] الأمور فى كنيسة القسطنطينية للمرة الأولى ٩٠١–٩٠٧م ، وباركت كنيسة روما هذا التعيين، مما أوجد حالة من الوفاق والسلام بين الكنيستين [٣].

ونظرًا لأن البطريرك مستيقوس كان من أقرب تلاميذ فوشيوس إليه، كان لابد للعلاقة مع كنيسة روما، أن تعود للتوتر من جديد، خاصة عندما تعددت زيجات الإمبراطور البيزنطى ليو السادس Leo VI (٨٨٦–٩١٢م)، وهو ما دفع بالبطريرك إلى إصدار قرار الحرمان الكنسى على الإمبراطور[٤] ، ومنعه من دخول كنيسة أيا صوفيا ٩٠٦م.

١– اسحق عبيد، المرجع السابق، ص١٩،٢٠ . الذى يذكر أن اسم فوشيوس قد ظهر فى السنكساريا (سير القديسين) في كنيسة القسطنطينية فى نهاية القرن العاشر الميلادى .

٢– تولى نيقولا مستيقوس بطريركية القسطنطينية لفترتين (٩٠١–٩٠٧م) و(٩١٢–٩٢٥م) . وكان ايطالى الأصل ، تميز بعلمه ، وتأثر كثيراً بآراء أستاذه فوشيوس . عن نيقولا مستيقوس انظر ما يلي:

محمود سعيد عمران، نيقولا مستيقوس وعلاقة الامبراطورية البيزنطية بالقوى الإسلامية من خلال مراسلاته ، بيروت ، د.ت : أحمد عبد الكريم سليمان، رسالة من البطريرك نيقولا مستيقوس إلى الخليفة العباسي، المجلة التاريخية المصرية، المجلدان ٢٨ ، ٢٩ ، ١٩٨١– ١٩٨٢م.

٣– وسام عبد العزيز فرج، الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس ٨٨٦–٩١٢ ، الأبعاد الدينية والدلالة السياسية، الاسكندرية، ١٩٩١م، ص١٣ .

٤– انظر: Runciman, Op. cit, p. 27 : وسام فرج ، المرجع السابق ،، ص٤١ .

وانظر أيضًا هذا الكتاب الهام حول الإمبراطور ليو السادس:

Tougher, Sh, The Rign of Leo VI (886-912) Politics and People, Leiden, 1997, esp. pp. 160-161.

بدأ الصدام بين كنيستى القسطنطينية وروما عندما بارك البابا سرجيوس الثالث Sergius III (٩٠٤-٩١١م) الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس[١]، ومعارضًا قرار البطريرك مستيقوس وكنيسة القسطنطينية ، وهو الأمر الذى شجّع الإمبراطور البيزنطى على عزل ونفى نيقولا مستيقوس فى العام ٩٠٧م .

ويمكننا أن نفهم مما سبق أن البابوية قد وقفت فى وجه كنيسة القسطنطينية وأيّدت الزواج الرابع للإمبراطور ليو من أجل تحقيق مصالحها السياسية والاقتصادية. وإعادة صقلية ومدن الجنوب الإيطالى للنفوذ البابوى مرة أخرى.

على أية حال فإن مساندة البابوية فى روما للإمبراطور البيزنطى فى صراعه مع بطريرك القسطنطينية ، قد ترك مرارة كبرى لدي رجال الدين بالقسطنطينية وساهم فى تصاعد المعارضة الدينية ضد الإمبراطور ليو السادس، الذى لم يجد مفرًا من إعادة تعيين نيقولا مستيقوس فى منصب بطريرك كنيسة القسطنطينية للمرة الثانية ٩١٢- ٩٢٥م .

شهد الربع الثانى من القرن العاشر الميلادى حالة من الهدوء النسبى فى العلاقات الكنسية والدينية بين القسطنطينية وروما ، وإن شاب ذلك بعض المرارة التى شعرت بها البابوية نتيجة نجاح كنيسة القسطنطينية فى إخضاع روسيا وبلغاريا للمذهب الأرثوذكسى.

وشهدت فترة تولي الإمبراطور نقفور فوقاس Nccphor Phocas للعرش البيزنطى (٩٦٣-٩٦٩م) توترًا بين الجانبين ، عندما أمرت كنيسة القسطنطينية بتدعيم النفوذ البيزنطى في جنوب إيطاليا فى مواجهة كنيسة روما ، خاصة بعد تتويج الإمبراطور الألمانى أوتو الأول Otto I (٩٦٢-٩٧٣م) على رأس الإمبراطورية الرومانية الغربية [٢].

ورد البابا فى روما على ذلك التشدد البيزنطى بمخاطبة الإمبراطور باللقب الذى استخدمه كافة البابوات إبان نزاعهم مع الأباطرة البيزنطيين وهو «امبراطور اليونان» محتفظًا بلقب إمبراطور الرومان للإمبراطور أوتو الأول [٣].

١- وسام فرج، المرجع السابق ، ص٨١ : نجلاء شيحه، مدينة القسطنطينية فى القرن العاشر الميلادى، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب- جامعة القاهرة ١٩٩٩م، ص١٤٥ .

٢- اسحق عبيد، المرجع السابق، ص٢١ .

٣- السيد الباز العرينى، الدولة البيزنطية ٣٢٣-١٠٨١م، القاهرة، ١٩٨٢، ص٤٩٨-٥٠١ : نجلاء شيحه ، المرجع السابق، ص١٤٨ .

استمر تصاعد أزمة الشقاق الدينى بين كنيستى القسطنطينية وروما بعد أن طلب الإمبراطور البيزنطى يوحنا تزيمسكيس John Tzemeskes (٩٦٩-٩٧٦م) من كنيسة القسطنطينية قطع صلتها تمامًا مع كنيسة روما ، إلا أنها رفضت ذلك، مما دفع الإمبراطور إلى عزل البطريرك باسل الأول Basil I ٩٧٠-٩٧٤م من منصبه [١].

كذلك الأمر، فقد استمر سوء العلاقة بين كنيستى القسطنطينية وروما زمن الإمبراطور باسل الثانى Basil II (٩٧٩-١٠٢٥م) بسبب حروب الأخير ضد البلغار ، وإخضاعه للكنيسة البلغارية . ولم تتحسن العلاقات بين الكنيستين إلا بعد وفاة باسل الثانى[٢].

وحالت الاختلافات العقائدية الأساسية دون تحقيق الوفاق الكامل بين كنيستى روما والقسطنطينية ، وخاصة حول قانون الإيمان والإضافة ، وانتهت تماما محاولات التقارب المضطرب بينهما فى عام ١٠٥٤م، حيث حدث ما اصطلح على تسميته بالشقاق الدينى الأعظم بين الكنيستين .

استولى الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس Constantine IX Monomachus على الحكم فى العام ١٠٤٢م ، وقام بتعيين البطريرك كريولاريوس Keroularios (١٠٤٣-١٠٥٨م) على سدة كنيسة القسطنطينية بعد فترة قضاها فى سلك الرهبنة احتجاجًا على انتحار شقيقه .

كان البطريرك كريولاريوس معارضًا لمحاولات البابوية التقرب إلى كنيسة القسطنطينية لأنه أدرك أن هدفها هو التدخل فى شئون الكنيسة الأرثوذكسية. وهكذا ، فعندما نما إلى علمه أن كنيسة روما قد وافقت على منع الشعائر والطقوس الدينية فى الكنائس البيزنطية فى جنوب إيطاليا، قام بإجبار الكنائس اللاتينية بالقسطنطينية على اتباع الشعائر اليونانية. وعندما رفضت القيام بذلك أمر بإغلاقها فى نهاية العام ١٠٥٣م[٣].

١- نجلاء شيحه ، المرجع السابق ، ص١٤٨ .

٢- السيد الباز العريني، المرجع السابق، ص٧١٤ : نجلاء شيحه ، المرجع السابق، ص١٤٨ .

٣- انظر الفصل الهام الذى كتبه البروفسور رنسيمان Runciman حول البطريرك كريولايوس Criularius ودوره ، فى كتابه: "The Eastern Schism", pp. 28 - 54 .

وانظر أيضًا : عادل زيتون ، المرجع السابق، ص٢٣٩ : المرسلين البولسيين، المرجع السابق، ص١٨ .

كان رد كنيسة روما على ذلك أن اتهمت كريولايوس بتجاوز الحدود ، وتحدى قانون الرب، فأعلن الأخير الحرب على البابوية مستخدمًا سياسة الهجوم البيزنطى على عقيدة روما، معلنًا أن استخدام كنيسة روما للخبز غير المختمر Azymes[١] لهو انحراف شديد، ومشابهة لليهود، لأن المسيح تناول الخبز المختمر مع حوارييه فى العشاء الأخير.

قام كريولايوس بتكليف رئيس أساقفة بلغاريا ليون الأوخريدى Leon of Ochreda بكتابة خطاب امتلأ بالهجوم على كنيسة روما[٢] وعندما قرأ البابا ليو التاسع Leo IX (١٠٤٨-١٠٥٤م) تلك الرسالة ثار على كنيسة القسطنطينية وأمر مساعده همبرت Humbert بكتابة عدة رسائل إلى كريولاريوس وليون الأوخريدى وكذلك إلى الإمبراطور البيزنطى، هاجم فيها العقيدة البيزنطية ، مستغلاً الأمر لإعادة تأكيد السمو البابوى ، وعلو كرسى القديس بطرس فى روما على كافة الكنائس والبطريركات الأخرى كالإسكندرية وأنطاكية والقدس، ثم القسطنطينية فى النهاية، كما انتهز البابا الفرصة أيضًا لمهاجمة كريولاريوس لاتخاذه لقب «مسكونى» [٣].

وأرسل البابا ليو التاسع سفارة إلى القسطنطينية[٤] على رأسها الكاردينال همبرت الذى قابل كريولاريوس ، وسلمه خطاب البابا دون تقديم التحية الواجبة له[٥].

١- اسحق عبيد ، المرجع السابق، ص٢٦ : عادل زيتون ، المرجع السابق، ص٢٤٠ : المرسلين البولسيين، المرجع السابق ، ص١٧ .

وعن الخبز الذى لاتدخله الخميرة Azymes أو Azymit . والاختلاف بين الكنيستين البيزنطية والغربية انظر ما يلى، ص٢٣٨، هامش (١) .

٢- اسحق عبيد، المرجع السابق ، ص٢٥-٢٦ : عادل زيتون ، المرجع السابق، ص٢٣٩-٢٤٠ ، الذى يقرر أن البابا ليو التاسع كان أسيراً لدى النورمان، وأن السكرتير البابوى ، الكاردينال همبرت قام بترجمة الرسالة من اليونانية إلى اللاتينية، وربما قام بإساءة الترجمة، لإيغار صدر البابا على كريولاريوس ، مستغلاً جهله باللغة اليونانية.

كما يعتقد المؤرخون أنه نظرًا لعدم معرفة البابا باللغة اليونانية ، فلم يتمكن من مراجعة الترجمة اللاتينية، عن ذلك انظر ، Runciman, Op. cit, p. 42 .

٣- اسحق عبيد ، المرجع السابق، ص٢٧ .

٤- تألفت السفارة من الكردينال همبرت ، وفريدريك اللوريني Frederick of Lorraine المستشار المالى للبابا، وبطرس أسقف مدينة أمالفى، انظر: Runciman, Op. cit, pp. 44-45 .

٥- Runciman, Op. cit, p. 45 .

وكان من الطبيـعى أن يحدث الصدام بين كريولاريوس وهمبرت فى القسطنطينية ، كما تبادل رفاقهما السباب، ومهاجمة شعائر الكنيسة الأخرى(١).

حاول الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس تهدئة الأمور بين الطرفين، لأنه لم يكن يريد أن يضحى بتحالفه مع البابوية ضد النورمان فى جنوب ايطاليا ، لكن همبرت ، المندوب البابوى أخذ يسعى إلى تصاعد الأمور، وأخذ فى الكلام عن أهم نقاط الخلاف بين الكنيستين، وهو موضوع انبثاق الروح القدس من الابن أيضًا كما تقول كنيسة روما، وهو الأمر الذى لم يتحمّله رجال الدين فى القسطنطينية، وبدأوا فى مهاجمة الكاردينال همبرت والإمبراطور مونوماخوس معًا (٢).

وعندما تصاعدت حدة الخلاف بين المعسكرين، أقدم همبرت على تصرف خطير فى تاريخ العلاقات الدينية بين كنيستى القسطنطينية وروما، وذلك بأن توجه إلى أيا صوفيا، حيث مقر البطريركية الأرثوذكسية ، ليتوقف أمام المذبح المقدس ويضع عليه قرارًا بالحرمان الكنسى ضد البطريرك كريولاريوس ويوحنا الأوخريدى رئيس أساقفة بلغاريا ، وميخائيل قسطنطين مستشار البطريرك وأتباعهم(٣).

حاول رجال الدين البيزنطيين إثناء همبرت ورفاقه عن هذا القرار ، لكنهم أصرّوا على ذلك، واتجهوا لمغادرة القسطنطينية. وهكذا أصاب قرار الحرمان البطريرك كريولاريوس، وكذلك كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية نفسها بعد اتهامها بالهرطقة .

ونتيجة لما أوقعته كنيسة روما من قرار الحرمان على كنيسة وبطريرك القسطنطينية زادت حالة العداء تجاه اللاتين ، وتجاه الإمبراطور مونوماخوس لمهادنته لهم. وقام كريولاريوس بعقد مجلس كنسى فى نفس الشهر، يوليو ١٠٥٤م بالقسطنطينية ، حيث قرر المجلس إنزال اللعنة

١- اسحق عبيد، المرجع السابق، ص٣١ ، ٣٢ .

٢- نفسه ، ص٣٢ ، وعلى الرغم من تجاهل البطريرك كريولاريوس لمندوبى البابا، فقد أحسن الإمبراطور قسطنطين مونوماخوس استقبالهم ، انظر : Runciman, Op. cit, p. 46 .

٣- انظر أيضًا: Runciman, Op. cit, p. 47 .

الذى يقرر أن ذلك قد حدث يوم السبت الموافق ١٦ يوليو ١٠٥٤م : المرسلين البولسيين، المرجع السابق، ص١٨ ، ١٩ : اسحق عبيد، المرجع السابق، ص٣٢ : عادل زيتون ، المرجع السابق، ص٣٤٤ .

على الكاردينال همبرت ورفاقه(١). لتزداد هوة الشقاق الدينى اتساعًا بين كنيستى القسطنطينية وروما.

انتهزت البابوية تنامى الخطر النورمانى على الممتلكات البيزنطية فى جنوب إيطاليا، وعقد البابا نيقولا الثانى Nicholas II (١٠٥٧-١٠٦١م) تحالفًا مع عدوّ الإمبراطورية البيزنطية، رويرت جويسكارد فى مدينة أمالفى ١٠٥٩م، من أجل مهاجمة الأراضى والممتلكات البيزنطية(٢).

بتولى البابا جريجورى السابع Gregeory VII (١٠٧٣-١٠٨٥م) كرسى البابوية فى روما، استمر فى سياسة البابوية العدائية تجاه كنيسة القسطنطينية، ولم يكتف بذلك بل كان يحمل بين جوانحه فكرة سمو الإرادة البابوية على كافة مناحى الحياة الروحية والعملية فى كافة أرجاء العالم المسيحي. فقد خطط البابا جريجورى السابع المعروف بهيلدبراند، للسيطرة على كافة كنائس العالم المسيحى فى الغرب والشرق وكذلك على جميع الملوك والأمراء المسيحيين بمقتضى نظرية السيادة والسمو(٣).

وبطبيعة الحال، مثلت نظرية جريجوري السابع خطرًا داهمًا على بيزنطة ، الكنيسة والإمبراطورية . إذ لاتعترف نظريته بالإمبراطور قسطنطين العظيم وخلفائه، ولاتعترف بكنيسة القسطنطينية التي تعتبرها مهرطقة ، وترى فيها البابوية خطرًا داهمًا على المسيحية نفسها.

وكان من الطبيعى أن تقوم بيزنطة ، الكنيسة والإمبراطورية ، بمهاجمة آراء البابا جريجورى السابع (٤)، التى هدف منها إلى طعن وإلغاء تاريخ الإيمان الأرثوذكسى، وإلى

١- انظر : Runciman, Op. cit, pp. 49-50 ، حيث يذكر أن كريولاريوس عقد هذا المجلس بالقسطنطينية يوم الأحد الموافق ٢٤ يوليو ١٠٥٤م.

٢- Runciman, Op. cit, p. 57 .

٣- انظر : Runciman , Op. cit, p. 58: اسحق عبيد، المرجع السابق، ص٤٢-٤٣ : سعيد عاشور، المرجع السابق ، ج١، ص٣٥٠-٣٥١ . وانظر أيضًا : زينب عبد المجيد عبد القوى ، العلاقات السياسية والدينية بين الإمبراطورية البيزنطية وغرب أوربا فى الفترة ١٠٧١-١١٠١م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة الزقازيق ، ١٩٨٥م، ص١٣٠، ١٣٣ ، ١٣٥ .

٤- انظر: Anna Comnena, The Alexiad- Trans. by , E. Daws, London , 1978 , p. 34 .

حيث ذكرت أنه عندما نقل قسطنطين العظيم العاصمة الرومانية من روما إلى القسطنطينية ملكة المدائن Queen of Cities ، انتقل معها مجلس السناتو ، والجهاز الإدارى للإمبراطورية ، وبالتالى أصبحت للقسطنطينية الإمارة الدينية فى العالم كله .

الانتقاص من قدر مدينة القسطنطينية (روما الجديدة) ، ومن قدر ومكانة الإمبراطور الرومانى، والبطريرك الأرثوذكسى.

طالبت الإمبراطورية البيزنطية البابا جريجورى السابع فى العام ١٠٧٣م بإبعاد الخطر النورمانى عن بيزنطة (١)، بالإضافة إلى طلب مساعدته فى صد خطر الأتراك السلاجقة المسلمين الذين ألحقوا هزيمة كبرى بالبيزنطيين فى مانزكرت Menzkirt ١٠٧١م وهكذا واتت هيلد براند الفرصة لبسط كنيسة روما على كنيسة القسطنطينية.

وفى تلك الأثناء تمكن نقفور بوتانياتس Nekphor Botaniates (١٠٧٨-١٠٨١م)، من خلع ميخائيل السابع، واعتلاء العرش البيزنطى ١٠٧٨م، مما دفع البابا جريجورى السابع إلي إصدار قرار الحرمان ضد بوتانياتس ١٠٧٩م، كما طلب من روبرت جويسكارد ، معاودة الهجوم على الأراضى والممتلكات البيزنطية، حتي إعادة ميخائيل السابع إلى عرشه (٢). وهو الأمر الذى جعل البيزنطيون يشعرون بمرارة شديدة تجاه كنيسة روما والبابوية .

وفى غمار تلك الأحداث تمكن الكسيوس كومنينوس Alexius Comnenus (١٠٨١-١١١٨م) من اعتلاء العرش البيزنطى، وهو ما دعا البابا جريجورى السابع إلى ممارسة نفس سياسته السابقة ، وإصدار قرار الحرمان الكنسى عليه أيضاً(٣).

على أية حال تمكن الكسيوس كومنينوس من مجابهة الخطر النورمانى عن طريق استعانته بالدبلوماسية البيزنطية العريقة ، فاتفق مع جمهورية البندقية على تقديم الحماية البحرية للإمبراطورية البيزنطية (٤)، ووافقت البندقية على ذلك بفضل خشيتها من سيطرة النورمان على مناطق نفوذها فى جنوب إيطاليا ، فضلاً عن الامتيازات والمكاسب التجارية التى ستعود عليها فى القسطنطينية وباقى المدن البيزنطية.

اضطرت الظروف السياسية التى أحاطت بيزنطة مثل تهديدات الأتراك السلاجقة، وهجمات البشناق ، الإمبراطور الكسيوس كومنينوس إلى التودد للبابوية من أجل المساهمة

١- Ibid, pp. 58-59 .

٢- Runciman , Op. cit, p. 59 : اسحق عبيد، المرجع السابق ص٥٠ .

٣- Runciman , Op. cit, p. 60 : اسحق عبيد ، المرجع السابق، ص٥١ .

٤- عن ذلك انظر: حاتم الطحاوى، المرجع السابق ، ص٦٦-٦٨ .

فى إرسال قوات مرتزقة من الغرب لمساعدة بيزنطة فى حروبها، واعداً بإعادة فتح باب المفاوضات من جديد حول الاتحاد الكنسى بين كنيستى القسطنطينية وروما، فضلاً عن إعادة فتح الكنائس اللاتينية فى القسطنطينية [١].

وراقبت كنيسة القسطنطينية مشاعر الود المتبادل بين الكسيوس كومنينوس والبابوية، وأعادت إعلان تمسكها بموقفها الثابت من السلطة البابوية[٢]، ورفضها إضافة عبارة «انبثاق الروح القدس من الابن» إلى قانون الإيمان النيقى، فضلاً عن رفضها المزاعم البابوية حول السيادة والسمو.

وهكذا أطل الخلاف الكنسى مرة أخرى بين الكنيستين ، خاصة بعد قيام القديس أنسلم Anselm (١٠٣٣-١١٠٩م) رئيس أساقفة كانتربرى بمهاجمة الكنيسة القسطنطينية وطقس التناول بها، والخبز المختمر ، ورفضها فكرة انبثاق الروح القدس من الابن [٣].

على أية حال ، فقد تمكنت الإمبراطورية البيزنطية فى العام ١٠٩٠م من هزيمة الأمير السلجوقى زاخاس Zachas ، الذى اضطر إلى الفرار لمدينة سميرنا Smyrna (أزمير الحالية)[٤]. ثم استطاع البيزنطيون فى العام التالى ١٠٩١م من إيقاع هزيمة مروعة بالبشناق[٥]. وهكذا تخلصت بيزنطة من خطرين داهمين، خاصة بعد نشوب الحرب الأهلية السلجوقية نتيجة وفاة السلطان ملك شاه عام ١٠٩٢م.

ويشى ما سبق بأن بيزنطة لم تعد فى حاجة حقيقية إلى طلب الجنود المرتزقة من البابوية والغرب بشكل ملحّ فى العام ١٠٩٥م.

ومع ذلك فقد استغل البابا أربان الثانى Urban II (١٠٨٨-١٠٩٩م) وجود السفراء البيزنطيين فى مجمع بياكنزا Piacenza ١٠٩٥م وبدأ فى التخطيط والدعوة للحركة الصليبية

١- انظر : Runciman, Op, cit, pp. 61-62 : اسحق عبيد، المرجع السابق، ص٥٩ .

٢- انظر: Runciman, Op. cit, pp. 71-72 .

٣- اسحق عبيد، المرجع السابق، ص٦٥ .

٤- Anna Comnenai Op. cit, p. 280-281 .

٥- Ibid , p. 202 .

وتحرير المسيحيين فى الشرق تحت الحكم الإسلامى ، وتحرير قبر المخلّص [١]، وبالتالى إعادة لواء السيادة للكنيسة البابوية، فى روما، وإجبار كنيسة القسطنطينية على قبول صيغة الاتحاد الكنسى، نتيجة للنجاح المتوقع للجيوش الصليبية المؤتمره بأمر البابا الكاثوليكى فى روما.

على أية حال ، نجح الصليبيون- تحت السيادة الروحية لكنيسة روما- فى غزو مدن الشام مثل الرها وأنطاكية ١٠٩٨م، واقتحام مدينة القدس ١٠٩٩م[٢]، ونكث الصليبيون عهودهم التى قطعوها للإمبراطور الكسيوس كومنينوس بإعادة الأراضى والممتلكات البيزنطية إليه مرة أخرى.

عند ذلك الحد أدركت كنيسة القسطنطينية أن كنيسة روما تهدف إلى إخضاع كافة كنائس الشام إلى منطقة الكنيسة الكاثوليكية ، وطرد رجال الأكليروس البيزنطيين من أسقفياتهم وأبرشياتهم، وإحلال اللاتين بدلاً منهم.

وتجدد العداء لبيزنطة وكنيستها بتحالف البابوية مع الأمير بوهيموند النورمانى من أجل القيام بحملة صليبية تجاه بيزنطة نفسها ١١٠٧م. وهو الأمر الذى لم يتحقق بعد هزيمة الكسيوس كومنينوس لبوهيموند [٣].

لم يكتف الإمبراطور البيزنطى بذلك، بل أرسل لمواساة البابا باسكال الثانى Pascal II (١٠٩٩-١١١٨م) بعد أن أجبره الإمبراطور الألمانى هنرى الخامس Henri V (١١٠٥-١١٢٥م) على تتويجه إمبراطوراً عام ١١١١م، كما أرسل إليه عارضاً موافقته على عملية الاتحاد الكنسى، وما يترتب عليها من تتويجه شخصياً فى مدينة روما[٤]، أو حتى تتويج ابنه يوحنا كومنينوس.

وهكذا استغل الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنينوس مسألة وحدة الكنائس من أجل تحقيق أطماعه- التى لم تتحقق- فى التاج الرومانى فى مدينة روما.

١- Runciman , Op. cit, p. 78 .

٢- هناك ترجمة عربية للنصوص التى وردت فى المصادر الصليبية عن اقتحام الصليبيين لتلك المدن العربية الشامية، انظر : قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية ، نصوص ووثائق، القاهرة ، ١٩٨٥م.

٣- انظر . Anna Comnena, Op. cit, pp. 320-322 , 340-343

بعد انتصار الكسيوس كومنينوس على بوهيموند فى موقعة ديفول Devol أو ديابوليس، عقد الطرفان معاهدة بهذا الاسم، انظر نص هذه المعاهدة عند آنا كومنينا . pp. 348-358

٤- انظر : Runciman , Op. cit, pp. 106-107 .

وجاء رد البابا باسكال الثانى ليغفل مسألة التتويج، ويركز على مسألة مزاعم النظرية البطرسية ، ومروق كنيسة القسطنطينية [١]. وهو الأمر الذى قابله رجال الدين البيزنطيين بأسى، لأنهم نظروا بسخرية إلى مشروع التقارب بين الإمبراطور البيزنطى والبابا الكاثوليكى، حيث يهدف الأخير من خلاله إلى إخضاع كنيسة القسطنطينية فى النهاية[٢].

عند هذا الحد توقفت جهود المصالحة بين بيزنطة واللاتين على الصعيدين السياسى والكنسى، إلى أن واصل الإمبراطور يوحنا كومنينوس John Comnenus (١١١٨-١١٤٣م) جهود والده الكسيوس كومنينوس وطموحاته أيضًا ، فأرسل فى العام ١١٢٤م رسائل ودية للبابا كالكستوس الثانى Calextus II (١١١٩-١١٢٤م) ، وللبابا هونوريوس الثانى Hon-orius II (١١٢٤-١١٣٠م) يتحدث فيها عن وحدة الكنائس [٣].

لم تتجاوب البابوية مع إشارات الإمبراطور يوحنا كومنينوس ، لأنها أدركت أنه يبحث عن تحقيق مصالحه السياسية ، وأهمها استرجاع التاج الرومانى من الأباطرة الألمان. وإزاء هذا الرد البابوى، أسفر يوحنا كومنينوس عن نواياه الحقيقية ، وقام بطرد الأساقفة اللاتين من بعض المدن مثل طرسوس وما مسترا ، وتعيين أساقفة بيزنطيين بدلاً منهم[٤].

= الذى يذكر أن الكسيوس كومنينوس أرسل إلى البابا جيرارد من مونت كاسينو Girard of Monte Cassino ، ثم اتبع ذلك برسالة منه إلى البابا : انظر أيضًا المرسلين البولسيين، المرجع السابق، ص٢٩ .

١- Runciman, Op. cit, p. 107 .

أرسل البابا باسكال الثانى إلى الإمبراطور الكسيوس عام ١١١٢م يذكره أن الاعتبارات الدينية لديه أقوى من الاعتبارات السياسية، ويذكره بعدم تجاوب كنيسة القسطنطينية مع البابوية: المرسلين البولسيين ، المرجع السابق، ص٢٩ .

٢- Runciman . Op. cit, pp. 107-109 .

رفضت كنيسة القسطنطينية خطاب البابا باسكال الثاني، كما رفضت تدخل أسقف مدينة ميلان بيتركريسولان Peter Chrysolan وحضوره أمام الإمبراطور للحديث عن انبثاق الروح القدس، والخبز غير المختمر.

٣- اسحق عبيد، المرجع السابق، ص١٧٤ .

٤- نفسه ، ص١٧٥ .

وعندما علم البابا إنوسنت الثانى Innocent II (١١٣٠-١١٤٣م) بما جرى ، أصدر قراره الذى يحصن المرتزقة اللاتين فى الجيش البيزنطى على إعلانَ الثورة والتمرد إذا ما قام يوحنا كومنينوس بمهاجمة أنطاكية(١).

عادل التقارب مرة أخرى بين بيزنطة والبابوية فى عهد الإمبراطور مانويل كومنينوس Manuel Comnenus (١١٤٣-١١٨٢م)، والبابا هادريان الرابع Hadrian IV(١١٥٤-١١٥٩م) وكان هاجس الإمبراطور البيزنطى حينها هو التاج الرومانى الذى يحمله الأباطرة الألمان، مستغلاً حالة العداء بين البابوية ، والإمبراطور فريدريك بارباروسا، وعارضاً- مرة أخرى- مسألة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية.

أدرك البابا هادريان الرابع استحالة الوحدة بين الكنيستين ، بسبب المعارضة الشديدة لكنيسة القسطنطينية ، لكنه رحب بمبادرة الإمبراطور مانويل من أجل التحالف معه ضد النورمان الذين استولوا على ممتلكات البابوية فى جنوب إيطاليا(٢).

واصل الإمبراطور مانويل علاقته الطيبة بالبابا اسكندر الثالث Alexander III (١١٥٩-١١٨١م) مستغلاً العلاقة المتوترة بينه وبين الإمبراطور فريدريك بارباروسا، بعدما أعلن الأخير اعترافه بالبابا المعارض فيكتور الرابع Victor IV (٣).

ساهمت الأحداث السياسية والعسكرية فى الجنوب الإيطالى فى تحول الأمور لصالح البابوية ، بعد نجاح مدن العصبة اللومباردية فى هزيمة فريدريك بارباروسا ١١٦٧م، الأمر

١- عادل زيتون ، المرجع السابق ، ص٣٦٨ .

٢- اسحق عبيد، المرجع السابق، ص٢٧٢ .

٣- أرسل الإمبراطور مانويل للبابا اسكندر الثالث عارضًا عليه المساعدة العسكرية لاسترجاع مدن جنوب إيطاليا لنفوذ البابوية. مقابل الحصول على التاج الرومانى. ويذكر أحد أهم المصادر المعاصرة أن البابا وافق على ذلك مقابل أن يقيم مانويل كومنينوس فى روما دائمًا ، وهو الأمر الذى رفضه الإمبراطور على أساس أن القسطنطينية هى روما الجديدة، والتى يجب أن تظل مقرًا للعرش الرومانى . عن ذلك انظر :

Kinnamos , J, Deeds of John and Manual Comnenus Trans. by Brand, ch , New York , 1976, p. 167 .

وانظر أيضًا : Runciman , Op. cit, p. 120 .

الذى أزال قلق البابا اسكندر الثالث. فاستقبل رسل مانويل كومنينوس بفتور، وفى نفس الوقت عقد معاهدة سلام مع فريدريك بارباروسا عرفت باسم سلام البندقية ١١٧٧م[١].

قاد البابا إنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨-١٢١٦م) موجة من العداء تجاه كنيسة القسطنطينية ، والأباطرة البيزنطيين، فقد عمل ضد نفوذ كنيسة القسطنطينية في صربيا وبلغاريا وكذلك المجر ، وتحالف مع الطامعين على العرش فى تلك البلاد من أجل نزع كنائس الصرب والبلغار من التبعية إلى كنيسة القسطنطينية وتحويلها إلى الخضوع لكنيسة روما.

كما أرسل البابا إنوسنت الثالث إلى بطريرك القسطنطينية يوحنا العاشر كماتيروس John X Kamaterus (١١٩٨-١٢٠٦م)، وإلى الإمبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث أنجليوس Alexios III Angelus (١١٩٥-١٢٠٣م) مهاجمًا كنيسة القسطنطينية وطقوسها ، زاعمًا أن كنيسة روما هى الوحيدة ذات العقيدة الصحيحة [٢].

واختلف رد الفعل البيزنطى، فعلي حين جاء رد بطريرك القسطنطينية حازمًا وحادًا كما هى عادة البطاركة البيزنطيين [٣]، جاء رد الإمبراطور البيزنطى وديًا ، كما هو نهج أسلافه ، وذلك بسبب مطامع الكسيوس الثالث أنجيلوس فى جزيرة قبرص.

على أية حال ، عارض البابا إنوسنت الثالث مطامع الكسيوس فى قبرص، وفى نفس الوقت عقد اتفاقًا مع الملك الألمانى فيليب السوابى Philip of Swabia (١١٩٧-١٢٠٨م) الذى أرسل إليه عام ١٢٠٣م، يخبره بأنه سوف يقوم بإخضاع كنيسة القسطنطينية إلى سلطة كنيسة روما، إذا ما نجح فى الاستيلاء على القسطنطينية فى المستقبل القريب[٤].

١- اسحق عبيد، المرجع السابق، ص٢٧٧ . وعن سلام البندقية ١١٧٧م انظر أيضًا :

Rodney . M. Thomson, "An English Eyewitniss of The Peace of Venice" in Sp. vol. L. No . I, 1975 .

٢- Runciman . Op. cit, pp. 142-143 : البولسين الرسوليين، المرجع السابق ، ص٣٠ .

٣- Runciman . op. cit, p. 143 .

٤- اسحق عبيد ، المرجع السابق، ص٣٢٥ .

وعلى الرغم من توقيع إنوسنت الثالث لعقوبة الحرمان الكنسى على صليبيّ الحملة الرابعة بعد غزوهم لمدينة زارا Zara البيزنطية المسيحية ١٢٠٣م، إلا أنه قام بإلغاء قرار الحرمان(١)، بعد ما أدرك بأنهم سوف يهاجمون القسطنطينية نفسها.

وإبان اقتحام جنود الحملة الصليبية الرابعة لمدينة القسطنطينية ١٢٠٣-١٢٠٤م، قام «جند الرب» . أتباع كنيسة روما بنهب الكنائس البيزنطية بالمدينة، واستولوا على الآثار المقدسة بالكنائس والأديرة، زاعمين أنها لايجب أن تكون فى حوزة البيزنطيين الأرثوذكس والهراطقة.

كما قام الصليبيون بخلع الأساقفة البيزنطيين ، وتعيين أساقفة لاتين فى مكانهم، كما قاموا بتنصيب توماس موروسينى Thomas Morosini البندقى بطريركًا على كنيسة القسطنطينية(٢). مما اضطر البطريرك البيزنطى كماتيروس إلى الفرار من العاصمة.

وعلى الرغم من تظاهر البابا إنوسنت الثالث بمعارضة تعيين مورسينى بطريركًا على القسطنطينية ، فقد عاد ليعلن تأييده للبطريرك اللاتينى بل وقام بمنحه امتيازات كنسية واسعة. كذلك الأمر فإن البابا إنوسنت الثالث لم يستطع أن يخفى فرحته بسقوط القسطنطينية تحت أقدام اللاتين فى الحملة الصليبية الرابعة ، حتى يستطيع إخضاع كنيسة القسطنطينية لطاعة كنيسة روما ، وهكذا أمر إنوسنت الثالث بفرض الطقوس والشعائر اللاتينية داخل جميع الكنائس البيزنطية بالقسطنطينية (٣).

على أية حال فإن مشاركة البابوية فى الحملة الصليبية الرابعة التى احتلت القسطنطينية عام ١٢٠٤م، قد وضع حدًا فارقًا، ويصعب تجاوزه ، بين كنيستى القسطنطينية وروما، ونجح اللاتين - قسرًا - فى ضم كنيسة القسطنطينية ، على الرغم من معارضة رجال الدين البيزنطيين، وسكان القسطنطينية لهذا الأمر.

١- انظر مؤرخ الحملة الصليبية الرابعة: فلهاردوان ، المصدر السابق، ص٨١-٨٢ .

٢- انظر المصدر البيزنطى الهام : Choniates. N, Ocity of Byzantium . Annales of Nikitas Choniates. Trans. by H.J. Magoulias. Detroit, 1981. pp. 341 ,357 .

حيث يذكر أن ذلك قد حدث فى نهاية يوليو عام ١٢٠٤م.

٣- اسحق عبيد، المرجع السابق، ص٣٤٦-٣٤٧ . الذى يذكر أيضًا أن تظاهر البابا إنوسنت الثالث بمعارضة تعيين موروسينى بطريركًا على كنيسة القسطنطينية ، لأن ذلك تم دون أخذ رأيه. فضلاً عن خشيته من أن يجنى البنادقة كافة مكاسب النصر بعد الاستيلاء على القسطنطينية ١٢٠٤م.

وفى نهاية الأمر، ترك الاحتلال اللاتين لمدينة قسطنطين ١٢٠٤–١٢٦١م مرارة بالغة فى حلوق السكان البيزنطيين، ساهمت فى تنامى مشاعر العداء والكراهية للغرب اللاتين ، وكنيسة روما، حتى لو أدى الأمر بالبيزنطيين إلى الخضوع لأعداء المسيحية نفسها.

بعد نجاح الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن باليولوغس Michael VIII Palaeo lo-gos (١٢٦١–١٢٨٢م) فى استعادة مدينة القسطنطينية من اللاتين فى ١٥ أغسطس ١٢٦١م، عقد علاقات ودية مع البابا أربان الرابع Urban IV (١٢٦١–١٢٦٤م) (١)، ومع خلفه كليمنت الرابع Clement IV (١٢٦٥–١٢٦٨م) من أجل مواجهة شارل الأنجوى Charles d'Anjou ومطامعه فى عرش القسطنطينية ، لكن البابوية فضلت دائمًا الوقوف إلى جانب اللاتين وشارل الأنجوى (٢).

وعندما زار البابا جريجورى العاشر (١٢٧١–١٢٧٦م) القسطنطينية بعد عودته من زيارة الصليبيين بالشام، استقبله الإمبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوغس بترحاب شديد، عارضًا عليه وحدة الكنيستين الشرقية والغربية. وهو الأمر الذى دفع البابا إلى إعلان الدعوة لعقد مجمع مسكونى فى مدينة ليون Lyon الفرنسية عام ١٢٧٤م . والذى كان جدول أعماله يهدف إلى مساعدة الصليبيين فى فلسطين، بالإضافة إلى اتحاد الكنائس ، والاصلاح الكنسى الداخلى(٣).

أرسل الإمبراطور باليولوغس وفدًا من الكنيسة البيزنطية لحضور مجمع ليون الثانى ١٢٧٤م مكونًا من البطريرك جرمانوس الثالث Germanos III (١٢٦٥–١٢٦٦م) وجورج اكرونوليتا Georgo Akropolita وثيوفانس Theophanes أسقف مدينة نيقيه (٤)، وآخرين.

١– انظر: Gill, J, Byzantium and the Papacy 1198- 1400 . New Jersey . 1979, p. 107 .

٢– Ibid , pp. 113-115 .

٣– انظر قرارات مجمع ليون الثانى ١٢٧٤م لدى Schoeder, Op. cit, pp. 324-364. esp. Canon I, pp. 330-331, Canon, 32 , pp. 360-364 .

انظر أيضًا : اسحق عبيد ، الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغس، ص١١٣ : المرسلين البولسين ، المرجع السابق، ص٣٧ .

٤– انظر: Gill, Op. cit, p. 132، وانظر أيضًا : p.131 حيث يذكر الأب جوزيف جيل، أن البطريرك البيزنطى جوزيف الأول Joseph I (١٢٦٦–١٢٧٥م) قد اعتذر عن السفر مع البعثة ، واعتبر نفسه مستقيلاً إذا ما تمت الموافقة على عملية الاتحاد الكنسى، وهذا ما حدث بالفعل. انظر ذلك أيضًا لدى المرسلين البولسيين ، المرجع السابق، ص٣٨ .

وقام الوفد البيزنطى بتسليم رسائل الإمبراطور التى تعلن وتعترف بسمو وسيادة بابا روما، وبعد ذلك بأيام حضر جميع أعضاء المجمع القداس الذى أقيم باللغة اللاتينية حسب المتبع فى كنيسة روما وتمّت تلاوة قانون الإيمان باللغة اليونانية لكن فى صيغته اللاتينية والرومانية ، أى أن «الروح القدس ينبثق من الابن Filioque أيضًا »[١]، وهى الصيغة التى سبق أن اعترضت عليها كنيسة القسطنطينية طوال القرون السابقة.

ويروى أنه عند تلاوة تلك الفقرة ، عبر مطران نيقيه عن يأسه وحزنه بأن زمّ شفتيه ، عاضًا عليها بشدة [٢]، ولعل هذا يعبر أفضل تعبير عما جاش بصدر هذا الرجل.

وعلى الرغم من هذا الاتحاد، فقد ظل الشعب البيزنطى، وباقى رجال كنيسة القسطنطينية رافضين تمامًا لمسألة وحدة الكنائس، وسمو وسيادة كنيسة روما.

بل إن البيزنطيين المعارضين لهذا الأمر، أطلقوا على مجمع ليون الثانى ١٢٧٤م «مجمع اللصوص»[٣] ، لأن البعثة البيزنطية الموجودة به لم تكن مفوضة من الشعب البيزنطى.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد عقد رجال الدين البيزنطيين مجلسًا كنسيًا فى حماية حكام إبيروس Epiros وأنزلوا قرار الحرمان بالإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوغس والبطريرك جرمانوس الثالث[٤].

وفى القرن الخامس عشر الميلادى، أرسل الإمبراطور البيزنطى يوحنا الثامن باليولوغس John VIII Palaeologos (١٤٢٥-١٤٤٨م) سفارة إلى البابا مارتين الخامس Martin V (١٤١٧-١٤٣١م) من أجل إعادة إقرار الاتحاد الكنسى بين القسطنطينية وروما فى العام ١٤٣٠م[٥].

١- انظر : Gill, op. cit, p. 135.

٢- اسحق عبيد، المرجع السابق، ص١١٤ .

وعن مجمع ليون الثانى انظر : أمل أحمد حامد: مجمع ليون الثانى ١٢٧٤م . دراسة فى مشروع الوحدة بين كنيستى القسطنطينية وروما فى القرن الثالث عشر الميلادى، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة المنصورة، ١٩٩٧م : وانظر كذلك ما يلى، ص٢٤٠ .

٣- اسحق عبيد ، المرجع السابق ، ص١١٦ .

٤- نفسه، ص١١٥ : المرسلين البولسيين، المرجع السابق، ص٤٠ .

٥- المرسلين البوسليين ، المرجع السابق ، ص٥٠-٥١ .

وتم الاتفاق على عقد مجلس كنسى جديد يناقش مسألة الاتحاد ، إلتأم أولاً فى مدينة فيرارا Ferrara الايطالية عام ١٤٣٨م . وبسبب تفشى الطاعون فى المدينة آنذاك ، وموت العديد من الأهالى ، قام المجلس بنقل أعماله إلى مدينة فلورنسا Florence، حيث عقد الاجتماع النهائى بها عام ١٤٣٩م، وفيه وافق البطريرك البيزنطى جوزيف الثانى Joseph II (١٤١٦-١٤٣٩م) والوفد المرافق له بالإضافة إلى الإمبراطور يوحنا الثامن باليولوغس الذى كان موجوداً فى مجمع فلورنسا، على إعلان، وحدة الكنيسة البيزنطية والكنيسة اللاتينية(١).

وعلى الرغم من أن هاجس الإمبراطور يوحنا باليولوغس الأول كان هو الخطر العثمانى المحدق بالإمبراطورية البيزنطية، وهذا هو ما دفعه إلى الموافقة على الاتحاد الكنسى(٢)، فقد قوبل بمعارضة كبرى لدي عودته إلى القسطنطينية وأذكى الرهبان والقساوسة البيزنطيين تلك المعارضة، بعد أن وجهوا اتهامات بالخيانة والهرطقة إلى الذين حضروا وقاموا بالتوقيع على وثيقة الاتحاد الكنسى فى مجمع فلورنسا ١٤٣٩م(٣).

بالإضافة إلى ذلك فقد ارتدّ عدد كبير من أفراد الوفد البيزنطى الذى سبق أن وافق على وثيقة فلورنسا ، ومن أبرزهم جورج سكولاريوس George Scholarius الذى أصبح فيما بعد

١- عن مجمع فلورنسا ١٤٣٩م ونتائجه انظر:

Doukas, M. Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks. An Announted Translation of Historia Turco - Byzantina". Trans . by . Harry . J. Magoulias . Detroit, 1975, pp. 179-180 .

وانظر قرارات مجمع فلورنسا لدى : Schroeder, Op. cit, pp. 473-479 .

٢- نظراً لجدية التهديدات العثمانية حول الاستيلاء على القسطنطينية ، اضطر الإمبراطور البيزنطى يوحنا باليولوغس إلى الاستنجاد بالكنيسة البابوية ، واضطر البيزنطيون إلى التماشى مع طلبات البابوية، وقرر البطريرك البيزنطى جوزيف الثانى (١٤١٦-١٤٣٩م) Joseph II والذى كان على رأس الوفد البيزنطى مع الامبراطور الموافقة على ما طلبته الكاثوليكية من أجل إنقاذ القسطنطينية.

عن ذلك انظر السيد محمد المتولى عطية، الدولة البيزنطية فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة المنصورة، ١٩٩٨م، ص١٠٢-١٠٨ .

٣- المرسلين البولسيين ، المرجع السابق، ص٦٩ .

بطريركًا على القسطنطينية باسم جيناديوس الثانى Ginnadius II بعد فتح العثمانيين للقسطنطينية ١٤٥٣م[١].

كذلك عقد بطاركة كنائس القدس وأنطاكية والإسكندرية مجمعًا كنسيًا فى القدس عام ١٤٤٣م ، وأصدروا قرارًا بأن مجمع فلورنسا غير قانونى، ولاينبغى الأخذ بما انتهى إليه [٢].

عندما أدرك آخر الأباطرة البيزنطيين قسطنطين الحادى عشر باليولوغس Constantine XI Palaeologos (١٤٤٨-١٤٥٣م) تصميم السلطان العثمانى محمد الثانى (١٤٥١-١٤٨١م) على فتح القسطنطينية ، أرسل فى العام ١٤٥٢م برسالة إلى البابا نيقولا الخامس Nicolas V (١٤٤٧-١٤٤٥م) يطلب مساعدته ، ودعوته الدول الأوربية المسيحية من أجل إنقاذ مدينة القسطنطينية [٣].

وجاء رد البابا نيقولا الخامس بانه يجب أن تعود كنيسة القسطنطينية ، وأن يعود الشعب البيزنطى إلى حظيرة الاتحاد الكنسى أولاً وقبل تقديم أية مساعدة له ضد العثمانيين .

وهكذا فبدلاً من أن تبادر البابوية بإرسال مساعدة عسكرية عاجلة إلى القسطنطينية فإنها نظرت أولاً إلى مصالحها الدينية، وأرسل البابا نيقولا الخامس مبعوثه الكاردينال الروسى ايزيدور Isidore[٤] إلى القسطنطينية ١٤٥٢م من أجل إتمام عملية الاتحاد والكنسى قبل أن تعد البابوية بتقديم أى دعم عسكرى.

وتفيض المصادر التاريخية اللاتينية والبيزنطية، فى الحديث عن المشاورات وعملية التصويت

١- هو جورج كورتيسيس سكولاريوس Georg Kourteses Scholarius ولد فى العام ١٤٠٥م . عمل سكرتيرًا للإمبراطور البيزنطى يوحنا الثامن باليولوغس . حضر مجمع فلورنسا ١٤٣٩م ، وقام بالتوقيع على الوثيقة الخاصة بوحدة الكنائس ، لكنه قام بتغيير موقفه بمجرد عودته إلى القسطنطينية. وبدأ يخطب ضد الاتحاد الكنسى . تحول إلى الرهبنة فى العام ١٤٥٠م تحت اسم جيناديوس Ginnadius اختاره السلطان العثمانى محمد الفاتح ، بعد فتح القسطنطينية ١٤٥٣م ليصبح بطريركًا على كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية فى العام ١٤٥٤م . عن ذلك انظر:

O. D.B, vol , 2 , p. 830 ; Nicol, D. " A Biographical Dictionary of The Byzantine Empire , " London , 1941 , p. 42 .

٢- المرسلين البولسيين، المرجع السابق، ص٧٠ .

٣- نفسه .

٤- انظر: نيقولا باربارو ، الفتح الإسلامى للقسطنطينية ، يوميات الحصار العثمانى ١٤٥٣م . =

التى جرت فى كنيسة أيا صوفيا بالقسطنطينية فى ديسمبر ١٤٥٢م، حيث تمّ – على استحياء– إعلان الاتحاد بين كنيستى القسطنطينية وروما.

والحقيقة أن الاتحاد الكنسى لم يجد قبولاً لدى الشعب البيزنطى[١]، الذى علمته التجارب المريرة طوال القرون السابقة أن يكره اللاتين أصحاب الكنيسة التى تدعى السيادة والسمو بمقتضى النظرية البطرسية.

وهكذا فقد عارض معظم سكان القسطنطينية عملية الاتحاد الكنسى، بل إن الرجل الثانى فى الإمبراطورية البيزنطية ، وهو القائد العسكرى الأعلى Mega doux لوكاس نوتاراس Lucas Notaras قد صرّح معبراً عن رأى شريحة واسعة من مجتمع القسطنطينية الأرثوذكسى، بأنه «من الأفضل للبيزنطيين رؤية عمائم الأتراك المسلمين فى شوارع القسطنطينية ، على أن يشاهدوا بها قلنسوات رجال الدين اللاتين »[٢].

(٣)

بدأت العلاقة بين المسلمين والقسطنطينية منذ وقت مبكر. فقد حاول المسلمون الأوائل فتح القسطنطينية، إذ أرسل الأمويون حملتين عسكريتين في الأعوام ٤٨هـ / ٦٦٨م ، ٥٤–٦٠هـ / ٦٧٤–٦٨٠م[٣] باتجاه القسطنطينية ، ونجحت الحملة الثانية فى فتح جزيرة أرواد ، بالقرب من القسطنطينية، حيث استقر بها المسلمون لسبع سنوات كاملة.

= دراسة وترجمة وتعليق حاتم عبد الرحمن الطحاوى ، القاهرة ، ٢٠٠٢م، ص٨٩ ، حيث يتحدث عن الاجتماع الذى حدث فى كنيسة أيا صوفيا ، بحضور الكاردينال ايزيدور مبعوث البابا نيقولا الخامس.

١– نفسه، حيث يذكر باربارو الذى كان موجوداً بالقسطنطينية آنذاك أنه إبان جلسة إجراءات الاتحاد الكنسى فى كنيسة أيا صوفيا ، كان العديد من سكان القسطنطينية يرفضون هذا الأمر. وحسب كلماته «.. وشهد هذا اليوم ١٢ ديسمبر ١٤٥٢م الكثير من البكاء والنواح فى المدينة».

٢– انظر ما يلى: رواية دوكاس، ص٢٤٩ . انظر أيضًا : فى الترجمة الإنجليزية الكاملة لحولية دوكاس Doukas, Op. cit, p. 210 .

انظر كذلك المرسلين البولسيين، المرجع السابق، ص٢٩ . حيث ورد بأن البطريرك البيزنطى ميخائيل الثالث انخيالوس Michael III Anchialos (١١٧٠–١١٧٨م) ، كان يكنّ عداء شديداً للاتين، وأنه أوّل من قال «عمامة التركى، ولاتاج البابا!» ... ولم أجد هذه العبارة منسوبة للبطريرك البيزنطى فى أى مرجع آخر!

٣– الطبرى (أبوجعفر محمد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك، ج٥ ، تحقيق محمد أبو الفضل القاهرة، ١٩٧٩م، ٢٩٣ .

وبعد ذلك أرسل الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ / ٧١٥-٧١٧م) أخاه مسلمة على رأس حملة عسكرية كبرى لفتح القسطنطينية ٩٧هـ ٧١٦م. واتخذت الحملة طريقها تجاه المدينة بعد أن نجحت فى فتح عدة مدن بيزنطة هى سارديس Sardis وبرجامة Pergamus وأبيدوس Abydus ليضرب المسلمون حصاراً حول مدينة القسطنطينية فى أغسطس ٧١٧م ، ولمدة عام كامل [١].

ولم تنجح حملة مسلمة بن عبد الملك[٢] فى اقتحام القسطنطينية لعدة أسباب أهمها قوة الاستحكامات ومهارة البحرية البيزنطية فضلاً عن معاناة المسلمين من شتاء القسطنطينية القارس، والأمراض التى تفشت بين جنود الحملة وخاصة مرض الطاعون.

وعلى الرغم من الفشل العسكرى الذى حاق بتلك الحملة ، فقد نجحت فى إحراز نصر معنوي ، بعد أن اشترط القائد المسلم مسلمة بن عبد الملك على الإمبراطور البيزنطى ليو الثالث ضرورة بناء مسجد داخل أسوار القسطنطينية[٣]. نظير انسحاب قواته ورفع الحصار عن المدينة.

١- الطبرى، المصدر السابق، ج٦ ص٥٣٠-٥٣١ ، وانظر أيضاً المصدر البيزنطى الهام :

Theophanes, The Chronicle of Theophanes (6095-6305) (A. D 602-813). Trans . by Harry Tyrtledove, Pennsylvania, 1982, pp. 88-90 .

ولهذا المصدر ترجمة جديدة ووافية . انظر:

Theophanes, The Chronicle of Theophanes Confessor . Byzantium and Near Eastern History A D 284-813 . Trans With Intr. and Camm. by Cyril Mango and Roger Scot, With Assistance of Goffrey Greater, Oxford , 1997 , pp. 538-550 .

انظر أيضاً الفصل القيم الذى كتبه الأستاذ الدكتور وسام فرج فى كتابه «العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى الإسكندرية ، ١٩٨١، ص١١٩-١٧٥ .

٢- Theophanes , Op. cit, p. 90. : وسام فرج، المرجع السابق، ص١٧٤-١٧٥ .

٣- على الرغم من عدم إشارة المؤرخ البيزنطى ثيوفانس لهذا المسجد، ورفض الدكتور وسام فرج، ص١٧٣ لمسألة قبول البيزنطيين شرط مسلمة بضرورة بناء مسجد بالقسطنطينية معتمداً على أنه من الصعب على الطرف الخاسر أن يملى شروطه، فإن تأكيد أحد أهم المصادر البيزنطية اللاحقة على وجود هذا المسجد وأن «مسلمة الذى قاد حملة على القسطنطينية هو الذى أمر ببناء مسجد للمسلمين فى المعسكر =

وافق ليو الثالث على ذلك بعد أن أنهكته عملية الدفاع عن القسطنطينية ، وحتى يتمكن من ضمان حمايتها لفترة أطول.

بعد وفاة الخليفة سليمان بن عبد الملك، أمر الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ / ٧١٧-٧١٩م) بسرعة عودة الحملة إلى الشام، وكان ذلك فى العام ٩٩هـ / ٧١٨ م[1].

وهكذا فشلت أهم الحملات الإسلامية لفتح القسطنطينية ، عاصمة دولة الروم، وترتب على ذلك زيادة ثقة البيزنطيين فى قدراتهم ، فاستطاع الإمبراطور ليو الثالث بعد ذلك بعدة سنوات - وعبر التحالف مع الخزر- إيقاع الهزيمة بالجيش الإسلامى بالقرب من عمورية فى معركة آكرونيون Acronion [2] ١٢٢هـ - ٧٤٠م حيث تمكن البيزنطيون بعدها من استعادة زمام المبادرة الحربية من المسلمين ، وتحولوا بعدها من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم على الأراضى الإسلامية براً وبحراً .

= الإمبراطورى» انظر: قسطنطين السابع بورفيرو جنتيوس، إدارة الإمبراطورية البيزنطية ، عرض وتحليل وتعليق محمود سعيد عمران ، بيروت ١٩٨٠م، ص٨٣ . لهو أمر يدعو إلى الجزم بخضوع الإمبراطور ليو الثالث لشرط مسلمة ، وربما وافق ليو على ذلك بعد أن أنهكته الحرب مع المسلمين. وحتى يضمن حماية القسطنطينية لفترة أطول

ويمكن اعتبار ذلك المسجد، ودار البلاط التى نزل فيها كبار الأسرى بمثابة نواة الحى الإسلامى الموجود بالقسطنطينية الذى استقر به التجار المسلمين فى القرن العاشر الميلادى انظر حاتم الطحاوى، بيزنطة والمدن الإيطالية، ص٣٦، ٣٩ ، وسبق أن ذكرت فى نفس الكتاب (ص٣٩هامش ٢) أن تاريخ المساجد الإسلامية فى القسطنطينية يستحق أن يخصص له بحث منفرد يتناول أسباب وزمن وجودها ، وتأثيرها على العلاقات بين بيزنطة والقوى الإسلامية المختلفة، وهو ما تناوله فيما بعد الباحث محمد الوسيمي. جامع القسطنطينية الأول ودوره السياسي، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة، مجلد ٦٠ ، عدد ٢ ، أبريل ٢٠٠٠م، ص٣٩ - ٧٣ .

١- الطبرى ، المصدر السابق ، ج٦، ص٥٥٣ : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٩ ، طبعة وتوثيق عبد الرحمن اللتى، محمد غازى بيضون ، بيروت ١٩٩٨م، ص٣٢٨ .

٢- الطبرى ، المصدر السابق، ج٧ ، ص١٩١ ، حيث يشير إلى مقتل عبد الله البطّال فى هذه المعركة. انظر أيضاً ، ابن كثير ، المصدر السابق ، ج٩ ، ص٢٨٤-٢٨٧ ، ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن الشيبانى) الكامل فى التاريخ ، ج٢ ، تحقيق يوسف الدقاق ، بيروت ، ١٩٨٧م، ص٢٩٩ .

ويبدو أن العباسيين قد تعلموا من الفشل الأموى فى حصار القسطنطينية فلم يفكر خلفاء بنى العباس فى فتح القسطنطينية قدر تفكيرهم فى انتزاع الأراضى البيزنطية الواقعة جنوب آسيا الصغرى[١].

وهكذا نجح العباسيون فى إرهاق الإمبراطورية البيزنطية عسكريًا ، لدرجة أن الإمبراطورة إيرين Irene (٧٨٠-٨٠٢م) قامت بدفع جزية سنوية للخليفة هارون الرشيد فى العام ٧٨٣م[٢] مقابل الحفاظ على الهدوء فى الجبهة الجنوبية، حتى تستطيع التفرغ لإقامة علاقات ودية مع البابوية ، ومملكة الفرنجة.

غير أن ميزان القوى تحول مرة أخرى لصالح البيزنطيين على عهد الأسرتين العمورية والمقدونية ، فاستولى الأباطرة باسل الأول Basil I (٨٦٧-٨٨٦م) وليو السادس Leo IV (٨٨٦-٩١٢م) على الأراضى الإسلامية بين فرعى نهر الفرات ومنطقة الجزيرة، كما استطاع رومانوس الأول Romanus I (٩١٩-٩٤٤م) التوغل فى أراضى الشام على حساب الأمير سيف الدولة الحمدانى، وهاجم مدينة الرها ٩٤٤م، حيث قام باستعادة المنديل الذى يقال أن السيد المسيح قد جفف به وجهه، فانطبعت ملامحه عليه[٣].

وجاء صعود السلاجقة على مسرح الأحداث ليفضى إلى إعادة توزيع أدوار لعبة الحرب بين المسلمين والبيزنطيين، إذ قبض السلاجقة على زمام الأمور فى الدولة العباسية الثانية، إبان النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى، وبدأوا فى ممارسة دورهم التاريخى كحماة للخلافة العباسية التى أخذ دورها العسكرى فى الذبول . وساعد على ذلك نشأة ووجود الأتراك السلاجقة على تخوم الإمبراطورية البيزنطية فى آسيا الصغرى، فبدأوا منذ ذلك الوقت فى التصدى للقوة العسكرية البيزنطية، والدفاع عن أراضى الشام ، فضلاً عن تطلعهم الدائم لاقتطاع المزيد من الأراضى والممتلكات البيزنطية فى آسيا الصغرى.

١- الطبرى، المصدر السابق ، ج٧ ، ص٤٩٧-٥٠٠ .

٢- نفسه، ج٨ ، ص١٥٤ : . Theophanes. Op. cit, p. 142

وهناك تحليل جيد للظروف التى دفعت الإمبراطورة إيرين إلى هذا . انظر: موفق سالم نورى، العلاقات العباسية البيزنطية ١٣٢-٢٤٧هـ / ٧٥٠-٨٦١م، بغداد ، ١٩٩٠م ، ص١٩١-١٩٦ .

٣- ابن العبرى (أبى الفرج جمال الدين) تاريخ الزمان ترجمة الأب اسحق أرملة، بيروت، ١٩٨٦م، ص٥٧ .

واستطاع الأتراك السلاجقة المسلمين فى العام ٤٦٣هـ / ١٠٧١م إنزال هزيمة ساحقة بالإمبراطورية البيزنطية في موقعة مانزكرت Menzkirt [(١)]، حيث قاموا بتمزيق شمل الجيش البيزنطى ، وأسر قائده الإمبراطور رومانوس الرابع Ramonus IV (١٠٦٨-١٠٧١م) ، وهو الأمر الذى أحدث زلزالاً فى المجتمع البيزنطى.

كان من أبرز نتائج موقعة مانزكرت أن اجتاح السلاجقة الأتراك اسيا الصغرى، وبالتالى نجحوا فى منع الإمبراطورية البيزنطية من المورد الرئيسى للجنود البيزنطيين الذين اشتهرت بهم منطقة آسيا الصغرى، بالإضافة إلي تحطيم الهيبة العسكرية البيزنطية ، فضلاً عن تعرض بيزنطة لخسارة اقتصادية فادحة نتيجة فقدانها للعديد من الأراض الزراعية الخصبة.

والحقيقة أنه لايمكننا أن نغفل أن الانتصار العسكرى الكبير فى مانزكرت ، قد أثار مخيلّة الأتراك السلاجقة المسلمين، نحو تحقيق إنجازات عسكرية كبرى، ومن ثم مهاجمة القسطنطينية نفسها، والقضاء على الإمبراطورية البيزنطية.

١- عالجت العديد من المصادر البيزنطية والسلجوقية والعربية انتصار السلاجقة الساحق على الإمبراطورية البيزنطية فى مانزكرت ، انظر:

Pesellus, M. Fourteen Byzantine Rulers . The Chronographia of Michael Psellus . Trans by , Sewter . E.R. London . 1966 . pp. 355-59 .

الحسينى (صدر الدين على بن ناصر) زبدة التواريخ ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية تحقيق محمد نور الدين ، بيروت ، ١٩٨٦م، ص١٠٧-١١٥: البندارى (الفتح بن على بن محمد البندارى الأصفهانى) تاريخ دولة آل سلجوق، بيروت، د.ت ، ص٤٠-٤٤ : ابن الأثير ، المصدر السابق، ج١٠ ، ص٢٠-٢١ : ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة) ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨م ، ص٩٩: ابن العبرى، المصدر السابق، ص١٠٩ وانظر كذلك بعض المراجع التى صدرت باللغة التركية عن موقعة مانزكرت :

Faruk Sumer& Ali Sevin, Semavi Islam Kaynak Larina gore . Malazgirt Savas. Ankara , 1971 ' Semavi Eyice; Malazgirt Savasi Kaybeden . Romanos IV Diogenes , Ankara, 1971 ; Ali Sevim , Malazgrit , Maydam Savasi, Ankara, 1971 .

وكانت هزيمة الإمبراطور رومانوس الرابع في مانزكرت سبباً فى تفوق الأرستقراطية المدنية، الأمر نتج عنه تدهور الأوضاع العسكرية بالشكل الذى سمح للسلاجقة بمزيد من التوغل فى الأقاليم الشرقية للإمبراطورية البيزنطية.

على الرغم من فشل الأتراك السلاجقة فى التصدى لجنود الحملة الصليبية الأولى، الذين وصلوا إلى الشاطئ الأسيوى بمساعدة الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنينوس (١٠٨١-١١١٨م) ، ونجحوا فى إيقاع الهزيمة بالسلاجقة فى موقعة ضوروليوم (اسكى شهر ١٠٩٧م[١])، فإن السلاجقة ظلوا على عدائهم الشديد للإمبراطورية البيزنطية ، الأمر الذى دفعهم فيما بعد إلى إلحاق هزيمة أخرى ببيزنطة ، إذ هزموا الإمبراطور مانويل كومنينوس (١١٤٣-١١٨٠م) فى موقعة ميريو كيفالون Myriokephalon ١١٧٦م[٢]. وهى الهزيمة التى اعترف الإمبراطور مانويل بأنها تشبه هزيمة مانزكرت السابقة، وكان من أهم نتائجها ضياع هيبة آل كومنينوس فى بيزنطة ، وضياع أمل الإمبراطورية في استعادة ممتلكاتها فى آسيا الصغرى.

١- عن ذلك انظر: المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة وتقديم حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٥٨م ، ص٣٨-٤٣: ريموندا جيل تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة حسين عطية الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص٧٧ ، ٧٨ : فوشيه الشارترى ، الوجود الصليبى فى الشرق العربى. الاستيطان الصليبى فى فلسطين ، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ١٠٩٥-١١٢٧م ، ترجمة ودراسة وتعليق قاسم عبده قاسم، الكويت، ١٩٩٣م، ص١١١-١١٥ : وليم الصورى ، الحروب الصليبية، ج١ ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة، ١٩٩١م، ص٢٠٤-٢٠٥ .

٢- عن تلك المعركة انظر : المصادر التالية :

Kinnamos, J, Op. cit, p. 224 ' Choniates, Op. cit, pp. 101-107 .

ابن الأثير ، المصدر السابق، ج١١ ، ص٤١١ .

Dölger, F, Regesten der Kaiserur Kunden des Östramis schen Rieches, 565-1453 , Z. teil , 1025-1204 , Munchen, 1925, p. 86 .

وعن موقعة ميريوكيفالون وأثرها الهام ، انظر المراجع التالية:

محمود سعيد عمران ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور مانويل الأول ١١٤٣-١١٨٠ الاسكندرية، ١٩٨٥ ، ص٣٥٠-٣٥٣ : على عودة الغامدى، معركة ميرياكيفالون ١١٧٦م، مجلة كلية الشريعة ، جامعة أم القرى، مكة ، ١٤٠٤هـ .

وهكذا لم يستطع أباطرة أسرة كومنينوس إلحاق هزيمة مؤثرة بالأتراك السلاجقة المسلمين، الذين واصلوا سياستهم الهجومية ضد الأراضى والممتلكات البيزنطية.

وطوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين، انبثقت من وسط الأتراك قوى إسلامية جديدة، هم سلاجقة قونية ، والأتراك الدانشمند، لتأخذ على عاتقها مواصلة الكفاح ضد الإمبراطورية البيزنطية . فى محاولة لترسيخ فكرة الجهاد الإسلامى. وضمّ الأراضى والممتلكات البيزنطية الواحدة تلو الأخرى .

على أية حال ، فلم تكن العلاقة بين المسلمين والقسطنطينية على المستوى العسكرى والحربى فقط ، بل تعرف المسلمون على المدينة بفضل عمليات التجارة المتبادلة بين البيزنطيين والمسلمين ، تلك العملية التى كان من أبرز نتائجها أن استقرت جاليات إسلامية بالقسطنطينية فى وقت مبكر ومنذ القرن العاشر الميلادى، وهذا ما سوف نحاول أن نتبينه فى ما يلى.

نظرًا للمكانة التجارية الكبرى للقسطنطينية ، وتوسط موقعها الجغرافى بين أسواق الشرق والغرب، فقد توافد عليها التجار من كل حدب وصوب فتوجه إليها التجار الروس وتجار نوفجورد منذ القرن عبرالعاشر الميلادى (١)، وكذلك التجار البلغار الذين مارسوا التجارة فى القسطنطينية عبر استخدامهم لطريق الدانوب الأسفل وعبر مدينة سالونيك إلى القسطنطينية(٢).

كما استقر التجار الأوربيون الألمان ، والفرنسيين بالقسطنطيتية أيضًا لممارسة التجارة بها، وامتلكوا بها أحياء خاصة بهم، مجهزة بالأرصفة البحرية لاستقبال سفنهم(٣).

١- قسطنطين السابع بورفيرجنتيوس، المصدر السابق ، ص٦٠-٦٤

وانظر أيضًا : Geanakaplos, D, op. cit, p. 284 .

٢- انظر : Lewis, A, "The Danube Route and Byzantium 802-1195" in , XIVC . I, E.B, Bucarest , 1975, p. 361 .

٣- هايد، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ج١ ، ترجمة أحمد رضا، مراجعة عز الدين فودة، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٢٧١-٢٧٢ .

ولم يفت التجار اليهود أن يمارسوا التجارة بالقسطنطينية ، من ذلك التجار الراذانية ، فضلاً عن العديد من التجار اليهود المقيمين بالقسطنطينية[١]. الذين عملوا بالتجارة والحرف المتعلقة بها، كالدباغة أو حياكة الأثواب الحريرية.

وهكذا فقد كان من الطبيعى، نتيجة للأهمية والمكانة التجارية المتزايدة لمدينة القسطنطينية، أن يتوجه التجار المسلمون بتجارتهم نحو أسواق القسطنطينية منذ وقت مبكر.

وأشار أحد أهم مصادر التاريخ الاقتصادى للقسطنطينية فى القرن العاشر الميلادي، وهو «كتاب الوالى»[٢] إلى التجار الشوام الذين يصلون ، ويقيمون بالقسطنطينية ، فى عدة فصول منه . وذكر أن معظم سلعهم من المنسوجات الحريرية والملابس الكتانية، والتوابل والعطور.

وعلى الرغم من أن «كتاب الوالى» يذكر أن المدة القانونية لبقاء أى تجار أجانب فى القسطنطينية لايجب أن تتعدى الثلاثة أشهر ، فإن نفس الكتاب يذكر وجود تجار شوام بلغت إقامتهم بالقسطنطينية عشر سنوات متصلة[٣].

وفى محاولة لتفسير ذلك الوجود والاستقرار الذى قام به التجار الشوام فى مدينة القسطنطينية لفترات زمنية طويلة، فإن أحد أشهر الباحثين فى التاريخ الاقتصادى فى العصور الوسطى[٤] يذكر أن أولئك التجار ربما كانوا من المسيحيين الذين انحدروا من هجرات قديمة ، إلا أنه يستدرك فيذكر أن منهم تجاراً مسلمين تمسكوا بهويتهم، ولم تكن لديهم النية فى التحول عن الإسلام .

١- انظر: ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيدالله) المسالك والممالك، ليدن، ١٨٨٩م، ص١٥٤ : بنيامين التطيلى ، رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، بغداد ١٩٤٥ م، ص٨١-٨٢ .

٢- أشار كتاب الوالى إلى التجار المسلمين فى الفصل الخامس منه : ١، ٢، ٤، ٥ ، ص١٥٦-١٥٧ ، والفصل التاسع : ١، ٦، ص١٦٢-١٦٣ ، والفصل العاشر: ٢، ص١٦٤ .

٣- كتاب الوالى، الفصل الخامس، ٢، ص١٥٦ .

٤- انظر: Lopez. "Foreingers in Byzantium" , p. 348 .

ويتساءل أحد أشهر الباحثين العرب فى التاريخ الاقتصادى لبيزنطة حول كيفية اكتساب هؤلاء التجار الشوام لحق الاقامة الدائمة فى القسطنطينية ولايستطيع الجزم بأنهم كانوا وكلاء للتجار الشوام الكبار (١). والحقيقة أنهم ليسوا كذلك بالفعل.

وفى تصورى أن أية محاولة لتفسير الوجود الدائم للتجار الشوام (المسلمين – المسيحيين) فى القسطنطينية ، تقتضى منّا العودة إلى البحث فى طيات القرن الثامن الميلادى ، حيث المحاولة الإسلامية الأولى والجادّة لفتح القسطنطينية . تلك المحاولة التى وإن كان الفشل نصيبها فإنها أفضت فى النهاية إلى بداية الاستقرار الإسلامى فى المدينة، عبر نجاحها فى اقناع البيزنطيين ببناء مسجد داخل أسوار القسطنطينية(٢).

ويمكن اعتبار هذا المسجد ، بمثابة نواة الحى الإسلامى الموجود بالقسطنطينية فى القرن العاشر الميلادى، حيث استقر بهذا الحى التجار المسلمين الذين تحدث عنهم «كتاب الوالى».

ومن المؤكد أنه قد حدث تعاظم لدور المسجد الإسلامى بالقسطنطينية ، مما يدل على ازدياد عدد السكان المسلمين بالمدينة، وزيادة دورهم التجارى والاجتماعى .

وتخبرنا المصادر الإسلامية أن الإمبراطور قسطنطين مونوماخوس (١٠٤٢–١٠٥٥م) سعى إلى طلب ود السلطان السلجوقى طغرل بك (١٠٢٩–١٠٦٣م) الذى هاجم الأراضى والممتلكات البيزنطية. كما توسط الإمبراطور لديه أيضًا من أجل إطلاق سراح ملك الأبخاز.

قبل طغرل بك مودة ووساطة قسطنطين مونوماخوس وهداياه ، ولهذا فقد أمر الأخير باعادة تعمير مسجد القسطنطينية ١٠٤٩م، حيث أقيمت فيه الصلاة ، والخطبة باسم طغرل بك (٣).

١– وسام عبد العزيز فرج ، الدولة والتجارة فى العصر البيزنطى الأوسط ، ص٤١ .

٢– عن ذلك انظر ما سبق، ص٥١–٥٢ .

٣– ابن الأثير ، المصدر السابق، ج٩ ، ص١٨٨م: المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٢ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٩م، ص٣٢ : ابن العبرى، المصدر السابق ، ص٩٤–٩٧ . حيث تحدث عن وجود سكان عرب بالقسطنطينية عام ١٠٤٤م، وكذلك عن تجديد مسجد القسطنطينية عام ١٠٥٠م من أجل خطب ود طغرل بك.

وطوال القرون التالية اقتضت العلاقات الجيدة بين الأباطرة البيزنطيين والحكام المسلمين ضرورة الاهتمام بمسجد القسطنطينية ، فبفضل العلاقات الطيبة بين الإمبراطور إسحق أنجليوس Isaac Angelos (١١٨٥-١١٩٥م) ، والسلطان صلاح الدين الأيوبي، أرسل الأخير خطيبًا وعددًا من القراء والمؤذنين إلى مسجد القسطنطينية ، حيث كان في استقبالهم بها عدد كبير من التجار المسلمين .

واجتمع إلى الخطيب الجديد لمسجد القسطنطينية «المسلمون المقيمون بها، والتجار»(١). وهو الأمر الى يفرق بين مسلمى القسطنطينية القاطنين بشكل دائم فى الحى الإسلامى بها(٢)، وبين التجار المسلمين الوافدين إلى القسطنطينية فى رحلاتهم التجارية العادية.

وعلاوة على التجار المسلمين الشوام، فقد مارس التجار المسلمين من الأتراك السلاجقة أعمالهم بالقسطنطينية أيضًا ، وأقاموا فى الحى الإسلامى بها، وتعرضوا للاضطهاد أحيانًا إذا ما تعرضت العلاقات البيزنطية- السلجوقية للتوتر. من ذلك قيام الإمبراطور الكسيوس انجيلوس Alexius Angelos (١١٩٥-١٢٠٣م) بإلقاء القبض عل التجار المسلمين السلاجقة ، وإيداعهم السجون (٣).

١- ابن شداد (بهاء الدين يوسف) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة، ١٩٦٤ م، ص١٣٢ ، حيث ذكر وصول مترجم مع رسول الإمبراطور اسحق انجيلوس ، وهو شيخ مسلم من سكان القسطنطينية يرتدى ملابس بيزنطية . وعن العلاقات الجيدة بين اسحق انجيلوس وصلاح الدين الأيوبى انظر أيضًا : المقدسى (شهاب الدين ابن ابراهيم المقدسى الشافعى) الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج٢ ، بيروت د.ت ، ص١٥١ . الذى يذكر أن الإمبراطور البيزنطى كتب لصلاح الدين الأيوبى عن مقدم الجيش الألمانى المشارك فى الحملة الصليبية الثالثة إلى القسطنطينية . وانظر أيضًا :

Brand , ch , Byzantium and Saladin , 1185-1192 Opponents to The Third Crusade " in, Sp , XXXVII, 1962, pp. 167-181 .

٢- انظر : . Lopez, Op. cit, p. 349

الذى يرى أنه كانت هناك مساكن يعيش التجار المسلمون بداخلها ، ولاتخضع لإشراف السلطات البيزنطية..

٣- انظر : Choniates, Op. cit, pp. 271-272 .

وعلى أية حال ، كان الحى الإسلامى بالقسطنطينية فى القرن الثانى عشر الميلادى يقع غربي بوابة الحرس Drangarios ، وغربي بيراما Perama والحى البندقى.

وكان الحى الإسلامي من أوائل الأماكن التي تعرضت لهجمات الحملة الصليبية الرابعة فى أغسطس ١٢٠٤ م، وهو ما أدى إلى تدمير المسجد القائم به ، واضرام النيران فيه، وقام السكان البيزنطيون المجاورين للحى الإسلامى بمد يد المساعدة للمسلمين فى محاولة صد الهجوم اللاتينى على حيِّهم . كما عانت عدة مساجد أخرى، ويبدو أنها كانت أصغر حجماً، من أعمال الحريق ، والسلب والنهب، التى رافقت هجمات الحملة الصليبية الرابعة [١].

وهكذا كان الحى الإسلامي في القسطنطينية فى بدايات القرن الثالث عشر للميلاد، يتصف بالاتساع، واستقرار عدد كبير به من السكان والتجار المسلمين، وبشكل دائم ، وهو الأمر الذى جعل المصادر البيزنطية تطلق على الحي الإسلامى بالقسطنطينية أنذاك اسم Agarentes (نسبة إلى أبناء هاجر) ، أو Mitation فى لغة العامة البيزنطيين[٢].

(٤) *

وحمل سلاجقة الروم (سلاجقة قونية) والأتراك الدانشمنديون [٣]، خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد عبء الكفاح ضد البيزنطيين حتى اختفاء امارة قونية وظهور عدد

١- Madden, T.F, op. cit, pp. 76 , 90-92 .

٢- Choniates, Op. cit, pp. 302-303 , p. 405 . not . 1472.

وانظر أيضاً: Lopez, Op. cit, p. 349 .

الذى يذكر أن اسحق أنجيلوس قام ببناء مسجد هو Mitaton ارضاء لصلاح الدين الأيوبى، ويحدد البروفسير براند Brand مكان المسجد ، وبالتالى مكان الحى الإسلامي، بين البوسفور، وقصر بلاخرناى Blachernai كما يشير أيضاً إلى مساعدة البيزنطيين للمسلمين انظر:

"Byzantium Confronts The West" , p. 246 .

* تعالج هذه الفكرة العلاقات العثمانية – البيزنطية المبكرة وحتى نجاح السلطان محمد الثانى (الفاتح) فى فتح القسطنطينية ١٤٥٣م . وسبق أن تم نشرهما فى كتابى السابق : نيقولو باربارو، الفتح الإسلامى . يوميات الحصار العثماني ١٤٥٣م، دراسة وترجمة وتعليق حاتم الطحاوى، القاهرة، ٢٠٠٢ ، ص١٥-٣٣ . وقد ارتأيت إعادة اثباتها هنا كمدخل ضرورى لروايات شهود العيان على حصار وسقوط القسطنطينية .

٣- عن ذلك انظر: ابن البيبي، مختصر سلجوق نامه (أخبار سلاجقة الروم) ، ترجمة محمد السعيد جمال الدين، الدوحة ١٩٩٤م : على بن صالح المحاميد، الدانشمنديون وجهادهم فى بلاد الأناضول ، الاسكندرية ، ١٩٩٤م.

من الامارات التركية الصغيرة على الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، التى أخذت فى ذلك الوقت تقوم بتركيز اهتمامها نحو سياستها الأوربية .

وبشهادة المؤرخين الغربيين قامت معظم هذه الإمارات على عقيدة الجهاد ، وعمرت بواسطة المرابطين فى العالم الإسلامى. وكان جنودها يحاربون البيزنطيين من أجل ترسيخ فكرة الإيمان [١]، كما قامت امارة عثمان على وجه التحديد فوق موقع استراتيجي يتحكم فى الطرق القادمة من القسطنطينية إلى أسيا . وباعتبارهم ورثة للتقاليد الإسلامية والسلجوقية ، كانوا على دراية تامة بالنظم الإدارية، وهو الأمر الذى سمح فيما بعد لامارتهم الصغيرة بالتحول إلى امبراطورية مترامية الأطراف .

وتنتسب امارة عثمان إلى قبيلة القاى التركية، التى اضطرتها هجمات المغول على الهضبة التركيه إلى الهجرة من أواسط أسيا إلى أرمينيا ، حيث استقر العثمانيون بقيادة سليمان شاه على نهر الفرات ما بين أرضروم وأرزنجان فى العام ٦٢١هـ - ١٢٢٤م .

مكث العثمانيون بهذه المنطقة عشر سنوات قبل أن ينتقلوا برفقة سليمان شاه إلى مدينة أماسيا Amasya بالأناضول . وبعد وقت قصير أراد سليمان أن يعود إلى وطنه الأصلى فى التركستان . لكنه مات ودفن عند قلعة جعبر.

وتسبب موت سليمان شاه فى انقسام قبيلته ، فاتجه بعضها إلى خراسان بينما قاد ابنه أرطغرل البعض الآخر باتجاه أسيا الصغرى طالبًا الحماية من دولة سلاجقة الروم فى قونية ، حيث أقطعه السلطان علاء الدين كيقباد الأول (١٢١٩-١٢٣٦م) فى العام ١٢٣٢م المنطقة الواقعة حول سوجوت وجبال طومانيج وأرمينى بيله، كموطن ومرعى له وقبيلته[٢] .

١- ج . م. هسى، العالم البيزنطى، تقديم وترجمة وتعليق رأفت عبد الحميد، القاهرة ، ١٩٩٧م، ص١٨٧ .

٢- انظر : محمد فؤاد كوبريللى ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة ، ١٩٩٣م، ص١١٦-١١٧ . مع أنه يرى أن الارتباط العثمانى بقبيلة القاى لم يكن بالشئ المميز.

انظر أيضًا الكتاب القيم الذى قام الباحث التركى جمال كفادار بكتابته : Cemal kafadar, Between Two worlds, the Construction of the Ottoman States, London , 1995 , p. 122 .

حيث يشير إلى أن يازجى زاده Yazici Zade هو أول مصدر مكتوب ١٤٣٠م يربط العثمانيين بقبيلة القاى.

وهكذا قامت الاماره العثمانية الجديدة فى شمال غرب آسيا الصغرى بالأناضول وعلى تخوم الدولة البيزنطية .

وكان من الطبيعى أن يبدأ العثمانيون بعد ذلك فى مد يد العون للسلاجقة فى اغاراتهم على المدن والقلاع البيزنطية. كما استولى العثمانيون أيضًا فى عهد أرطغرل (١٢٣١–١٢٨٨م) على بعض القلاع والممتلكات البيزنطية. وبدأوا – نتيجة لموقعهم الجيوبوليتيكى الفريد– فى التفكير فى توسيع رقعة امارتهم الوليده على حساب جيرانهم البيزنطيين .

وعلى الصعيد البيزنطى ، كان الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوغس Michael VIII Palaeologos (١٢٥٨–١٢٨٢)[١] قد اغتصب العرش من أسرة لاسكارس Laskaris فى نيقيه فى العام ١٢٥٨م، مما دفعه إلى مواجهة معها أسفرت عن تسريحه لأعداد كبرى من القوات البيزنطية المرابطة على الحدود الآسيوية بسبب موالاتها لأسرة لاسكارس [٢]. وهو الأمر الذى دفعه أيضًا إلى فرض الضرائب الباهظة عل السكان[٣]، من آجل مواجهة المتطلبات العسكرية، وهو ما أدى إلى تحول القوات البيزنطية المرابطة على الحدود الآسيوية تجاه العثمانيين .

وكذلك الأمر فقد رأى السكان المحليون أن تحولهم إلى الأتراك العثمانيين سوف يجعل آمورهم المعيشية أفضل حالاً مما هى عليه تحت قيادة الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوغس. وأدى هذا الأمر فى نهايته إلى تحول ميزان القوى لصالح العثمانيين . ففى الوقت الذى ازدادت فيه هجماتهم عنفًا وضراوة ، خبت مقاومة البيزنطيين إلى درجة كبيرة.

١– عن الدور التاريخى الهام للإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوغس ،. انظر:

اسحق عبيد، الدولة البيزنطية فى عصر ميخائيل باليولوغس ١٢٦١–١٢٨٢م، بيروت ، د.ث .

٢– Pachymers ,G. De Michaele Palaeologus , vol . I. ed . Bekke in. C.S. H. B. Bonne. 1885, pp. 221, 244-250 .

محمد فؤاد كوبريللى ، المرجع السابق، ص١٢٦–١٢٧ . لكنه أشار إلى أن قوات الاكريتاى Akritai البيزنطية . التى قام ميخائيل الثامن باليولوغس بتسريحها ، كانت تدعى بالخرائطية، حسب المصادر الإسلامية .

٣– Pachymers , Op. cit, pp. 221-22 .

وبعد وفاة أرطغرل ، خلفه ابنه عثمان (١٢٨٨-١٣٢٦م) ، الذى وجد مسرح الأحداث مهيأ لكى يواصل العثمانيون قضم الممتلكات البيزنطية، عبر التحالف مع عدد من قادة المدن والقلاع البيزنطية فى آسيا الصغرى، وتأليبهم ضد السلطة البيزنطية، وضد بعضهم البعض، وفشلت الدفاعات البيزنطية فى ايقاف الزحف العثماني[1]، لدرجة أنه لم يتبق لبيزنطة فى شمال غرب آسيا الصغرى سوى مدن بروسه ونيقيه ونيقوميديا، والأقاليم التابعة لها، فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى.

وكان من الطبيعى أن ينتهز السلطان عثمان تدهور الأحوال السياسية والعسكرية للإمبراطورية البيزنطية، وأن يفكر فى الاستيلاء على مدينة نيقيه. وهو الأمر الذى توقعه الامبراطور البيزنطى أندرونيكوس الثانى باليولوغس Andronicue II Palaeologos (١٢٨٢-١٣٢٩م) فحاول ايقاف تقدم العثمانيين داخل أراضى وممتلكات بيزنطة، واعتبر عثمان من أخطر أعدائه الأتراك ، واستجمع الامبراطور قواته للتصدى للقوات العثمانية ، لكن الأخيرين استطاعوا تشتيت شمل الجيش البيزنطى فى العام ١٣٠١م بالقرب من مدينة قوبون حصار (بافيوم)[2] إلى مسافة ليست بعيدة عن مدينة نيقوميديا . وساعد هذا الانتصار على استتباب الأمور للعثمانيين فى آسيا الصغرى .

ارتفعت معنويات العثمانيين بعد هذا النصر، وهو ما شجعهم على الزحف باتجاه مدينة نيقيه الشهيره، وقاموا بفرض الحصار عليها ، وعلى الرغم من فشل العثمانيين فى اقتحام المدينة ، فقد فرضوا الحصار عليها من أجل اجبارها على الاستسلام، وهو الأمر الذى لم يحدث آنذاك.

١- انظر المصدر العثمانى الهام لابن عاشق باشا :

Asik Pasa oglu Tarihi . Hazirlayan . A. Nihal Atsiz. Ankara, 1985, pp. 18-19 .

٢- Pachymers, Op. cit, p. 327 .

محمد فؤاد كوبريللى، المرجع السابق، ص١٦٣ .

انظر أيضاً : ناهد عمر صالح السياسة الخارجية للدولة البيزنطية فى عهد الامبراطور اندرونيقوس الثانى باليولوغس ١٢٨٢-١٣٢٨م. رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة، ١٩٩٩م، ص٨٢ .

بعد أن أتت سياسة عثمان ثمارها على صعيد العلاقات مع السلطة البيزنطية، ومع قادة المدن البيزنطية، أدرك الأخيرون مدى خطورة عثمان على مدنهم، فقاموا بتكوين حلف يهدف إلى تقويض سياسة عثمان عن طريق اجباره على تغيير بوصلة سياسته من الهجوم إلى الدفاع. وتجمعت قوات هذا الحلف البيزنطي من أجل مهاجمة عثمان فى عاصمته ينى شهر، لكن عثمان أدرك هدف أعدائه، وقام بالقضاء على تلك المحاولة فى مهدها ٧٠٧هـ - ١٣٠٧ م.

ويمكن اعتبار ذلك العام بمثابة نقطة الأنطلاق الحقيقة لفتوحات عثمان الكبرى على حساب المدن والأراضى البيزنطية . إذ نجح عثمان فى ازاحة القوى العسكرية لقادة المدن، مما فتح أمامه الطريق للاستيلاء عليها ، وهو الأمر الذى جرى بوتيرة سريعة بعد العام ١٣٠٧م.

وتطلع عثمان نحو الاستيلاء على مدينة بروسا Brusa لأهميتها الاستراتيجية فقام بعدة محاولات - لم تلق نجاحًا- لحصارها والاستيلاء عليها فى الأعوام ٧١٨هـ- ١٣١٨م، ٧٢٠هـ-١٣٢٠م، ٧٢٢هـ -١٣٢٠م، ٧٢٢هـ- ١٣٢٢م، مما دعاه إلى فرض حصار نهائى عليها. وتم اجبارها على التسليم عام ٧٢٦هـ- ١٣٢٦م (١). حيث أبدى عثمان قدرًا كبيرًا من التسامح مع سكان بروسا. وترك لهم حرية البقاء بها أو الرحيل .

وكان من أبرز نتائج استيلاء العثمانيين على مدينة بروسه أن رسخت أقدام تلك القوة العسكرية الجديدة فى أسيا الصغرى، فى الوقت الذى تدهورت فيه مكانة بيزنطة وبدأ للعيان أن نجمها فى أفول .

قام السلطان الجديد أورخان ابن عثمان (١٣٢٦-١٣٥٩م) باتخاذ مدينة بروسا عاصمة جديدة للعثمانيين . وبعد أن قام بالتقاط أنفاسه ولّى وجهه صوب الاستيلاء على مدينتى نيقيه(٢) (التى استعصت على الفتح منذ حين). ونيقوميديا، وبدأ استراتيجية عسكرية تهدف إلى قطع خطوط الإمدادات البيزنطية نحو المدينتين .

أدرك الامبراطور أندرونيكوس الثالث باليولوغس Andronicus III Palaeologos (١٣٢٨-١٣٤١) مرمى السلطان أورخان . فاتجه على رأس جيش بيزنطى لانقاذ مدينة نيقيه ١٣٢٩م، حيث واجه القوات العثمانية عند بيلكانو (مالتبه Maltepe) ، والتى الحقت به هزيمة

١- Asik Pasa, Op. cit, pp. 36-38 ; Nicole. D, The Last Centuries of Byzantium . London 1972, p. 154 .

٢- Asik Pasa, Op. cit, pp. 46-47 ; Nicol, Op. cit. p. 174 .

ساحقة ، ومزقت شمل القوات البيزنطية، لدرجة أن الإمبراطور أندرونيكوس نفسه لحقت به إصابة فى هذه المعركة . ولم يكتف العثمانيون بهذا النصر ، بل تعقبوا فلول الجيش البيزنطى عند فيلوكرين Philocren فى طريقه تجاه القسطنطينية ، وأعملوا فيه القتل والأسر.

كان من أهم نتائج انتصار العثمانيين على البيزنطيين فى بيلكانو وفيلوكرين ١٣٢٩م، أن سقطت مدينة نيقيه فى يد العثمانيين دون قتال ٧٣١هـ - ١٣٣١م. حيث أبدى أورخان- كأبيه سياسة تسامحيه ازاء سكان المدينة، وخيرهم بين البقاء فيها أو الرحيل عنها .

استمر السلطان أورخان فى التوغل داخل الأراضى البزينطية الباقية فى آسيا الصغرى، مما أدى ببيزنطة إلى عقد معاهدة سلام مع العثمانيين فى العام ١٣٣٣م [(١)].

وعلى الرغم من هذا فإن البحرية العثمانية لم تلتزم بهذا الأمر، وتطلعت فى العام ١٣٣٧م إلى مهاجمة سواحل مدينة القسطنطينية . غير أن الأسطول البيزنطى - وبسبب خبرته البحرية الطويلة على العثمانيين- تمكن من دحر واغراق السفن العثمانية المهاجمة .

كان من أهم نتائج تلك المغامرة البحرية الفاشلة، أن اتخذ السلطان، أورخان قراره بضرورة الاستيلاء على مدينة نيقوميديا، التى عانت من الحصار العثماني، وسلمت فى النهاية دون قتال ١٣٣٧م[(٢)]. ومرة أخرى سمح أورخان لسكانها بحرية البقاء أو الرحيل .

وهكذا استولى العثمانيون على آخر المدن البيزنطية شمال غربى آسيا الصغرى، ووصلت الجيوش العثمانية إلى شواطئ البوسفور .

وجد الامبراطور أندرونيكوس الثالث باليولوغس نفسه فى موقف عسكرى لايحسد عليه، فقد وصل أعداؤه العثمانيون إلى ساحل مضيق البوسفور ، وأصبحوا يواجهون الآن المدينة العظمى، القسطنطينية، مباشرة .

١- نصت المعاهده على أن يدفع الامبراطور البيزنطى أندرونيكوس الثالث باليولوغس ١٢٠ ألف هيبربيرون للعثمانيين، وأن تبقى الأراضى البيزنطية فى بيثينيا بآسيا الصغرى فى قبضة البيزنطيين مع اعتراف الامبراطور البيزنطى بالممتلكات العثمانية الجديدة فى آسيا الصغرى. وأن تكون مدة هذه المعاهدة عشرين عامًا . انظر:

وانظر أيضًا ، صلاح ضبيع ، العلاقات السياسية بين العثمانيين والامبراطورية البيزنطية فى عصر آل باليولوغس ١٢٦١-١٤٥٣م، رسالة دكتوراه لم تنشر ، جامعة جنوب الوادى ، مصر ، ١٩٩٨م، ص٩١-٩٢ .

٢- Asik Pasa , Op. cit, pp. 50-51 .

وفى محاولة منه لايقاف المد العثمانى نحو القسطنطينية، أصدر الامبراطور مرسوماً قضى فيه باعدام كل من يقوم بالمساعدة فى رسو أية سفينة عثمانية فى مضيق البوسفور أمام غاليبولى Gallipoli ، لأنه كان يأمل أن يستمر ذلك الحاجز الطبيعى حائلاً بينه وبين تطلعات السلطان أورخان والعثمانيين نحو العبور إلى أوربا، والاستيلاء على العاصمه القسطنطينية.

وعلى أثر وفاة الامبراطور أندرونيكوس الثالث باليولوغس ١٣٤١م، نشبت حرب أهلية بين أرملته الامبراطورة أنا Anna الوصية على ابنه يوحنا الخامس باليولوغس(١)، وبين يوحنا كانتاكوزينوس John Cantacuzenus الذى كان وصياً عليه أيضاً . فلم تجد الإمبراطوره بداً من الاستنجاد بالسلطان العثمانى أورخان، الذى قبل مساعدتها ، وفى نفس الوقت قام يوحنا كانتاكوزينوس بطلب المساعدة من أورخان مقابل أن يقوم بتزويجه من ابنته الأميره ثيودورا Theodora . فاختار أورخان أن يهبّ لمساعدة كانتاكوزينوس .

والحقيقة أنه من المفارقات التاريخية التى لايجب أن تغيب عن بالنا، أن العبور العثمانى الأول نحو القارة الأوربية كان بناء على طلب الامبراطور البيزنطى يوحنا السادس كانتاكوزينوس (١٣٤٧-١٣٥٥م) الذى استنجد بأورخان، فانتهز الأخير الفرصة وأمده بقوات تتألف من عشرة آلاف مقاتل ساهمت فى تثبيت كانتاكوزينوس على العرش البيزنطى ١٣٤٧م مع يوحنا الخامس باليولوغس ، فضلاً عن زواج أورخان من الأميرة ثيودورا (٢).

واجتمع الامبراطور يوحنا السادس كانتاكوزينوس مع السلطان أورخان فى نفس العام عند اسكوتارى Scutari ، وطلب منه – مرة أخرى- المساعدة فى حربه ضد الصرب. فاستجاب أورخان وأرسل له عشرين ألف مقاتل عثمانى ١٣٤٩م، ونجحت تلك القوة العثمانية بعد ذلك بثلاث سنوات ١٣٥٢م فى سحق الصرب فى معركة ايمبيثيون(٣) على نهر ماتيزا Matiza .

١- Doukas, op. cit, pp. 64 , 71 , 75-76 .

٢- Doukas, Op. cit, pp. 71-73 ; Nicol , Op. cit, p. 209 .

٣- Dolger , Op. cit., T.S, p. 33 .

لكنه يحدد تاريخها بالعام ١٣٤٩م ؛ انظر أيضاً ، صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص١٠٧-١٠٨ .

وهكذا استغل العثمانيون فرصة الحرب الأهلية البيزنطية للحصول على موطئ قدم لهم فى القاره الأوربية ، ذلك الموطئ الذى لم يقوموا بالتزحزح عنه قيد أنملة، حتى نجحوا فى النهاية فى الاستيلاء على العاصمة البيزنطية ١٤٥٣م.

على أية حال واصل العثمانيون سياسة الاستيلاء على الأراضى البيزنطية فى القاره الأوربية، فاستولوا على مدينة غاليبولى فى العام ١٣٥٤م[١]، ومنها انطلقوا نحو الاستقرار فى أراضى البلقان .

لم يجد الامبراطور يوحنا السادس كانتاكوزينوس أمامه سوى استخدام أسلوب المفاوضات مع السلطان العثمانى أورخان ، وابنه سليمان ، من أجل استعادة الأراضى البيزنطية التى استولى العثمانيون عليها ، لكن أورخان وابنه رفضا ذلك ، وتمسك العثمانيون بممتلكاتهم الجديدة فى أوربا .

وكان من نتيجة ذلك الرفض العثمانى أن اعتبر الشعب البيزنطى أن الامبراطور كانتاكوزينوس هو المسئول المباشر عن استقرار العثمانيين فى البلقان وهو الأمر الذى دفع الامبراطور إلى التنازل عن العرش البيزنطى أواخر العام ١٣٥٤م[٢].

ومن ناحية أخرى واصل سليمان ابن أورخان فتوحاته فى الأراضى البيزنطية فى البلقان ، وقام بالاستيلاء العديد من المدن والقلاع أهمها مدينة ديموطيقيا ١٣٥٧م[٣].

١- Asik Pasa, Op. cit, pp. 51-53 ‘ Dolger, Op. cit, T.S. p. 36 ; Nicol, Op. cit, pp. 253-254.

وحول الاختلاف على تاريخ استيلاء العثمانيين على المدينة انظر:

Charanis, p. On The Date of The Occupation of Gallipoli ; by The Turk, in Social , Economic and Political Life in the Byzanatine Empire, London , 1973, pp. 113-117 .

٢- تنازل يوحنا السادس كانتاكوزينوس عن العرش البيزنطى فى الرابع من ديسمبر ١٣٥٤م . وانضم إلى سلك الرهبنة فى دير بيربليبتوس Peribleptos ، انظر :

Doukas, Op. cot, p. 78 .

٣- Asik Pasa, Op. cit., p. 55 .

وازداد نجم العثمانيين صعوداً ، فبعد أن اعتلى السلطان مراد الأول (١٣٥٩-١٣٨٩م) العرش العثماني خلفًا لوالده أورخان ، استمرت الفتوحات العثمانية التى اجتاحت مدن (أدرنه) Adrianople [1]. وفيليبوبوليس Philipopolis فى الأعوام ١٣٦١م، ١٣٦٣م، الأمر الذى دعا الامبراطور البيزنطى يوحنا الخامس باليولوغس John V Palaeologos (١٣٥٥-١٣٧٦م) إلى ادراك خطورة موقفه، وخطورة وضع مدينة القسطنطينية ، فعقد اتفاقية سلام مع مراد الأول، اعترف فيها بالسلطان العثمانى سيداً له [2]. فى العام ١٣٦٢م.

تغاضت البابوية الكاثوليكية عن التوسع العثمانى فى أراضى وممتلكات الامبراطورية البيزنطية الارثوذكسية . وعندما اقترب التهديد العثمانى الإسلامى من الدول الأوربية التى تدين بالمذهب الكاثوليكي، والخاضعه لسلطة البابا الروحية، سعى البابا اربان الخامس Urban V (١٣٦٢-١٣٧٠م)[3] لاعداد حملة صليبية ضد العثمانيين بقيادة أماديو السادس كونت سافوى Amadio VI of Savoy [4]. لكن تلك الحملة - المباركة من البابوية والغرب- لم تنجح سوى فى استرجاع مدينة غاليبولى ١٣٦٦م[5]، وبعض القلاع على بحر مرمرة .

١- Asik Pasa, Op cit, pp. 57-58.

القرمانى (ابن العباس أحمد بن يوسف الدمشقى) أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ، بيروت ، د.ت ، ص٢٩٩ .

Zachariadou, E. "The Conquest of Adrianople by The Turks" in . S.V . XII. 1970, pp. 211-217.

٢- Nicol, Op. cit, p. 273.

٣- هو سادس بابوات أفينيون Avignon . كان اسمه الحقيقى وليم دى جريمورد Guillaume de Grimoard . ودرس فى مونبيليه وتولوز ومارسيليا . تم اختياره خليفة للبابا انوسنت الرابع بينما كان فى مهمة فى نابولى . قدم مساعدة للبيزنطيين ١٣٦٤م لمقاومة الأتراك : أنظر Kelly, J.N. Oxford Dictionary of Popes, Oxford, 1986, pp. 223-225.

٤- منح البابا اربان الخامس أماديو السادس كونت سافوى حق الامتيازات المالية كأمير صليبى ، كالهبات والعشور والمساعدات المالية، طبقًا لما هو سائد فى كونتية سافوى وكافة الأراضى الموجودة تحت يده. انظر : Atiya, A.S, The Crusades in the Later Middle Ages, London, 1938, pp. 380-381;

Nicol, Op. cit., p. 276.

٥- Nicol, Op. cit, pp. 276-277.

بعد نجاح العثمانيين فى اكتساح منطقة البلقان، أدرك البيزنطيون الخطر الداهم الذى يتربص بهم، وحاولت السياسة البيزنطية استمالة الغرب الأوربى من أجل الوقوف فى وجه الخطر العثمانى [١]. وبدأ الامبراطور يوحنا الخامس باليولوغس فى تكثيف اتصالاته بالغرب اللاتينى عارضاً وحدة كنيستى القسطنطينية وروما. على حين ظلت غالبية الشعب البيزنطى تؤيد كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية فى رفضها سياسة يوحنا والاتحاد الكنسى ، وهو ما دفع البابوية إلى عدم تقديم أى دعم حقيقى للامبراطور البيزنطى .

وعلى أية حال ، بدأ العثمانيون بقيادة السلطان مراد الأول توسيع دائرة نفوذهم فى أوربا على حساب الامبراطور البيزنطية والصرب، وأكبر دليل على ذلك هو انتقال البلاط العثمانى من آسيا إلى تراقيا Trace ، واستقرار السلطان العثمانى فى العاصمة الجديدة أدرنه منذ العام ١٣٦٥م.

وبعد فشل رحلة الامبراطور يوحنا الخامس باليولوغس إلى الغرب من أجل استجداء المساعدة لانقاذ القسطنطينية ، أقدم على ما كان لابد وأن يقدم عليه ، فعقد معاهدة سلام مع السلطان مراد الأول فى العام ١٣٧٢م [٢] تعهد فيها بدفع جزية سنويه للسلطان العثمانى، والاعتراف به سيداً له، مع تقديم العون العسكرى له وقت الحاجة.

وهكذا أصبحت الامبراطورية البيزنطية – بمقتضى تلك المعاهدة– مرتبطة بالأتراك العثمانيين من الناحية العملية، وأصبح الامبراطور البيزنطى العريق مجرد تابع اقطاعى عليه أن يؤدى الالتزامات العسكرية نحو سيده العثمانى .

١- Nicol , Op. cit , p. 284 .

٢- Ibid, p. 287 .

لكن البروفسير نيقول يعتمد على ما ذكره المؤرخ البيزنطى خالكوكونديليس Chalcocandylas .

على أية حال فإن هذه المعاهدة نصت على أن يدفع الامبراطور يوحنا جزية سنوية للسلطان مراد الأول، وكذا تقديم الخدمة العسكرية له، وترك ابنه مانويل رهينة لديه، فضلاً عن السماح لكل من يرغب من العثمانيين بحرية الدخول إلى القسطنطينية كل ذلك مقابل أن يغض السلطان مراد الطرف عن الامبراطور يوحنا، وأن يسمح له بحكم القسطنطينية وسالونيك وبعض الجزر فى بحر ايجه .

وتوجد مناقشه جيده للأسباب الحقيقية التى جعلت الامبراطور البيزنطى لايجد أمامه مفراً سوى الخضوع للسلطان العثمانى، من أجل انتظار المسانده الغربية ، ومن أجل الحفاظ على وحدة الجبهة الداخلية، وحتى لايقوم ابنه اندرونيكوس بالثوره ضده. انظر: صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص١٣٨ .

ولم يكتف العثمانيون بهذا، فنجحوا فى دحر الصرب مرتين الأولى عام ١٣٧١م(١)، والثانية فى كوسوفو ١٣٨٩م(٢)، التى سميت بمرج الشحارير ، حيث خضع الصرب والبلغار بعدها للدولة العثمانية .

وانعكست العلاقة الطيبة بين السلطان مراد الأول والامبراطور يوحنا الخامس باليولوغس على ولديهما ساوهى شلبى، واندرونيكوس ، اللذان احتفظا معًا بعلاقات صداقة ومودة . وفكرًا أيضًا فى اعتلاء الحكم عبر القيام بثورتين ضد والديهما .

أدرك السلطان مراد أبعاد المؤامرة الخاصة به ، ونجح فى القضاء على الثورة وقتل ابنه الطامح إلى العرش(٣). وعلى الصعيد البيزنطى نجح الامبراطور اندرونيكس أيضًا فى التصدى لطموحات ابنه، وزج به فى السجن بعد أن سمل عينيه (٤).

وعلى الرغم مما جرى لأندرونيكوس الابن، فقد تمكن من الهرب من محبسه بعد ثلاث سنوات ١٣٧٦م، ولجأ إلى الجنويه فى مستعمرة Galata غلطة التجارية (٥). وعاود من هناك اتصالاته بالسلطان مراد طالبًا مساعدته فى اقتحام القسطنطينية مقابل بعض التنازلات للعثمانيين. وبالفعل نجح أندرونيكوس -بفضل المساعدة العسكرية الكبيرة التى قدمها له السلطان مراد- فى دخول القسطنطينية فى منتصف عام ١٣٧٦م، حيث قام بالقاء القبض على والده الامبراطور يوحنا الخامس باليولوغس، وأخويه مانويل وتيودور (٦).

وكما سبق أن تمكن اندرونيكوس من الهرب من من سجنه ، تمكن أيضًا والده الامبراطور السابق يوحنا الخامس وولديه من الفرار بعد ثلاث سنوات من السجن ١٣٧٩م(٧). وكما هى

١- Asik Pasa, Op. cit, pp. 59-60 .

٢- Ibid, p. 56 . Housley . N , The Later Crusades. from Lyons to Alcazar 1274-1580 , Oxford , 1992 , pp. 71 , 77 , 86 , Nicol, Op. cit, p. 300 .

٣- Doukas, Op. cit, p. 79 .

٤- Ibid, p. 80 .

٥- Loc. cit .

٦- Loc. cit .

٧- الذى يذكر أن فترة سجنهما كانت سنتين . Loc. cit .

وانظر أيضًا Nicole, Op. cit, p. 292 .

العادة توجهوا جميعاً لاستجداء المساعدة من السلطان مراد الأول، وعقد الطرفان معاهدة من أجل عودة يوحنا الخامس إلى العرش البيزنطي في مقابل تقديم العديد من الامتيازات والتنازلات للسلطان العثماني (١).

وهكذا تمكن يوحنا الخامس باليولوغس – بفضل المساعدة العسكرية العثمانية– من دخول القسطنطينية في منتصف عام ١٣٧٩م، وهرب ابنه أندرونيكوس –ثانية– إلى الجنوية في غلطة.

وبعد عامين من المفاوضات حول أحقية الأب والابن بالعرش البيزنطي، تم التوصل إلى صيغة تسوية في العام ١٣٨١م ، تقضي بأن يرث اندرونيكوس عرش والده بعد وفاته .

وأراد مانويل ابن الإمبراطور يوحنا الخامس أن يخرج من فكاك التبعية للسلطان العثماني، فقام العثمانيون بحصار مدينة سالونيك Thessalonic والاستيلاء عليها في أبريل ١٣٨٧م (٢). حيث هرب مانويل من المدينة ، وسعى إلى الاختباء عند أحد أصدقائه من حكام المدن، لكنهم رفضوا جميعاً استقباله ، وحتى القسطنطينية نفسها رفضت استقباله خشية غضب السلطان مراد.

وهكذا لم يجد مانويل أمامه مفراً من التوجه بنفسه إلى السلطان مراد في عاصمته بروسه، وتقديم فروض الطاعه والولاء لسيده العثماني.

ويمكننا أن ندرك من الأحداث السابقة مقدار النفوذ العثماني في القسطنطينية في الربع الأخير من القرن الرابع عشر الميلادي، وكيف كان السلطان مراد الأول هو الرقم الصعب في

١- نصت المعاهدة على أن يدفع الإمبراطور يوحنا الخامس باليوغولس ثلاثين ألف بيزانت كجزية سنوية للسلطان مراد الأول . وأن يقدم له – مع ابنه مانويل– فروض الطاعة والولاء تجاه سيدهم العثماني . وأن يقومون بتزويده بفرقة عسكرية بيزنطية بشكل سنوي للمساعده في حروب السلطان العثماني . وبالإضافة إلى ذلك يتنازل الإمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس عن مدينة فيلادلفيا للسلطان مراد. وتنبع أهمية هذه المدينة أنذاك من كونها آخر الممتلكات البيزنطية في آسيا الصغرى. عن ذلك انظر :

Charanis , p. An Important Short Chronicle of the Fourteenth Century, in Social , Economic and Political Life in the Byzantine Empire , pp. 335-362 .

٢- Nicol, Op. cit, pp. 296-298 ; Charanis, Op. cit, p. 359 .

معادلة التسوية السياسية بين العثمانيين والبيزنطيين. والحقيقة أن علاقة التبعية التى ربطت أفراد أسرة باليولوغس الحاكمة فى القسطنطينية ، بالسلطان العثمانى مراد الأول لم تنته إلاّ بوفاة الأخير فى معركة كوسوفو منتصف ١٣٨٩م.

اعتلى السلطان بايزيد الأول (١٣٨٩-١٤٠٢م) العرش العثمانى، بعد وفاة والده مراد الأول، واستمر فى متابعة السياسة العثمانية الرامية إلى التدخل فى الصراعات العائلية بين أفراد أسرة باليولوغس فى القسطنطينية، فاقدم بايزيد على مساعدة يوحنا السابع ابن اندرونيكوس الرابع فى دخول القسطنطينية ١٣٩٠م. لكن الامبراطور يوحنا الخامس تمكن من طرد يوحنا السابع وقواته من المدينة .

مارس السلطان بايزيد علاقة التبعية بين العرشين العثمانى والبيزنطى، فاصدر أوامره للامبراطور يوحنا الخامس بأن يرسل إليه ابنه الأمير مانويل على رأس قوة تتألف من مائة مقاتل بيزنطى، ولم يكن أمام الامبراطور الضعيف سوى تنفيذ تلك الأوامر ، فأرسل ابنه مانويل الذى ساعد السلطان بايزيد فى الاستيلاء على مدينة فيلادلفيا آخر معاقل البيزنطيين فى آسيا الصغرى .

استغل الامبراطور يوحنا الخامس غياب السلطان بايزيد فى آسيا الصغرى ، وقام باجراء بعض الاصلاحات والترميمات فى أسوار القسطنطينية[1]، الأمر الذى آثار غضب بايزيد، وهدد الامبراطور البيزنطى بسمل عينى ابنه مانويل الموجود لديه، إذا لم يقم بهدم التحصينات والترميمات التى قام بها فى أسوار المدينة [2].

وهكذا فلم يكن أمام يوحنا الخامس بدٌ من هدم ما قام به من اصلاحات ، ويبدو أن الامبراطور البيزنطى لم يستطع تحمل كل تلك المهانات الموجهة من قبل السلطان العثمانى ، فمات فى أوائل العام ١٣٩١م.

علم مانويل بوفاة والده ، وهو فى معسكر السلطان بايزيد فى آسيا الصغرى، فتسلل هارباً من المعسكر العثمانى [3]، ووصل إلى القسطنطينية حيث اعتلى العرش البيزنطى (١٣٩١-١٤٢٥م) .

١- Doukas, Op. cit., p. 82 .

٢- Loc. cit .

٣- Loc. cit .

استمر السلطان بايزيد فى ممارسة علاقة التبعية مع الامبراطور الجديد مانويل، وأصدر إليه العديد من الأوامر، التى أبدى مانويل تنمره منها، الأمر الذى جعل السلطان العثمانى يوجه إليه رسالة ضمنها عبارته الشهيرة «إذا لم تكن راغبًا فى تنفيذ أوامرى ، فـأغلق عليك أبواب مدينتك (القسطنطينية)، واحكم داخلها ، فكل ما وراء الأسوار ملك لى»[١].

غير أن الإمبراطور مانويل أعلن رفضه وتنمره من العلاقة التى تضمن تبعيته للسلطان بايزيد، وعندها توجه السلطان العثمانى بقواته إلى تراقيا، ثم تقدم نحو القسطنطينية لمحاصرتها[٢]. ولم ينته الحصار إلاّ بعد رضوخ الامبراطور البيزنطى مانويل لمطالب بايزيد، والتى كان من ضمنها ضرورة انشاء مسجد جديد فى القسطنطينية .

وعادت العلاقات الطبيعية بين مانويل والسلطان بايزيد ، حيث قدم الأول على رأس قواته إلى أسيا ١٣٩١م لمساعدة بايزيد فى حروبه هناك .

وأمر السلطان بايزيد بضرورة عقد اجتماع فى مدينة سارديس Sardis فى نهاية ١٣٩٣م وبداية ١٣٩٤م ، قام فيه بجمع كافة حكام المدن التابعين له ، من أجل تكريس المزيد من تبعيتهم له، وتقديم المساعده العسكرية بشكل دائم[٣].

١- Doukas , Op. cit. p. 83 .

فى الحقيقة فإن السلطان العثمانى بايزيد كان يهدف إلى اذلال الامبراطور الجديد مانويل، إذ أرسل إليه يطلب منه – على وجه السرعة– استقبال وتعيين قضاة مسلمين من أجل تسيير شئون التجار العثمانيين بالقسطنطينية الذين لايجب أن يمثلوا بين أيدى قضاة بيزنطيين بعد الآن. كما أنه يجب على الامبراطور تخصيص حى كامل فى القسطنطينية لاقامة هؤلاء التجار المسلمين الذين يحق لهم ممارسة شعائر دينهم بحرية تامة . ولم ينس السلطان بايزيد تذكير مانويل بضرورة دفع الجزية السنوية التى قام أبوه يوحنا الخامس بدفعها، وأن يكرس فى النهاية تبعيته المطلقة للسلطان العثمانى .

واضطر مانويل – نتيجة لحرج موقفه– إلى قبول شروط السلطان بايزيد، فأقام محكمة إسلامية، وحيًا اسلاميًا فى منطقة سيركجى Sirkeci تحت حراسة حامية عثمانية ، بالإضافة إلى موافقته على تشييد مسجد جديد فى الحى الإسلامى انظر: صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص١٦٥ .

٢- Asik Pasa, Op. cit, pp. 68-69 .

٣- Nicol, Op. cit, p. 314 .

ومرة أخرى قرر الامبراطور مانويل التخلص من علاقة التبعية للسلطان بايزيد ، فكان رد الأخير أن قام بحصار القسطنطينية ١٣٩٤م[١]، وبدأ فى تنفيذ تهديده السابق لمانويل ، إذ استولت قواته على جميع ممتلكات الامبراطور خارج أسوار المدينة. وبدا أن مسرح الأحداث قد أصبح مهيأً لسقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين هذه المرة.

ولم يكن أمام الامبراطور البيزنطى إلا أن يتوجه – كما فعل والده من قبل– نحو الغرب الأوربى، يناشده حماية القسطنطينية التى ظلت قرونًا طويلة حصن الأمان الشرقى للعالم الأوربى المسيحى [٢].

لكن مناشدة الامبراطور مانويل لم تثر فى الغرب سوى الشعور بالعطف، إذ ذهبت نداءاته ادراج الرياح، ولم تصله سوى تطمينات معنويه، ووعد – لم يتحقق أبدًا– بالمساعدة . ومكث الامبراطور فى باريس ينتظر وصول خبر سقوط القسطنطينية ، بين يوم وآخر ، فى الوقت الذى توجهت فيه سفارة من النبلاء البيزنطيين إلى آسيا الصغرى من أجل تسليم مفاتيح مدينة القسطنطينية للسلطان بايزيد الأول[٣].

١- Doukas , Op. cit, pp. 83-86 ' Asık Pasa Op. cit, pp. 68-70 .

٢- Doukas , Op. cit, p. 83 .

أرسل الامبراطور مانويل أولاً برسائله إلى البابا، وإلى ملك فرنسا وإلى حاكم المجر يخبرهم فيها بحصار القسطنطينية واقتراب سقوطها. فى أيدى أعداء المسيحية . وذلك قبل أن يغادر القسطنطينية فى العاشر ديسمبر ١٣٩٩م برفقة كبار النبلاء ورجال الدين البيزنطيين . وصل الإمبراطور إلى البندقية ١٤٠٠م، ثم إلى بافيا وميلان ، ومنها تحرك ركبه حتى الحدود الفرنسية ، حيث اصطحبته فرقة من الضباط أرسلها شارل السادس ملك فرنسا الذى رحب بالامبراطور البيزنطي فى باريس. وقام بترتيب اجتماعات له مع ملوك قشتالة وأراجون.

وفى نفس العام ١٤٠٠م، غادر مانويل فرنسا متجهًا إلى انجلترا عبر ميناء كاليه لمقابلة الملك هنرى الرابع . والحصول على نجدة عسكرية ثم غادر لندن فى منتصف العام ١٤٠١م إلى باريس مرة أخرى.

وعن وجود الامبراطور مانويل الثانى فى انجلترا انظر .

Nicole , D, A Byzantine Emperor in England . Manuel's Visit to London in 1400-1401:, in Byzantium : its ecclesiastical history and relations with Westen World . London , 1972 , pp. 204-225 .

٣- Barker, J.W, Manuel II Palaeologus, 1391-1425 . A Study in Later Byzantine States-manship, New Jersey , 1969, p. 215 .

وهكذا كانت القسطنطينية على وشك السقوط النهائى فى أيدى العثمانيين فى بداية القرن الخامس عشر الميلادى، لولا تدخل القدر ليزيد من عمر بيزنطه نصف قرن جديد. فقد تنامت قوة المغول فى نهاية القرن عشر تحت قيادة تيمور لنك Timerlane ، ولم يحاول السلطان العثمانى بايزيد أن يتجنب الاستفزازات المغولية حتى ينتهى مشروعه الحربى باسقاط القسطنطينية ، وربما فكر بايزيد فى القضاء على الخطر المغولى فى شرق السلطنه العثمانية ، على أن يعود بعد ذلك لمعاودة حصاره للقسطنطينية التى كانت آنذاك بلا حول ولا قوة بشكل فعلى. وهنا كان خطوّه القاتل .

على أية حال نجح تيمور لنك فى ايقاع هزيمة مروعة بالجيش العثمانى فى معركة أنقرة ١٤٠٢م، بل أنه تمكن من أسر السلطان بايزيد نفسه، الذى مات فى الأسر بعد عدة أشهر[١].

انعكست آثار هزيمة العثمانيين فى موقعة أنقرة على مسرح الأحداث داخل السلطنة العثمانية، وفى بيزنطه ، فقد مكّن الانتصار المغولى ، وزوال الخطر العثمانى عن القسطنطينية، الامبراطور مانويل من العودة إلى عرشه بالقسطنطينية كما اضطر الأمير سليمان ابن

١- تعد معركة أنقره ٨٠٤هـ / ١٤٠٢م من أهم المعارك العسكرية فى العصور الوسطى . لأثرها على كافة القوى بالمنطقة. عن ذلك انظر:

ابن عربشاه (ابى العباس شهاب الدين بن محمد الدمشقى) ، عجائب المقدور فى نوائب تيمور ، تحقيق فايز الحمصى ، بيروت ، ١٩٨٦، ص٢١٩-٢٣١ : ابن العماد والحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ج٧، بيروت ، ب.ت، ص٤٧ .: ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج١٢ ، القاهرة ، د.ت ، ص٢٦٧-٢٦٨ ويذكر ابن تغرى بردى، أنها حدثت فى السابع والعشرين من ذى الحجة ٨٠٤هـ .

Asik Pasa, Op. cit, pp. 75-81 ; Doukas , Op. cit, pp. 90-95 .

Nicol , Op. cit , pp. 329-330 ' M.M , Alexandrescu - Dersc, La Campagne de Timur en Anatolie 1402. London , 1972, pp. 68-79 .

انظر أيضاً : جوزيف داهموس ، سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحى الشاعر، القاهرة، ١٩٩٢، ص١٨١-٢٠٦ .

السلطان بايزيد على التوقيع على اتفاقية مهينة فى العام ١٤٠٣م ، مع يوحنا السابع باليولوغس، الامبراطور الشريك فى القسطنطينية(١).

جاء اختفاء السلطان بايزيد الأول مؤذنًا بنشوب حرب أهلية بين أبنائه (٢)، وقام الامبراطور مانويل بدور كبير فيها عن طريق تغذية روح الغيرة والكراهية بين الأخوة.

على أية حال ، انتهت تلك الحرب الأهلية بانفراد السلطان محمد الأول (١٤١٣-١٤٢١)(٣) بالعرش العثمانى وشهدت العلاقات البيزنطية العثمانية هدوءًا فى عهده مما سمح للامبراطورية البيزنطية بالتقاط أنفاسها . كما ارتبط بعلاقة صداقة مع الامبراطور البيزنطى لدرجة أنه أوصى- وهو على فراش الموت - بارسال اثنين من أبنائه ليكونا تحت وصاية الامبراطور البيزنطى .

بعد وفاة السلطان محمد الأول ، اعتلى العرش العثمانى ابنه مراد الثانى (١٤٢١-١٤٥١م)(٤)، فأرسل له الامبراطور مانويل رسالة تطالبه تنفيذ وصية والده، وارسال اثنين من إخوته للقسطنطينية ليكونا تحت وصاية الامبراطور .

وعندما رفض السلطان مراد الأول طلب الامبراطور مانويل ، قام الأخير بايقاظ الفتنة النائمة حول العرش العثمانى ، فأطلق سراح الأمير مصطفى الذى ادعى أنه ابن السلطان بايزيد ، وقدم له مساعدة عسكرية مكّنته من الاستيلاء على بعض الأراضى العثمانية فى

١- Dolger . Op. cit, p. 75 ; Dennis, S.J, The Byzantine - Turkish Treaty 1403" in, O.C.P, vol . XXXIII, 1967 , pp. 72-88 .

والحقيقة أن سليمان بن بايزيد - ونتيجة لحرج موقفه - قدم العديد من التنازلات لكل من الامبراطور يوحنا ، وجنوا، والبندقية والصرب. انظر ترجمة معاهدة ١٤٠٣م عند صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص٢٠٢-٢٠٤ .

وقد أشار ابن تغرى بردى أيضًا إلى صلح سليمان مع البيزنطيين . انظر النجوم الزاهرة ، ج١٢ ، ص٢٦٩ .

٢- Asik Pasa . Op. cit, pp. 83-85 .

ابن عربشاه ، المصدر السابق ، ص٣٣٤-٣٣٦ .

Doukas, Op. cit., pp. 100-103 , 105-106 .

٣- Asik Pasa, Op. cit, pp. 84-85 .

٤- Ibid, p. 93 .

القارة الأوربية، وهو الأمر الذى دفع السلطان مراد للتصدى له بجدية حتى تم القضاء عليه، وعلى دعواه .

وأراد السلطان مراد الأول معاقبة الامبراطور مانويل على دوره فى الفتنة السابقة، فأعلن عليه الحرب، وقام بحصار القسطنطينية ١٤٢٢م، حتى بدأ أن المدينة على وشك السقوط . فاستخدم الامبراطور مانويل سلاح الدبلوماسية البيزنطية مرة أخرى ، إذ فكر فى ضرورة جذب انتباه السلطان إلى جبهة أخرى. ونجح فى التحريض على ثورة تهدد الممتلكات العثمانية فى آسيا الصغرى. وهو ما اضطر السلطان مراد الأول إلى رفع الحصار عن القسطنطينية والتوجه نحو اخماد هذه الثورة . حيث استطاع السلطان العثمانى القضاء على تلك الثورة تماماً[١].

وهكذا ظهر للجميع استعادة العثمانيين لعافيتهم المفقوده منذ هزيمة أنقره ١٤٠٢م. وبدأ العثمانيون فى اعادة تنظيم قواتهم واستعادة موقعهم السابق كخطر يهدد القسطنطينية باستمرار . وهو ما أفضى فى النهاية إلى قيام معاهدة بين السلطان مراد الثانى والامبراطور مانويل فى العام ١٤٢٤م[٢]، تنازل فيها الامبراطور عن جميع الامتيازات التى حصلت عليها بيزنطه طبقًا لمعاهدة ١٤٠٣م، التالية لمعركة أنقره مباشرة ، والتى تم توقيعها بين الأمير سليمان ويوحنا السابع .

كان من أهم نتائج معاهدة ١٤٢٤م أن عادت الأمور بين العثمانيين والبيزنطيين لما كانت عليه قبل العام ١٤٠٢م . وهو ما جعل الأنظار تتجه من جديد نحو القسطنطينية .. الهدف النهائى للعثمانيين .

اعتلى آخر الأباطرة البيزنطيين قسطنطين الحادى عشر Constantine XI العرش

١- Asik Pasa, Op. cit, pp. 94-99 .

٢- بعد أن قوى موقف العثمانيين عن ذى قبل نجح السلطان مراد الثانى- فى هذه المعاهدة- فى ارغام الامبراطور مانويل على دفع جزيه سنويه تقدر بثلاثمائة ألف دوكات Ducat ، وأن يسلم له المدن والقلاع البيزنطية بطول سواحل البحر الأسود، بالإضافة إلى الأراضى المحانية لنهر استريمون Strimon ، وجبل اثوس Athos، وسالونيك . انظر: Doukas , Op. cit, p. 169 ; Nicol, Op. cit , p. 350

صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص٢٤٢ .

البيزنطى (١٤٤٨-١٤٥٣م) (١)، وكان سيئ الحظ، إذ ورث أوضاعًا سياسية واقتصادية وعسكرية مضطربه . ولم يكن أمامه الكثير ليقوم بفعله، سوى المحافظة على العلاقات الطيبه مع العثمانيين(٢)، والقيام – فى نفس الوقت– بالاستنجاد بالغرب الأوربى لانقاذ القسطنطينية.

وفى الوقت الذى ظل فيه السلطان مراد الثانى على علاقته الطيبه بالعرش البيزنطى، فإن الغرب الأوربى تقاعس فعليًا عن مد يد العون العسكرى للامبراطور ، إلاّ بعد أن تعلن كنيسة القسطنطينية الارثوذكسية اتحادها مع كنيسة روما الكاثوليكية، وهو الأمر الذى رفضه بطاركة القسطنطينية (٣)، والشعب البيزنطى حتى النهاية.

وبمجرد اعتلاء السلطان محمد الثانى (١٤٥١-١٤٨١م) للعرش العثمانى، بدأ فى العمل لتحقيق الانجاز الذى كان أبيه وأجداده على وشك تحقيقه أكثر من مرة ، وهو فتح القسطنطينية ، فاستهل عهده باتفاقية سلام مع الامبراطور قسطنطين الحادى عشر تعهد له فيها بعدم الاعتداء على القسطنطينية (٤). كما عقد اتفاقيات بنفس المعنى مع سفراء بلغاريا ،

١- Nicol, Op. cit, p. 390-391 .

الذى يذكر أنه جرى تتويج قسطنطين الحادى عشر امبراطوراً فى ميسترا Mistra فى السادس من يناير ١٤٤٩م. ولم يدخل مدينة القسطنطينية سوى فى الثانى عشر من مارس ١٤٤٩ م.

٢- Nicol , Op. cit, p. 391 .

حيث يذكر أنه بمجرد دخول الامبراطور قسطنطين للقسطنطينية قام بارسال سفير للسلطان العثمانى مراد الثانى من أجل تقديم التحية والولاء، وكذلك من أجل بحث عقد اتفاقية سلام بينهما .

٣- اعترض البطريرك جورج اسكولاريوس George Scholarius على فكرة الاتحاد الكنسى، وعندما رأى أن الظروف السياسية ، والتهديد العثمانى للقسطنطيين سوف يؤدى فى النهاية إلى اقرار وحدة الكنائس على غير رغبة كنيسة القسطنطينية الارثوذكسية ، والشعب البيزنطى، لم يجد أمامه بدًا من الانزواء فى أحد الأديره ١٤٥٠م، ليصبح راهبا تحت اسم جيناديوس Ginnadios انظر : Nicol , Op. cit, p. 392 .

٤- Doukas, Op. cit, pp. 191, 304 , not . 230 .

أرسل الامبراطور البيزنطى سفارة لتهنئة محمد بالجلوس على العرش العثمانى، ومطالبته بالابقاء على المعاهدات السابقة المبرمة بين البيزنطيين والعثمانيين ورحب السلطان محمد الفاتح بالسفاره البيزنطية ووعدهم خيراً، كما تعهد بأن يدفع لقسطنطين الحادى عشر ثلاثمائة ألف عمله فضيه (اسبيره) سنويًا من دخل القرى الموجوده على طول شواطئ نهر ستريمون Stryman، للتكفل بنفقات الأمير العثمانى أورخان ابن عم السلطان الفاتح، وابن السلطان سليمان ، الذى كان يدعى أحقيته فى الحصول على العرش العثمانى .

والمجر والصرب والبندقية وراجوزة وجنوا غلطة (١). ثم توجه بعد ذلك للأناضول من أجل القضاء على بعض الثورات التى نشبت ضده(٢).

بعد أن استتب الأمر للسلطان محمد الثانى، أخذ يتحين الفرصة لاعلان الحرب على بيزنطة، واحكام الحصار حول القسطنطينية . وانتهز وصول سفارة من قبل الامبراطور قسطنطين الحادى عشر تلح على زيادة ما يقوم بدفعه من نفقات مقابل اعاشة الأمير أورخان بن سليمان ، فاستثار ذلك غضب السلطان العثمانى ، وتبعه باعلان الحرب رسميًا على الامبراطورية البيزنطية .

ونجح العثمانيون – كما سوف نرى فى ثنايا شهادات شهود العيان والمصادر التاريخية التالية– فى فتح القسطنطينية يوم الثلاثاء التاسع عشر من شهر جمادى الأولى عام ٨٥٧هـ – التاسع والعشرين من شهر مايو ١٤٥٣م وجعلوا منها مقرًا لعاصمتهم الجديدة ، بعد أن قاموا بمحو آخر صفحات الإمبراطورية البيزنطية من كتاب التاريخ .

(٥)

يعرض الكتاب الذى بين أيدينا الآن لروايات سبعة من شهود العيان، والمؤرخين المعاصرين للفتح العثمانى للقسطنطينية ١٤٥٣م . وكان الله قد وفقنى فى العام الماضى إلى إصدار دراسة وترجمة وتعليق ليوميات أحد أهم شهود العيان على الفتح العثمانى وسقوط القسطنطينية(٣). وأحاول اليوم إكمال الصورة من كافة جوانبها، خاصة وأن الحدث الذى تدور حوله تلك الشهادات والروايات يعد إحدى العلامات الفارقة فى التاريخ الإنسانى عامة، وفى تاريخ العصور الوسطى بشكل خاص .

تتميز الشهادات والروايات الواردة فى هذا الكتاب بتنوعها المثير، وهو ما أكسبها أهمية تاريخية زائدة . فقد اختلفت مكانة وثقافة شهود العيان الذين كتبوا عن هذا الحدث الفذ ، فإذا كانت الرواية الأولى لأحد التجار الإيطاليين، فإن الشهادة الثانية هى لأحد أهم رجال الكنيسة الكاثوليكية ، بينما تراوحت باقى الروايات. والشهادات بعد ذلك ما بين المؤرخين

١- Doukas, Op. cit, p. 191-193 .

٢- Asik Pasa, Op. cit, pp. 137-138 .

٣- نيقولو باربارو ، الفتح الإسلامى للقسطنطينية. يوميات الحصار العثمانى ١٤٥٣م . دراسة وترجمة وتعليق حاتم الطحاوى، القاهرة، ٢٠٠٢م.

المحترفين إلى القنصل الجنوى، ورئيس التجار الجنوية فى منطقة بيرا المواجهة للقسطنطينية، والتى تمكن منها العثمانيون أيضاً.

ما أعنيه هنا أن اختلاف مشارب، وثقافة شهود العيان واهتماماتهم سواء أكانوا علمانيين أم رجال دين، أم مؤرخين رسميين، قد أسدى إلينا - جميعًا- فائدة علمية كبيرة. إذ أمسك هؤلاء جميعًا بتلابيب ذلك الحدث الجلل، الأمر الذى أسهم فى معرفة كافة جوانبه السياسية والعسكرية والدينية، والثقافية.

يبدأ الكتاب بعرض رواية التاجر الفلورنسى جياكومو تيدالدى Jiacomo Tedaldi الذى نجح فى الهرب من القسطنطينية إبان اقتحام العثمانيين لها فى ٢٩ مايو ١٤٥٣م. ويعتبر المؤرخون روايته من أهم الروايات حول حصار وفتح القسطنطينية.

تم نشر رواية تيدالدى لأول مرة عام ١٧١٧م تحت عنوان «معلومات مرسلة من فرانسيسكو دى فرانك Francesco de Franc إلى الأب المبجل كاردينال مدينة أفينون Avignon، ومرسلة كذلك بواسطة جيهان بلانشن Jehan Blanchin، وجاك تيدالدى التاجر الفلورنسى التى تتناول الاستيلاء على القسطنطينية بواسطة الإمبراطور التركى فى التاسع والعشرين من مايو ١٤٥٣م، والتى يرويها جاك تيدالدى شخصياً»[١].

ويبدو أن جياكومو تيدالدى الذى استطاع السباحة واللحاق باحدى السفن البندقية ومن ثم الهرب من القسطنطينية ومن الأسر العثمانى، قد وصل مع تلك السفينة الفارّة إلى جزيرة، نجروبونت. وهناك قام تيدالدى برواية تجربته على حنا بلانشن Jean Blanchin (Jean Blanc) الذى لعب دورًا هامًا فى نقل وتوصيل روايته[٢].

خصص البروفسور بوجودن Pogodin فى مقالته باللغة الروسية، حول حصار العثمانيين للقسطنطينية ملحوظة مطولة، وأسف على أن هذا المصدر الإيطالى فائق الأهمية لم يجذب انتباه المؤرخين بدرجة كافية[٣]، ويميز بوجودن بين ثلاث طبعات لرواية تيدالدى:

١- انظر: Tedaldi , Jacobo (Jacques Edaldy).
Information envoyées tant par Francesco de Franc à Mgr . Le Cardinal d'Avignon - que par Jehan Blanchin et Jacques Edaldy , marchant , Florentin de la Prise de Constantinople, à loquelle le dit Jacques estoit personellement , In Marténe and Durand , Thesaurus novus anecdotorum I, 1717 .

٢- O.D.B, vol. 3, p. 2021 .

٣- نقلاً عن: Concasty , M. L, Les " Informations" de Jacques tedaldi sur le siege et la Prise de Constamtinph in, B, 24 , 1954 , p. 95 .

١- طبعة لاتينية.

٢- طبعة فرنسية قام بنشرها الباحث جَودفرى Godefroy .

٣- طبعة فرنسية أخرى (المخطوط رقم ١١٤ فى مكتبة كامبراى Cambrai).

ويعتقد يوجودن فى وحدة أصل تلك الطبعات الثلاث بمجرد المقارنة السطحية البسيطة. وينكر أن الرواية اللاتينية هى الأصل لسببين الأول هو أن اللاتينية كانت لغة المراسلات الرسمية آنذاك[١]. والثانى أن الروايتين الفرنسيتين تضيفان إلى الرواية اللاتينية الأولى، خطاب تزعم نسبته إلى السلطان محمد الفاتح ، مرسل إلى البابا نيقولا الخامس .

وبالإضافة إلى المخطوطات الثلاث السابقة، هناك مخطوطة أخرى طويلة تتكون من جزأين غير متساويين:-

أ- جزء به فقرة مختصرة تتعلق بالمشروعات العسكرية التى كان السلطان محمد الفاتح ينوى القيام بها خلال صيف العام ١٤٥٣م.

ب- جزء يوجد به نداء إلى المسيحيين فى العالم من أجل تقديم المساعدة العسكرية ، وهو نداء مصحوب بنصائح موجهة تهدف إلى إقرار السلام بين أمراء الغرب الأوربى. وتكوين جيش ضخم ، ينضم إليه المتطوعون الأوربيون، فضلاً عن إعداد وتجهيز أسطول حربى قوى بمساعدة مدن البندقية، بيزا ، فلورنسا، كورسيكا، بحيث يتجه نحو نجروبونت تحت قيادة ملك أراجون Aragon .

وبالإضافة إلى ذلك يخرج جيش آخر تحت قيادة ، حنا هونيادى John Huniady ويعتمد هذا الجيش أيضًا على المسيحيين الخاضعين للسلطان العثمانى، فضلاً على مساعدات البيزنطيين الراغبين فى استرداد حريتهم .

وهكذا فيبدو أنه جرى- فيما بعد - تنقيح لرواية تيدالدى حول الفتح العثمانى للقسطنطينية، بحيث تم توظيفها دعائيًا ، من أجل الدعوة إلى قيام حملة صليبية جديدة، وتمت عملية التنقيح والإضافة من قبل كاتب الحولية نفسه [٢].

١- تذكر الباحثة كونكاستى Concasty أن التاجر الفلورنسى، تيدالدى ، ربما قام بكتابة روايته للأحداث باللهجة الفلورنسية، وليست اللاتينية كما افترض البروفسور بوجودن، ودليلها على ذلك استخدامه للمصطلحات الإيطالية بكثرة . كما أنها تذهب إلى أبعد من ذلك وتذكر أن تيدالدى قام برسم خريطة القسطنطينية حتى يستطيع توضيح روايته عليها. انظر . Concasty, Op. cit, p. 104 .

٢- Ibid, p. 100 .

على أية حال ، كان جياكومو تيدالدى يقوم بأعمال الحراسة والدفاع عن أسوار القسطنطينية إبان الهجوم العثماني النهائى على المدينة، وتناول روايته لأحداث الحصار– فى قفزات سريعة – ما جرى منذ وصول السلطان العثمانى محمد الثانى (الفاتح) إلى أسوار القسطنطينية ، وبداية الحصار من ٤–٥ أبريل حتى اقتحام المدينة فى ٢٨–٢٩ مايو ١٤٥٣م.

وقام تيدالدى فى روايته بوصف الجيش العثمانى المحاصر للقسطنطينية ، أعداده وتقسيماته ، وأسلحته ، فضلاً عن السفن العثمانية ومواقعها وأنواعها .

كما تحدث تيدالدى عن التحصينات والاستعدادات داخل مدينة القسطنطينية ، ووسائل الدفاع عن المدينة، كذلك ذكر تيدالدى المحاولة اليائسة التى قام بها جاكومو كوكو، ربان السفينة القادمة من طرابيزون لإضرام النيران فى سفن الأسطول التركى(١) كما تعرض أيضًا للمحاولات المتكررة، وغير الناجحة للأتراك بهدف اقتحام المدينة باستخدام أسلوب حفر الأنفاق . فضلاً عن محاولات الجنود الأتراك تسلق الأسوار عبر السلالم الخشبية والأبراج المتحركة .

وعلى صعيد المعسكر العثمانى، تناولت رواية تيدالدى الاستعدادات النهائية للهجوم على القسطنطينية ، والمجلس العسكرى الذى عقده السلطان الفاتح، فضلاً عن صيام الجنود الأتراك، وقرعهم بشدة طبول الحرب ، وإشعالهم النيران العالية التى أضاءت السماء(٢).

كما لاحظ تيدالدى تركيز الأتراك لقواتهم بشكل خاص عند بداية القديس رومانوس St. Romanos ، الأضعف من بين بوابات المدينة ، وهو ما أدى إلى انهيار البوابة والسور والملاصق لها . كما تحدث تيدالدى أيضًا عن القائد العسكرى الجنوى جستنيانى لونجو Guistiniani Longo الذى كان المسئول الأول عن الدفاع عن أسوار المدينة على رأس مجموعة من الجنود البيزنطيين والإيطاليين، والذى أصيب بشكل مفاجئ بإصابة خطيرة ، دفعته إلى الخروج من ميدان المعركة والتوجه إلى سفينته من أجل العلاج، وهو ما أدى إلى حدوث ثغرة كبيرة فى صفوف القوات المدافعة عن القسطنطينية ، وساهم فى إضعاف الروح المعنوية للجنود البيزنطيين والإيطاليين داخل الأسوار .

١– عن الرواية التفصيلية لمحاولة البنادقة وجاكومو كوكو إشعال النيران فى سفن الأسطول العثمانى بعد نجاح السلطان الفاتح فى نقلها من البوسفور إلى خليج القرن الذهبى انظر: نيقولو باربارو، المصدر السابق، ص١٣٣–١٣٩ .

٢– نفسه، ص١٦٣ .

وتنتهى رواية تيدالدى بالتقديرات التقريبية للغنائم التى حصل عليها الأتراك، والخسائر المادية التى أصابت الإيطاليين، وربما كان حس التاجر لديه هو الذى جعله يلتفت لمثل هذا الأمر .

وتكتسب رواية تيدالدى للفتح العثمانى للقسطنطينية أهميتها من كون صاحبها شاهد عيان، ومشارك فى الدفاع عن المدينة ، ولهذا فإن روايته تتصف بالدقة إذ تعتمد على على مشاهداته الشخصية، فضلاً عن بعض المعلومات المستقاة من أفواه آخرين كانوا بداخل القسطنطينية . وحضروا كافة وقائع الحصار العثمانى .

وعلى الرغم من دقة رواية تيدالدى وحيويتها ، فقد شابها بعض المبالغة أو الخلط ، من ذلك مبالغته فى تقدير عدد الجيش العثمانى المحاصر للقسطنطينية ، إذ ذكر أنه بلغ ستمائة ألف مقاتل .

فضلاً عن ذلك ، فقد التبس الأمر على تيدالدى فى تحديد زمان المعركة البحرية التى دارت بين عشرات السفن العثمانية والسفن البيزنطية الأربع ، والتى قدرت جميع المصادر التاريخية المعاصرة وقوعها يوم ٢٠ أبريل ١٤٥٣م، على حين أننا نجد تيدالدى يقوم بإيرادها بعد نجاح السلطان الفاتح فى تنفيذ خطته العبقرية، التى قام بها من خلالها بنقل السفن العثمانية من البوسفور إلى نهاية خليج القرن الذهبى ليلة ٢٣ أبريل ١٤٥٣م.

ولم يتحدث تيدالدى فى روايته عما حدث داخل كنيسة أيا صوفيا بالقسطنطينية من إقرار عملية الاتحاد الكنسى التى تمت فى ديسمبر ١٤٥٢م. وربما كان ذلك لأنه لم يصل إلى القسطنطينية إلاّ بعد هذا التاريخ، وبالتالى فهو يؤرخ فقط للأحداث من أبريل إلى ما يو ١٤٥٣م.

أما الرواية الثانية بالكتاب ، فتعود إلى شهادة شاهد العيان الثانى على هذا الحدث ، الأب ليونارد الخيوسى Leonard of Chois أستاذ اللاهوت وكبير أساقفة ميتيلين Mytilene .

ولد ليونارد فى جزيرة خيوس عام ١٣٩٥م، ومات - على الأرجح- فى مدينة جنوه ١٤٥٩م، قام بانهاء دراسته فى إيطاليا، وبعد ذلك أصبح أسقفًا لمدينة ميتيلين فى أول يولية ١٤٤٤م . وهناك أقام علاقات وطيدة مع آسرة جاتيلوزيو Gattilusio حكام جزيرة ليسبوس Lesbos التى تقع بها مدينة ميتيلين[١].

١- O.D.B. vol . 2 . p. 1212 .

وبناء على تعليمات البابا نيقولا الخامس Nicholas V، التحق ليونارد الخيوسى فى جزيرة خيوس بممثل البابا ، إيزيدور Isidore أسقف كييف، حيث استقل ركبهما إحدى السفن، ووصلا إلى مدينة القسطنطينية يوم ٢٦ أكتوبر ١٤٥٢م، وذلك من أجل تحقيق الاتحاد الكنسى بين كنيسة القسطنطينية، وكنيسة روما (١).

وتتميز معلومات ليونارد الخيوسى بالدقة والموضوعية ، لكونه داخل القسطنطينية المحاصرة من قبل الجيشي العثمانى .

واستطاع ليونارد الخيوسى الهرب من القسطنطينية إبان الاحتياج العثمانى لها، ووصل إلى جزيرة خيوس، وهناك كتب رسالة أو تقريرًا إلى البابا نيقولا الخامس فى السادس عشر من أغسطس ١٤٥٣م، شرح فيها باستفاضة الأحداث التى واكبت سقوط القسطنطينية فى قبضة الأتراك العثمانيين .

وتتميز رواية ليونارد الخيوسى- عن باقى الروايات- بإفراد صفحات مطولة للحديث عن الوضع الدينى بالقسطنطينية تحت الحصار العثمانى ، ويبدو هذا طبيعيًا من منطلق ثقافة الرجل، وعمله، والمهمة التى ابتعث من أجلها، وهكذا فقد ذكر ليونارد عملية الاتحاد الكنسى التى جرت فى كنيسة أيا صوفيا ، كما أنه هاجم البيزنطيين مذكرًا بان ترحيبهم بالاتحاد الكنسى لم يكن صادقًا ، بل كان على المستوى الظاهرى فقط، كما أنه اعترف بتأليب الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر على سكان القسطنطينية المعارضين للاتحاد الكنسى.

وبالنسبة للأحداث العسكرية بين البيزنطيين والعثمانيين، فقد استطاع ليونارد الخيوسى فى تقريره ، أو رسالته المطولة ، تسجيل الاشتباكات البرية والبحرية التى كانت تتم بشكل شبه يومى بين الأتراك والبيزنطيين .

كما أبدى ليونارد إعجابه بتنظيم محمد الفاتح للجيش العثمانى ، وقوته ونظام تسليحه ، وذكر وجود المدافع العثمانية الضخمة، كما سجل ليونارد أيضًا الفكرة العبقرية التى قام

١- أشار نيقولو باربارو فى يومياته إلى وجود الأسقف ليونارد الخيوسى فى الاجتماع الذى تم عقده فى كنيسة أيا صوفيا فى الثالث عشر من ديسمبر ١٤٥٢م، من آجل إقرار الاتحاد الكنسى ، على الرغم من أن باربارو لم يذكر ذلك صراحة ، لكنه أشار أكثر من مرة إلى وجود أسقف ميتيلين .

محمد الفاتح بتنفيذها ، ونقل السفن العثمانية- براً- من البوسفور إلى خليج القرن الذهبى، فضلاً عن تشييد العثمانيين لجسر خشبى من غلطة إلى أسوار القسطنطينية.

ولم يغفل ليونارد الخيوسى الحديث عن الدور المزدوج الذى لعبه الوزير العثمانى خليل باشا، الذى أبدى تعاطفاً مع الإمبراطور البيزنطى، وكتب إليه العديد من الرسائل المشجعة ، التى تحثه على الصمود ، وعدم تسليم القسطنطينية للسلطان محمد الفاتح . وهى الرسائل التى قام- فيما بعد- القائد العسكرى الأعلى لوكاس نوتاراس بتسليمها لمحمد الفاتح ، والتى أدت فى النهاية إلى قيام السلطان العثمانى بعزل خليل باشا، ثم إلقاء القبض عليه وإرساله لمدينة أدرنة من أجل تنفيذ حكم الإعدام به .

وتنفرد رواية ليونارد الخيوسى عن الفتح العثمانى للقسطنطينية- من دون كافة المصادر اللاتينية والبيزنطية- بتدوين الصيحات التى خرجت من حناجر الجنود العثمانيين إبان القتال مع البيزنطيين «لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله».

ونظراً لارتباط ليونارد الخيوسى بالجنوية، فقد أبدى تعاطفاً معهم، على الرغم من مهاجمته لهم فى بعض المواقف، واتهامهم بالسلبية ، والتخاذل مقابل التمسك بالامتيازات التجارية، هاجس التجار الإيطاليين الأول. كما استخدم عبارات غير حادة لوصف موقف الجنوية والتحالف مع السلطان محمد الفاتح ، والدور المزدوج الذي قاموا به «أيها الجنوية ، لقد تم ترويضكم . ومن ناحيتى سوف أظل صامتًا . تاركًا للآخرين مهمة إصدار الحكم على شعبى».

ومن ناحية أخرى ، فلم يُبد ليونارد الخيوسى تعاطفًا مع البيزنطيين، والبنادقة، وربما كان ذلك لشكه فى عدم التزام البيزنطيين بمسألة الاتحاد الكنسى، وفى المنافسة، التجارية القائمة منذ عدة قرون خلت بين البنادقة وشعبه من الجنوية.

على أية حال، عاد ليونارد الخيوسى بعد ذلك إلى إيطاليا فى العام ١٤٥٨م، ليموت بها، بعد أن عمل على نشر الأفكار العدائية ضد الأتراك العثمانيين فى أرجاء القارة الأوربية[١].

صاحب الرواية الثالثة حول الفتح العثمانى للقسطنطينية ، يعد من أشهر المؤرخين البيزنطيين المتأخرين، وهو المؤرخ لاونيكوس خالكو كونديلاس Laonicus Chalkokondyles

---

١- انظر : O.D.B. vol , 2 , p. 1212 .

وعلى الرغم من كونه ليس شاهد عيان، ولم يكن داخل القسطنطينية إبان الاقتحام العثماني، فإن معاصرته للحدث، واحترافه للكتابة التاريخية، قد مكناه من كتابة روايته عن سقوط القسطنطينية بشكل جيد، ويتفق مع باقي الروايات الأخرى.

ولد خالكو كونديلاس في مدينة أثينا عام ١٤٢٣ (أو ١٤٣٠م) ، ولايعرف إلاّ القليل عن حياته ، هرب والده إلى المورة في العام ١٤٣٥م . وفيما بعد أصبح خالكو كونديلاس طالبًا للعلم في بلاط حكام مسترا Mestra ، وعاش حياته في منطقة ما على ساحل بحر إيجه .

يحتوى مؤلف خالكوكونديلاس الكبير المعروف باسم «التاريخ التركى» على عشرة كتب وانتهى من كتابته في العام ١٤٨٠م، بحيث يغطى هذا الكتاب الأحداث التاريخية المواكبة لتاريخ الإمبراطورية البيزنطية من العام ١٢٩٨ حتى ١٤٦٣م[1].

كان هدفه من كتابته هو ملاحظة السقوط التدريجي للإمبراطورية البيزنطية، في مقابل صعود وتنامي قوة الأتراك ، وجاء اهتمام خالكو كونديلاس بتنامي ونهوض العثمانيين شيئًا غير معتاد بالنسبة للمؤرخين البيزنطيين، لدرجة أنه قام بتسمية كتابه «التاريخ التركى».

اقترب خالكوكونديلاس بشكل مباشر من المصادر التركية المعاصرة ، مثل سكرتارية السلطان، ووفر كتابه بعض المعلومات حول المؤسسات العثمانية المبكرة ، وأطلق على السلطان العثمانى لقب بازيليوس Basileus ، بينما جرى تمييز الإمبراطور البيزنطى بانه Basileus Hellenon .

تحدث خالكوكونديلاس في كتابه عن العديد من الشعوب والبلاد، وخاصة المسلمين، الجرمان، الروس، السلاف ، الأسبان، كما كان يعتقد في الكهانة والنبوءات وأمن بالقدر Tyche كقوة مؤثرة في الأحداث التاريخية[2].

وذكر خالكوكونديلاس أنه قام بتأليف كتابه باللغة اليونانية، لأن الكثيرين في الشرق والغرب يمكنهم القراءة باليونانية ، كما أنه اعتبر أن مجد اليونانية الكلاسيكية لم يكن مقصوراً فقط على الماضى، بل إنه سوف يتحقق أيضاً في المستقبل عندما يستطيع السكان

١- انظر : O.D.B. vol . 1, p. 407 .

٢- Loc. cit .

اليونانيين استعادة مجد اليونان الغابر ، كما أن الإمبراطور البيزنطى سوف يعود ليحكم من جديد، وسوف يتبعه العديد من الأباطرة البيزنطيين[١].

وبوعى كامل، قام خالكوكونديلاس بتقليد أسلوب الكتابة القديم، الخاص بهيرودوت وثيوكيديديس، خاصة فيما يتعلق بأسلوب الحديث المباشر عن الموضوع ، واستخدام المفردات اليونانية، وخاصة الاثينية منها.

وجاءت رواية خالكو كونديلاس حول الصراع البيزنطى- العثمانى كمحاكاة واضحة للصراع اليونانى - الفارسى كما ورد لدى هيرودوت[٢]، كما أنه نظر إلى سقوط القسطنطينية وتصفية الإمبراطورية البيزنطية كحادث عابر ليس إلاّ محتفظًا بكافة آماله لإعادة بعث التعليم اليونانى الكلاسيكى. وبواسطة هذه النزعة المثالية الإنسانية ، فقد أمل فى دمج الهيلينية الواهنة والضعيفة الموجودة فى عصره ، مع مجد الهيلينية الغابر إبان عهد اليونانيين القدماء.

قام خالكوكونديلاس بإنهاء وصفه لسقوط القسطنطينية بالقول بأن المدينة دفعت الثمن لـ Ilium ، وأن البيزنطيين قد عانوا من أجل اليونان واليونانيين الذين بدأوا الرحلة من Aulis، وأن سقوط القسطنطينية إنما جاء نتيجة لحمق وتهور باريس Paris[٣].

وإذا كان كتاب خالكوكونديلاس «التاريخ التركى» يتألف من عشرة كتب، فإن روايته لحصار القسطنطينية تأتى فى الكتاب الثامن : ص٢٠١-٢١٤ ، وبدأ روايته بالحديث عن تشييد السلطان محمد الفاتح لقلعة الروملي، التى كانت دليلاً على تحول نوايا السلطان تجاه القسطنطينية إلى واقع ملموس، خاصة بعد رفضه طلبات والتماسات الإمبراطور البيزنطى بالتخلي عن بناء تلك القلعة.

١- انظر المقدمة التى كتبها البروفسور ماجولياس Magoulias فى بداية ترجمته لحولية دوكاس ، عندما يقارن بينها وبين كتابات المؤرخين المعاصرين :

Doukas, Op. cit, Introduction, p. 25 .

٢- O.D.B, vol , I, p. 407 .

٣- انظر: Doukas, Op. cit, p. 25 . ومن المعروف أن Ilium هى طروادة أيضًا. ومن هذا الاسم اشتق هوميروس كلمة «الياذة» لملحمته الخالدة Iliad.

والمقصود بالفقرة السابقة أن سكان القسطنطينية قد دفعوا ثمن سقوط طروادة ، الذى جاء نتيجة تهوّر باريس ابن بريام القادم من آسيا الصغرى حيث مدينة طروادة بخطف هيلينى ملكة أسبرطة، التى قامت الحرب بسببها ، حيث خرجت سفن أسطول من ميناء Aulis لمحاصرة واقتحام طروادة.

كما تحدث خالكوكونديلاس عن القوات العثمانية البرّية والبحرية، ولم يغفل وجود أربان Orban صانع المدافع ، ومدفعه العملاق، فضلاً عن باقي المدافع الأخرى، الأصغر حجمًا ويدوّن خالكو كونديلاس في روايته الكثير عن الجنود العثمانيين الإنكشارية ، ودورهم في القتال، واستخدام القوات العثمانية تكتيك حفر الأنفاق من أجل النفاذ إلى القسطنطينية من تحت الأسوار، وجذب انتباهه صنع العثمانيين لبرج خشبي هائل، يضاهي سور القسطنطينية في الارتفاع من أجل تسلق الجنود العثمانيين له .

ولم يفته - كما لم يفت الجميع- الحديث عن خطة السلطان محمد الفاتح ، والتي بمقتضاها تم سحب وجر أكثر من سبعين سفينة تركية من سفن الأسطول الراسي في البوسفور ، إلى أن تم إنزالها في نهاية خليج القرن الذهبي.

وقام بتسجيل نوايا البيزنطيين التي تركزت حول ضرورة احراق تلك السفن العثمانية، التي باتت تمثل تهديداً بالغًا للقسطنطينية ، وذكر الفشل الذي أصاب ذلك الهجوم.

كما تحدث خالكوكونديلاس أيضًا عن القوات البيزنطية المحاصرة داخل القسطنطينية ، ومواقعها ، وكذلك عن إصابة القائد الجنوي جستنيان، وتخلي قواته عن أماكنها ، واقتحام القوات العثمانية للقسطنطينية .

كما تناول خالكوكونديلاس أحوال الأسرى والغنائم والأسلاب التي سقطت في أيدي العثمانيين. وهاجم العثمانيين لبدائيتهم، وذكر أنهم لم يكونوا يدركون الذهب من البرونز ، كما تعرض لتسليم التجار الجنوية مستعمرتهم في بيرا للعثمانيين ومهادنتهم ، مقابل استمرار الامتيازات التجارية لهم.

واستمر في متابعة الأحداث التي ترتبت على سقوط القسطنطينية ، حتى تدهور العلاقات ما بين السلطان محمد الفاتح وكلاً من القائد العسكري الأعلى البيزنطي لوكاس نوتاراس، والوزير العثماني خليل باشا ، وهو الأمر الذي أدى إلى أن يأمر الفاتح بتوقيع عقوبة الإعدام عليهما، وإن اختلفت أسباب ذلك.

وعلى الرغم من أهمية رواية خالكوكونديلاس حول الفتح العثماني للقسطنطينية ، فإننا نجد بها بعض المسائل التي أصابها الخلط، وعدم الترتيب الزمني، من ذلك ذكره لمسألة حفر العثمانيين للأنفاق في وقت مبكّر من الحصار، وهو الشئ الذي لم يحدث إلاّ متأخرًا ، وقبل الهجوم النهائي على المدينة بأسبوعين تقريبًا (١) .

١- انظر: نيقولو باربارو، المصدر السابق، ص١٥٠ . الذي يذكر أنه تم اكتشاف أول الأنفاق العثمانية يوم ١٦ مايو ١٤٥٣م.

كما أشار خالكونديلاس أيضاً إلى استخدام العثمانيين للبرج الخشبى الهائل قبل نجاحهم فى إنزال سفنهم فى خليج القرن الذهبى. وهو ما لم يحدث، إذ نجح العثمانيون فى نقل سفنهم ليلة الثالث والعشرين من أبريل ، وقبل نجاحهم فى صنع البرج الخشبى الذى تم الانتهاء منه فى ليلة الثامن عشر من مايو ١٤٥٣م[١].

كذلك الحال ، فإن رواية خالكوكونديلاس بها خلط ثالث للأحداث ، إذ تحدّث – مثلما الأمر مع جياكومو تيدالدى– عن نجاح السفن المسيحية فى الهرب من قبضة سفن الأسطول العثمانى والنفاذ إلى داخل القرن الذهبى. ووضع ذلك زمنيا– مثلما الأمر مع جياكومو تيدالدى– بعد نقل العثمانيين لسفنهم داخل القرن الذهبى، إلا أن المصادر التاريخية الأكثر دقة تجعل موعد تلك المعركة البحرية فى موعد سابق ، وهو العشرين من أبريل ١٤٥٣م[٢].

غير أن عدم الترتيب الزمنى لبعض الأحداث القليلة، لايخل بالرواية كلها، خاصة إذا تمت مقارنتها بباقى روايات شهود العيان، وتظل رواية خالكوكونديلاس تحتفظ بأهميتها التاريخية الكبيرة.

الرواية الرابعة فى هذا الكتاب هى للمؤرخ البيزنطى الكبير ميخائيل دوكاس Michael Ducas، الذى يكاد يكون أهم المؤرخين الذين تناولوا العلاقات البيزنطية التركية.

ولد دوكاس عام ١٤٠٠م وتوفى عام ١٤٦٢م، كان جده ميخائيل دوكاس من أنصار الإمبراطور يوحنا السادس كانتاكوزينوس. وفرّ من القسطنطينية متخفيًا فى ثياب الرهبان، وقام بعبور المضايق ليستقر لاجئًا فى إفسوس Ephesus، حيث بقى تحت حماية وعطف الأمير التركى عيسى، ابن أمير أيدن Ayden[٣].

وطبقًا لدوكاس ، فإن جده لم يرغب فى الرحيل عن إفسوس إلى القسطنطينية ، لأنه رأى إن عاجلاً أو متأخرًا ، أن العثمانيين سوف يقومون بالاستيلاء على المدينة.

١– نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٥٢ .

٢– نفسه ، ص١٢٤–١٢٥ .

٣– انظر: Doukas , Op. cit, p. 26 .

جاء ذكر المؤرخ ميخائيل دوكاس للمرة الأولى عام ١٤٢١م،حيث عاش فى Nea Phakaia، وعمل سكرتيراً فى خدمة البودستا الجنوى جيوفانى أدورنو Giovanni Adorno ، وبعد ذلك التحق دوكاس بخدمة أسرة جاتيلوزيو Gattilusio التى حكمت جزيرة ليسبوس ، وتم إرساله عدة مرات كمبعوث إلى البلاط العثمانى، حيث زار أدرنة ، وفيليبوبوليس والقسطنطينية(١).

تبدأ أحداث حولية دوكاس بالعام ١٣٤١م، وتنتهى بالعام ١٤٦٢م، وهو يتحدث عن حصار العثمانيين لمدينة ميتيلين، ولم يستكمل روايته عن ذلك ويبدو أنه قتل بواسطة الأتراك، أو تم أسره وبيعه فى سوق العبيد.

تم إرسال دوكاس فى العام ١٤٥٥م من قبل دومينجو جاتيلوزيو Domino Gattilusio ولى عهد ليسبوس، مع كمية من الهدايا ، لأجل إقامة مأدبة فخمة على متن سفينة دمينجو على شرف القائد العثمانى حمزة ، حاكم مدينة خرسون Cherson وقائد الأسطول العثمانى.

وفى أغسطس عام ١٤٥٥م، وبعد وفاة والد دومينجو ، وصل دوكاس إلى أدرنة لتسليم الجزية السنوية إلى السلطان محمد الفاتح من قبل السيد الجديد لجزيرة ليسبوس، لكن وزراء السلطان العثمانى أمروا دوكاس بضرورة حضور دومينجو بنفسه إلى حضرة السلطان لتقديم فروض الطاعة والولاء، ولكى يتسلم من يد السلطان الفاتح تصريحاً بحكم جزيرة ليسبوس .

ولما كان السلطان الفاتح قد غادر مدينة أدرنة خوفاً من تفشى مرض الطاعون بها، واتجه إلى مدينة فيليبوبوليس ، ومنها إلى المدينة البلغارية زلاتيكا Zlatica، فقد لحق به دوكاس وسيده دومينجو، وعقدت معاهدات جديدة بحضور السلطان الفاتح(٢).

وعاد دوكاس ثانية إلى أدرنة فى العام ١٤٥٦م من أجل تقديم الجزية السنوية المفروضة على دومينجو جاتيلوزيو حاكم ليسبوس .

وعلى أية حال ، فإن أهمية كتاب دوكاس تنبع من تتبعه الجيد للعلاقات العثمانية-البيزنطية لعدة عقود من السنين قبل الفتح العثمانى للقسطنطينية ، وإفراده للعديد من الفصول والصفحات داخل كتابه للحديث عن الأحوال الداخلية للعثمانيين حتى حصار القسطنطينية، وهو ما يشى بثراء خلفيته الثقافية والتاريخية .

١- انظر: O.D.B, vol . I , p. 656 .

٢- Doukas, Op. cit, p. 28 .

وتكتسى رواية دوكاس عن الفتح العثمانى للقسطنطينية أهمية بالغة، ويكفى أن الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب استعانت بروايته التى بلغت حوالى الستين صفحة ، واستمرت عبر عشرة فصول (٣٣-٤٢) من كتابه الهام وهى تتناول العلاقات بين العثمانيين والبيزنطيين بشكل تفصيلى قبيل فتح القسطنطينية ، فضلاً عن وصف تفصيلى، وجاد لوقائع الحصار العثمانى، والقتال البرى والبحرى بين الطرفين، فضلاً عن الأحوال الدينية داخل القسطنطينية.

وبوصفه رجلاً عمل فى خدمة الإيطاليين، فقد دعم دوكاس سياسة الاتحاد الكنسى، ورأى أن بعض التوافق مع رغبة الكنيسة الغربية، كان ضرورياً من أجل انقاذ القسطنطينية[١].

أن معرفة دوكاس باللغات اليونانية والإيطالية وكذلك التركية قد مكنه من كتابه الأحداث بشكل جيد، ومن مصادرها الأصلية أيًا كانت لغتها، كما أن اقترابه من التجار الجنوية ، وكبار المسئولين قد مكنه أيضًا من الحصول على معلومات هامة.

آمن دوكاس أن القدر وقف بالمرصاد لبيزنطة، بسبب كثرة الآثام والخطايا التى ارتكبها البيزنطيون [٢]. وكرر دوكاس ذلك كثيراً فى كتاباته ، كما أنه عقد مشابهة تاريخية بين المسيحيين البيزنطيين واليهود ، من أجل أن يساوى بين محمد الفاتح ، ونبوخذ نصر . لدرجة أنه وصف الفاتح بنبوخذ نصر ، والقسطنطينية بأورشليم .

كما ذكر أن اقتحام العثمانيين للقسطنطينية ، وقتلهم وأسرهم للبيزنطيين ما هو إلا «نتيجة لأخطائنا» ، ولكى يفلت البيزنطيون من هذا العقاب الإلهى ، فلابد أن يملأ الخوف من الرب قلوبهم[٣]. وأن الفتوحات العثمانية بمثابة عقاب الرب لخطايا وآثام بيزنطة .

وبالمقارنة مع مديح المؤرخ البيزنطى كريتوفوليس Kritovoulus للسلطان محمد الفاتح ، فقد تحدث دوكاس عنه بحقد كبير، ووصف الفاتح فى كتاباته بأنه «شيطان على صورة إنسان»، «التنين المتوحش»، «البربرى» «المسيح الدجال» «الطاغية والشرير» «العدو الحقود» «وقاتل شعبنا» .

١- انظر : O.D.B, vol . p. 656 .

٢- انظر : Doukas, Op. cit, p. 37 .

٣- Loc . cit .

والحقيقة أن دوكاس هنا لايختلف كثيراً عن رأى معظم المؤرخين البيزنطيين، العلمانيين منهم أو رجال الدين، الذين عزوا جميعًا كافة الكوارث التى حلت بالبيزنطيين طوال تاريخهم إلى ما ارتكبوه من خطايا وآثام. وإلى غضب الرب.

كما ذكر دوكاس أيضًا، وبشكل متكرر، عدم اكتراث محمد الفاتح بحياة خصومه البيزنطيين، واللاتين ، ووصف كيف تسلطت فكرة الاستيلاء على القسطنطينية على ذهن محمد الفاتح لدرجة أن السلطان العثماني لم يكن يذق طعم النوم، فقد كان يضع خططه العسكرية ليلاً. وكان يرسم تحصينات القسطنطينية على الورق، كما كان يدقق في كافة التفاصيل المتعلقة بالعمليات العسكرية(١).

كان دوكاس شاهد عيان في مدينة أدرنة على التجارب التي قام بها العثمانيون للمدفع العملاق الذي صنعه المهندس المجري اربان . قبل حصار القسطنطينية . وكذلك الحال، كان دوكاس في نوفمبر ١٤٥٢م موجوداً وشاهد عيان علي قيام العثمانيين بقتل البحارة البنادقة وقائدهم أنطونيو ريتزو Antonio Rizzo في منطقة ديديموتيخوس Didymoteichos (٢).

وتحدث دوكاس بشكل تفصيلي عن اقتحام العثمانيين للقسطنطينية، وما جرى من عمليات للقتل والأسر، وحالات الهلع والرعب التي تملكت البيزنطيين، واحتماؤهم بكنيسة أيا صوفيا، كما تحدث أيضًا عن انتشار الرؤى والأساطير حول سقوط المدينة، وحول إنقاذها من براثن العثمانيين .

وذكر دوكاس أن العثمانيين أعملوا القتل في المدافعين البيزنطيين لدى اقتحامهم القسطنطينية ، فقتلوا ألفين بدلاً من أخذهم كأسرى. ولما علم العثمانيون أن عدد السكان البيزنطيين أقل مما توقعوا ، بدأوا في استبدال عمليات القتل بأسر البيزنطيين، من الجنسين، ومن كافة الأعمار(٣).

استخدم دوكاس في كتابته لغة بسيطة، وعلى الرغم من اتهامه باستخدام كلمات تتنافى والفصاحة، فإنه ربما كان من الأكثر دقة أن نقول إن دوكاس قد استخدم تعبيرات وألفاظ جديدة، واستعمل صيغًا لغوية تم استحداثها عبر عملية نمو وتطور اللغة نفسها(٤).

١- Doukas, Op. cit, p. 35 .

٢- انظر: Doukas, Op. cit, pp. 27, 201

وانظر أيضًا : نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص٨٤-٨٥ . الذى يذكر أن قتل السلطان للربان ريتزو وبحارته يعد بداية نشوب الحرب بين البنادقة والعثمانيين.

٣- Ibid, p. 28 .

٤- Ibid, p. 40 .

وعلاوة على ذلك قام بتضمين كتابه العديد من المصطلحات الشعبية، كما تجشم عناء ترجمة الكلمات التركية والإيطالية كى يشعر قارئه بأكبر قدر من الاستفادة[١].

ولم يفت دوكاس أن يخبرنا بأنه قام بتأليف حوليته عن العلاقات العثمانية- البيزنطية بناء على طلب من بعض الراهبات البيزنطيات[٢].

وعلى أية حال فإن رواية المؤرخ البيزنطى ميخائيل دوكاس عن الفتح العثمانى وسقوط القسطنطينية تعد من أكثر الروايات تفصيلاً ، وأكثرها أهمية بفضل المجهود الضخم الذى بذله فيها، ومعرفته لغات جميع الأطراف ، واستعماله للعديد ممن عاشوا هذا الحدث الفذ.

أما الرواية الخامسة فى هذا الكتاب فهى لشخص ، لايوجد عنه الكثير من المعلومات ، يدعى كريستوفورو ريشيريو، الذى يبدو أنه كان موجوداً بالقسطنطينية إبان الاقتحام العثمانى لها .

وتتقابل هذه الرواية مع بعض الروايات التاريخية الأخرى فى أحداثها، ويمكن اعتبارها كرواية جياكومو تيدالدى تحكى فى صفحات قليلة قصة الفتح العثمانى للقسطنطينية ، على الرغم من أنه لاتوجد أية إشارة حول جنسية ريشيريو، وحول اللغة التى كتب بها روايته .

ويمكننا أن نحاول البحث عن جنسية ريشيريو من واقع ما كتبه فى روايته ، إذ يبدو أنه كان فرنسيًا ، بفضل الإشارة التى وردت لديه من أن العام ١٤٥٣م هو الموافق للعام الثالث والثلاثين لحكم الملك شارل الفرنسى .

وبصرف النظر عن أن العام ١٤٥٣م يوافق العام الواحد والثلاثين لحكم الملك شارل السابع (١٤٢٢-١٤٦١م) ، لا الثالث والثلاثين، فإن هذه الإشارة ربما تدل على فرنسية ريشيريو، واستدعاء سنوات حكم ملكه لمقارنتها بالأحداث الجارية .

على أية حال فإن رواية ريشيريو تشير إلى طموحات محمد الفاتح، وانتقالها إلى حيز الواقع بتشييده لقلعة الروملى، ثم حصار قواته المدربة جيدًا، والتى جرى تنظيمها بشكل عسكرى فائق لمدينة القسطنطينية برًا وبحرًا .

١- Doukas, Op. cit, p. 40 .

٢- Ibid, p. 29 .

وأشار ريشيريو إلى الاشتباكات على الأسوار بين الجانبين، وكذلك إلى إصابة جستنياني وانسحابه ، ثم اقتحام العثمانيين للقسطنطينين، وقتلهم للعديد من المدافعين والسكان البيزنطيين، وأعمال السلب والنهب التى جرت فى كنائس ومنازل وشوارع القسطنطينية.

كما تحدث ريشيريو عن استسلام الجالية الجنوية فى بيرا للعثمانيين ، غير أنه بالغ فى رد فعل محمد الفاتح على ذلك، واتهمه بالحنث بالقسم الذى منحه لهم، وتعهده بحمايتهم، وقتله لصغار السن، وهدم الكنائس والقصور ، وهو الأمر الذى لاتؤكده باقى المصادر التاريخية المعاصرة.

ويبدو أن ريشيريو قد ظل بالقسطنطينية لفترة من الوقت بعد الفتح العثمانى، والدليل على ذلك هو ذكره لعملية مقتل القائد العسكرى البيزنطى الأعلى لوكاس نوتاراس [1]، التى حدثت بعد الفتح بعدة أيام.

والرواية السادسة فى هذا الكتاب هى للإيطالى جورجى دولفين Zorzi Dolfin، ويرى البروفيسور جونز أنها أقل الروايات أهمية وأصالة . وهى تسعى لمحاكاة رواية ليونارد الخيوسى التى سبق الحديث عنها.

على أية حال بدأ دولفين روايته بالإشارة إلى رواية ليونارد الخيوسى . بالإضافة إلى ما سمعه من القنصل فيليبو داريمانو Filippo da Rimano الموجود فى جزيرة كورفو Gorfu.

ثم انتقل بعد ذلك للاقتباس من جياكومو لانجستو Giacamo Langustu ، الذى ذكر فى كتاب سابق له الكثير حول السلطان محمد الفاتح، كفاءته ، شخصيته ، صفاته ، طموحاته، والذى أظهره فى صورة سلطان مثقف ، حكيم ، ينوى فى الوقت نفسه الانقضاض على باقى الدول والممالك المسيحية فى القارة الأوربية.

كما تعرض دولفين لأساليب العثمانيين فى غزو المدن، وكذلك لنجاحهم فى جلب الشبان المسيحيين إلى مظلة نظام الدوشرمة، وكذلك أشار إلى الإنكشارية ومهارتهم العسكرية .

وبعد ذلك تحدث دولفين عن المدافعين البيزنطيين والإيطاليين عن القسطنطينية ومواقعهم البرية والبحرية، ثم عرج فى مبالغة واضحة إلى ذكر المعجزات التى حدثت قبيل سقوط

١- أجمعت كافة المصادر التاريخية المعاصرة على إعدام لوكاس نوتاراس، وحده ريشيريو الذى ذكر بأنه انتحر عبر شنق نفسه.

القسطنطينية فى قبضة الأتراك العثمانيين. وهى معجزات وأحداث لم ترد فى باقى الروايات الواردة فى هذا الكتاب[١]. مما يجعلنا نشك فى حدوثها . وينهى دولفين روايته بالحديث عن انتصار السلطان محمد الفاتح، وتباهيه بذلك.

تتميز الرواية السابعة عن الفتح العثمانى للقسطنطينية ١٤٥٣م ، باختلاف زاوية الرؤية والتناول، إذ أن صاحبها هو البودستا (القنصل) الجنوى فى منطقة بيرا المواجهة للقسطنطينية ، إبان الاقتحام العثمانى للمدينة .

وهذه الرواية عبارة عن رسالة قام بكتابتها البودستا السابق للجالية الجنوية فى بيرا ، جيوفانى لوميللينو Giovanni Lomellino [٢].

ويرجع تميز هذه الرواية وتفردها إلى أنها تعبر عن وجهة نظر الجنوية فى سقوط القسطنطينية ، خاصة بعد الاتهامات التى كالها البنادقة والبيزنطيون لهم، واتهامهم بمساعدة العثمانيين فى خططهم، مقابل الحفاظ على امتيازاتهم التجارية فى بيرا والقسطنطينية .

تحدث لوميللينو فى عجالة عن الاقتحام العثمانى للقسطنطينية ، ورحيل جستنيانى، وبدء الأتراك عملية السلب والنهب داخل القسطنطينية بعد سقوطها .

وبالإضافة إلى ذلك فإن رسالة لوميللينو يمكن اعتبارها بمثابة «خطاب تبريرى» لموقف الجنوية من الأحداث ، ففى الوقت الذى يذكر فيه أنه على استعداد للموت فى سبيل عدم

١- المؤرخ البيزنطى الوحيد الذى اتفق مع دولفين فى حدوث بعض الظواهر غير الطبيعية كان كريتوفولس Kritovoulus ، الذى تحدث عن حدوث الزلازل والبراكين ، والعواصف والصواعق ، والسيول الجارفة ، وغير ذلك ، انظر : kritovoulus, Op. cit, pp. 35 , 58-59

وعلى الرغم من هذا فإننا نشك فى حدوث تلك الظواهر لأنها لم ترد فى باقى المصادر المعاصرة ، فضلاً عن أنها أحداث يصعب إغفالها ، ولها تأثيراتها الكبيرة على البيئة والسكان.

٢- عن القنصل الجنوى جيوفانى لوميللينو ودوره إبان الفتح العثمانى للقسطنطينية انظر: هايد، تاريخ التجرة، ج٢ ، ص١٧٠ .

وانظر أيضًا : Babinger, "Mehmed the Conqueror and his time" pp. 101 , 107 . Runciman , " The Fall of Constantinople" , pp. 162-163 196 , 221 .

سقوط بيرا، فإنه – وفى نفس الوقت – يرسل إلى السلطان الفاتح سفراءه مع هدايا فاخرة من أجل تجديد المعاهدة الموجود بينهما. ثم قام بنفسه بزيارة السلطان العثمانى ، الذى حضر أيضًا إليه فى منطقة بيرا.

وتحدث لوميللينو أيضًا عن المعاهدة التى تم إبرامها مع السلطان الفاتح بعد اقتحام القسطنطينية . وكذلك عن أسر ابن أخيه فى بلاط السلطان العثمانى ، وجهوده المستميتة لاسترداده، والتى لم تنجح حتى تاريخ كتابة رسالته .

ولم ينس لوميللينو – كما هى العادة– أن يعزو الكارثة التى حلّت بالبيزنطيين والإيطاليين إلى الخطايا والآثام التى قاموا بارتكابها .

إن رواية البودستا الجنوى جيوفانى لوميللينو، وإن كانت لاتضيف جديداً على صعيد أحداث ووقائع الحصار والاقتحام العثمانى. فإنها توضح بشكل كبير العلاقات العثمانية الجنوية، ودور القنصل الجنوى فى ادارة أمور المستعمرة الجنوية، فضلاً عن الارتباطات التجارية بين العثمانيين والتجار الجنوية.

وعلى الرغم من احتواء الكتاب الذى قمت بترجمته على سبع روايات عن الحصار والفتح العثمانى للقسطنطينية ١٤٥٣م. فقد قمت بإضافة رواية ثامنة إلى الترجمة العربية ، وهى رواية بنفينوتو Benvenuto قنصل مدينة أنكونا Ancona الإيطالية بالقسطنطينية . والتى يؤكد فيها أن كل ما كتبه قد شاهده بنفسه، باستثناء مقتل الإمبراطور البيزنطى.

وعلى الرغم من قصر شهادة القنصل بنفينوتو حول ذلك الحدث الفريد، فإنها تتميز بدقتها، مع بعض المبالغة فى أرقام القوات، فقد تحدث عن المدافع وقذائفها ، وعن الأسلحة المستخدمة، فضلاً عن تناوله لدور القائد الجنوى جستنياى، الذى اتهمه بالهرب من ميدان المعركة .

وذكر بينفيتوتو أنه سمع من آخرين عن مقتل الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر ، وأشار أيضًا إلى استباحة الجنود الأتراك للقسطنطينية ، والحصول على الغنائم ، بفضل أوامر السلطان محمد الفاتح .

تعتبر الشهادات السبع أو الثمانى التالية ، بالإضافة إلى يوميات نيقولو باربارو البندقى والتى– وبحمد الله وتوفيقه– انتهيت من ترجمتها ونشرها فى العام الماضى، هى أدق الروايات

عن فتح القسطنطينية ١٤٥٣م، وأكثرها أهمية ومصداقية . لأن أصحابها كانوا جميعًا شهود عيان على الفتح العثمانى للقسطنطينية ، مع استثناءات بسيطة لاتخل بالروايات ، لكنها مستقاة من أفواه أناس عاصروا، وعانوا من الاقتحام العثمانى للمدينة.

ويمكننى هنا أن أقرر أن الروايات اللاتينية والبيزنطية التالية، بالإضافة أيضًا إلى يوميات الطبيب نيقولو باربارو لهى أصدق الروايات حول فتح القسطنطينية بالإضافة إلى الروايات العثمانية التى تناولت هذا الموضوع عبر كتابات عاشق باشا زاده Asik Pasa Zada ، وطورسون بك Tursun Beg .

وعلى الرغم من تميز تلك المصادر العثمانية ، فإنها لاتجارى الروايات اللاتينية والبيزنطية التى تمت كتابتها فى حينها، وعلى سبيل المثال فإن المؤرخ العثمانى ابن عاشق باشا، كان معاصرًا للأحداث ، وألف كتابًا ضمّنه أحداث فتح القسطنطينية.

غير أن هناك سببين فى رأينا يقللان من اكتمال القيمة العلمية والتاريخية لما قام بكتابته، الأول أنه بدأ فى كتابة تاريخه ، وهو فى سن السادسة والثمانين ، أى فى العام ١٤٨٦م . وبعد سقوط القسطنطينية بثلاث وثلاثين عامًا . الأمر الذى يشى بعدم مصداقية ما ذكره بشكل كامل نتيجة لما يشوب ذاكرة الإنسان من عوار فى ذلك العمر المتأخر .

والسبب الثانى هو أن ابن عاشق باشا لم يفرد لمسألة فتح القسطنطينية سوى بعض الصفحات القليلة داخل كتابه. بعكس الروايات البيزنطية واللاتينية التى تحدثت باستفاضة عن الفتح العثمانى للقسطنطينية .

وهناك مصدر عثمانى آخر، يعد فى غاية الأهمية لدى تناول مسألة الفتح العثمانى للقسطنطينية وهو كتاب المؤرخ طورسون بك . الذى عمل سكرتيرًا فى الديوان العثمانى. وحضر مجالس السلطان الفاتح مع مستشاريه ، وعمل فى بناء قلعة الروملى. وشارك بنفسه فى حصار القسطنطينية .

وعلى الرغم من أنه تحدث باستفاضة عن الأحداث التى واكبت الحصار العثمانى للقسطنطينية ، فلم تتميز معلوماته بالدقة والتفصيل الشديدين، وذلك لسبب فى غاية الأهمية ، إذ أنّه شرع فى تأليف كتابه فى العام ١٤٨٨م، حينما كان فى الستين من عمره ، وبعد خمس وثلاثين عامًا على سقوط القسطنطينية ، وهو ما جعله أيضًا لايتذكر جميع وقائع وأحداث الحصار العثمانى للمدينة.

على أية حال احتوت الترجمة الإنجليزية على ملحق واحد يتعلق بمعاهدة الجنوية مع محمد الفاتح فى أعقاب اجتياحه للقسطنطينية، وقد أضفت إلى الملاحق رواية ثامنة بطلها هو قنصل مدينة أنكونا الايطالية، كما سبق أن أوضحت . وكذلك ثبتًا بأسماء الأباطرة البيزنطيين والسلاطين العثمانيين وسنوات حكمهم ، فضلاً عن خريطة لمدينة القسطنطينية لمساعدة القارئ على فهم وتخيل الأحداث والوقائع الموجودة فى الكتاب.

ولقد اتبعت فى ترجمتى لهذا الكتاب منهجًا حاولت فيه أن أجمع بين دقة الترجمة والحرص على المعنى الأصلى، وحاولت أن تكون هذه الترجمة نقلاً أمينًا لأصحاب الروايات وشهادات العيان حول فتح القسطنطينية .

كما أننى قمت بترجمة رواية المؤرخ البيزنطى دوكاس بالكتاب، عبر مقارنتها بنفس الفصول الموجودة فى ترجمة إنجليزية أخرى لحولية دوكاس الكاملة، التى قام بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية البروفسور ماجولياس Magoulias. الأمر الذى جعلني أعثر على بعض الفروق بين تلك الترجمة ، وترجمة البروفسور جونز Jones الموجودة فى هذا الكتاب.

واقتضى الأمر منى حتى أقوم بالدراسة والتعليق المناسبين على تلك الروايات المصادر التاريخة الهامة ، أن أقوم بقراءة ومقارنة العديد من المصادر التاريخية البيزنطية واللاتينية والعثمانية والفارسية والعربية ، فضلاً عن عشرات المراجع المتعلقة بالموضوع . كل ذلك من أجل إيضاح جميع الأحداث التاريخية من كافة جوانبها، وحتى يستطيع القارئ سبر أغوار هذا الموضوع ، الذى يحظى بأهمية تاريخية فائقة.

ولقد فضلّت – قبل أن يلج القارئ مباشرة إلى الترجمة العربية للكتاب– أن أسبقها بدراسة مستفيضة تمثل مدخلاً واجبًا للأحداث التى جرت بعد ذلك ، أسبابها وجذورها، وهكذا فقد تناولت فى الدراسة مكانة مدينة القسطنطينية فى التاريخ البيزنطى، والعلاقات الإسلامية البيزنطية الأولى، ومحاولات الأمويين فتح القسطنطينية . ثم عرجت إلى الحديث عن الوجود الإسلامى المبكر فى القسطنطينية ، ومسجد القسطنطينية الأول، والحى الإسلامى بها، الذى سكن به، وارتاده، العديد من التجار والزائرين والسكان المسلمين .

وكان لابد من الإشارة إلى العلاقات الدينية والكنسية بين كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية وكنيسة روما الكاثوليكية، ومحاولات البابوية المتكررة إخضاع كنيسة القسطنطينية لنفوذهم، وفرض الاتحاد الكنسي عليها. وهو الأمر الذى رفضته بيزنطة على الدوام، ولم يقبل به

أباطرتها إلا لتحقيق مطامع سياسية مع البابوية، أو من أجل إنقاذ القسطنطينية من الوقوع في قبضة العثمانيين .

إن استعراض العلاقات الكنسية بين القسطنطينية وروما، يفسر لنا الكثير من أسباب سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م، فقد بلغت الخلافات بين الكنيستين شأوًا بعيدًا دعا بالمحاصرين داخل القسطنطينية إلى المناداة بتفضيل استيلاء العثمانيين على المدينة، بدلاً من تحكّم اللاتين وكنيسة روما في حياتهم وطقوسهم وشعائرهم الدينية، كما أن البابا في روما لم يهتم بتقديم الدعم العسكرى للقسطنطينية، قدر اهتمامه بنجاح صيغة الاتحاد الكنسى.

وفى نهاية الدراسة تناولت العلاقات البيزنطية مع العثمانيين منذ بزوغهم كقوة عسكرية على الحدود البيزنطية الشرقية ، وحتى تنامى قوتهم ، واستنجاد الأباطرة البيزنطيون بهم إبان الحرب الأهلية البيزنطية، وهو الأمر الذى أدى إلى عبور العثمانيين إلى القارة الأوربية ، وزيادة دورهم السياسى، وقوتهم العسكرية بشكل واضح، وهو ما أدى فى النهاية ببيزنطة إلى أن تصبح مجرد تابع للقوة العثمانية الجديدة، والصاعدة، حتى وصل الأمر إلى نتيجته الحتمية، وهو نجاح العثمانيين في فتح العاصمة البيزنطية ١٤٥٣م.

إن ما دفعنى إلى ترجمة هذا الكتاب الذى يضم بين دفتيه عدة مصادر تاريخية هامة ، هو جدية وأهمية الموضوع الذى تناولته شهادات العيان والروايات الموجودة به حول الفتح العثمانى للقسطنطينية ١٤٥٣م، وأثر ذلك الحدث على العلاقات الإسلامية المسيحية فى نهايات العصور الوسطى. فضلاً عن التذكير بالدور الهام الذى لعبه الأتراك فى التصدى للإمبراطورية البيزنطية، ونجاحهم فى تقويض الإمبراطورية الرومانية الشرقية، والكنيسة الأرثوذكسية ، وإسهامهم فى نشر الإسلام وحماية الحضارة الإسلامية فى البلقان وشرق أوربا .

كذلك فإن هدفى من ترجمة هذا الكتاب هو استكمال ما بدأته من قبل حول دراسة وترجمة كافة اليوميات ، وشهادات العيان أو الروايات التاريخية المعاصرة للفتح العثمانى للقسطنطينية ١٤٥٣م .

ولايمكننى أن أغفل هنا تقديرى للأتراك وما أسدوه للإسلام من خدمات جليلة، فضلاً عن عشقى الخاص لمدينة القسطنطينية ، استانبول الحالية، التى مكثت بها زمنًا آراه اليوم جميلاً . فهى مدينة تستحق أن يعشق المرء تاريخها ، وآثارها ، ودورها، ... وروائحها.

وفى النهاية لابد من توجيه الشكر إلى من يستحق ، وإلى الذين قدموا لى يد المساعدة، الأخ الدكتور طارق منصور ، بكلية الآداب، جامعة عين شمس ، الذى منحنى نسخة من هذا الكتاب لترجمته، والأخ الدكتور إبراهيم الصنافيرى بكلية اللغات والترجمة ، جامعة الأزهر ، الذى قام بترجمة العديد من صفحات المصادر التاريخية العثمانية، التى استعنت بها فى الدراسة والتعليق. والأخ الدكتور وديع الفرنسيسكانى بدير الفرنسيسكان على ترجمته لصفحتين عن اللاتينية تمثلان راوية قنصل أنكونا عن الحصار العثمانى للقسطنطينية .

... وبعد ، أرجو أن أكون قد أصبت قدراً من التوفيق عند اختيارى لموضوع هذا الكتاب لترجمته . كما آمل أن يكون التوفيق قد أصابنى بقدر آخر منه، لدى قيامى بالدراسة والترجمة والتعليق المناسبين لهذا الكتاب الفريد، الذى أراه إضافة فى غاية الأهمية إلى المكتبة العربية والإسلامية.

وعلى الله قصد السبيل

دكتور

حاتم عبد الرحمن الطحاوى

الطحاوية –شتاء العام ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

«إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون

فى دين الله أفواجًا ، فسبح بحمد ربك واستغفره .

إنه كان توابًا »

صدق الله العظيم

حصار القسطنطينية ١٤٥٣م

سبعة مصادر معاصرة

جياكومو تيدالدى

Giacomo Tedaldi

فيما يلى الطريقة التى تم من خلالها غزو مدينة القسطنطينية ، العريقة والنبيلة. من قبل السلطان التركى، فى الثامن والعشرين [١] من مايو ١٤٥٣م.

تحرك الأتراك بشكل سرى ، في اليوم الرابع من أبريل لنفس العام، ليتخذ جيشهم مواقعه فى مواجهة المدينة، فى اليوم التالى، الخامس من أبريل[٢].

وبلغ مجموع القوات التى قامت بفرض الحصار على القسطنطينية مائتى ألف رجل، كان من بينهم ستين ألف مقاتل، كان من ضمنهم ثلاثين إلى أربعين ألفًا من الخيالة[٣]. كان ربع عددهم مجهزًا بالصديريات المدرعة، أو الجواكت الجلدية. بينما حمل عدد كبير من الباقين

١- من الغريب أن يحدث هذا الخطأ فى المخطوطة . والصحيح أنه التاسع والعشرين من مايو، ولاحظت الترجمة الإنجليزية ذلك فاستعملت (sic) لاثبات أن ذلك ما ورد فى المخطوطة.

٢- يتفق تيدالدى هنا مع نيقولو باربارو الذى ذكر أن السلطان محمد الفاتح، حضر بجيشه لمحاصرة القسطنطينية بعد فجر الخامس من أبريل ١٤٥٣م. انظر: نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١١٣ .

٣- قامت المخطوطات الأخرى بعكس النسبة العددية . وذكرت رقمًا بلغ مائة وأربعين ألفًا من المقاتلين لكن رقم ستين ألفًا يبدو مناسبًا بشكل كبير . (الترجمة الإنجليزية) .

والحقيقة أن المصادر التاريخية قد اختلفت حول أعداد الجيش العثمانى . فعلى حين يذكر باربارو أنه تألف من مائة وستين مقاتلاً ، فإنه يعود ليتحدث عن وجود ١٥٠ ألف مقاتل عثمانى، انظر: المصدر السابق، ص١١٣، ١٦٨ . بينما ذكر خالكوكونديلاس Chalcocondylas أنه بلغ ٤٠٠ ألف رجل ، وذكر دوكاس Doukas أن عددهم يزيد عن ٤٠٠ ألف رجل، بينما ذكر فرانتزس Sphrantzes أنهم كانوا ٢٠٠ ألف رجل أنظر على التوالى . خالكوكونديليس ، ص١٨٢ دوكاس ، ص٢٥٢ .

Sphrantzes, G, The Fall of the Byzantine Empire, Achronicle by Georgo Sphrantzes 1401-1477 . Trans. by , Marios Philippides, Amherst , 1980, p. 69 .

أما فرانتز بابنجر Franz Babinger فيصف تلك الأرقام بالمبالغة . وينكر أن إمكانيات العثمانيين آنذاك لم تكن لتسمح بمثل هذا الحشد . وقدر عددها بثمانين ألف مقاتل فقط. انظر:

Mehmad The Conqueror and his Time Trans. by , R. Manheim , W. C. Hikman, Princeton , 1978 , p. 84 .

السلاح فوق ملابسهم الفرنجية . وحمل البعض سلاحه فوق زيه المجرى[١]، وارتدى الآخرون خوذات حديدية ، بالإضافة إلى ما معهم من الأقواس والسهام.

بينما كان باقى المحاربين بلا أية تجهيزات ، باستثناء التروس والسيوف Scimetars[٢] التى كانت أحد أنواع السيوف التركية .

وتألف باقى المائتى ألف من اللصوص وسارقى الغنائم والأسلاب، والباعة الجائلين [٣]، والحرفيين، وآخرين ممن عملوا فى خدمة الجيش التركى.

وخلال الحصار ، كان هناك عدة مدافع كبيرة، وعدد كبير من البنادق Culverins، وبعض التجهيزات اللازمة من أجل انطلاق القذائف ، ومن بين المدافع كان يوجد مدفع معدنى

١- تلك إشارة من تيدالدى إلى قوات المرتزقة فى الجيش العثمانى. وربما كانت أيضًا إشارة إلى الفرقة المسيحية التى قامت بأولى موجات الهجوم النهائى فجر التاسع والعشرين من مايو، والتى تألفت من خمسين ألف مقاتل حسب رواية باربارو ، انظر : المصدر السابق، ص١٦٨ .

٢- Scimetar: هو السيف المعقوف وحيد الحد، أو الأحدب. عنه أنظر : القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ج٤ ، القاهرة، د.ت ، ص٢٤ : ابن أبى الفضائل ، المنهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، باريس ، ١٩٩١م، ص٤٤٨ .

' Dozy , R , Supplement Aux Dictionnaire Arabes, Tome, 2 , Beyrouth, 1981, p.732 .

ابن اياس (محمد أحمد بن إياس الحنفى) بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج٢، ص٢٧٣ : محمود نديم فهيم، الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى البحرى، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٣٩ .

٣- جرت العادة على وجود أسواق منتظمة بجوار معسكرات الجيوش فى العصور الوسطى، خاصة إبان فترات الحصار ولدينا العديد من الإشارات التاريخية على وجود الباعة والأسواق إلى جوار الجنود. من ذلك أمر الإمبراطور ألكسيوس كومنينوس Alexius Comnenus بعقد سوق لتلبية احتياجات جنود الحملة الصليبية الأولى لدى عبورهم القسطنطينية١٠٩٧م، عن ذلك انظر:

وليم الصورى، الحروب الصليبية ، ج١ ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٩١م، ص١٦٧-١٦٨ : المؤرخ المجهول، المصدر السابق ، ص٢٥ : فوشيه الشارترى، المصدر السابق، ص١٠٦ .

Anna Comnena, op. cit , p. 261 .

ضخم[١]، تم سبكه (صنعه) من قطعة واحدة، وفى مكانه أن يقذف حجراً يبلغ محيطه إحدى عشرة شبراً وثلاثة أصابع، ويزن ألف وتسعمائة رطلاً. بينما تستطيع المدافع الأخرى أن تقذف أحجاراً يتراوح وزنها ما بين ثمانمائة، وألف ومائتى رطلاً .

كان المدفع يطلق ما بين مائة ومائة وعشرين قذيفة يومياً، واستمر حصار المدينة خمسة وخمسين يوماً ، ويمكن حساب ما يستهلكه المدفع يومياً بألف رطل من البارود. ويجدر بنا أن نتذكر أنه بالإضافة إلى ذلك المدفع ، كان هناك عشرة آلاف بندقية .

وتألف الأسطول التركى، الذى تمركز داخل الميناء وخارجه، من عدد يتراوح ما بين ستة عشرة، وثمانية عشرة سفينة من نوع الشينى Galley [٢]. ومن ست إلى ثمانى سفن شراعية صغيرة Galliots[٣] بها ما بين ثمانية عشرة إلى عشرين مجدافاً. ومن سفن أصغر حجماً

١- عن هذا المدفع والمدافع العثمانية الأخرى . انظر يوميات باربارو ، ص١١٨ ، ١٥٧ وانظر كذلك الصفحات التالية: ليونارد الخيوسي، ص١٢٣ : خالكوكونديلاس ، ص١٨١ : دوكاس ، ص٢٢٩-٢٣٠ ، ريشيريو ، ص٣١٣ .

Kritovoulus, op. cit, pp. 43-47 ; 51-53 .

وانظر كذلك المصدر العثمانى المعاصر : Tursun By, Tarih - I Ebul- Feth, Hazirlayan, Mertol Tulum, Istanbul, 1997 , p. 47 .

٢- الشينية نوع من السفن يتميز بطول وانخفاض سطحه . وتعتمد بشكل كبير على المجاديف . وتقام عليها الأبراج الخشبية لعمليات القتال البحرى. واعتمدت عليها كافة الأساطيل البحرية المسيحية والإسلامية فى البحر المتوسط فى العصور الوسطى. انظر Lane, F, " Venetian Shipping during The Commercial Revolution" in A.H.R. vol , XXXVIII, 1933 , p. 219 .

درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم ، الإسكندرية، ١٩٧٤م، ص٨٣-٨٤ : أحمد رمضان أحمد، تاريخ فن القتال البحرى فى العصر الوسيط، القاهرة ، د.ت ، ص٤٥ .

٣- هى السفينة المعروفة باسم الغليون، وجمعها الغلايين، وهو نوع من المراكب عالى الأطراف ، استخدم فى القتال البحرى فى القرن الخامس عشر الميلادى، انظر: Dozy, Op. cit, p. 226 .

درويش النخيلى المرجع السابق، ص١١٢-١١٤: اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار، ج١، القاهرة ، ١٣١٢هـ، ص٥٥١-٥٥٣ .

يتراوح عددها من ست عشرة إلى عشرين مجهزة لنقل الخيول من نوع يسمى Palendins[١]، بالإضافة إلى عدد آخر من السفن الصغيرة مختلفة الأنواع .

وبعد بداية الحصار البرى، قام زاجان باشا Zagan Pasha[٢]، وزير السلطان، والمسيحى المرتد القادم من ألبانيا ، ذلك الشخص الأكثر خطورة ، والأعلى سلطة وشأنًا فى حاشية السلطان، قام بنقل ما بين ستين إلى ثمانين سفينة ، بخلاف بعض السفن المسلحة الأخرى، من البحر عبر مسافة تبلغ الميلين أو الثلاثة أميال فى الطريق البرى، إلى خليج القرن الذهبى[٣] حيث الميناء بين المدينتين .

١- لابد أن المقصود بها السفينة المعروفة بالطرادة أو الطريدة التى كانت مجهزة بمكان فى مؤخرتها من أجل حمل الخيول فى الحملات الحربية البحرية فى *البحر المتوسط فى العصور الوسطى*، انظر: *ابن مماتى* (شرف الدين أبو المكارم) ، قوانين الدواوين، جمع وتحقيق عزيز سوريال، القاهرة، ١٩٩١م، ص٣٣٩ . الذى يذكر أن الواحدة منها تحمل «أربعين فرسًا» انظر أيضًا . درويش *النخيلى* ، *المرجع السابق*، ص٨٩-٩٢ . وهناك بحث رائع عن سفن نقل الخيل لدى الصليبيين: انظر:

Pryor, J. " The Transportation of Horses by Sea During The Era of the Crusades: Eighthcentury to 1285 A.D". in M.M.68 . London, 1982, pp. 9-27 . 103-125 .

٢- كان زاجان باشا أهم قادة الجيش العثمانى ، وقام بحثّ السلطان محمد الفاتح على ضرورة فتح القسطنطينية ، وأجمعت كافة المصادر المعاصرة على شجاعته، وإصراره على إسقاط القسطنطينية .

٣- قام محمد الفاتح بتنفيذ خطة عسكرية رائعة ، إذ قام بنقل سفنه من مضيق البوسفور إلى خليج القرن الذهبى بعد مرورها بالتلال لمسافة ميلين أو ثلاثة وذلك عبر تعبيد الطرق البرية عدة بكرات ثم تشحيمها بالدهن والشحم، ومساعدة مئات الرجال والثيران فى دفع السفن وهى تفرد أشرعتها . وكذلك مساعدة عشرات النّجارين والعمال. حتى استطاعوا فى النهاية مباغتة البيزنطيين وإنزال ٧٢ سفينة تركية فى خليج القرن الذهبى. عن تلك الخطة العسكرية الرائعة انظر:

باربارو ، المصدر السابق، ص١٣١-١٣٢ : ليونارد الخيوسى ، ص١٤٠-١٤١ ، خالكوكونديلاس، ص١٨٥، Tursun Bey, Op. cit, p. 52 , Kritoronlus, Op. cit, pp. 55-58 .

Runciman , The Fall of Constantinople 1453, Cambridge, 1965 , pp. 105-106 .

Nicol, D, The Last Centuries of Byzantium 1261-1453, London , 1972, p. 404 .

Babinger, F, Op. cit, pp. 88-89 .

كانت هذه الطريقة الوحيدة التى تمكن من خلالها الأسطول التركى، من النفاذ إلى الميناء، لأن الجيش البيزنطى كان في موقع قريب، كما قام الأتراك بتشييد جسر من السفن فى مدخل الميناء، ما بين القسطنطينية وبيرا Pera لتقديم المساعدة ، إذا ما اقتضى الأمر ذلك.

كان قائد الأسطول التركى يدعى البيتانجول Albitangol . ونجحت أربع سفن جنوية فى الفرار من قبضته [١]، ونتيجة لذلك قام السلطان بتعيين قائد جديد للأسطول . وبذلك اكتمل الآن حصار القسطنطينية من البر والبحر.

تعد مدينة القسطنطينية فى منتهى المناعة والقوة . فهى مثلثة الشكل، يبلغ طول أسوارها البرية ستة آلاف خطوة Paces، بينما يبلغ طول أسوارها البحرية خمسة آلاف خطوة ، أما السور البحرى المطل على البوسفور فيبلغ طوله ستة آلاف خطوة ، وتتميز أسوارها البرية بارتفاعها وسمك جدرانها ، ويوجد فى أعلاها العديد من التحصينات الأمامية، والفتحات العليا Barbicans . كما توجد أسوار إضافية ، وقنوات خارج الأسوار البرية.

وترتفع الأسوار الرئيسية من عشرين إلى اثنين وعشرين Brasses[٢]، ويبلغ سمكها فى بعض الأنحاء من ثلاثة إلى ستة ، وأحيانًا ثمانية أذرع.

وشيدت الأسوا الخارجية الإضافية لترتفع من عشرين إلى اثنين وعشرين ذراعًا Brass- es، وسمكها ثلاثة أذرع، وعمقها خمس عشرة ذراعًا ، ويحتوى كل ذراع فى معظم الأحوال على حوالى ثلاثة ونصف راحة يد Palm، حسب مقياس مدينة أفينون Avignon .

١- كان قائد الأسطول التركى يدعى بلطه أوغلو سليمان بك . وحدثت تلك المعركة البحرية فى العشرين من أبريل ١٤٥٣م ، وتيدالدى يخطئ هنا إذ يذكرها بعد نجاح العثمانيين فى إدخال سفنهم إلى خليج القرن الذهبى. ذلك الحدث الذى جرى فى ليلة الثانى والعشرين من أبريل . عن تلك المعركة انظر:

باربارو ، المصدر السابق ، ص١٢٥؛ ليونارد الخيوسى، ص١٤٢-١٤٣، خالكوكونديليس، ص١٨٨-١٨٩ .

Kritovoulis, Op. cit, pp. 53-55 .

٢- brass أو Braccio هو الذراع حسب المقياس الفلورنسى . وعلى الرغم من استخدامه لقياس الملابس بشكل خاص . فإن تيدالدى الفلورنسى يستخدمه هنا لقياس أسوار القسطنطينية. عن ذلك المقياس انظر:

Edler, F, Glossary of Medieval Terms of Business, Italian Series 1200-1600, Cambridge Mass, 1934, p. 52 .

أما في الميناء، ولغرض حماية السلسلة ، فقد تمركزت ثلاثين سفينة مسيحية من نوع nef، وتسعة شواني، تخص ثلاثة منها الإمبراطور (البيزنطى) ، وتتبع واحدة منها السيد المبجل جيوفانى جستنيان لونجو Giovanni Giustiniani Longo [١]. الجنوى الذى كان يعمل فى خدمة الإمبراطور البيزنطى.

وهكذا تم حصار القسطنطين براً وبحراً ، وتم استعمال السهام والنبال ، والمدافع والأسلحة الأخرى ، ودافعت المدينة عن نفسها لمدة أربعة وخمسين يوماً.

وخلال ذلك الوقت ، جرت الكثير من الأحداث الجديرة بالملاحظة. فقد بدا للمسيحيين أنه من السهل عليهم إضرام النيران بسفن الأسطول التركى. واستقل ربان السفينة التابعة لطرابيزون Trebizond شينية خفيفة من أجل تحقيق هذا الغرض، مع آخرين ثم تكليفهم بهذه المهمة، لكن سفينته تعرضت للغرق إثر إصابتها بقذيفة من المدفع التركى[٢].

١- هو القائد العسكرى الجنوى الشهير جيوفانى جستنيانى، الذى وصل إلى مدينة القسطنطينية للمساعدة فى الدفاع عنها فى السادس والعشرين من يناير ١٤٥٣م ويرفقته ٧٠٠ مقاتل. وأصدر الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر مرسوماً بتعيينه مسئولاً عن الدفاع عن الأسوار البرية للقسطنطينية، ونجح جستنيانى وقواته فى ترميم العديد من الأسوار بعد إصابتها بالمدافع العثمانية. ويشهد له المؤرخ البيزنطى المعاصر دوكاس بأنه حارب وجنوده بشجاعة . لكنه أصيب خلف ذراعه، مما دعاه للانسحاب لطلب العلاج فى سفينته لكنه لم يعد إلى ميدان القتال، ويحمّله باربارو نيقولو (البندقى) مسئولية الهرب من الميدان، وهو المصدر الوحيد الذى يوجه إليه هذا الاتهام . عن جستنيانى ودوره فى القتال بين العثمانيين والبيزنطيين، انظر: نيقولو باربارو ، المصدر السابق ، ص١٠٣-١٠٥ ، ١٧٣-١٧٤ .

kritovoulus, Op. cit, pp. 69-70 Sphrantzes, Op. cit, p. 103 - 106 .

خالكوكونديلاس ، ص١٩٣ : دوكاس ، ص٢٥٠-٢٥١ : ريشيريو ، ص٢١٧-٢١٨ .

وانظر كذلك : ليونارد الخيوسى الذى أشار إلى النزاع الذى نشب بين جستنيانى والقائد العسكرى البيزنطى الأعلى لوكاس نوتاراس، ص١٥٦ بينما يحدد البروفسير ستيفن رنسمان موعد وصول جستنيانى إلى القسطنطينية بتاريخ ٢٩ يناير ١٤٥٣م. انظر:

Runciman, S, op. cit, pp. 83-84 , 129 , 131 , 135 , 138-139 , 150 ; Babinger, Op. cit, pp. 79, 86 - 87 , 90-93 .

٢- قاد جاكومو Jacomo Coco ربان السفينة القادمة من طرابيزون المحاولة التى قامت بها السفن =

وغرق أيضًا جميع بحارتها ، باستثناء البعض الذين سقطوا فى الأسر. حيث أمر السلطان بقتلهم، عبر الخوازيق التى اخترقت أجسادهم حتى وصلت إلى أعلى رؤوسهم وماتوا على مرأى ومسمع من حراس الأسوار .

وفى مكان قريب من الشاطئ ، كان يقف زاجان باشا، ذلك المسيحى المرتد والخائن ، القادم من ألبانيا ، والذى تبوأ مكانة متميزة وسط الأتراك المحاصرين للمدينة، حيث كان يقف عدد من الذين كانوا يعملون فى حفر المناجم بحثًا عن معدن الذهب والفضة ، حيث بدأوا فى حفر أنفاق طويلة تحت الأسوار . وقام البيزنطيون أيضًا بحفر أنفاق مقابلة لها، وبدأوا عن طريق استراق السمع، فى تحديد مواقع الأتراك العثمانيين ، ثم قاموا بإشعال المخلفات والقانورات التى تكفّل دخانها الكثيف ، ورائحتها الكريهة، بإصابة الأتراك بالاختناق . كما قام البيزنطيون بإغراق العثمانيين فى بعض الأنفاق ، بعد سكب المياه الغزيرة عليهم وفى أحيان أخرى قاموا بمواجهتهم وجهًا لوجه . ويدًا بيد حينما وجدوا أنه لامناص عن ذلك.

= البيزنطية والبندقية لاضرام النيران فى السفن العثمانية التى نجحت فى الوصول إلى خليج القرن الذهبى بعد أن قام محمد الفاتح بإصدار أوامره بإخراجها إلى اليابسة ثم جرها عبر التلال المجاورة لبيرا باستخدام الحبال والبكرات والشحوم علاوة على جرها بواسطة مئات الرجال، الأمر الذى مكنها فى النهاية من النزول إلى نهاية خليج القرن الذهبى مكونة خطرًا داهمًا على البيزنطيين . لكن محاولة جاكومو كوكو انتهت بفاجعة رهيبة على حد تعبير نيقولو باربارو، حيث منى هجومه بفشل ذريع فى الثامن والعشرين من أبريل ١٤٥٣م، وأسفر عن مقتله وغرق العديد من المهاجمين البنادقة والبيزنطيين. انظر : نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٣٣-١٤٠، حيث يعزو هذا الفشل إلى خيانة الجنوية الذين أخبروا السلطان الفاتح بموعد الهجوم. انظر أيضًا، ص١٣٥-١٣٧-١٤١ عن ذلك انظر أيضًا : ليونارد الخيوسى ، ص١٤٨،

Babinger . Op. cit. p. 89 ; Runciman . Op. cit. pp. 106-108 ; Nicol, D. op. cit . pp. 396-401 ; Kielty B, La Chaute de Constantinople. Paris. 1961 , pp. 115-119 ; Schlumberger, Le Siege la Praise et le Sac de Constantinople par les. Turcs en 1453 . Paris, 1914 . pp. 172-177 ; Pears E, " The Ottoman Turks, to The Fall of Constantinople" in, C.M.H. I (4) , 1927 , pp. 699-700 ; Menzies, S, History of the Ottoman Empire in Europoe, London 1977 , p. 85 ; Kinross, L, The Ottoman, Centuries, The Rise and Fall of The Turkish Empire, London, 1977, p. 103 .

وقام زاجان باشا بعد ذلك بتشييد قلعة خشبية ضخمة، تتميز بمناعتها وارتفاعها الذى فاق ارتفاع الأسوار والأبراج العلوية بها. كما قام بتشييد جسر خشبى- عبر استخدام البراميل الخشبية Barrels - يبلغ طوله ألف ذراع، وعرضه سبعة أذرع وذلك من أجل عبور الميناء، والوصول إلى ما تحت الأسوار . كذلك شرع زاجان فى إقامة العديد من التجهيزات الخشبية، التى يمكن للعثمانيين الاختباء خلفها اتقاء الإصابة بالجروح ، كما أمر بتشييد سلالم خشبية لغرض تسلق أسوار المدينة .

ونشب قتال عنيف وضارٍ يوميًا، أسفر عن حدوث العديد من الإصابات بين الجانبين ، لكن فى مقابل كل رجل يموت من البيزنطيين المدافعين عن الأسوار، كان يتم قتل مائة من المهاجمين الأتراك(١).

كان برفقة الأتراك المحاصرين للمدينة، العديد من المسيحيين من اليونان، وبعض البلاد الأخرى، وعلى الرغم من كونهم رعايا خاضعين للسلطان (محمد الفاتح) فإنه لم يقم باجبارهم على التخلّى عن المسيحية ، وكان باستطاعتهم ممارسة عبادتهم وأداء شعائر دينهم وصلواتهم بحرية تامة (٢).

وفضلاً عن ذلك ، فقد كان هناك بعض القادة العسكريين الذين عارضوا سياسة زاجان باشا لأنه أوقع الظلم عليهم، فقاموا بإبلاغ البيزنطيين المدافعين عن المدينة بتحركات القوات التركية، وبكافة مداولات واجتماعات السلطان، وتم ذلك بواسطة الرسائل، وأية وسيلة أخرى ممكنة.

١- لابد وأن الأمر يحمل هنا مبالغة غير منطقية من تيدالدى. إذ لم يرد ذلك فى كافة المصادر المعاصرة.

٢- يذكر نيقولو باربارو أن الهجوم النهائى على القسطنطينية فى التاسع والعشرين من مايو ١٤٥٣ تم بواسطة ثلاث فرق تتألف كل منها من خمسين ألف مقاتل. ويذكر أن موجة الهجوم الأولى قد تمت بواسطة الفرقة الأولى التى تألفت من المسيحيين الموجودين بالجيش العثمانى، وكانت مهمتهم حمل السلالم ونصبها على أسوار المدينة. ويذكر أنهم فشلوا فى صعود السلالم حتى أعلى الأسوار بفضل بسالة المدافعين الذين قتلوا العديد منهم، مما دفع بالمسيحيين الباقين إلى التراجع نحو المعسكر العثمانى ، إلا أن الفرقة العثمانية الثانية حاصرتهم ودفعت بهم إلى العودة مرة أخرى باتجاه الأسوار أو التعرض للقتل بواسطة السيوف العثمانية، وعلى حد قول باربارو «... وهكذا فقد كان لديهم فقط حق اختيار الموت، بواسطة أحد الطرفين!» انظر نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٦٨-١٦٩ .

وهكذا علم البيزنطيون أن السلطان قد عقد مجلساً حربياً، حضره باروناته وأمرائه ونبلائه، استمر منعقداً لأربعة أيام متتالية .

وفي هذه الأثناء قام خليل باشا Halil Pasha ، أحد كبار القادة «العسكرين العثمانين» بتوجيه نصيحة للسلطان برفع الحصار عن المدينة، معدداً له الأسباب الداعية إلى ذلك:

«لقد قمت بأداء واجبك وخضت قتالاً ضارياً . وفي كل يوم تخسر عدداً كبيراً من رجالك ، وها أنت ترى الآن مدى قوة ومناعة مدينة القسطنطينية . وإنه لمن المستحيل عليك اقتحامها . وفي الحقيقة ، فإنه بقدر ما ترسل من رجال لمهاجمتها بقدر ما يسقطون . أما الذين تمكنوا من تسلق الأسوار ، فقد تم ردهم على أعقابهم وسقطوا قتلي. كما أ أسلافك لم يفعلوا أفضل مما فعلت . أو كما هو متوقع منك. ولعل مما يجلب لك المجد والشرف . أنك أبليت بلاءً كبيراً ترضي به نفسك. وإلا فإنك سوف تقوم بإبادة جميع قواتك بهذه الطريقة».

وبعد ذلك تواترت روايات متعددة ، فحواها أن السلطان قد بدأ في النظر باعتبار لمسألة رفع الحصار ، وسحب قواته ، وأنه سوف يقوم بترك بعض الأعمدة – كنصب تذكارية– تشير إلى ما حققه من إنجاز ، فاق جميع ما قام أسلافه بانجازه من قبل ، ولكي يحذر الأتراك من ذلك الوقت فصاعداً ، من الاقتراب من القسطنطينية.

لكن زاجان باشا ، المسيحي المرتد والألباني الأصل، كان له بالتأكيد موقف مضاد ، فقد خاطب السلطان بأسلوب يتفق مع ما يشعر به السلطان من كبرياء وفخر وغرور ، وداعب روحه التواقة إلى المخاطرة:

«لقد أثبتَ بنفسك أنك الأقوى، فقد أسقطت أرضاً الجزء الأكبر من أسوار القسطنطينية ، وسوف تقوم بتقويض الجزء الباقي. امنحنا فقط فرصة القيام بهجوم كبير ومباغت، وإذا ما فشلنا ، فإننا سوف نقوم بعد ذلك بتنفيذ ما تراه مناسباً».

صاغ زاجان كلماته بشكل مناسب ، وصدّق السلطان على سياسته المغامرة، وقام بالموافقة على ما قام بطرحه.

وصلت تلك الأخبار إلى البيزنطيين المدافعين عن المدينة ، ووصلتهم تعليمات بضرورة الصمود والاستبسال ، والتمسك بأهداب شجاعتهم لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، لأن الأتراك سوف يقومون بالانسحاب ، إذا لم ينجح ذلك الهجوم في تحقيق هدفه .

بعد أن قرر السلطان القيام بالهجوم النهائى ، أصدر أوامره لجميع أفراد معسكره بضرورة الصيام، لمدة ثلاثة أيام. من أجل تقديم آيات المهابة والتبجيل لرب السموات العظيم الذين يقومون بعبادته وحده.

وهكذا قام رجاله بالصوم لثلاثة أيام متتالية [١]، دون أن يتناولوا شيئًا طوال النهار، وقاموا بتناول الطعام ليلاً فقط . وكان ذلك مخافة التعرض لعقوبة الإعدام .

ثم قام الأتراك بإيقاد النيران، عبر إشعال الأخشاب، وكذلك إضاءة القناديل، بحيث ارتفع لهيب النيران على اليابسة . وانعكست أضواؤها بشدة على صفحة الماء. فبدا كما لو أن الأرض والبحر مشتعلين بالنيران، كما قام الأتراك بإحداث جلبة وضجة كبرى عبر قرع الطبول، وبعض الآلات الأخرى (ونادرًا ما استخدموا الأبواق) .

هكذا كان الموقف . فقد إنتوى السلطان القيام بالهجوم، وبدا مصممًا على النصر، بينما استقر عزم المدافعين على القتال. وبدأ الأتراك هجومهم بشكل متصاعد فى مساء الثامن والعشرين ما مايو، حيث اتخذت قوات السلطان مواقعها على النحو التالى:

توجه القائد العسكرى الأعلى First Bigliardi [٢]، والمسئول عن الجيش التركى، مع ألفين من رجاله باتجاه بوابة بيجى Phighi، حيث موقع البرج الكبير، أما خليل باشا، وزير السلطان ، وصديق البيزنطيين، وزاجان باشا ، وزير السلطان * . فكانوا مع الجزء الثالث من الجيش التركى القائم بغرض الحصار. واتجهوا نحو بوابة القديس رومانوس St. Romanus [٣]، التى تبعد عن بوابة بيجى بألف خطوة.

١- عن ذلك . انظر أيضًا: ليونارد الخيوسى، ص١٦١-١٦٢ لقد صاموا حسب رغبة الفاتح . وليس خوفًا من القتل .

٢- وردت هكذا فى النص ، والمقصود بها Beglerbegi أو Beylerbey ومعناها حاكم الإقليم، عن ذلك انظر:

Bayerle, G. Pshas, Begs and Effendies: A Historical Dictionary of Titles and Terms in the Ottoman Empire, Istanbul, 1997 , pp. 19-20 ; Theodore Spandounes, On the Origin of The Ottoman Emperors. Trans- by . Nicol, Cambridge, 1997 , pp. 34 , 114-115 .

* لابد أن هناك ثمة خطأ ما، لأن زاجان تم ذكره لاحقًا فى موقع آخر. وكان اسحق فى الموقع المذكور هنا. (الترجمة الإنجليزية) .

٣- عن ذلك انظر : Kritovoulus, Op. cit, p. 42 .

وتوجه البيجليابى Elbigliabee ، القائد العسكرى المسئول عن الجنود البيزنطيين فى جيش السلطان إلى موقعة بالقرب من بوابة كاليجاريا Caligaria بجوار القصر الإمبراطورى حيث تم حفر معظم الأنفاق، وعلى مسافة حوالى ألفين خطوة من بوابة القديس رومانوس أما زاجان باشا، ذلك الألبانى والمسيحى المرتد، فكان موقعه فوق صفحة الماء أمام بيرا(١)، على رأس قوة من المسيحيين المرتدين. جاء معظمهم من ألبانيا ، بعد أن ارتدوا عن دينهم وبدأت المعركة ، وأبلى المدافعون بلاءً حسنًا . وكانت بوابة القديس رومانوس أكثر الأماكن ضعفًا . فقد كان سورها هو الأضعف من بين الأسوار، بسبب نجاح الأتراك فى هدم الجزء الأكبر منه ، وقام المدفع الذى تمركز فى مواجهة البوابة بتدمير البرج، وكذلك النصف الأعلى من السور ، لمسافة مائتى ذراع على الأقل.

واستخدمت أيضًا العديد من البنادق ، والسهام المشتعلة التى انطلقت فى أجواء المعركة، بحيث بدا أنه كان من المستحيل رؤية السماء .

وفى تلك الأثناء ، نجح المدافعون فى سد الثغرات والفجوات التى حدثت بالسور، كما نجحوا فى سد الثغرة التى بلغت مائتى ذراع التى كانت قد حدثت من قبل ، عبر استخدامهم للبراميل والتراب، ومواد أخرى، فقد قاوموا الهجوم بكل ما أوتوا من قوة(٢).

كان السيد المُبجل جستنيانى ، جنويًا يعمل فى خدمة الإمبراطور البيزنطى، وقد سلك بنفسه أقصى دروب الشجاعة ، بحيث وثقت المدينة (القسطنطينية) به، وبشجاعته ، وكان جستنيانى موجودًا فى هذا الوقت لتقديم آخر خدماته .

اقترب السلطان مع سريتين تتألفان من عشرة آلاف رجل، ثم اختيارهم بعناية فائقة من أجل حمايته ، بينما تقدم الآخرون مستخدمين القلاع الخشبية ، والجسور والسلالم الخشبية، والمعدات الأخري، وبدأوا فى ردم القناة والقاء الجسور والسلالم الخشبية عبرها، وبعد ذلك أخذوا في تسلق الأسوار .

١- صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص٢٧٤-٢٧٥ .

٢- سببت قذائف المدافع العثمانية العديد من الخسائر والأضرار بأسوار القسطنطينية، وفى كل مرة كان المدافعون البيزنطيون عن الأسوار- بقيادة جيوفانى جستنيانى- يهبون إلى إعادة ترميم الأسوار المهدمة مستخدمين التراب، والبراميل الخشبية والشجيرات الصغيرة انظر: نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٢٩، ١٥٠ ، ١٥٨ ، ١٦٢ .

أصيب جستنياني بطلقة بندقية، فتقهقر للبحث عن طبيب لمداواته، وقبل أن يفعل ذلك، عهد بالموقع الذى كان مكلفاً بحراسته إلى اثنين من النبلاء الجنوية. وخلال ذلك الوقت كان الأتراك قد بدأوا في تسلق الأسوار بشكل مكثف . بحيث وجد الجنود المكلفين بحراستها أنفسهم وقد تراجعوا بأعداد كبيرة إلى داخل الأسوار، وعندما وجدوا أن جستنياني قد أخلى مكانه، اعتقدوا أنه فر من ميدان المعركة. فتخلّوا عن مواقعهم، وولوا هاربين [١].

وبهذه الطريقة تمكن الأتراك من دخول القسطنطينية في فجر يوم التاسع والعشرين من مايو، شاهرين سيوفهم ، وقاموا بقتل كل من حدثته نفسه بإبداء المقاومة[٢].

لم تتم مهاجمة بيرا، التى كان معظم سكانها فى القسطنطينية من أجل الدفاع عنها، أما الباقين فلم تتأثر ممتلكاتهم ، وقرروا تسليم مفاتيح المدينة إلى السلطان . وفوضوا أمرهم إليه، متخذين منه سيداً ، وحامياً لهم[٣]. وسلموا المدينة إليه، وكان مجموع من بقى فيها ستمائة رجل. وضعوا أنفسهم تحت رحمته ، متحدثين إليه بالإيطالية.

وعلى الرغم من ذلك، فقد استقل عدد كبير من الرجال والنساء سفينة جنوية فى طريقهم للهرب، وبدا لجاك Jacques [٤]. أن سفينة جنوية مجاورة كانت تكتظ بالعديد من نساء مدينة بيرا، قد سقطت فى قبضة الأتراك.

١- أشادت كافة المصادر البيزنطية واللاتينية- باستثناء نيقولو باربارو- بشجاعة جستنياني، وذكر دوكاس أنه لم يستطع تحمل آلامه فصاح بالإمبراطور – وهو ينسحب للعلاج فى سفينته- «واصل صمودك وشجاعتك ، وسوف أقوم بالتراجع نحو سفينتي للاعتناء بجرحي ، وبعدها أعود بسرعة لممارسة القتال. انظر دوكاس ، ص٢٧٠ على أن ليونارد الخيوسى ، يتهم جستنياني بالخوف على حياته بشكل مبالغ فيه، ويذكر بأنه انسحب من موقعه بشكل سرى، ولم يقم بتعيين بديل له فى مكانه، ولولا ذلك لما سقطت مدينة القسطنطينية .

انظر : ليونارد الخيوسى ، ص١٦٧ .

٢- انظر باربارو ، المصدر السابق، ص١٧٤ ، حيث يذكر «.. اندفع العثمانيون داخل القسطنطينية ، وقاموا بقتل جميع من صادفهم من الرجال والنساء، سواء الطاعنين فى السن، أم من هم فى شرخ الشباب، وبصرف النظر عن وضعهم الاجتماعي». انظر أيضاً : ريشيريو ، ص٣٢٠ .

٣- أرسل محمد الفاتح قائده زاجانوس باشا بعد اقتحام القسطنطينية – لإقناع سكان غلطه من التجار الجنويه بعدم الرحيل، وبأن السلطان سوف يعيد إليهم امتيازاتهم التجارية نتيجة تقديم يد المساعدة له. عن ذلك انظر المصادر التالية : دوكاس ، ص٢٨٣-٢٨٤ : ريشيريو، ص ٣٢٢ .

٤- جاك دالدى Jacques Daldi هو نفسه Giacomo Tedaldi صاحب هذه الرواية، وشاهد العيان على اقتحام العثمانيين للقسطنطينية ١٤٥٣م.

وقُتل إمبراطور القسطنطينية إبان الهجوم العثمانى، وقال البعض إنه تم قطع رأسه. وقال الآخرون إنه سقط تحت وطأة الهجوم عند البوابة. وربما كانت كلا الروايتين على صواب (١).

وانتظرت السفن الإيطالية كبيرة الحجم Galleys ، المتجهة إلى رومانيا Romania(٢)، وطرابيزون حتى الظهر، من أجل أن تتمكن من إنقاذ أىّ من المسيحيين الفارين. وتمكن أربعمائة منهم من الوصول إلى تلك السفن . كان من بينهم جاك دالى Jacques Daldi الذى كان متمركزا فى موقعه أعلى الأسوار. بالقرب من المنطقة التى نفذ منها الأتراك. وبعد ساعتين ، وبعد أن تم التأكد أنهم قد دخلوا إلى المدينة بالفعل، توجه صوب الميناء، حيث خلع ملابسه، وأخذ فى السباحة حتى وصل إلى سفن البنادقة . فقد فضّل التعرض لخطر الغرق، عن التعرض لقسوة وعنف الأتراك.

قام الأتراك بإغراق سفينة جنوية كانت حمولتها تبلغ ثمانمائة بوتا botte(٣)، تبلغ قيمتها ثمانية آلاف من الدوكات Ducat البندقية (٤). كما قام الأتراك بأسر عدد من السفن يتراوح ما

١- تم قتل الإمبراطور البيزنطى لدى اندفاع الإنكشارية العثمانيين عبر بوابة القديس رومانوس، ويذكر دوكاس أن جنديين عثمانيين ذكرا أنهما قاما بقتل الإمبراطور. وتم التعرف على جثته بفضل القائد العسكرى البيزنطى الأعلى. لوكاس نوتاراس. ثم تم فصلها عن جسده ، وتعليقها على عمود أغسطس حتى المساء. قبل أن يأمر السلطان الفاتح بتحنيطها وإرسالها إلى باقى الحكام المسلمين كدليل على انتصاره الكبير انظر: دوكاس .

وانظر كذلك المصادر التالية: خالكوكونديلاس ، ص ١٩٧ : دولفين ، ص٢٣٥ .

Kritovoulus , Op. cit , p. 71 ; Sphrantzus , Op. cit, p. 70 .

وعن مقتل الإمبراطور البيزنطى، انظر المصادر التركية المعاصرة التالية:

Asik Pasa Oglu, Op. cit, p. 138 ; Tursun Bey, op. cit, p. 59 .

حيث يذكر الأخير أن الإمبراطور قد سقط عن حصانه حينما كان يهم بالهجوم على جندى عثمانى مصاب، فانتهز أحد الجنود العثمانيين من طائفة العزبان الفرصة . وقام بقتل الإمبراطور البيزنطى.

٢- المقصود بذلك ، هو توجه السفن إلى الأملاك البيزنطية الباقية فى البلوبونيز.

٣- botte مقياس للزيوت ، كان يساوى طن واحد فى السفينة التجارية، انظر:

De Roover , op. cit, pp. 50-51 .

٤- عرفت البندقية نوعين من العملات. عملة فضية عرفت بالجرسوّ Grosso، تم ضربها فى عهد الدوج =

بين ثلاث عشرة إلى ست عشرة سفينة ، كانت حمولتها تبلغ من ثلاثمائة إلى ستمائة بوتا. وتألف الأسطول البحرى التركى من مائتين وأربعين سفينة من أنواع Galliotte , Galley, nef, بالإضافة إلى عدد من القوارب الصغيرة.

وإذا ما كان الأسطول البندقى تحت قيادة السيد المبّجل جياكومو لوريدان Messire Giacomo Lordan قد وصل إلى القسطنطينية قبيل سقوط المدينة بيوم واحد، لم يكن هناك أدنى شك فى أنه سوف يقوم بانقاذها من السقوط. فقد تألف الأسطول من تسع شوانى بخلاف عشرين سفينة أخرى . لكنه لم يصل فى الوقت المناسب . فقد وصل إلى نجروبونت Negropont بعد يوم واحد من وصول السفن الفارّة من القسطنطينية إليها . وكان وصول تلك

= هنرى داندولو Enricus Dandolus (١١٩٣-١٢٠٥م) والنوع الآخر الأكثر شهرة وأهمية هو الدوكات Ducat الذى أمر السناتو البندقى بضربه فى أكتوبر ١٢٨٤م. على عهد الدوج جيوفانى داندولو Giovanni Dandolo (١٢٨٠-١٢٩٠م) وعلى حين استخدمت المعاملات التجارية فى مصر والشام المملوكية اسم بندقى وافرنتى، استخدمت الأسواق الأوربية اسم الدوكات .

وكان الدوكات الذهبى البندقى يساوى اثنين من عملة بيزنطة منخفضة القيمة التى عرفت باسم الهيبربيرون Hypeyrpyra فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، وقبل استيلاء العثمانيين على السطنطينية بقرن كامل. عن الدوكات البندقى وأهميته انظر:

Danduli . A. Chronica per Extensum Descripta 461-1280 d. c. A Cura di Ester Pastorello . Bologne. 1938 . p. 370 .

القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ج٣ ، القاهرة ، ١٩١٣م، ص٤٣٧ .

Robbert. L.B. " Venetian Money Market 1150-1229 " . in S.V. XIII. 1971 . p. 44 .

Idem. "Reorganization of the Venetian Coinage by Doge Enrico Dandolo". in . Sp. XLIX. 1974 . p.51 ; Lane F.c. "The First Infidelities of The Venetian Lire", in Miskimin & Herlihy & Udovitch (eds.) TheMedieval city. Yale. 1977 . pp. 45-47 ' Queller. "Anote on the Reorganization of the Venetian Coinage by Doge, Enrico Dandolo" in Medieval Diplonacy and The Fourth Crusade". London 1980 . p. 169 .

حاتم الطحاوى، بيزنطة والمدن الإيطالية . القاهرة ١٩٩٨م، ص١٥٣-١٥٥ : رأفت النبراوى، الدوكات الذهبية البندقية «الدارة» العدد ٤ ، السنة ١٧ ، رمضان ١٤١٢هـ، ص٩١-١١٣ .

السفن بمثابة أمر يدعو إلى الرثاء للحالة التى كان عليها ركابها الذين أخذوا فى العويل والنواح، للخسارة الفادحة والمصاب الكبير الذين تعرضوا له . وكان على متن إحدى السفن القادمة من القسطنطينية ثمانية من مواطنى البندقية، بنيما ظل هناك خمس وثلاثين نبيلاً بندقيًا بالإضافة إلى أربعين بندقيًا، حيث تمكن الأتراك من القبض عليهم فى الوقت الذى كانوا يهمّون فيه بخلع دروعهم، من أجل الهرب سباحة، مثلما فعل جاك دالدى ، آملين أن يبسط الرب يده لمساعدتهم *.

إن الذين تحدثوا مع السلطان (محمد الفاتح) والذين شاهدوه إبان القتال، وعرفوا مكانته ومبلغ قوته وسلطانه ، ذكروا أنه فى الثالثة أو الرابعة والعشرين من العمر. ويتميز بأنه أكثر قسوة ووحشية من نيرون Nero (١)، ويشعر بمتعة فائقة عند سفك الدماء. يمتلئ بالشجاعة والإقدام. متلهف على غزو العالم كله ، وعلى حكم أعظم الإمبراطوريات التى لم يحكمها أحد من قبل. والتى يطلب قراءة تاريخها عليه بشكل يومى .

وقام (السلطان محمد الفاتح) بالسؤال عن موقع البندقية. ومدى المسافة التى تبعدها عن الأراضى الواقعة تحت سيطرته، وكيفية الوصول إليها برًا وبحرًا. واعتبر أنه ليس بالأمر الصعب تشييد جسر من ميجارا Megara إلى البندقية ، حتى يستطيع جنوده الوصول إليها.

---

* يبدو أن رواية تيدالدى قد انتهت عند هذه النقطة، أما باقى الأحداث فقد جاءت فى طبعة متأخرة من أجل المساهمة فى انتشار الرواية فى أوربا. (الترجمة الإنجليزية).

١- هو الإمبراطور نيرون Neron (٣٧-٦٨م) تولى عرش الإمبراطورية الرومانية فى الفترة من عام ٥٤م حتى انتحاره عام ٦٨م . أثار سخط النبلاء لاضطهاده الإمبراطور السابق كلوديوس Claudius. وجلب على نفسه غضب الجيش والشعب لعدم اهتمامه بأمور الجيش، فضلاً عن شغفه الواسع بالفن والحضارة اليونانية.

كما كان ولعًا بتسليط الأضواء على شخصه ، وبمظاهر الأبهة كما اهتم بتدريب الجوقات على الصياح والتهليل ، وتحية الإمبراطور عبر هتافات قصيرة ، تميز عهده بالوحشية والطغيان، وقام بإحراق مدينة روما فى العام ٦٤م. عن ذلك انظر: تشارلز وورث ، الإمبراطورية الرومانية، ترجمة رمزى عبده جرجس. مراجعة محمد صقر خفاجة ، القاهرة، ١٩٥٠م، ص١٣ ، ٢٢ .

وهناك أيضًا مصدر بيزنطى متأخر يصف السلطان محمد الفاتح بأنه أكثر وحشية من نيرون، انظر:

Theodore, Spandounes, op. cit, p. 54 .

إن مدينة ميجارا تقع ضمن إقليم إكويليا Aquilia الساحلى ، بينما تقع البندقية على بعد خمسة آلاف خطوة Paces عبر البحر.

وبنفس الطريقة سأل (محمد الفاتح) عن موقع مدنية روما Rome، وعن دوق ميلانو Mi-lan، وعن قوته العسكرية . وفى الواقع، لم يكن يتحدث فى أى موضوع سوى عن الحرب والقتال.

وقال (محمد الفاتح) أنه سيتخذ من القسطنطينية عاصمة لحكمه. وأنه يخطط لبناء أسطول بحرى كبير، وبعد ذلك فإنه يعرف أن الجميع سوف يستسلمون له . سواء أكانوا فى البحر أم على اليابسة. وسوف يخوض الحرب بجيشه . فقد نجح الآن فى اقتحام القسطنطينية أكثر المدن الأوربية منعةً وحصانةً . فى الوقت الذى لم يكن فيه أحد يتصور أن يستطيع أى جيش مهما بلغت قوته وشجاعته ، أن يقوم بالاستيلاء عليها. فإن جنوده فقط هم الذين فعلوا ذلك ، لأنهم يتميزون بالجسارة والشجاعة والبأس الشديد. ولايهابون الموت.

تمت كتابة ذلك فى اليوم الأخير من شهر ديسمبر لعام ١٤٥٣ لميلاد السيد المسيح، وذلك بواسطتى أنا جان كولومبى Jean Columbi . وتم جلبه من القسطنطينية بواسطة جان بلانك Jean Blanc .

الإمضاء : ج . كولومبى

J. Columbi

ليونارد الخيوسى

Leonard of Chios

هنا يبدأ تاريخ ضياع وفقدان مدينة القسطنطينية، ووقوعها فى الأسر . قام بكتابته ليونارد الخيوسى، أستاذ اللاهوت ، وكبير أساقفة ميتيلين Mytilene ، لتقديمه إلى سيده المقدس البابا نيقولا الخامس Nicholas V .

... لعلّه أساى وحزنى، أيها الأب الأكثر قداسة، ذلك الذى منعنى من الكتابة. وربما عندما هاجمتنى سيوف الأتراك ، كان من الأفضل لى أن أموت بدلاً من أن أظل على قيد الحياة، ولابد أن هناك بعض الفائدة فى معرفة أحداث الكارثة التى تمت . وإذا ما استيقظ ثانية أولئك الذين تأثروا بشدة لما حدث ، فسوف أحكى لهم فقط عن موت أحبائهم بيد أعدائهم (العثمانيين)، لكى يتصاعد حزنهم ويتحول إلى أفكار نشطة من أجل ضرورة الانتقام والثأر لما جرى.

وعلى الرغم مما أشعر به من حزن، فمن وسط دموعي المتساقطة ، سوف أحكى قصّة الأخطار المروعة، وضياع القسطنطينية ، التى شاهدت جميع أحداثها بعينىّ هاتين.

ليس لدى شك، أيها الأب الأكثر قداسة، أن هناك كثيرين مثلى، قاموا بسرد تلك الأحداث على مسامع قداستكم ، لكن من الأفضل وجود تقارير متعددة عن ذلك. ولأن الشاهد الذى رأى بعينيه أكثر مصداقية من ذلك الذى سمع عن شخص آخر ، سوف أقوم بذكر كل ما أعرفه، وأقدم شهادة موثوق بها لما رأيته بالفعل.

عندما تم تعيين الأب الأكثر تبجيلاً ، كاردينال سابينا Sabina[(١)]، ممثلاً للبابا لدى الشعب البيزنطى ، قام باستدعائى من جزيرة خيوس لأجل خدمته . وتوجهت عاقداً العزم على

١- هو الكاردينال ايزيدور. ولد فى مونمفاسيا Monemvasia ١٣٨٥م . ومات فى روما ١٤٦٣م عمل كسفير للإمبراطور البيزنطي يوحنا الثامن باليولوغس John VIII Palaeologus إلى مؤتمر بازل Basil ١٤٣٤م ويذكر نيقولو باربارو أنه وصل إلى القسطنطينية فى شهر فبراير ١٤٥٢م، مبعوثًا من قبل البابا نيقولا الخامس Nicholas V لإقرار الاتحاد الكنسى بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية ، وهو الأمر الذى حدث فى الثانى عشر من ديسمبر فى نفس العام . وإبان الاجتياح العثمانى للقسطنطينية، سقط الكاردينال ايزيدور أسيرًا فى قبضة العثمانيين، لكنهم لم يتعرفوا عليه. وقاموا بإطلاق سراحه مقابل فدية بسيطة . بينما تذكر بعض المصادر الأخرى أنه نجح فى الهرب من معسكر الأسرى ، ونجح فى العودة إلى الغرب الأوروبى .

عن الكاردينال ودوره فى القسطنطينية حتى الفتح العثمانى، انظر: O.D.B, vol . 2 , pp. 1015-1016.

خالكوكونديلاس ، ص١٩٢ : دوكاس ، ص ٢٣٥ حيث ذكر أنه وصل فى شهر نوفمبر ١٤٥٢م، نيقولو باربارو، المصدر السابق ، ص٨٦، ٩٠ ، ريشيريو، ص ٣٢٢ .

Sphrantzes, Op. cit , pp. 72 , 110 , 142 not 24 .

حيث يذكر أنه وصل إلى القسطنطينية فى شهر أكتوبر ١٤٥٢م. انظر أيضاً: =

القيام بواجبى، ومدافعًا عن إيمان الكنيسة الرومانية المقدسة بكل ما امتلكه من جهد . وحاولت فهم أعراف وتقاليد وطبيعة البيزنطيين، وكذا إدراك حجج وبراهين وتعبيرات علماء اللاهوت المقدسين لديهم. ما هى رغباتهم ، واقتراحاتهم . فيم يفكرون، ما هى الأفكار التى تعيق فهمهم الصحيح، والأخذ بيدهم تجاه الطاعة الواجبة .

وأدركت بعد وقت قصير. أنه باستثناء ثيوفيلوس باليولوغس Theophilus Palaeologus[١]، وبعض الرهبان، واللاهوتيين العلمانيين من غير رجال الأكليروس، فإن معظم البيزنطيين كانوا متشبثين بفكرة متحيِّزة بشكل مفرط وزائد عن الحد، ولهذا فلا أحد من بينهم يتحرك بشكل متحمس من أجل الإيمان المسيحى الحقيقى، أو من أجل خلاصهم، ليكون أول من يعبر عن عصيانه لآرائهم العنيدة.

وكانت النتيجة هى أن إدراكهم ووعيهم بالحقيقة قد دفعهم للقبول بالفقرة الخاصة بمسيرة الروح القدس من الابن. لكن من ناحية أخرى ، فإن كبرياءهم المتضخِّم قد جعلهم غير مصدِّقين أن اللاتين، ربما كانوا أكثر فهمًا ووعيًا بالإيمان أكثر من البيزنطيين .

وعلى الرغم من ذلك كله، فإنه لا الحجج والبراهين التى يعتمدون عليها، ولا سلطة كنيستهم، ولا الآراء العديدة لايزيدور سكولاريوس Isidoro Scholarius، عالم اللاهوت، ولا حتى لنيوفيتوس Neophytus[٢]، تستطيع الصمود أمام إيمان الكنيسة الرومانية . الذى تم ترتيبه

= Runciman . Op. cit . pp. 83 . 93 . 141 . 150 ; Babinger. Op. cit. pp. 79 . 93 ;
Schlumberger . Op. cit. pp. 7,8,141 ; Nicol. D. Op. cit. pp. 392-397 .
Dereksen. D. The Cresent and The Cross. New York . 1964 . pp. 160 . 161 . 173 .

وعن دور الكاردينال ايزيدور فى محاولات الاتحاد الكنسى، انظر:

Ziegler. A.W." Isidore de kiev . Apotre de l' union Florentine ", in Iré. 13. 1936 . pp. 393-410 ; Krajacar. J. " Metropolitan Isidor' s Journey to the Council of Florence . Some remarks" in. O.C.P. 38 . 1972 . pp. 367-87 .
Gill. J. Personalities of the Council of Florence New. York 1964 . pp. 65-78 .
Nicol. D. Abiographical Dictionary of the Byzantine Empire. London. 1991. p. 52 .

١- هو أحد أفراد أسرة باليولوغس، كان مؤيدًا لمسألة الوحدة الكنسية مع كنيسة روما.

٢- كان نيوفيتوس Neophetus هو كاهن الاعتراف للقصر الإمبراطورى، وللأسر النبيلة فى القسطنطينية إبان الحصار العثمانى للمدينة. وكان معارضًا للاتحاد الكنسى، قام بمنع إحدى السيدات البيزنطيات النبيلات من تناول العشاء الربّانى من أيدى أحد القساوسة البيزنطيين الذين أيدّوا على استحياء مسألة الاتحاد الكنسى، عن ذلك انظر: دوكاس ، ص٢٤٥-٢٤٦ .

بواسطة مثابرة واستقامة الكاردينال الذى تم ذكره سابقًا (كاردينال سابينا) . وأن الاتحاد (الكنسى) المقدس؛ تم التصديق عليه، وبموافقة واضحة لا لبس فيها من قبل العيدس Ides(١) فى شهر ديسمبر ، فى اليوم المقدس للأسقف سبيريديون Spiridion (٢).

وعندما حدث ذلك، هبت عاصفة من طروادة Troy، قامت بابتلاع مدينة القسطنطينية، وغلطه Galata والمناطق التابعة لها. وتم استدعاء كلمات (النبى) إشعيا (الإصحاح ٥٤-١١) «أيتها الذليلة المضطربة غير المتعزية».

وقد عانيت أيضًا من تلك العاصفة ، فقد تعرضت للهزيمة والخضوع لأسر الأتراك العثمانيين، بسبب آثامى وذنوبى، وعلى الرغم من ذلك ، فلم أكن أهلاً للصلب والتعذيب مع مخلصّى ، السيد المسيح.

إننى أتذكر أيها الأب الأكثر قداسة ، عندما كتبت أولاً إلى قداستكم فى عبارات رصينة ، حول تحقيق الوحدة الكنسية مع البيزنطيين، وكان من بين ما ذكرته «نظراً لأننا نتوقع هجوم الأتراك فى القريب العاجل، فإننا نوازن ما بين الأمل واليأس». الأمل فى المساعدة التى نتوقعها منك، والخوف من عناد وصلابة البيزنطيين، الأمر الذى يجعلنا فى حالة من اليأس. واحسرتاه ! ماذا يمكن أن نأمل من أناس امتلأت أعماق قلوبهم بالقسوة، من أجساد ظلّت لأعوام عديدة تفتقر إلى العقل ، دون أن تعيش آية حياة روحية ؟ كيف يمكنهم أن يصبحوا شيئًا ذا قيمة ، وهم منبوذين ومعزولين من قبل الرب. وإذا ما ظلّوا بعيدًا عن الكنيسة الرومانية (الكاثوليكية) ، واشتركوا فى الكثير من عمليات الخداع والكذب، وقاموا بتأكيد ابتعادهم وعزلتهم؟ .

١- العيدس Ides هو اليوم الخامس عشر من شهر آذار أو تموز أو تشرين الأول واليوم الثالث عشر فى أى شهر آخر من التقويم الرومانى القديم.

٢- يقع اليوم المقدس للقديس سبيريديون St. Spiridion فى الرابع عشر من ديسمبر . وهو أحد مواطنى جزيرة قبرص، عمل فى الزراعة ورعى الأغنام من أجل مساعدة أسرته، وعلى الرغم من عدم تلقيه أى قدر من التعليم أو دراية بالعملية الزراعية، فقد تم اختياره بسبب ما يتمتع به من فضيلة واسعة أسقفًا على منطقة Tremithus، واستمر فى رعيه للأغنام بينما كان يتابع شئون رعيته من البشر، تواترت عنه الكثير من الروايات والأساطير غير المؤكدة . عن ذلك انظر: Attwater, D, The Penguin Dictionary of Saints, London, 1983, p. 303; O.D.B, vol, 3 , p. 1940 .

وها هم الآن فى الأسر، يساقون بعيداً عن مدينتهم، وعن كنائسهم وثرواتهم ومنازلهم. وهم فى ذلك يلقون باللوم على اللاتين، بدلاً من الاعتراف بجرائمهم وآثامهم. قائلين: «لأننا عقدنا الاتحاد الكنسى ، وولينا وجوهنا تجاه بابا روما فإننا نستحق أن نعاني من غضب الرب».

أبلغ العناد بهم هذا الحد؟ وإذا كان هذا حقًا عملاً شريراً فيجب عليكم إدانة القديس باسل St. Basil[١] والقديس أثناسيوس St. Athanasius[٢] والقديس كيرلس Cyrillus[٣] وباقى

١- هو القديس باسل العظيم Basil The Great ، أسقف قيسارية (٣٧٠-٣٧١م)، ولد لأسرة مسيحية عربية. قام بالتدريس فى مدارس قيسارية والقسطنطنية وأثينا ، حيث عقد صداقة، متينة مع جريجوري نازيانزس Gregory Nazianzus ، قام بعدة زيارات لأديرة مصر والشام، وكعادة الآباء الكبادوكيين، شارك القديس باسل في الجدال الدائر حول الثالوث المقدس، كما قام بتشجيع الدور الثقافى والاجتماعى والاقتصادى للرهبان، عن ذلك انظر:

Attwater . Op. cit, pp. 56-57 ; O.D.B, vol . I, pp. 268-269 .

٢- هو القديس أثناسيوس، أسقف الإسكندرية (٣٢٨-٣٧٣م) الذى رفض بعناد آراء أريوس السكندرى، وأعلن تمسكه بما تمخض عنه مجمع نيقيه ٣٢٥م . وتبوأ نتيجة لذلك مكانته الكبرى في سماء الكنيسة المصرية والعالمية. كانت فكرته تقوم على أن جسد المسيح ودمه متحد فى مادة وطبيعة مشتركة عبر الثالوث المقدس. عن أثناسيوس ودوره الدينى والتاريخي. انظر:

Attwater . Op. cit, pp. 50-51 ; O.D.B, vol . I, pp. 217-218 .

رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، ج٢ ، أثناسيوس، القاهرة، ١٩٨٣م ، الفكر المصري فى العصر المسيحى، القاهرة، ٢٠٠٠م: رأفت عبد الحميد، طارق منصور، مصر فى العصر البيزنطى ٢٨٤-٦٤١م، القاهرة، ٢٠٠١م، صبري أبو الخير سليم، تاريخ مصر فى العصر البيزنطى، القاهرة، ١٩٩٧م .

٣- هو بطريرك الاسكندرية (٤١٢-٤٤٤م) ، ولد بمدينة المحلة بمصر. قاوم محاولات اليهود والوثنيين والوالى الرومانى ضد الكنيسة المصرية. دارت بينه وبين نسطوريوس Nestorius بطريرك كنيسة القسطنطينية منازعات عقائدية بعد أن أعلن الأخير أن للمسيح طبيعتين إلهية، وبشرية. بينما يرى كيرلس أن الطبيعتين قد اندمجتا فى طبيعة واحدة، هى الطبيعة الإلهية. ونتيجة لذلك تحالفت الكنيسة الكاثوليكية مع كيرلس ضد كنيسة القسطنطينية التى كانت تنازعها أيضاً فى بعض الممتلكات فى إقليم إيلليريا. عن كيرلس ودوره الدينى والتاريخى أنظر:

Attwater, Op. cit, pp. 98-99 ; O.D.B, vol . I, p. 572 .

رأفت عبد الحميد، الفكر المصرى فى العصر المسيحى، ص٢٣٢-٢٤١: صبرى أبو الخير، المرجع السابق، ص٥٠-٥٥ .

أباء الكنيسة المبكرين الذين يتوجب عليكم احترامهم وتقديرهم، لأنهم آمنوا بقداسة واحدة، ولم يقوموا بتقسيم الإيمان، وتمسكوا بكنيسة روما، سيدة كافة المسيحيين.

إن ما حدث لكم ، لم يحدث لأنكم اتحدتم مع كنيسة روما ، بل لأنكم فعلتم ذلك بشكل زائف ، وليس بروح صادقة ، ولهذا السبب فإن الرب قد غضب عليكم حقًا، وهكذا فقد صب جام غضبه عليكم وأنزل عقابه بكم بأن تسقطوا فى أيدى أعدائكم.

هل ما زلتم متمسكين بوعدكم حول الاتحاد الكنسى الذى جاء كتابة، وتم تأكيده بواسطة القسم المقدس فى مجمع فلورنسا Florence؟ هل – حقًا– ما زلتم تمتثلون وتلزمون الطاعة، وتخفون معنى المرسوم الكنسى؟ أو ليست هذه رسل الرب. أواه ! أنتم أيها البيزنطيون تتنبأون بخرابكم وتدميركم باستمرار، بينما تتصرفون مثل الأفعى الصغيرة السامة، تغلقون آذانكم بخبث وترفضون الدخول فى طاعة الكنيسة الكاثوليكية المقدسة، أُمّ الإيمان وأصله ؟. ابكوا على أحزانكم ، لكن توجهوا باللوم إلى أنفسكم . ولاتدينوا الآخرين، أو ابحثوا عن طريقة لرفع اللوم عنهم.

إنها طريقة للعناد ولنبذ الرسل المقدسة مثل صدقيا Zedekiah(١)، وباقى اليهود الذين أخذوا إلى بابل Babylon واحتقروا النبى إرميا Jeremiah عندما تنبأ بخرابهم، وبوقوعهم فى الأسر .

كان يمكن للعاصفة التى هبت من طروادة أن تتوقف إذا ما التفت الأب بريام Priam (٢)

١– اسم عبرى معناه «يهوه عدل أو عدل يهوه» وهو آخر ملوك يهوذا، وكان اسمه الحقيقى متنيا فقام بنوخذ نصر بتغييره إلى صدقيا ، لم يصغ هو وشعبه إلى كلمة الرب التى تكلم بها بضم النبى ارميا (٢ أخبار ٣٦ : ١٢ وار ٣٧: ١–٢) هرب من القدس إلى أريحا، فقامت قوات نبوخذ نصر بأسره وساقه إلى بابل بعد اقتلاع عينيه، عن ذلك انظر: قاموس الكتاب المقدس، تحرير: بطرس عبد الملك، جون الكسندر طمسن، ابراهيم مطر، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٥٤٠–٥٤١

٢– هو ملك طراودة . أعاد بنائها من جديد بعد أن هدمها هرقل . أصبحت فى عهده شديدة الازدهار والروعة عاصر فى شيخوخته حصار طراودة وتدميرها . كان شديد الإعجاب بابنه باريس الذى قام بخطف هيلين من أسبرطة ،وتسبب فى قيام الحرب الطروادية والد كاسندرا المشهورة بتنبؤها ، عنه أنظر: هوميروس ، الإلياذة ، ترجمة درينى خشبة ، القاهرة ، ١٩٩٨م، ص١٥ ، ١٨٧–١٩٦ : كوملان . ب. الأساطير الإغريقية والرومانية، ترجمة أحمد محمد رضا ، مراجعة محمود النحاس ، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٢٧٧ : إدموند فولر ، موسوعة الأساطير: الميثولوجيا اليونانية ، الرومانية ، الإسكندنافية، ترجمة حنا عبود، دمشق ، ١٩٩٧م، ص١٢–١٤٠ .
Michael Grant , Myths of The Greeks and Romans, New York, 1962 , pp. 24 , 27 - 40 , 50 , 146, 390-393 .

إلى كاسندرا Cassandra (١) وهو نفس ما قيل لليهود، إذا ما استمعوا إلى أنبيائهم، أو إذا ما استمع الرومان إلى سيبيل Sybil (٢). وهو ما يمكن أن يقال إليكم ، إذا ما استمعتم قليلاً إلى رسل البابوية.

ولهذا فليس هناك مجال للدهشة ، إذا ما هبّت العاصفة بكل عنفوانها، لمعاقبة كل من ارتكب جرمًا . وأولئك الذين تعلموا جيدًا على أيدى الروح القدس، هم فقط الذين كان لديهم القدرة على التنبؤ - لعدة سنوات قادمة - بما يمكن أن يحدث.

دعونا ننحى جانبًا اللعنات القاطعة والصريحة التى قام الأب الاكثر قداسة، نيقولا، بذكرها فى مرسومه : Urgentis in Senium Saeculi Corruptela.

والحقيقة أن الوثيقة التى كانت منظمة ومرتبة بشكل جيد وتنسب إلى ليو Leo الحيكم(٣)، قد اختفت فجأة من القسطنطينية ، ثم عرف عن طريق إشارة غامضة ، أنها تقع الآن فى دير القديس جورج St. George فى مانجانا Mangana، تذكر أن المدينة (القسطنطينية) سوف تسقط . وهكذا، أيها الأب الأكثر قداسة، فقد جرى تقسيم الوثيقة إلى مربعات تبين تتابع الأباطرة وتعاقبهم، بحيث بات واضحًا أن هذا التعاقب قد انتهى مع قسطنطين Constantine الأخير ، كما تمدنا الوثيقة بقائمة كاملة للبطاركة. وتم تنظيم الوثيقة ومعرفة ما بها بواسطة روح التنبؤ. كما اشتملت على عدة مربعات جرى تمثيل الأباطرة بها

١- هى ابنة الملك بريام وهيكوبا. أحبها الإله أبوللو ومنحها موهبة التنبؤ . لكنه ندم على ذلك فيما بعد وطعن فى تنبؤاتها واتهمها بالجنون. أصبحت تكهناتها وتحذيراتها مثار سخرية شعب طروادة ، تنبأت بالكوارث التى ستحيق بطروادة وباريس . عارضت بقوة- بلا جدوى- دخول الحصان الخشبى الذى صنعه الإسبرطيون إلى داخل مدينة طروادة باعتباره خدعة حربية كبرى، لكن تحذيراتها ذهبت أدراج الرياح . وسقطت طروادة بالفعل بفضل تلك الخدعة ، انظر: هوميروس ، المصدر السابق ، ٢٠٨-٢١٣ : كوملان، المرجع السابق، ص٤٨٢-٤٨٥ : إدموند فولر، المرجغ السابق، ص١٤١ .

٢- هى المرأة الكاهنة أو العرافة فى الأساطير الإغريقية. عن ذلك انظر ، كوملان المرجع السابق، ص٣١٨، والمقصود هنا أن الرومان - مثل أهل طروادة- لم يستمعوا إلى النبوءات التى ستتحقق بالفعل .

٣- هو الإمبراطور البيزنطى ليو السادس Leo VI (٨٨٦-٩١٢م) والذى عرف بليو الحكيم أو الفيلسوف. انظر: O.D.B, vol ,2 pp. 1210-1211 .

منذ قسطنطين العظيم Constantine The Great، مؤسس المدينة (القسطنطينية) ، وحتى أسرها الذى حدث أخيراً . وبمرور الوقت تم ملء جميع المربعات بها بشكل مؤكد. بينما تم ترك المربع الأخير فارغاً، من أجل الحاكم الذى سيقوم بحكم المدينة، التي ستتعرض للفناء، بعد أن يتم تتويجه.

وكان مورسينوس Morsenus قد تنبأ منذ عدة قرون سابقة بأن الجنس الذى يحمل الحراب سوف يأتى من مواجهة القسطنطينية ، ويقوم بالاستيلاء علي مينائها الشهير، وعندها يتم إبادة الجنس البيزنطى[1].

١- يبدو لنا ليونارد الخيوسي - كبير أساقفة ميتيلين- يحاول أن يقلل من حجم النصر العسكرى الكبير الذى حققه العثمانيون المسلمون بفتحهم للقسطنطينية ١٤٥٣م. إذ أنه يحاول أن يلقى بعبء سقوط المدينة على أكتاف النبوءات البيزنطية القديمة . وهو يشير هنا إلى نبوءة توماسو موروسينى Tomaso Morosini كبير الأساقفة اللاتين فى القسطنطينية (١٢٠٤-١٢١١م) .

والحقيقة أن الكتابات اللاتينية قد ازدحمت منذ عدة قرون بالإشارات إلى نبوءات تتحدث عن سقوط القسطنطينية فى أيدى أعدائها ، سواء أكانوا من اللاتين القادمين من الغرب أو المسلمين القادمين من الشرق. من ذلك ما ذكره نيقولو باربارو حول النبوءة الأولي عن سقوط القسطنطينية والتى ذكرها الإمبراطور قسطنطين العظيم (٣٠٦-٣٣٧) مؤسس القسطنطينية ، حيث كان يسير على صهوة جواده بالقرب من العمود الموجود بجوار كنيسة أيا صوفيا ، عندما أشار بيده شرقاً ، باتجاه أراضى الأناضول التركية وقال «إن الشخص الذى سيقضى عليّ، سوف يأتى من هذا الاتجاه». انظر نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٦٧ .

كما أشار باربارو أيضاً إلى نبوءتين أخريتين تشيران إلى سقوط المدنية، عندما يحكم الإمبراطورية إمبراطور يدعى قسطنطين ابن هيلينا ، وإلى سقوط المدينة عندما يُحدث القمر علامة فى السماء ، انظر ، ص١٤٩، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٧ . كما ذكر المؤرخون اللاتين للحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤م إشارات تدل على سقوط المدينة. من ذلك ذكر روبرت كلارى وفلهاردوين وجود عمودين بالقسطنطينية عاش الرهبان والنساك على قلايات، أعلاهما ، ونقش على جدرانها صدر وتهاويل، ونبوءة بكل ما سيجرى للقسطنطينية من أحداث ، وكان استيلاء اللاتين على المدينة ١٢٠٤م مدوناً عليهما، وكذلك السفن التى استخدموها كانت مرسومة عليهما أيضاً. بالإضافة إلى سطور مكتوبة تذكر «أن قوماً قصار الشعر بأسياف حديدية سيأتون من الغرب لغزو القسطنطينية ». انظر على التوالي: روبرت كلارى، المصدر السابق، ص١٣١-١٣٢ : فلهاردوان، المصدر السابق ص١٤٧-١٤٨ .

وهناك أيضاً الكاهن Oracle من Erythrea الذى تحدث من قبل عن سقوط القسطنطينية إلى من يستطيعون قراءة ذلك . ومرة أخرى ، ففى رأيى الشخصي، أن الأب يواقيم Joachim قام بتحذيرنا حول سقوط القسطنطينية فى الـ Papalista (كتب الاشكال) الخاصة به ، عندما قال «وا أسفا عليك ، المشيدة فوق سبع تلال، صاحبة الأيدى المبتورة محرومة من المساعدة»(١). وتمت كتابة «المشيدة فوق سبع تلال» باللغة اليونانية على هذا الشكل Επτάλοφος .

لماذا إذن تنحون باللوم على اللاتين؟ لماذا تهاجموننا بعنف عندما ننكر الحقيقة، ومتى عدّت النبوآت العديدة، والواضحة، شاهداً عليهم؟ لم يكن هناك اتحاد بين الكنائس، لكنه التظاهر بهذا، هو الذى جلب الدمار والفناء للقسطنطينية ، وهكذا علمنا أن غضب السماء، قد اكتمل، وسيحل علينا هذه الأيام.

١- يشير ليونارد الخيوسى هنا إلى نبوءة الكاهن والعراف أوراكل Oracle الذى كان يعيش فى منطقة اريثريا Erythraea ببلاد اليونان حول سقوط القسطنطينية . كما استعان ليونارد بنبوءة الأب يواقيم Joa-chim المتعلقة بسقوط القسطنطينية ، وفى تصورى أنه كان يقصد الأب يواقيم من فيورى Joachim of Fiore (١١٤٥-١٢٠٢م) الذى كان من الرهبان السسترشان. وترجع شهرته البالغة إلى قدرته على التنبؤ الملهم ، وكان يعكف لساعات طويلة على قراءة كتابات يوحنا- سفر الرؤيا والإنجيل الرابع- واعتقد يواقيم أنه نفذ إلى الحقائق السرية المخبوءة وراء الكتابات المقدسة . عن الأب يواقيم ودوره ، انظر: بيريل سمالى ، المؤرخون فى العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٢٢٦-٢٢٨ ؛ موريس كين، حضارة أوربا فى العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص١٤٦-١٤٧ .

كما تعرض المؤرخ البيزنطى دوكاس Ducas ، المعاصر للفتح العثمانى للقسطنطينية ، لمسألة النبوءات الخاصة بسقوط المدينة فى أيدى العثمانيين، واستعادة البيزنطيين لها مرة أخرى. فيذكر أنه بعد نجاح العثمانيين فى اقتحام القسطنطينية، قام جميع سكان المدينة باللجوء إلى كنيسة أيا صوفيا، وفى بحثه عن السبب الذى دفعهم إلى ذلك، يذكر دوكاس أنهم سمعوا منذ وقت طويل من الكهنة والعرافين أن القسطنطينية سوف تسقط فى أيدى الأتراك العثمانيين، وأن الجنود البيزنطيين سوف يتهاوون تحت ضربات سيوفهم . لكنه يذكر أن النبوءة تذكر أن ملاكاً سوف يهبط من السماء، شاهراً سيفه ليخلص الإمبراطورية البيزنطية ، حيث يقوم بتقديمه لأحد الرجال الفقراء والبسطاء قائلاً له «تناول هذا السيف، وانأر لشعب الرب» . وبهذا سوف يتمكن البيزنطيون - فى الأسطورة - من هزيمة الأتراك العثمانيين، وطردهم خارج القسطنطينية ، ودفعهم إلى بلاد فارس، حيث مكانهم الأصلى المسمّى مونودندريون Monodendrion .

عن تلك النبوءة - الأسطورة انظر : دوكاس، ص٢٧٧ . هامش (١) .

وتصاعد غضب الرب نتيجة لهذا (الاتحاد الزائف بين الكنائس)، وأرسل محمد ، أقوى السلاطين الأتراك، ذلك الشاب الجسور والطموح ، الممتلئ حماسة وجموحًا، العدو اللدود للمسيحيين، ليقيم معسكره أمام القسطنطينية فى الخامس من أبريل (١٤٥٣م)، ويرفقته أكثر من ثلاثمائة ألف مقاتل .. قاموا بالانتشار حول أسوار المدينة.

مثَّل الفرسان الجزء الأكبر من جيشه ، على الرغم من أنهم حاربوا واقفين على أقدامهم فى معظم الأحوال، وكان من بينهم جنود مشاة يتميزون بالشجاعة ، هم حرسه الشخصى ، الذين كانوا فى الأساس من المسيحيين ، أو أولاد المسيحيين، الذين تخلَّوا عن دينهم وكانوا يدعون بالإنكشارية Janissaries (١)، حيث كانوا فرقة عسكرية تشبه قوات الميرميدون المقدونى

١- الانكشارية Janissaries هم مشاة الجيش النظامى العثمانى، والطائفة الممتازة فى الجيش الذى كان يعرف باسم القابيقوليه (الجيش النظامى الذى يضم الخيالة والمشاة) ، وقبل تأسيس الانكشارية أى قبل عصر مراد الأول . لم يكن للعثمانيين جيش نظامى. ودعت الحاجة إلى وجود جيش قوى منظم على غرار السلاجقة . فتقرر تأسيس هذا الجيش . وتشكيل فرقة لتغذيته بالعناصر اللازمة التى عرفت باسم (عجمى أوجاغى) ، وليس معروفًا على وجه التحديد تاريخ تأسيس هذا الجيش. وإن كان من المحقق أنه تأسس فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى ، عقب فتح أدرنة ١٣٧٧م. وترجع العديد من الروايات الكلاسيكية التى لايمكن التأكد منها . وكذا العديد من قوانين الانكشارية أن تأسيس هذا الجيش كان في العام ١٣٦٢م.

وكان خمس الأسرى يؤخذ لخزينة الدولة العثمانية، ويرسل الباقون إلى الانكشارية فى غاليبولى بعد تعليمهم اللغة التركية ، ومبادئ الإسلام من خلال عملهم لدى القرويين الأتراك. وبعد الانتهاء من فتح القسطنطينية ١٤٥٣م، تأسست فرقة أخرى من الانكشارية فى العاصمة الجديدة ، لتستقبل أيضًا أسرى الحرب، والدوشرمه Devsirme (أبناء النصارى) وبعد تدريب أولئك المبتدئين لمدة ست أو سبع سنوات على الأقل، يؤخذ منهم عدد معيَّن للانكشارية . ولم يكن لها عند تأسيسها علاقة بالطريقة البكتاشية ، لكنهم ، واعتبارًا من القرن الخامس عشر الميلادى، اعتبروا أنفسهم من أتباع الحاج بكتاش. وتسمَّوا بطائفة بكتاشيان، وكان الانكشارية يتمتعون بامتيازات خاصة، فكانوا يحاكمون ويتم عقابهم على ما اقترفوه داخل الفرقة . ومن يستحق منهم الإعدام ، كان ينفذ فيه الحكم سرًا، وحققت الانكشارية انتصارات عظيمة للدولة العثمانية. وتدهورت أحوال تلك الفرقة فى وقت متأخر، حتى قضى عليها السلطان محمود الثانى عام ١٨٢٦م، فيما عرف باسم «الواقعة الخيرية» عن ذلك انظر:

Midhat Sertoglu , Osmanli Tarih Lügati, 2. Baski, Istanbul, 1986 , pp. 365-366 .

وانظر أيضًا : Goodwin, G, The Janissaries , London, 1977 .

Myrmidons of Mecedon (١)، فى حوالى خمسة عشرة ألف جندى وعندما أحكم (محمد الفاتح) حصاره حول المدينة فى اليوم الثالث، قام بتحريك آلات القتال، التى لا حصر لها ، تجاه القناة التى تحيط بالأسوار. وقام أيضًا بعمل شباك من أغصان الشجر من أجل توفير الحماية لجنوده. ولابد أن سكيبيو Scipio (٢) وهانيبال Hannibal أو أيًا من قادتنا المعاصرين كان سيصاب بالدهشة والذهول لما يراه من النظام الذى كانت عليه القوات والأسلحة، ومن اليقظة التى كانت تدل على وجود خطة هجومية بارعة.

لكن أخبرنى، بالله عليك، من هو المسئول الحقيقى عن حصار المدينة؟ إنهم الخونة المسيحيين، الذين قاموا بتلقين الأتراك كيفية القيام بعملهم. إننى لا أستطيع أن أصدق عيناى. إن البيزنطيين واللاتين ، والألمان ، والمجريين والبوهيميين ، وآخرين من كافة الممالك المسيحية ، كانوا من بين المهاجمين الأتراك. واتبعوا دينهم، وارتدّوا تمامًا عن الدين المسيحى، هؤلاء هم الذين أسقطوا القسطنطينية .

يا للحسرة ! إنها طريقة شريرة لإنكار المسيح ، أنه التواطؤ مع المسيح الدجال ، مما أدى إلى غضب واشتعال جهنم Gehenna ! الآن لقد حان وقتك (أيتها المدينة) وإنه لمن الصعب تخيّل أى عقاب أعظم مما سوف تتعرضين له .

= خاصة الفصل الأول المعنون . "The Origins of the Janissaries" pp. 19-31

وقد أشاد المؤرخ نيقولو باربارو فى يومياته عن حصار وسقوط القسطنطينية ١٤٥٣م، بشجاعة الجنود العثمانيين الانكشارية الذين هاجموا أسوار المدينة. فوصفهم أكثر من مرة بالبسالة والشجاعة وأنهم جنود محترفين، يحاربون كالأسود الضارية، وأنهم «تسببوا فى نشر الذعر فى كافة أرجاء القسطنطينية ، وسلبوا منا شجاعتنا نتيجة لصياحهم وصرخاتهم العالية». انظر باربارو ، المصدر السابق، ص١٢٢-١٢٣ ، ١٧٠ .

١- قوات الميرميدون Myrmidon، هم جنود أخيل Achillius الشجعان أبطال حرب طروادة . عن دورهم العسكرى الكبير. انظر: هوميروس، الإلياذة ، ص٦٤ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧٨ ، ٨٦ ، ١٥٦ : وانظر أيضًا : ادموند فوار، المرجع السابق، ص٦٦-٦٨ .

٢- سكيبيو Scipio هو أحد القناصل الرومان الذين تم إرسالهم إلى أسبانيا لمواجهة القائد القرطاجنى هانيبال الذى عرف بمهارته الحربية . كما أن مناورته وعبوره نهر الرون، جعلته يتفادى الصدام مع سكيبيو لكن الأخير بعد جمعه حاميات البو Po، زحف غربًا لمواجهته ، إلاّ أنه لقى هزيمة ساحقة على ضفاف نهر تريبيا Trebia عام ٢١٨ ق.م . انظر: إبراهيم نصحى، تاريخ الرومان، ج١ ، القاهرة ، ١٩٨٣م، ص٢٧٣-٢٧٤ .

وقام الأتراك بنصب المدفع الرهيب (إنه أكبر المدافع التى تحدث انفجاراً)، والذى تم تحريكه بالكاد بواسطة مائة وخمسين زوجًا من النيران) بالقرب من السور غير المزدوج ، المسمى كاليجاريا Caligaria، ذلك السور الذى لم يكن به حماية إضافية ، كالقناة أو المتاريس. وكانت قذيفة ذلك المدفع عبارة عن حجر يبلغ محيط دائرته إحدى عشرة راحة يد Palme . ولهذا السبب ، قامت القذائف بتهديم السور على الرغم من سمكه ومتانته البالغة ، مما أدى إلى انهياره أمام القذائف المتتالية للمدفع الرهيب.

وحدث أن انفجر ذلك المدفع ، وهو ما أصاب السلطان (محمد الفاتح) بالانزعاج الشديد، فأمر بصناعة مدفع أكثر ضخامة من المدفع السابق، لكن صانعى المدفع لم يكونوا قد فرغوا من صنعه ، فقام بشكرهم علي ما قاموا به من عمل ومجهود. كما قال صديقنا الوزير خليل Halil . وسقطت العديد من القطع الموجودة بالأسوار ، بواسطة البنادق والأقواس ، والنشابات والمقاليع والسهام، واستطاع (الأتراك) مهاجمة الأسوار، وقتل المدافعين عنها خلال يوم وليلة، مسببين الكثير من الدمار والخراب.

واعتقد العدو (الأتراك) أنه يمكن منع أعداد قليلة من القوات المسيحية (البيزنطية) من الدفاع عن المدينة بشكل مناسب، وذلك عبر شن سلسلة متوالية من الهجمات عليهم، وإصابتهم بالتعب والإرهاق نتيجة لذلك . على أن الشيء الذى أصابنا بالخجل ، أنهم لم يجدوا أية مقاومة من جانبنا فى المواجهة الأولى بيننا .

لكن ، وبعد مرور عدة أيام تعلمنا من تجربتنا السابقة، وأعددنا لهم مدفعًا فى مواجهة قواتهم. ولم يكن المدفع جاهزًا للاستعمال بشكل مستمر، بسبب النقص الذى ألمّ بنا فى البارود ، وفى القذائف . وعندما تم توفير ذلك ، لم يعد موقع المدفع يتيح له أن يتسبب فى إحداث أية خسائر فى صفوف الأعداء، الذين احتموا فى الخنادق ، أو خلف أسوار من الأخشاب، عاد أكبر المدافع إلى صمته، بعد أن كان يتسبب فى إحداث خسائر فى أسوارنا ، عبر الاهتزازات التى كان يحدثها عند إطلاق القذائف .

وفى إحدى المرات قاموا (البيزنطيون) بإطلاق القذائف ضد قوات العدو المتراصة، مما أدى إلى إحداث إصابات جسيمة بهم، وكذلك فى المخابئ التى قاموا بالاختباء داخلها. ونظراً لأن العدو لم يستطع تجنب تلك القذائف المحكمة، فقد تسببت كل قنيفة فى إحداث إصابة ، وضرر مباشر بهم. وبهذه الطريقة ، وعبر استخدام المدفع والبنادق، تم قتل وجرح العديد من الأتراك. كما سقط العديد من الجرحى من جانبنا بعد المناوشات التى جرت خارج الأسوار ، كما جرح

العديد من الأتراك أيضًا. لكن شجاعة الجنود الذين تم تجنيدهم حديثًا (المتطوعين) منحت قواتنا النجاح فى المعركة «نتيجة قيامهم بهجمات مباغتة».

وعلى الرغم من سوء الحظ الذى لازمنا، فقد وصل من جنوا جيوفاني لونجو Giovanni Longo الذى كان أحد أفراد أسرة جستنيانى [١]، ويصحبته سفينتين كبيرتين ، على متنهما أربعمائة رجل، وكان بمثابة الرجل الذى أرسلته الأقدار وتوجه إلى حضرة الإمبراطور الذى عهد إليه بمسئولية الدفاع عن المدينة .

وبات واضحًا للعدو- نتيجة جهد جستنيان- أنه سيتم الاستبسال فى الدفاع عن المدينة بعد أن وجّه اهتمامه الكبير نحو ترميم الأسوار التى أضيرت بشكل كبير، وبدا كما لو أن جستنيانى يسخر من جهود السلطان (محمد الفاتح) : فعندما كانت تسقط قذيفة ضخمة على الأسوار كان جستنيانى، بهمة كبيرة ، يأمر بترميم السور عبر استخدام حزم العصى والعيدان، وكذلك التراب ، والبراميل الخشبية .

ونتيجة لما يحدث، قرر السلطان بعد أن شعر أنه أصبح مدعاة للسخرية، أن يستمر فى قذف الأسوار عبر المدافع . وبالإضافة إلى هذا ، فقد أبدى قدرًا كبيرًا من الاهتمام نحو التسلل إلى داخل المدينة (القسطنطينية) عبر استخدام الانفاق السرية[٢]. فأمر رئيس الحفارين باستدعاء الرجال الذين جلبهم من نوفو برود Novo Brod .

١- عن جستنيان والتعريف بدوره فى الدفاع عن القسطنطينية ، راجع ما سبق، ص١١٠، هامش (١) .

٢- حاول العثمانيون التسلل - عدة مرات- إلى داخل القسطنطينية ، بعد استخدامهم أسلوب حفر الانفاق تحت أسوارالقسطنطينية ، لكنهم فشلوا رغم محاولاتهم المتكررة، بفضل يقظة البيزنطيين ، الذين كانوا يقومون بحفر أنفاق مضادة. ومن ثم يشعلون النيران- عبر حرق الدعامات الخشبية للانفاق- وهو الأمر الذى أدى إلى احتراق العديد من الجنود العثمانيين. وإلى القبض على البعض منهم، الذين جرى تعذيبهم وانتزاع معلومات منهم حول باقى الأنفاق التى يجرى حفرها .

عن ذلك انظر: نيقولو باربارو ، المصدر السابق ، ص١٥٠-١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦٢ .

وانظر أيضًا : . Runciman , Op. cit , pp. 118-119

الذى يتفق مع باربارو فى أن أول الانفاق العثمانية كان فى السادس عشر من مايو ١٤٥٣م، تحت السور القريب من قصر بلاخرناى Blachernae بالقرب من بوابة كاليجاريا Caligaria . ويشير إلى اكتشاف البيزنطيين له، وإلى دور المهندس يوحنا جرانت Johannes Grant فى الإشارة بحفر الانفاق المضادة. =

وبالفعل حضر الرجال مع الدعامات الخشبية، وأدوات عملهم، وبدأوا فى تنفيذ مهامهم بمهارة كبيرة . محاولين الحفر أسفل الأساسات ، والنفاذ من تحت أسوار المدينة فى أكثر من مكان ، وبدا أنهم نجحوا بشكل مميز في القيام بعملهم، بحيث قاموا بالحفر تحت القناة الموجودة ، وقاموا أيضًا بتطويق النفق بالقضبان المتراصة.

وتم كشف ما يقومون به من عمل، بواسطة الألمانى النابه جون جرانت John Grant *.

كان جيوفانى جستنيانى هو المقاتل الأكثر مهارة فى كافة فنون القتال، وكان على رأس المدافعين عن المدينة. وعندما تم تأكيد نبأ (حفر الأتراك للأنفاق) بواسطة الرجال الذين تم إرسالهم للتحرى حول هذا الموضوع ، أصيب كل شخص بالاضطراب والقلق، فقد زعم البيزنطيون أنه منذ حضور السلطان بيازيد، جد السلطان وأبيه السلطان مراد (لمحاصرة القسطنطينية) ، لم تنجح محاولاتهم المبكرة للتسلل إلى داخل المدينة عبر الانفاق. كذلك

= وعن استخدام العثمانيين لأسلوب حفر الانفاق ، انظر المؤرخ العثمانى المعاصر طوسن بك لكنه لم يشر إلى فشل هذا الأسلوب فى اقتحام المدينة . . Tursun Bey , Op. cit, pp. 47-51

انظر أيضًا ، تيدالدى ، ص١١١ .

والحقيقة أن البيزنطيين هم الذين فكروا أولاً في استخدام الأنفاق تحت أسوار القسطنطينية حيث يذكر المؤرخ البيزنطي دوكاس Duces أن بعض البيزنطيين من كبار السن، كانوا يعرفون أحد الأنفاق المغلقة والمهجورة منذ عدة سنوات، أسفل قصر بلاخرناى، وعندما سمع الإمبراطور بذلك، أمر بإعادة حفره ، بحيث يستخدمه الجنود البيزنطيون فى هجومهم المباغت على العثمانيين ، لأنه كان محميًا بجدران صلبة، على أن تقوم المعركة مع العثمانيين فى الفناء الخارجي له. وكان اسم باب النفق يدعى كيركوبورتا Kerkoportal انظر : دوكاس، ص٢٦٨ .

وكان هذا الباب يسمى أيضًا زيلوكيركون Xylokerkon لأنه يقود إلى ميدان مقفر خارج القسطنطينية. انظر : Van Millingen, op. cit, pp. 89-94 .

وانظر أيضًا : حاتم الطحاوى ، اقتحام العثمانيين للقسطنطينية: شهادة المؤرخ البيزنطى دوكاس مجلة «الاجتهاد» العددان ٤١،٤٢ ، السنة الحادية عشرة، بيروت ، ١٩٩٩م، ص٢٠٣-٢٠٤ :. صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص٢٩٠-٢٩١ .

* كان فى الحقيقة إسكتلنديًا ، لكنه وصل حديثًا من ألمانيا. (الترجمة الإنجليزية) .

الأمر، فلم ينجح محمد الفاتح من دخول المدينة عبر الأنفاق، بعد أن تم كشفها بواسطة الأنفاق المضادة التى قمنا بحفرها ، بدون أن تتسبب فى أية أضرار للمدينة.

وحدثت حالة من القلق بسبب اكتشاف النفق الذى تم حفره تحت أساسات أحد الأبراج، والذى كان مسنوداً بالدعامات ، والأعمدة الخشبية المغطاة بالقار. لكن بعد اندفاع الأعداء هاربين من النفق، بعد أن أشعلنا به النيران والكبريت ، شعرنا بثقة هائلة .

قام العثمانيون بعد ذلك بتشييد أبراج خشبية لتعمل كأسوار واقية ، تم وضعها على الأرض، وتغطيتها بجلود الثيران [1]. كما قاموا – دون أن يلاحظ أحد – بهيل التراب والنفايات على القناة حتى يستطيعوا العبور بشكل أكثر سهولة ، وكان لديهم العديد من الحواجز من جذوع الأشجار والأغصان ، وآلات دك الأسوار التى عملت بشكل مستمر ، فضلاً عن السلالم والعربات الخفيفة التى قامت الخيول بجرها، والتى وضعت المتاريس فى أعلاها، وهى تشبه تلك التى قام الرومان بتشييدها إبان حصارهم للقرطاجنيين Carthaginians .

وعندما فشل المدفع العملاق فى تقويض أسوار كاليجاريا بسبب أعمال الترميم المستمرة بها. تم نقله إلى موقع آخر ، بالقرب من برج بكتاتينيان Bactatincan إلى جوار بوابة القديس رومانوس St. Romanus ، حيث قام بإطلاق قذائفه الثقيلة ، التى يبلغ وزن كل منها ألف ومائتى رطل، على وجه التقريب .

وكانت القذائف تنهمر طوال اليوم كله، مما جعلها تؤثر فى جدران وأساسات السور، وتدميره فى النهاية.

امتلأت القناة الموجودة أسفل السور بحطام البرج حتى آخرها. وبدا واضحاً أن ثمة طريقة قد سنحت للعدو من أجل اقتحام المدينة. وأنه إذا لم يتم تنفيذ الترميمات بسرعة قصوى، مثلما حدث عندما تحطم السور عند كاليجاريا ، فسوف يتمكنون (الأتراك) من أخذ طريقهم بالقوة إلى داخل المدينة.

وعندما رأى السلطان أن الدفاعات التى جرى تدميرها ، يعاد ترميمها من جديد، وبشكل سريع ، صاح قائلاً «إنهم ليسوا البيزنطيين، إنهم الفرنجة المسئولين عن صلابة المقاومة .

١- انظر: تيدالدى، ص١١٢: باربارو، ص١٥٣-١٥٤، اللذان تحدثا عن تشيد الأتراك لبرج خشبى ضخم وذكر تيدالدى أن زاجان باشا هو الذى أمر ببنائه، بينما ذكر باربارو أنه كان محمياً ومغطى بجلود الجمال.

لا شئ سوف يُثبط هممهم، لا السهام المنهمرة ، ولا المدفع، ولا الأبراج الخشبية، ولا حتى الحصار المستمر بلا هوادة».

وكان سكان مدينة غلطة Galata أو بيرا Pera ، قد تصرفوا من قبل ، بكثير من التعقل والحكمة، بسبب خشيتهم من قيام السلطان ببناء قلعة على بحر مرمرة Propontis، لكنهم الآن كانوا متلهفين على تقديم المساعدة، عبر توفير السلاح والرجال ، بشكل سرى (للقسطنطينية) لأن العدو كان يتظاهر بحالة السلم المعلنة بينهما، وكان يجب ألاّ يعلم أحد شيئًا عن هذا ، حتى يستطيعون تقديم المساعدة للبيزنطيين ، معتقدين أن هذه الهدنة الزائفة فى صالح مدينتهم .

ولكن إذا لم أكن مخطئًا ، فإن قيامهم بإعلان حالة الحرب بشكل صريح من جانبهم، لهو أفضل من ذلك السلام الزائف ، وأكثر فائدة لشعب بيرا. ولذلك لم يقم الإمبراطور ببناء القلعة التي كانت ستتسبب فى دمارهم، وبعد ذلك لم يقم بإعلان الحرب عليهم.

أنتم أيّها الجنوية، لقد تم ترويضكم ، لكنى سوف أظل صامتًا ، وألتزم بالسلام، تاركًا هذا الأمر إلى الآخرين لإصدار الحكم على شعبى. أين أولئك النبلاء الجنوية فى تلك الأيام الخوالى ، الذين شيدوا غلطه وهم شاهرين سيوفهم، مثل أولئك الذين أعادوا تشييد أورشليم، فقد سكبوا دماءهم وأموالهم . ولأنكم تتصفون بالجشع . فلاترغبون فى بذل الأموال والدماء . بل إنكم الآن، ويجنون مطبق، تقومون بتسليم الجوهرة الثمينة (غلطة) للأتراك . وإذا كان هذا هو ما حدث بالفعل ، فيمكن القول إنه ليس هناك أى شئ لديكم أكثر أهمية ، يمكن تسليمه والتخلص عنه .

على أية حال- لكى أواصل روايتى- فإن أولئك الذين كانوا إلى جانبنا، قد بدأوا يفقدون الثقة فى وصول المساعدات . فلم تصل أية إمدادات من البنادقة، أو من الجنوية (الذين أقول إنهم مع كامل الاحترام، كان يجب أن يقوموا بإرسال المساعدات). ولم تأت أيّة إمدادات من أى مصدر آخر. باستثناء مساعدة الرب فقط. وقد أصيب بعض المتعقلين بالدهشة، من تأخر تدخل الرب، وذلك لأن صفات مثل الغدر والخيانة ، والزندقة، والمروق عن الدين، فضلاً عن الجرائم الأخرى، كان يمكن أن تدفع الرب إلى الغضب بسرعة.

انظر أيها الأب الأكثر قداسة، كيف يمكن أن نستحق هذا الحكم ! فقد احتفل البيزنطيون بالاتحاد الكنسى، عبر الكلمات فقط، لكنهم قاموا بإنكاره فى الواقع إن بعض قادتهم، الذين

تروى دماؤهم الأرض الآن، بعد أن تم سفكها بواسطة سيوف الأعداء، كانوا قد قالوا «دعوا البابا المقدس ينال شرف التصديق على ذلك (الاتحاد الكنسى) ، لكن دعكم من قرار مجمع فلورنسا ولاتنفذوه»(١).

لماذا كل هذا النفاق ؟ أنهم يجيبون على ذلك «لأن الجزء الموجود من القرار الذى يدعى أن الروح القدس قد انبثقت عن الابن، وكذلك عن الأب، يجب أن يختفى تمامًا» مرة أخرى لماذا كل هذا النفاق؟ «لأن البيزنطيين لايجب أن يكونوا على خطأ، إذا ما قالوا بأن الروح القدس قد انبثقت عن مصدرين».

١- مثلت مشكلة الإضافة أحد أهم محاور الخلاف بين الكنيسة الكاثوليكية فى روما، والكنيسة الأرثوذكسية فى القسطنطينية . ونتيجة للتهديدات العثمانية المستمرة بالاستيلاء على القسطنطينية ، لجأ الأباطرة البيزنطيون إلى التماس يد العون من الغرب الأوربى. فوجدت الكنيسة الكاثوليكية الفرصة سانحة لفرض صيغة الاتحاد الكنسى Union . واضطر البيزنطيون نتيجة ظروفهم السياسية والعسكرية الصعبة إلى ممالاة البابا الكاثوليكى ، حيث تم الاتفاق على عقد مجمع فيرارا Ferara، الذى جرى استكماله فى مدينة فلورنسا Florence ١٤٣٩م . ودار النقاش به حول العديد من نقاط الاختلاف ، أهمها مشكلة الإضافة . وهل تنبثق الروح القدس من الأب والابن Qui ex Patre Filioque Procedit كما يقول الغرب الكاثوليكى . أم أنها تنبثق من الأب عبر الابن Qui ex Patre Per Filium Procedit ، كما ينادى الشرق الأرثوذكسى.

ودارت مناقشات مطولة بين وفدى الكنيستين ، بدأت بمعارضة حادة من مارك Mark أسقف أفسوس ، لكن البطريرك البيزنطى جوزيف Joseph حث وفده على إبداء قدر من المرونة حت يستطيعوا إنقاذ القسطنطينية . وكان بيزاريون Bessarion أسقف نيقية من أبرز مؤيدى الاتحاد الكنسى.

ونتيجة لتمسك كلا الكنيستين بموقفهما فى مسألة الإضافة ، حاول جورج سكولاريوس التخفيف من حدة الاختلاف. ورأى آنذاك أن الاتحاد الكنسى يعنى انقاذ بيزنطة من السقوط المنتظر . على أن يعود اللاتين إلى المفهوم الصحيح مرة أخرى.

وأظهر مؤيدو الاتحاد الكنسى فى مجمع فلورنسا ١٤٣٩م تفسيراً جديداً لقضية الاضافة ، وصرحوا بأنهم لايقصدون استثناء الابن عندما ينادون بالانبثاق من الأب . ولاينكرون أنها تنبثق من الابن الذى يستمد جوهره من الأب ، لكن مبدأ الكنيسة الغربية يوحي بأنها تنبثق من الأب والابن كمصدرين ومبدأين .

عن ذلك انظر: السيد محمد المتولى عطيه ، الدولة البيزنطية فى عالم القرن الخامس عشر . رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة المنصورة ١٩٩٨م، ص١٠٢ - ١٠٨ وهناك عرض طيب للعلاقة بين بيزنطة والبابوية آنذاك. انظر الفصل الرابع من هذه الرسالة. ص٩٠-١١٨ .

إننى اتضرع ، لماذا مرة أخرى هذا النفاق؟ «لنحول دون أن يكون المجد حقًّا لمن أراد الفوز به ، بواسطة قوة مساعدة». وانتوى سكولاريوس Scholarius[١] من ناحية ، ونوتاراس No-taras[٢] من ناحية أخرى تقديم نفسيهما – فى بعض الأحيان– أمام الممثل البابوى، مدعين أنهما وحدهما قد فهما هذا الأمر. ويجب أن يكونا فى المقدمة لدى تحقيق وحدة الكنائس ، وكان يشعران بالغيرة الشديدة من المبعوث البابوى.

ولهذا السبب ، فقد قلت «سوف تعاونون قداستكم من هذا الأمر، إن هذا الطموح الشخصى سوف يتسبب فى تقسيم الكنيسة. وعدم وحدتها ، ولهذا فإن غضب الرب سوف يضطرم ، ويشتعل ليقوم بحرق المزيد بشكل شديد ، لماذا لاتنتقل تلك الأرواح العنيدة والحرونة من وسطنا».

وبدا على الإمبراطور أنه سيوافق (على مطالبنا) ، وجاء ذلك عبر تعيين بعض الأساقفة كقضاة لوضع نهاية لأنشطة سكولاريوس، وايزيدور، ونيوفيتوس[٣]، ورفاقهم .

وإذا ما تخلّص الإمبراطور من جبنه ، فإنه سوف يستطيع معاقبة أولئك المخادعين ، المتظاهرين بالإيمان، إن الذين يحتقرون الرب. ويحاولون إرضاء الإنسان سوف يخسرون فى النهاية بالتأكيد، أما إذا تم كبح جماحهم، وقمعهم ، كما يجب أن يحدث فإنهم لن يتمكنوا بعد ذلك من نشر ذلك الوباء المعدى[٤]، لكننى لا أعرف ما إذا كان الإمبراطور أو القضاة قد قاموا

١– هو جورج كورتيسيس سكولاريوس George Kourteses Scholarius ولد فى العام ١٤٠٥م . عمل سكرتيراً للإمبراطور البيزنطى يوحنا الثامن باليولوغس John VIII Palaeologos (١٤٢٥–١٤٤٨م) . حضر مجمع فلورنسا ١٤٣٩م . وقام بالتوقيع على الوثيقة الخاصة بوحدة الكنائس ، لكنه غيّر موقفه بمجرد عودته للقسطنطينية . وبدأ يخطب ضد الاتحاد الكنسى. تحول إلى الرهبنة فى العام ١٤٥٠ تحت اسم جيناديوس Ginnadius . اختاره السلطان الفاتح – فيما بعد – بطريركًا على الكنيسة الأرثوذكسية فى القسطنطينية ١٤٥٤م. انظر: Nicol, " Biographical Dictionary", p. 42 ; O.D.B, vol , 2 , p. 830 .

٢– هو لوكاس نوتاراس Lucas Notaras ، القائد العسكرى الأعلى Mega doux للجيش البيزنطى داخل القسطنطينية إبان الحصار العثمانى، تم أسره بعد الفتح، وقربه محمد الفاتح إليه، لكنه قام بقتله مع اثنين من أبنائه . فيما بعد ، انظر دوكاس ص٢٩١–٢٩٢ .

٣– كاهن الاعتراف للقصر الإمبراطورى . لمعلومات أخرى عنه انظر ما سبق ، ص١٢٤، هامش (٢) .

٤– يستخدم ليونارد الخيوسى لغة أدبية راقية بفضل ثقافته العليا، وهو هنا يصف عملية انتشار التيار الرافض لعملية الاتحاد الكنسى مع كنيسة روما الكاثوليكية بالوباء المعدى . وفى هذا دلالة كافية على المعارضة الواسعة التى ابداها الشعب البيزنطي لمسألة الاتحاد الكنسى.

بإدانتهم ، وبدأ أن الأمر لم يتعد مرحلة التهديد بالإدانة، وكان هناك افتقاد للسلطة التي تستطيع أن توقع العقاب بهم.

استمر الحصار المحكم لمدينة القسطنطينية ، وتم عزلها بواسطة أسطول مكوّن من مائتين وخمسين سفينة، قام الأعداء بجمعها من أماكن مختلفة على السواحل الآسيوية، ومن تراقيا Thrace، والبحر الأسود ، كانت من بينها ثلاث سفن ثلاثية المجاديف Tiremes، وعشر سفن ثنائية المجاديف Biremes ، بينما كانت السبعين سفينة الباقية من نوع الشيني» Galley، بمجداف واحد لكل دكة خشبية. بالإضافة إلى ذلك كله، تواجدت بعض السفن الأصغر حجماً من أنواع مختلفة، كلها ملأى برماة السهام ، على أهبة الاستعداد .

كان الميناء مغلقًا بواسطة السلسلة. حيث تقف سفن مسلحة جيداً ومجهزة بالمنجنيقات، تنتمي سبعة منها للجنوية، وسفينتين من جزيرة كريت، لم تتمكن من الدخول عبر السلسلة، لكنها رست على ساحل مرمرة على بعد أقل من مائة ستاديوم Stadium . ونظراً لعدم قدرة تلك السفن (التركية) على الاقتراب فقد انتشرت بجذر، وحملت الأخشاب، وبعض التجهيزات الضرورية إلى معسكرهم.

وفي تلك الأثناء ، وبعد أن قامت مدفعية السلطان بدك الأسوار وهدمها في ثلاث أماكن مختلفة ، قرر أيضًا، بعد أن تم تحريضه بواسطة توجيهات مسيحي خائن ، بأن يحضر سفنه إلى الميناء، بعد جرها عبر التلال[١].

١- أبدع ذهن السلطان محمد الفاتح فكرة عبقرية تمكن بمقتضاها من نقل أكثر من سبعين سفينة عثمانية من مياه خليج البوسفور إلى نهاية خليج القرن الذهبي بعيداً عن السلسلة الموجودة في مدخله وذلك عبر نقل السفن إلى البر، وجرها عبر التلال مستخدماً الحبال والبكرات والشحم، ومئات الرجال ، علاوة على فرد السفن لأشرعتها ، كما لو كانت تبحر في البحر، واستطاعت القوات العثمانية ليلة العشرين من أبريل ١٤٥٣م، إنزال تلك السفن في القرن الذهبي ، مما بث الرعب والفزع في قلوب سكان القسطنطينية الذين أيقنوا أن ساعة سقوط المدينة قد دنت . عن ذلك انظر : نيقولو باربارو، المصدر السابق، ص١٣١-١٣٢ . الذي أبدى إعجابه بهذه الفكرة.

على أن الملاحظة الهامشية التي أبداها باربارو، والتي ذكر بمقتضاها أن شخصاً مسيحيًا هو الذي أوحى لمحمد الفاتح بهذه الفكرة ، تلتقي هنا بما يقوله ليونارد الخيوسي، على أن عدم تحديدهما لشخصية=

كان ميناء القرن الذهبى ، أيها الأب الأكثر قداسة ، طويلاً جداً، وضيقًا. وكان حده الشرقى محميًا بالسلسلة ، بالإضافة إلى السفن التى تم ربطها هناك جنبًا إلى جنب. ولهذا فلم يكن هناك أى أمل للعدو فى دخول الميناء من ذلك الاتجاه .

ومن أجل إحكام الحصار والسيطرة على المدينة، أمر (السلطان محمد الفاتح) بتمهيد طريق مستو، وتم سحب وجر سبعين سفينة ثنائية المجاديف من الوادي، وتم تشحيم ودهان البكرات التى حملت تلك السفن بطول سبعين ستاديوم، وبعد مجهود ضخم، أنزلت السفن نحو ساحل الميناء.

وأنا أعتقد أن الرجل الذى بيّن للأتراك هذه الخدعة ، وقد تعرف عليها عبر ما حدث قبل ذلك، بواسطة البنادقة فى بحيرة جاردا Garda(١).

لقد أصابنا الرعب والهلع لهذا الأمر. وتم وضع الخطط لتدمير تلك السفن والرجال على متنها ، عن طريق إشعال النيران بها، فضلاً عن رميها بالقذائف ، لكننا لم ننجح فى ذلك . وسببت لنا هذه السفن الكثير من الأضرار الفادحة.

كانت تلك السفن تتمتع بالحماية من كافة الجوانب، ونظرًا لأننا كنّا قد فقدنا الآن سيطرتنا على الميناء، كان من الضرورى استدعاء الجنود من مواقع أخرى ، لزيادة تحصين الأسوار المواجهة للميناء.

= ذلك المسيحى يجعلنا نعتبرها محاولة منهما لتجريد السلطان محمد الفاتح من شرف إبداع هذه الخطة العبقرية، ومن مجد ذلك الإنجاز التاريخى .

عن تنفيذ محمد الفاتح لتلك الخطة انظر: تيدالدى ،ص١٠٨ : خالكوكونديلاس ، ص١٨٥–١٨٦ .

Tursun Bey , Op. cit, p. 52 ; Kritovoulus , Op. cit, pp. 55-58 .

Runciman, Op. cit, pp. 105-106 , Nicol, D, " The last Centuries ", p. 404 ; Naninger, Op. cit, pp. 88-89 .

١– ربما كان ذلك اتهامًا ضمنيًا للبنادقة ، بعد أن قامت البندقية فى إحدى حملاتها على لومبارديا ١٤٣٥م، Lombardia بنقل أسطولها من نهر البو Po إلى بحيرة جاردا Garda بعد استخدام أرصفة خشبية ذات عجلات من أجل نقل السفن. عن ذلك انظر:

Runciman, Op. cit, p. 105 .

لم يقنع السلطان بضربته الذكية السابقة . فقد فكّر في خطة ماكرة، أصابتنا بالفزع والهلع بشكل كبير، فقد قام بتشييد جسر يبلغ طوله ثلاثين ستاديومَ من الساحل المقابل، ليقطع في استقامته ذراع البحر، كما قام بربط براميل الخمور جنباً إلى جنب، وفي أعلى تلك البراميل كانت الألواح الخشبية التي جرى تثبيتها بالبراميل، حتى تسمح للجيش بالعبور إلى سور المدينة بالقرب من الفنار Phanari .

وحاكى (محمد الفاتح) بهذه الطريقة ما فعله اكسرخسز Xerxes[(١)] ، عندما قاد جيشه من آسيا إلى تراقيا عبر البوسفور .

وهكذا فلم تكن لدينا سوى تلك المساحة في الوسط، حيث كانت السلسلة، والسفن الراسية عندها لحمايتنا من عملية الاقتحام ، فضلاً عن تمتعها بحرية الحركة على الرغم من وجود سفن (الأتراك) .

وفي تلك الأثناء ، وصلت سفن من جزيرة خيوس Chios [(٢)] لمساعدتنا ، كان منها ثلاث سفن تابعة للجنوية ، حملت الأسلحة والجنود، والإمدادات الغذائية، وكانت معهم سفينة تابعة للإمبراطور، حضرت من صقلية محملة بالقمح .

١- في إشارة تدل على ثراء الخلفية التاريخية للأب ليونارد الخيوسي، فإنه يحاول إيجاد حالة من المشابهة التاريخية، بين قيام السلطان العثماني محمد الفاتح بمد جسر من البراميل الخشبية والألواح الخشبية، وبين ما سبق وأن قام به الملك الفارسي اكسرخسز Xerxes ، الذي عبر البوسفور لغزو اليونان قبل أن ينجحوا في هزيمته في العام ٤٨٠ق.م . عن الملك اكسرخسز وحروبه في اليونان انظر:

حسين بيرنيا . مشير الدولة، تاريخ إيران القديم من البداية حتى العصر الساساني، ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم، السباعي محمد السباعي، مراجعة وتقديم يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٩٥م، ص١١١-١١٦ . وانظر أيضاً: . Hignett, C, Xerxes's invations of Greece , Oxford, 1963 .

وانظر أيضاً ، خالكو كونديلاس ، ص١٨٧ : باربارو المصدر السابق، ص١٣٢، هامش (٢) .

صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص٢٨٦ . Kritouvoulus, Op. cit, p. 57 .

٢- خيوس Chios هي جزيرة تابعة للإمبراطورية البيزنطية شرقي بحر ايجه بالقرب من ساحل آسيا الصغرى، تم منحها لبلدوين من فلاندر Baldwin of Flander بعد احتلال الحملة الصليبية الرابعة القسطنطينية ١٢٠٤م، ثم آلت إلى الجنوية بمقتضى معاهدة نيمفايون Nymphaion في العام ١٢٦١م ، قبل أن تعود للسيطرة البيزنطية، استولى عليها الجنوية مرة أخرى عام ١٣٤٦م. ولم يستطع العثمانيون الاستيلاء على خيوس سوى العام ١٥٥٦م، انظر . O.D.B, vol . I, pp. 423-424 .

وعندما لاحظ أسطول الأعداء – الذى كان راسيًا بالقرب من المدينة– أن تلك السفن تقترب من الميناء، بدأ فى قرع الطبول، ونفخ الأبواق بانفعال شديد، واتخذ طريقة صوبها، كما أمكننا مشاهدتهم، متخذين وضعًا يؤدى لمهاجمة السفينة الخاصة بالإمبراطور .

راقب السلطان كل تلك الأحداث من موقعه الممتاز فى بيرا، وحملت الرياح صيحات الجنود واتخذت السفن ثلاثية المجاديف طريقها بشكل مباشر باتجاه سفينة الإمبراطور ، بينما حاولت باقى السفن حمايتها . ونشبت المعركة ، وانطلقت قذائف المدافع، وسهام الرماة، وقاتل الأتراك، ببراعة كالمردة والشياطين .

وعلى الجانب الآخر، كانت سفننا تحت قيادة موريتزو كاتانيو Maurizio Cataneo قد عادت للقتال مرة أخرى، بينما اشترك قادة السفن الجنوية الأخرى مثل دومينجو دى نافارا Domenico de Navara ، وباتيسا فيليشيانو Battisa Feliciano بشجاعة فى المعركة وأطلقت المنجنيقات Catapults قذائفها الرهيبة.

ومن أعلى الدكك الخشبية الموجودة بالسفن، هطلت القذائف كالمطر فوق السفن التركية المحتشدة . ودافعت سفينة الإمبراطور عن نفسها ببسالة تحت قيادة ربانها فالاتانيلاس Pha- latancles . وزمجر المدفع ثانية ، وحملت الرياح صوت النحيب، وصوت تكسر مجاديف الشوانى ، بينما تتابع سقوط الجرحى من الأتراك.

أخذ السلطان، فى موقعه على التل، يرغى ويزبد بعدما شاهد أسطوله وهو يتحطم ، وقاد فرسه باندفاع نحو المياه[1]، وقام بتمزيق رداءه فى حالة غضب شديدة، وأخذ الكافر (محمد الفاتح) فى النحيب، فقد كانت قواته تعانى من خطر شديد.

واستمر القتال بعد ذلك بشراسة، وتم سحق الأتراك عبر استخدام الأسلحة والأحجار، وتم قتل العديد منهم، مما أدى بهم إلى التوقف عن متابعة القتال، ولم يكن باستطاعتهم العودة إلى الشاطئ مرة أخرى.

١– عن تلك الموقعة البحرية، التى تمكنت فيها أربعة سفن جنوية وبيزنطية– بمساعدة بعض السفن البيزنطية الأخرى– من هزيمة عشرات السفن العثمانية، والنجاح فى النفاذ إلى خليج القرن الذهبى لمساعدة القسطنطينية، انظر: نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٢٤–١٢٥ ، حيث يحدد وصول تلك السفن بالثالث والعشرين من أبريل . انظر أيضًا : دوكاس ، ص٢٥٥–٢٥٦ Kritovoulus , Op. cit, p. 54 .

وطبقًا للتقارير الواردة من جواسيسنا، ومن الجنود (الأتراك) الفارين من القتال، فقد علمنا أن حوالي عشرة آلاف (تركى) قد قتلوا ، بعضهم بالسيف، والبعض الآخر بالسهام، والبنادق، أو تأثروا جروحهم. وعاني جيشهم من حالة حزن عميقة، وبلغ عدد السفن ثلاثية وثنائية المجاديف، التي تم الاستيلاء عليها حوالي المائتين [١].

والآن، بعد أن تم دحر مجهودات السلطان ، أعاد النظر إلى قواته باعتبارها ليست قوية بما فيه الكفاية كما كان يظن ، لأن العديد من السفن ثلاثية المجاديف التابعة له، لم تكن لتتمكن من أسر سفينة واحدة.

وفى تلك الليلة، دخلت السفن إلى الميناء بأمان مع تقديم خالص الشكر إلى الرب، وسط العديد من مظاهر الفرح والابتهاج، لأنه لم يُقتل أى رجل على متنها ، على الرغم من جرح العديد منهم، وفى المعسكر المقابل، كان السلطان يتميز غضبًا وغيظًا من قائد الأسطول التركى.

وعلى الرغم من استجابته لتوسلات ضباطه، بالإبقاء على حياته، فقد أمر بأن يجرد من رتبته العسكرية وأن يتخلى عن كافة ممتلكاته [٢].

١- هناك مبالغة كبرى فيما يتعلق بعدد القتلى الأتراك فى هذه الموقعة ، فضلاً عن عدد السفن العثمانية التى تم الاستيلاء عليها. فلا يملك المرء سوى التساؤل عن كيفية أسر خمس سفن مسيحية لمائتى سفينة عثمانية. انظر : نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٢٧ . الذى يذكر اعتراف قائد الأسطول العثمانى للسلطان محمد الفاتح ، بأن ١٥٠ رجلاً قد سقطوا صرعى على سفينته فقط ! وفضلاً عن هذه المبالغة أيضًا، فلاندرى كيف استمع الطبيب نيقولو باربارو إلى تلك المحادثة بين الفاتح ووزيره .

٢- التمس المؤرخ العثمانى المعاصر طورسون بك Tursun Bey العذر لقائد الأسطول العثمانى بلطه أوغلو سليمان بك Baltu öglu Süleyman Beg ، حيث ذكر فى كتابه (... ماذا يفعل شخص واحد ولو كان أسدًا أمام بلد كامل . لم يتيسر النصر ... وفتح الكفار باب الميناء (سلسلة الميناء) ودخلوها، انظر:
Tarih-i Ebüll- Feth", p. 53.

كما يذكر أن تلك الهزيمة سببت توترًا وقلقًا للعثمانيين ، لكنه يستدرك معتمدًا على آيات القرآن الكريم «وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم » (سورة البقرة – آية ٢١٦) .

وعندما انتابت السلطات سورة غضب شديدة ، قام بمهاجمة سفننا من تلّ غلطة ، في الجانب الشرقى من الميناء بنية إغراقها ، بعد تعرضها لنيران المدفع ، أو دفعها للتحرك من أماكنها بالقرب من السلسلة . وتم إحضار المدفع عبر المنحدر الغربى، وأخذ صنّاعة البارعون فى اختباره فى محاولة لضرب السفن.

وكان سكان بيرا ، الذين تم ذكرهم سابقًا ، قد أخبروه سابقًا، بأن السفن التى تنتمى للقراصنة ، والتى قام الإمبراطور باستئجارها ، تعد سفنًا معادية وانتوى السلطان مهاجمتها.

كان صانع المدافع ، الذى لم يُدفع له بشكل كافٍ من جانبنا ، قد انضم للأتراك لهذا السبب [١]، وبذل كل ما في وسعه لإغراق تلك السفن . وجاءت النتيجة التى ابتغاها ، فقد

١- كان المهندس المجرى، وصانع المدافع أوربان Urban يعمل لدى الإمبراطور البيزنطى ، قبل أن يحوّل ولاؤه تجاه العثمانيين ، بعد أن حصل على راتب يبلغ أربعة أضعاف راتبه فى القسطنطينية. وطلب السلطان الفاتح من أوربان أن يصنع له مدفعًا ضخمًا لامثيل له . وخلال ثلاثة أشهر كان أوربان قد أنجز مهمته .

عن المدفع العملاق وباقي المدافع العثمانية . انظر : دوكاس، ص٢٥٨-٢٦٠ : خالكوكونديلاس ، ص١٨١ Kritovoulus, Op. cit, pp. 43 -47 , 51-53 الذى يذكر أن أوربان كان من إقليم داشيا Dacia برومانيا الحالية. انظر كذلك: جورجى تيدالدى، ص١٠٦-١٠٧ : ريشيريو، ص٣١٣ : دولفين، ص٣٢٨ . الذى يذكر أن مهندس المدفع كان ألمانيًا. وانظر كذلك Tursun Bey , Op. cit, pp. 84-88 .

صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص٢٥٦-٢٥٧ : Babinger, Op. cit, pp. 80-81 ; Runciman , Op. cit, pp. 78-116 .

وللدلالة على الآثار المدمرة التى الحقها المدفع العثمانى الضخم بأسوار القسطنطينية، قام أحد الباحثين المحدثين بتشبيه الدمار الذى قام به فى أسوار القسطنطينية، كما لو كان قنبلة ذرية ، انظر Kielty Op. cit, p. 125 .

وللتعرف على صورة هذا المدفع العثمانى العملاق، انظر : عبد الرحمن فهمى: «ابن اياس واستخدام الأسلحة النارية فى ضوء ما كتبه فى بدائع الزهور» بحث مستخرج من كتاب، ابن إياس (دراسات وبحوث) اشراف أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، ١٩٧٣، شكل (٨) .

انطلقت قنيفة من المدفع وارتدت من قمة التل، وأغرقت سفينة قائد الأسطول بشكل مفاجئ، وربما كان ذلك لأنه ارتكب بعض الآثام والخطايا *.

وفى الحال، استقرت السفينة فى القاع بكامل حمولتها، واعتبر هذا بمثابة الكارثة والمصيبة لنا، بينما ظلت السفن الأخرى محاذية لسور غلطة ومحتمية به، لتجنب الغرق بنفس الطريقة .

ومن المؤكد أنها إرادة الرب، فمع وجود مائة وخمسين قنيفة مدفعية، وإصابة العديد من منازل غلطه بالأضرار، فلم يقتل سوى شخص واحد. هى سيدة ذات سمعة طيبة كانت تقف وسط مجموعة مكونة من ثلاثين شخصاً.

كان بالميناء أيضاً ثلاث سفن ثلاثية المجاديف تابعة للتجار البنادقة، تحت حماية شينيتين خفيفتين. وكان الإمبراطور قد قام بإغرائهم عن طريق تقديم كمية كبرى من الذهب من أجل البقاء لمدة تزيد على ستة أشهر، للمساعدة فى حماية المدينة.

وكانوا يقدّمون المساعدة للبيزنطيين بشكل سرى ، لأنهم ظلوا محافظين على حالة السلم بينهم وبين الأتراك، وفى كثير من الأحيان ، هناك إشارات تدل على عزمهم على الهرب، وذلك لأنهم كانوا يحملون معهم كامل بضائعهم وممتلكاتهم على متن تلك السفن.

وحظر عليهم الإمبراطور الآن. حمل تلك السلع والبضائع معهم، لأن ذلك سوف يحدث تأثيراً سيئًا على معنويات باقى سكان المدينة. وتم إصدار الأمر إليهم بألاّ يحملوا بضائعهم وممتلكاتهم معهم ثانية.

وكان هذا سببًا لإبداء الشكوى والنقمة من جانب البنادقة. الذين شعروا بأنهم سوف يجردون من حريتهم، ومن قدرتهم على التحرك بشكل واضح ، ومن الامتيازات التى سوف يقومون بها تجاه مدينتهم الأم .

وعلى الرغم من هذا ، فقد هدأوا وزال غضبهم ، وتحول الأمر لاتخاذ قرار فيه، ثم تعهدوا بصورة جدية بالدفاع عن المدينة حتى النهاية(١).

---

* أضاف دولفين اسم الربان. برنابا Bernaba (الترجمة الإنجليزية) عن رواية دولفين للأحداث ، انظر ما يلى ، ص١٤٣-١٥٠ .

١- يذكر نيقولو باربارو البندقى- بتفصيل شديد- حالة تلك السفن البندقية وحمولتها من السلع والبضائع ، وكذلك المباحثات التى جرت بين التجار البنادقة والإمبراطور البيزنطى الأمر الذى دعا القنصل =

نشب صراع بعد ذلك بين البنادقة وجنوية غلطه. وأخذ كل طرف يلوم الآخر على نيته فى الهرب ، «إن هذه التحركات لمثيرة للريبة» هكذا أعلن البنادقة «يمكنكم أن تضعوا الأشرعة ، ودفّات سفنكم فى مكان آمن بالقسطنطينية». ورد الجنوية فى غضب «نحن نعمل بموافقة الإمبراطور، ومن أجل توفير الأمان للبيزنطيين المتحالفين معنا، ونحن حريصون على استمرار التظاهر بالسلام مع الأتراك، ولايوجد لدينا سبب لارتكاب حماقة الهرب من بيرا، أفضل المدن التجارية فى العالم، مع زوجاتنا وأبنائنا وثرواتنا ، ونحن مستعدين للدفاع عنها حتى آخر قطرة من دمائنا، لن تقوم بالإبحار بعيدًا عن مدينتنا النبيلة ، التى تعد مفخرة لجنوا، ومنافسة لكم، وسوف نحافظ على الأشرعة وعلى دفات سفننا تحت مسئوليتنا وليست تحت مسئولية أحد آخر ، ولايمكن أن يقال بأننا ننوى الهرب، إذا ما قمنا بالمحافظة على ممتلكاتنا فى أيدينا».

بعد ذلك هدأ الطرفان، وتصرف البنادقة كما بدا لهم فى سفنهم ثلاثية المجاديف.

ونظرًا لأن موقفنا الآن قد أصبح أكثر خطورة، بدأنا فى إطلاق النيران تجاه سفن الأعداء التى نجحت فى النفاذ إلى المدينة.

وقبيل فجر أحد الأيام. أبحرت سفينتين للتجار بشكل سرى لأداء المهمة التى أمر بها قائدنا جيوفانى جستنيانى Giovanni Giustiniani ، بالإضافة إلى سبع سفن ثلاثية المجاديف، بحيث اقتربت تلك السفن من الساحل المقابل، وأصبحت جاهزة لإطلاق النيران على سفن الأعداء .

كانت الخطة تقضى بأن تتحرك أولى السفن عندما يصدر إليها الأمر، وتقوم بترك القوارب المغطاة (كانت من النوع المسمى barbotte) وتقوم السفن ثنائية المجاديف بتتبعها وبهذه الطريقة ، فإن السفن التى جرى حشوها وتبطينها بأكياس مليئة بالصوف، سوف تقوم بتلقى الدفعات الأولى من بنادق الأعداء.

لكن البندقى جياكومو كوكو Giacomo Coco ، الذى كان يقود سفينة ثنائية المجاديف تابعة للإمبراطور، وعلى متنها بحارة بنادقة من السفن ثلاثية المجاديف، كان أيضًا متلهفًا على

= البندقى بالقسطنطينية إلى عقد مجلس الاثنى عشر فى كنيسة أيا صوفيا بالقسطنطينية فى الثالث عشر من ديسمبر ١٤٥٢م، انظر: المصدر السابق، ص٨٩-١٠٤ .

إحراز المجد والشرف (١). فترك سفينته تبحر بأقصى سرعة ، بحيث سبقت السفينة الموجودة فى المقدمة، حسب التعليمات السابقة.

وراقب الأعداء سفينته وهى تقوم بذلك ، حيث حانت نهايته، وعاقبته الوخيمة، فأصابت طلقة مدفع منتصف سفينته. وابتلعت المياه السفينة وكافة بحارتها .

أيها الأب الأكثر قداسة . يا لها من فاجعة ، لقد ابتلعهم غضب نبتون Neptune (٢) الشديد فى لحظة واحدة ! وهكذا تم كشف خططنا : بشكل كامل، وأصبحت واضحة للأتراك، ولهذا فقد تمكنوا من القيام بتوجيه الضربة الأولى. لكن ماذا استطيع أن أقول، أيها الأب الأكثر قداسة، إلى من أوجّه أصابع الاتهام؟ يجب علىّ أن أظل صامتًا (٣).

١- تحدث باربارو عن البحار البندقى جاكومو كوكو بلهجة مشابهة «.. كان مثل الرجل التواق إلى إحراز الشرف فى هذا العالم»، ص١٣٨، وانظر أيضًا بتفصيل شديد عن تلك المحاولة الفاشلة لإضرام النيران فى السفن العثمانية ، ص١٣٣-١٤٠ . وانظر أيضًا :

Babinger, Op. cit, p. 89 ; Runciman, Op. cit, pp. 106-108 . Nicol, " The Last Centuris, pp. 396-401-402 ; Kielty, Op. cit, pp. 115-119 ; Schlumberger, Op. cit, pp. 172-177 ; Pears, Op. cit, pp.699-700 ; Menzies, Op. cit, p. 85 ; Kinross, Op. cit, p. 103 .

صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص٢٨٨ : السيد المتولى ، المرجع السابق، ص١٤٠ الذى ذكر أن جاكومو كوكو كان مجرد بحار مغامر من طرابيزون، فى حين كان كوكو مواطنًا بندقيًا عمل ربانًا للسفينة البندقية القادمة من ميناء طرابيزون .

٢- هو إله أعماق البحر عند اليونان. لجأ إلى التحول لكنه احتفظ فى معظم تحولات بطبيعته الصاخبة والعنيفة . تحكم فى أمواج البحر، وأعاد إقرار ما تفسده العواصف فى البحر . وكان لنبتون Neptune أسماء أخرى هى امفتريت Amphitrite ، وبوسيدون Posidon. انظر: كوملان ، المرجع السابق، ص٩٥-٩٧ .

Michael Grant , Op. cit, pp. 266 , 285 .

٣- يبدو الأب ليونارد الخيوسى هنا كمن فى فمه ماء. إذ يشير من طرف خفى إلى أن خيانة مواطنيه الجنوية هى التى تسببت فى حلول تلك الكارثة بالمسيحيين البنادقة والبيزنطيين. وإذا كان ليونارد - الجنوى- قد صمت عن ذكر ذلك صراحة ، فإن باربارو - البندقى - قد أشار بالتفصيل الشديد إلى خاينة الجنوية، وإخبارهم السلطان محمد الفاتح بموعد الهجوم البحرى، الأمر الذى دعاه إلى الاستعداد وإلى اغراق وتشتيت شمل السفن المهاجمة . عن ذلك انظر : باربارو ، المصدر السابق، ص١٣٥-١٣٧ ، ١٤١ ، حيث وصفهم =

تسبب هذا التحول الحزين للأحداث فى إصابتنا بالأسى والحزن. وتراجعت السفن بشكل مضطرب إلى مكانها الذى كانت قد تحركت منه. واستطاع بعض البحارة الذين ألقوا بأنفسهم فى الماء السباحة إلى الساحل، حيث قام الأعداء بأسرهم، وأمر حاكمهم الشرير فى اليوم التالى بقطع رقابهم جميعًا أمام أعيننا .

وتصاعد غضبنا لهذا الأمر، وقام رجالنا بذبح الأسرى الأتراك لدينا، بشكل وحشىّ وقاس. تم ذلك فوق الأسوار ، على مرأى من جميع رفاقهم . وبهذه الطريقة أصبحت الحرب أكثر بربرية، عبر خليط من الوحشية وعدم التقوى .

بعد ذلك تظاهر السلطان برغبته فى السلام. وعادت الجواسيس بأخبار غير صادقة عن ندم السلطان على ما قام به . وأنه دخل الحرب لأن المجريين هم الذين قاموا باستفزازه وإثارته . وأنه أرسل سفارة من أجل التفاوض وإقرار السلم.

كان من الواضح أن إعلان السلطان ذلك لم يكن صادقًا. عندما رفض أن يهدم القلعة التى كان قد أمر ببنائها على بحر مرمرة، أو أن يعيد الأراضى التى استولى عليها، وحولّها إلى

= أكثر من مرّة بـ «الجنوية أعداء الدين المسيحى». والحقيقة أن موقف باربارو من الجنوية يأتى متسقًا مع موقف البندقية تجاه منافستها الدائمة جنوا، حيث استمر التنافس البندقى- الجنوى حول أسواق القسطنطينية والامتيازات التجارية بها لعدة قرون سابقة وبدأت منذ الربع الأخير من القرن الثانى عشر الميلادى . عن ذلك انظر : حاتم الطحاوى «بيزنطة والمدن الإيطالية، ص٦٣-٩١ . واستمر هذا التنافس خلال القرن الأخير للدولة البيزنطية ، واستمرت حالة التوجس المتبادلة بين الطرفين . علاوة على العلاقات الطيبة التى جمعت الجنوية بالعثمانيين والحقيقة أن موقف الجنوية فى بيرا كان يهدف إلى إقناع كلا الطرفين : البيزنطى والعثمانى ، بتحالفهم معه، وكان هدفهم الدفاع عن مصالحهم الاقتصادية فى مستعمرة ، بيرا . وهو الأمر الذى تأكد فيما بعد نتيجة للمعاملة الطيبة التى لاقوها من السلطان الفاتح بعد سقوط القسطنطينية. حتي أنه عقد معهم معاهدة تجارية تعهد لهم فيها بعدم الاستيلاء على منازلهم، أو ممتلكاتهم أو سفنهم . كما منحهم حق بيع سلعهم وبضائعهم دون أية ضرائب ، ولم يدفعوا سوي ضريبة الرأس . كما صرح محمد الفاتح للجنوية باستخدام قوانينهم وأعرافهم الخاصة ، وكنائسهم دون دق الأجراس بها. كما تعهد لهم بعدم تحويل كنائسهم إلى مساجد مقابل عدم قيامهم ببناء كنائس جديدة، بالإضافة إلى بعض الشروط والمنح والامتيازات الأخرى. عن تلك المعاهدة انظر:

Miklosick F. R & Müller, J, Acta Et Diplomata Graeca, III, Wien, 1865 , pp. 287 - 288 .

وانظر أيضًا : ملحق رقم (١) حيث توجد الترجمة العربية لهذه المعاهدة.

أراض بور . ولدينا العديد من أسباب الشك، بسبب استحالة الثقة بالسلطان ، الذى لم يتمسك سابقًا بأىّ قسم أو يمين أو معاهدة.

لماذا يجب على عدونا الغادر والوحشى أن يبحث الآن عن الهدنة ؟ وبعد إجراء العديد من التحقيقات أدركت أنها عادتهم (الأتراك) قبل القيام بشن الحرب ، ليمنحوا خصومهم فرصة للموافقة على شروطهم.

وهكذا، فليكن معلومًا أن هذه ما هى إلاّ خديعة من جانبهم ، أما نحن فإننا نقدم سلامنا وأمننا إلى الرب، وتقوم بمتابعة أيامنا التى تمر بقلوب مفعمة بالأسى والمرارة والألم، ويجب أن نعمل من أجل استرضاء الرب، عن طريق إبداء التوبة والندم. وقراءة الابتهالات Litanies وتقدم القرابين ، فضلاً عن حرق البخور والصلاة .

وقررنا بأنه يجب على جنودنا أن يقوموا بالصيام، لأن الرب الواحد سيتنازل ليحارب إلى جانبنا .

لكن لأىّ فائدة ترتفع صلواتنا إلى الرب، إذا لم يكن موجودًا فى قلوبنا ، وإذا ما تلوثت الأيدى، وكانت القلوب نفسها شريرة ، ولاتتصف بالورع، بل وخالية من الإيمان؟

إن ما قمنا به من ظلم وجور قد فرق بيننا وبين الرب، أما أيام الآحاد Sabbath، وأوائل الشهور Kalends ، وتقديمنا للبخور والقرابين بها، فقد تحول كل ذلك إلى شئ ممقوت ، وهكذا، فبدلاً من أن نأمل فى كرم الرب، وجدنا انتقامًا للآثام التى قمنا بارتكابها .

كان عدد المقاتلين قليلاً ، بينما كان الجزء الأعظم من البيزنطيين رجالاً مسالمين ، استخدموا أسلحتهم المكونة من التروس والرماح والسهام والسيوف بشكل طبيعى وعفوى دون أن يتميزوا بمهارة فى استخدامها ، كانت الأغلبية ترتدى الخوذات ، والدروع المعدنية أو الجلدية ، ويقاتلون بالسيوف والرماح. أما أولئك الذين اشتهروا بمهارتهم فى استخدام الأقواس أو النشابات ، فإن عددهم لم يكن كافًا لتجهيز كافة المتاريس والاستحكامات ، لكنهم قاموا بكل ما يمكنهم عمله، طبقًا لقدراتهم ومعلوماتهم .

وكان الأتراك يتصفون بالشجاعة ، ويجيدون القتال عبر عمليات الالتحام ولهذا فقد مات العديد منهم، لكن إذا ما سقط منهم مائة فى يوم واحد. فمتى تحل الكارثة بهم، فقد كان عددهم كبيرًا. وفى الحال سوف يتواجد محلّهم أكثر من الذين سقطوا . وفى المعسكر الآخر، فإذا ما قتل رجل من رجالنا، فإننا نبكي وننتحب كأننا فقدنا مائة رجل، وبشكل خاص إذا ما كان يتميز بالجرأة والشجاعة .

كان عدد البيزنطيين يبلغ فى أحسن الأحوال ستة آلاف مقاتل ، والباقى من الجنوية والبنادقة، وأولئك الذين حضروا – بشكل سرى– من بيرا لتقديم المساعدة ، بلغ عددهم بالكاد ثلاثة آلاف رجل. وأياً ما كان عددنا، فقد تم ابتلاعنا فى فم الأسد، النملة فى فم الدب؟ كيف يمكن أن يجدى واحد فى مواجهة ألف؟ .

والحقيقة أن عدد قواتنا كان قليلاً بما فيه الكفاية للدفاع عن المدينة، التى تم إحكام حصارها براً وبحراً، على امتداد مسافة بلغت ثمانية عشرة ألف خطوة.

ومرة ثانية كان هناك خونة بين البيزنطيين، قاموا – نتيجة لجشعهم– بخيانة وطنهم! فقد توسل إليهم الإمبراطور المحتاج– مراراً – لإعارته الأموال كى يدفعها لجنوده. لكنهم أقسموا بأنهم لايملكون الأموال [١]، لأن حالة الفقر التى سادت فى ذلك الوقت قد استنفذت أموالهم، وفيما بعد وجد أعداؤهم لديهم ثروات كافية.

وعلى الرغم من هذا ، فقد قام بعضهم ببعض الأعمال، وقدّم الكاردينال (ايزيدور) جهوداً عظيمة للمساعدة، كلما أمكنه ذلك ، وبشكل خاص فى عمليات تقوية وتحصين الأبراج والأسوار.

كان الإمبراطور غارقاً فى حيرته، لايعلم ما يجب عليه فعله فى هذه الظروف . فدعا إلى عقد مجمع للقساوسة . الذين أسدوه النصح ، بأنه يجب ألا يشعر المواطنون بالانزعاج لهذه الظروف الصعبة ، بل يجب أن يتم جمع الأوانى المقدسة.

١– ضنّ أغنياء القسطنطينية بأموالهم على الإمبراطور البيزنطى الذى احتاج إليها بشدة لدفع رواتب الجنود البيزنطيين، والمرتزقة الجنوية والبنادقة ، فقد ظن البعض أن المدينة لن تسقط ، مما دعى الإمبراطور إلى اللجوء إلى تصرف قديم أقدم عليه العديد من الأباطرة البيزنطيون من قبله، وهو اللجوء إلى الكنائس والأديرة والاقتراض منها، أو الاستيلاء على الأموال والذهب والمجوهرات والأحجار الكريمة الموجودة بها . بعد أن تنكر أغنياء القسطنطينية له. انظر:

Kritovoulus , Op. cit, p. 36 ; Schlumberger , Op. cit, p. 37 ; Babinger, Op. cit, p. 108 .

ويعلق أحد الباحثين المحدثين على تلك المفارقة بقوله «لم يكن أحد فى العالم على استعداد للتصديق بأن إفلاس الإمبراطور البيزنطى قد بلغ للدرجة التى لم تمكنه من ترميم أسوار عاصمته، ولم يكن فى الحسبان أبداً أن مدينة من أغني مدن العالم قديماً، قد أضحت غير قادرة على دفع مرتبات جنودها». انظر : Kielty , Op. cit, p. 102 .

وهكذا أصدر الإمبراطور أوامره بجمع كافة الأوانى المقدسة التى جرى تكريسها ووقفها لخدمة السيد المسيح فى الكنائس ، وأن يتم صهرها. كما سبق أن قرأنا أن البيزنطيين قد فعلوا ذلك أيضًا فى وقت الضرورة القصوى(١).

كان يجب أن تسك العملات بعد صهر الأوانى المقدسة، من أجل منحها للجنود، وإلى الذين قاموا باكتشاف الحفر المشتعلة بالنيران، وإلى البنائين، الذين اتصفوا بالأنانية، فرفضوا القيام بأعمالهم إلاّ بعد أن يتم الدفع لهم مقدمًا(٢).

وإبان تلك الأحداث الخطيرة، كان واضحًا بالنسبة للإمبراطور، أنه عندما أراد أن يقوم بتوزيع قواته كأفضل ما يكون فوق الأسوار، لم يكن محميًا فقط سوى السور الخارجى، والقناة الواقعة خارج المدينة.

وهكذا وضع الإمبراطور اعتماده وثقته البسيطة فى العدد القليل من قواته فى ميدان المعركة ، ووضع آماله الكبيرة فى قائده جيوفانى جستنيانى، وكان ذلك سيتحقق بالفعل. إذا ما قامت الأقدار بمساعدتنا .

اتخذ الإمبراطور موقعه عند أحد أجزاء سور بوابة القديس رومانوس التى جرى إعادة ترميمها، وحيث احتدمت المعركة بشراسة ، واتخذ جستنيانى مكانة فى مكان قريب منه، مع ثلاثمائة من أتباعه الجنوية. وبتجهيزاتهم وأسلحتهم ، بالإضافة إلى قوة مختارة بعناية من أشجع الجنود البيزنطيين .

١- عن لجوء الأباطرة البيزنطيين إلى رهن ومصادرة العديد من الممتلكات الكنسية لأجل توفير الاعتمادات المالية الملحّة للإمبراطورية البيزنطية، انظر ما قام به الأباطرة الكسيوس كومنينوس، (١٠٨١-١١١٨م) ومانويل كومنينوس (١١٤٣-١١٨٢م) من أجل توفير الأموال للجيش البيزنطى، عن ذلك انظر:
Anna Comnena, op. cit, p. 118 ; Charanis, p. " Monastic Property and the State in the Byzantine Empire" in, D. O. p. vol , IV , 1948 , pp. 67-69 ; Mango, C. Byzantium , The Empire of New Rome , London, 1980, p. 259 .

٢- تحدث نيقولو باربارو أيضًا عن وضع مشابه ، حيث ذكر أنه جرى تجهيز ما يعادل حمولة سبع عربات من الستائر الواقية النقالة Manetlats من أجل رفعها ووضعها عند الأسوار ذات الفتحات العليا، وأن البيزنطيين رفضوا حملها إلى الأسوار فى الحال إلا بعد أن يتقاضوا ثمن عملهم مقدمًا، وكان ذلك فى الثامن والعشرين، من مايو ١٤٥٢م، أى قبل الهجوم العثمانى النهائى على القسطنطينية بيوم واحد فقط .. عن جشع وطمع البيزنطيين انظر: باربارو، المصدر السابق، ص١٦٥ .

كان موريتزو كاتانيو، ذلك النبيل الجنوى ، مسئولاً عن الجزء الذى يقع بين بوابة بيجى

Phighi (حيث قناة المياه) والبوابة الذهبية، مع مائتين من رماة السهام ، ومعهم بعض البيزنطيين، وتم تغطيته القلعة الخشبية بجلود الثيران ، ومع ذلك حاربوا بشجاعة .

وقام الإخوة باولو Paolo ، وتريلو Troilo وانطونيو دى بوشياردى Antonio de Bochiardi بتحمل وطأة المعركة بشجاعة فى منطقة ميلياندرون Miliandron وعندما كانت المدينة تتعرض لخطر محدق ، قاموا بتوفير معداتهم على نفقتهم، ممارسين أقصى درجات اليقظة ليلاً ونهاراً ، برفقة سهامهم وبنادقهم الرهيبة.

كما قاموا – بروح عالية– برد هجوم مشاة وفرسان الأعداء، وبدأ أنهم مساوين فى القوة لهوراتيوس كوكليس Haratius Cocles نفسه(١). لم يرهبهم شئ . ولم تسقط الأسوار التى كانوا يدافعون عنها بفعل القذائف ، ولاتجهيزات وأدوات الحرب العديدة التى امتلكها الأعداء، وضمنوا لأنفسهم شهرة ذائعة لأمد بعيد .

كان ثيودور خاريستينوس Theodorus Charistinus، ذلك العجوز البيزنطى النشط، الذى تميز بمهارة قصوى فى رمي السهام، والبيزنطى ثيوفيلوس باليولوغس Theophilus Palaeologus ، ذو الأصل النبيل والعالم القدير المتفق مع الكاثوليك ، وكذلك المهندس الالمانى جون John، حيث رأوا جميعًا ضرورة الدفاع عن الأجزاء التى أصيبت من السور عند كاليجاريا Caligaria ، وضرورة ترميمها. بينما كان كونتاريني Contarini أشهر النبلاء البنادقة ، مسئولاً عن البوابة الذهبية ، والأبراج المتاخمة قريبًا من البحر وحارب العدو ببسالة.

وجرى توزيع باقى البيزنطيين بطول الأسوار لمساندة المدافعين فى البر والبحر، وعهد بالدفاع عن القصر الإمبراطورى إلى بايل البنادقة جيروليمو مينوتو Girolamo Minoto .

١- عندما قام الاتروسكيين بحصار مدينة روما قام الرومان بالهرب من مزارعهم واللجوء إلى أسوار المدينة. ووقف هوراتيوس كوكليس Horatius Cocles مدافعًا عن الجسر الموجود على نهر التبر Tiber حتى لايستطيع الاتروسكيون عبوره وحصار روما. ونجح بمعونة رفيقيه لارتيوس Lartius وهيرمينيوس Herminius فى ايقاف تقدم الجيش الاتروسكى لكنه طلب منهما فيما بعد – نتيجة الهجوم الشديد – أن يتركا مكانهما وأن يلوذا بالفرار، ووقف وحده فى مواجهة الاتروسكين، وفى النهاية استطاع النجاة والبقاء على قيد الحياة. عن ذلك انظر:

Michael Grant, Op. cit, pp. 319-320 .

وقام الكاردينال ، الذى كان لديه خطة جيدة، بحماية حى القديس ديمتريوس St. De- metrius المواجه للبحر . وتولى القنصل القطالاني الدفاع عن البرج المواجه للهيبدروم Hip- padrome وعلى الساحل الشرقي كان لوكاس نوتاراس Lucas Notarus مستعداً لتقديم المساعدة عند الحاجة لحماية الميناء، أو أى جزء من الأسوار المواجهة للبحر.

كان جيروليمو الايطالى Girulamo Italiano ، وليونارد لانجاسكو Leonard Lan- gasco الجنوى، والعديد من أتباعهم يقومون بحماية بوابة زيلويورتا Xeloporta والأبراج التى عرفت بالافينيادس Aveniades، التى قام الكاردينال بالاتفاق على ترميمها .

وانتشر القساوسة والرهبان بطول الأسوار، وقاموا بأعمال الحراسة من أجل حماية بلدهم. وقام النبيل البندقى جابريل تريفيزان Gabriel Trivisan، الذى كان رباناً للشينيات الخفيفة، بالدفاع بشجاعة عن المنطقة الواقعة ما بين برج فنارى Phanari إلى البوابة الإمبراطورية، مع أربعمائة من أشجع المقاتلين البنادقة *.

---

* الترجمة السابقة هي للجملة التى ظهرت فى النصوص المطبوعة لرسالة ليونارد الخيوسى. أما المخطوطة الموجودة فى مكتبة الفاتيكان، فيها فقرتين هما:

Gabriel trivisano Suptilium galearum (Prefectus Omitted nobilis venetus Cordatissime a Porta Chinigo usque ad turrim fanarii Cum Quadringentis Venetis egregiis decertabat. a turi Vero Fanarii Usque ad basilicam. idest imperialem Portam Lodovicus et Antonius bembe Fratres magni egregiique animi viri Cum Centum quinquequaginta Venetis vivacissime def- fensabant .

ويمكننا ترجمتها على النحو التالى «أبلى جابرييل تريفيسان ، النبيل البندقى ، ربان الشينيات الخفيفة ، بلاءً حسنًا عند دفاعه عن المنطقة الممتدة من بوابة Chinigo إلى برج Phanari ويرفقته أربعمائة من الجنود البنادقة، أما المنطقة الممتدة من برج فنارى إلى المنطقة المعروفة باسم البازيليكا أو البوابة الإمبراطورية ، فقد تم الدفاع عنها بشجاعة بواسطة لوديفيكو وانطونيو بيمبو ، الأخوين النبيلين المتصفين بالشجاعة ، ويرفقتهم مائة وخمسين جنديًا بندقيًا.

ويبدو كما لو أن بزوفيوس Bzovius ، الذى كان نسخه لمخطوطة مكتبة الفاتيكان هو الأساس الذى ارتكزت عليه نصوصنا التى تم طبعها، يبدو أنه قد ارتكب خطأ ما فيما يتعلق بهذه النقطة لكن مايدعو للاستغراب بشكل جدى، أن رواية جورجى دولفين Zorzi Dolfin، الذى اشتملت على القائمة التى ذكرها ليونارد حول القادة العسكريين ومواقعهم إلى جوار قائمة أخرى، اعتمدت على Pusculus المطبوعة هنا. قد أغفلت ذلك . هل اعتمد كل منهم على مخطوطة مختلفة (وكان هناك العديد من المخطوطات) أم أن هناك سبباً لاغفال ومحو أسماء الإخوة بيمبو Bembo من التاريخ ؟ (الترجمة الإنجليزية) .

كان اندريا دييدو Andera Diedo ، ربان إحدى الشوانى الكبرى، يخشي على السفن ثلاثية المجاديف ، فضلاً عن الميناء . فتولى مهمة حراستهم مع القوات الباقية.

وقامت أصوات النفير ، وصيحات المقاومة الصادرة عن السفن المسلحة، بإثارة تحدى العدو، ودعوته لخوض القتال .

وبقى كل من ديمتريوس كانتاكوزينوس Demetrius Cantacuzenus الحمو، ونيقولو جوديلى Nicolo Gudelli ابن زوجة نقفور باليولوغس Nicephorus Palaeologus معه في القوات الاحتياطية ، وكانوا مسئولين عن عدد من الجنود يمكنهم التحرك بسرعة والانتقال إلى أى منطقة بالمدينة .

جرى توزيع الجنود، والضباط، وأولئك الذين تم تجنيدهم إجبارياً منذ وقت قريب بهذه الطريقة، وأصبح واضحاً الآن أن الهجوم النهائى قد أصبح وشيكاً . وقمنا بتهيئة أنفسنا على ذلك .

وعلى الرغم من ذلك، فقد وجدت ذات مرة ، أن البيزنطيين الذين كانوا يشعرون بالخوف، قد تركوا مواقعهم تحت دعوى التوجه إلى حقولهم أو مزارع الكروم الخاصة بهم، أو بحثًا عن الراحة.

وزعم بعض الذين بدا أنه يمكن الوثوق بهم، والاعتماد عليهم، أن أُسرهم فى حاجة إليهم، وألقى آخرون باللوم على عدم وجود نقود لديهم، وأنهم مضطرين للذهاب والبحث عن عمل يحصلون من خلاله على المال.

وعندما قمت بتوجيه اللوم والعتاب لهم على غيابهم، مذكراً إياهم بأنهم لايضعون أنفسهم فقط، بل المسيحية كلها فى خطر داهم. أجابوا قائلين «كيف يكون حالك وأنت تحارب ، بينما أسرتك فى حاجة ماسة إليك؟». والحقيقة ، فقد بذلت معهم مجهوداً ضخماً، قبل أن أنجح فى إعادتهم إلى مواقعهم على الأسوار .

وهكذا ، تمكن العدو من الحصول على التفوق بفضل أعدادنا المتناقصة ، وقام بجرأة كبرى باستخدام الخطاطيف والكلابات لسحب البراميل التى قمنا بوضعها أعلى الأسوار التى سبق أن تهدمت وأضيرت . وهناك أوقات شعرنا فيها بالعار، عندما استخدموا الشباك لسحب الأحجار الضخمة ، التى سقطت فى القناة، بعد قيام مدفعهم الرهيب بقذفها تجاه الأسوار، ومن ثم إعادة استخدامها مرة ثانية.

أين كان حراسنا آنذاك ، أين جنودنا المشاة المنتشرين ، أين قذائف مدفعنا لتجبرهم على التراجع، أو على الأقل تقوم بمنعهم من هذا العمل؟ إنه النذير السيئ حقًا ، كما أنني تساءلت ماذا سيحدث إذا ما قام جيشهم بالاندفاع والهجوم علينا كاندفاع نهر دجلة الثائر ؟

بعد ذلك تم إصدار الأوامر بتوزيع الخبز بالتساوى بين الجنود. حتى لايمكنهم ايجاد مبرّر لترك مواقعهم، من أجل العناية بأنفسهم.

وهكذا لم يعد الرجال يشعرون بالخوف من الموت جوعًا، أكثر من الخوف من الموت بالسيف نتيجة لتصرفات البعض الذين يمتصون دماء البشر. أولئك الذين يخبؤون الطعام أو يقومون برفع سعره . وافتقدنا التنظيم فى هذه الناحية إلى حد كبير، مما تسبب فى زيادة معاناتنا.

وكان الإمبراطور يفتقر إلى الصلابة والبأس . فلم يقم بمعاقبة أولئك الذين قاموا بعصيان أوامره ، ولم يحكم عليهم بالموت. وهكذا فقد اتبع كل شخص أهواءه ، وقاموا بتهدئة غضب الإمبراطور عن طريق تملّقه بأساليبهم المعتادة . وكان ذلك الرجل الطيب (الإمبراطور) مثار سخرية أتباعه، وكان يتظاهر بأنه لايرى الأخطاء التى يقومون بارتكابها .

وفى تلك الأثناء ، كان قائدنا جيوفاني جستنياني، المسئول عن كافة ممتلكاتنا ، قد أدرك ، من التصريحات التى انبعثت من المعسكر التركى، أن المعركة أصبحت على وشك الحدوث . وقام – بشكل سريع– بترميم الأسوار التى أضيرت نتيجة انهمار القذائف ، وسأل القائد العسكرى الأعلى Megadux لوكاس نوتاراس عن مدفع المدينة، لكى يمكنه استعماله ضد العدو، لكنه استقبل إجابة متغطرسة صاح على إثرها جستنياني:

«من يستطيع الآن منعى من ضربك بالسيف ؟ » وشعر نوتاراس بالإهانة البالغة من هذه الكلمات ، خاصة أنها وجهت إليه بواسطة شخص لاتيني. ومنذ تلك اللحظة فصاعدًا، تخاذل نوتاراس بشكل كبير عن توفير الإمدادات اللازمة لمواصلة القتال.

وشعر باقى البيزنطيين بالعداء والحقد تجاه اللاتين ، لأن المجد الذى سيحدث بعد إنقاذ المدينة سوف يعود على اللاتين.

بدأ جستنياني فى ترميم الأسوار وفى تنظيم المدافعين عن المدينة بمساعدة كل من جيوفاني وموريتزو كاتانيو على رأس قواتهم، وجيوفاني دى كاريتو Giovanni de Careto ، وباولو بوشياردو Paolo Bochiardo وجيوفاني دى فورناريس Giovanni de Fornaris

وتوماسو دى سالفاتيسى Tommaso de Salvatici ، لودوفيس جاتيلوسى Lodovici Gat-tilusi وجيوفاني الليريكو Giovanni Illyrico ، وعدد من البيزنطيين الذين أكرهوا على أداء الخدمة العسكرية.

نظر السلطان بإعجاب إلى تلك الاستعدادات ، قائلاً يا ليت لدىّ مثل ذلك القائد النبيل جستنياني ! «وحاول بالفعل رشوته بالهدايا ومبلغ كبير من المال، لكنه لم يستطيع التأثير عليه(١) ».

كانت مسألة حماية القناة والأسوار الخارجية مهمة ثقيلة الوطء علينا. ودائمًا ما قدمت النصح حول هذه المسألة، وأوصيت بأن نزيد من اهتمامنا بالأسوار الداخلية العالية وعدم إهمالها، ومع أنها تضررت نتيجة الأحوال الجوية أو الإهمال ، ولم يدافع عنها من الفتحات العليا بشكل مناسب ، فقد جرى ترميمها منذ البداية عندما تم تنفيذ خطة الحرب، وتم تعيين الحراسة عليها، وإذا لم يقوموا (البيزنطين) بإهمالها ، فانها سوف تقدمّ دفاعًا جيدًا وآمنًا للمدينة .

ماذا أستطيع الآن أن أقول؟ هل أقوم بتوجيه اللوم للإمبراطور، الذى أكنّ له الكثير من الشرف والاحترام، والذى يمتلك إيمانًا حقيقيًا وصحيحًا تجاه الكنيسة الرومانية(٢) ، كما لاحظت بنفسى، فيما عدا الأوقات التى غلبه فيها الجبن ؟ أم أتوجه باللوم إلى الذين كان ينبغى عليهم القيام بإعادة ترميم التحصينات ؟ أواه ... أنتم يا من سيحكم على أرواحكم بالعقاب الأبدى فى الجحيم ، مانويل جاجاروس Manuel Gagarus الذى كان يعانى سابقًا من الفقر المدقع، ونيوفيتوس Neophytus كاهن جزيرة رودس Rhodes، يجب أن أقوم

١- يحاول ليوناردو الخيوسى إسباغ المزيد من صور البطولة على مواطنه الجنوى جيوفانى جستنيانى والحقيقة أن معظم المصادر تحدثت عن شجاعة وبسالة جستنيانى قبل إصابته وفراره من القسطنطينية. لكنها المرة الأولى التى ينكر فيها أحد المصادر أن السلطان محمد الفاتح حاول التأثير على جستنيانى، وتقديم الرشاوى والهدايا له. ولا تسعف باقى المصادر البيزنطية واللاتينية والعثمانية ، ليوناردو فى روايته تلك.

٢- يصف ليوناردو الخيوسى الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر بأنه يمتلك إيمانًا مسيحيًا حقيقيًا وصحيحًا فى إشارة إلى موافقة الإمبراطور البيزنطى على مسألة الاتحاد الكنسى بين الكنيسة الكاثوليكية الغربية ، وكنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية .

بنعتكم باللصوص ، وليس بحماة المدينة ! كان يجب أن تحصلوا على المال من أجل أن تقوموا بحماية وطنكم . وعُهد إليكم به من أجل انفاقه على الأسوار، لكنه تسرّب متخذًا طريقه نحو أيديكم . أن أول أعمال أولئك العبيد الخونة هو تسلمهم مبلغ عشرين ألف فلورين Florins(١)، وقاموا في النهاية بترك كنز به سبعين ألف (فلورين) مخبأة في أحد الجرار، حيث عثر عليها الأتراك بعد ذلك.(٢) هذا هو الأسلوب الذى سقطت من خلاله المدينة، بفضل التقصير الشديد من جانب أولئك اللصوص.

ونظرًا لاتصاف البيزنطيين بالحماقة في كافة ما قاموا به، فلم يكن هناك مدعاة للدهشة لما حدث من أمور معروفة من ذلك تعهدهم المألوف لأباطرتهم المتصفين بالورع والتقوى ، بحماية كافة أرجاء المدينة، التي كان من الطبيعي أن تسقط في أيدى قطاع الطرق.

وعندما قرروا (البيزنطيون) في النهاية أن يقوموا بإصلاح ما وقعوا فيه من أخطاء كان ينقصهم شيئان. الوقت والمال، وكان يمكنهم الحصول على ذلك إذا ما نظروا بجّدية إلى الأمام صوب المعركة القادمة ، لكن ما يتصفون به من حماقة فطرية جّبلوا عليها، ومماطلتهم وتسويفهم منعهم من إدراك ذلك .

ولهذا السبب، فقد وضعوا كافة آمالهم في القناة والأسوار الخارجية. وعندما سقطا في يد العدو، أصبحوا محاصرين داخل الأسوار العالية التي تم التخلي عنها، وتركها بدون مساعدات كم كانت حكمة العبرانيين (اليهود) الذين كانوا إذا ما فقدوا سورًا ، تقهقروا نحو السور الثاني، ومن ثم إلى السور الثالث، ولهذا السبب قاوموا حصار الإمبراطور فسباسيان Vespasian وتيتوس Titius(٣) لأربعة أعوام ! .

١- عملة مدينة فلورنسا الإيطالية.

٢- يعد ليوناردو الخيوسي هو المصدر الوحيد الذى ذكر تلك الواقعة ، انظر كذلك:

Babinger, Op. cit, p. 118 ; Kielty , Op. cit, pp. 103-104 ;

Van Millingen, Op. cit, p. 108 .   صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص٢٦٣-٢٦٤ .

٣- هما الإمبراطورين الرومانيين فسباسيان (٦٩-٧٩م) وتيتوس (٧٩-٨١م) قام الأخير بتشديد الحصار على مدينة القدس التي سقطت في يده عام ٧٠م . وقام بتدمير الهيكل، ولم تقم له قائمة منذ ذلك الحين . انظر: مصطفى كمال عبد العليم، اليهود في مصر في عصر البطالمة والرومان، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٦٩-١٧٠ .

حمل الجواسيس أخباراً من معسكر العدو تذكر أن عدداً من السفن والشوانى قد أرسلت من إيطاليا لمد يد المساعدة ، وأن حنا هونيادى John Hunyadi(١) الذى كان يدعى باسم بلانك Blanc، قد اقترب من الدانوب ، على رأس قوة مجرية، عازمًا على مهاجمة الأتراك، وكانت هناك مناقشات عديدة، وحالة الإثارة والهياج بين الأتراك بعد وصول تلك المعلومات إليهم. وقالوا «لماذا يصبح جيشنا معرضاً للخطر نتيجة لهذا التأخير ؟ لماذا لم تنجح أمام تلك التحصينات » وبدأوا فى الصياح إزاء سلطانهم .

على الرغم من أعدادهم الكبيرة، ومن القذائف العديدة التى أمطرت المدينة، استعداداً للهجوم النهائى، فقد كانوا (الأتراك) يتصفون بالجبن، ولديهم انخفاض فى الروح المعنوية ، ولايملكون تمامًا أسباب النصر . وكان هذا بفضل خليل باشا Halil Pasha، كبير وزراء السلطان، الذى كان رأيه ذا ثقل بسبب حكمته ، وخبرته بالحروب، والذى كان يبدى نية حسنة تجاه المسيحيين (البيزنطيين) . وكثيراً ما نصح السلطان بالرحيل عن القسطنطينية، وذكر أنه من المستحيل اقتحامها بسبب ما يتمتع به موقعها من مناعة طبيعية ، وبفضل الإمدادات الوفيرة بها، وأيضًا بسبب دفاع اللاتين عنها جنبًا إلى جنب مع البيزنطيين كما إن هناك ما هو أسوأ من ذلك ، وهو أ كافة ملوك وأمراء المسيحية سوف يحثون الخطى لمساعدتها «دع أتباعك ينعمون بالسلام». كما قال له أيضًا «ولاتجلب عداء الجنوية وجيرانهم البنادقة ، الذين عملوا دائمًا من أجل مصلحتك، اسحب قواتك، وإتّق – فى نفس الوقت– غضب باقى الأمم المسيحية. إن قواتك ضخمة للغاية، ويمكن زيادة أعدادها فى وقت السلم بدلاً من التضحية بها فى الحرب، التى كانت نهايتها دائمًا غير مؤكدة، وإن الكارثة المصاحبة لها، لهى أكبر كثيراً من النجاح الذى يمكنك تحقيقه».

١– حنا هونيادى (١٤٠٧–١٤٥٦م) قائد عسكرى مجرى ، ربما كان من أصل والاشى، قام بحملات عسكرية ناجحة على الأتراك العثمانيين ١٤٤٢–١٤٤٣م واستعاد منهم مدينتى نيش Nis ، وصوفيا Sophia . اشترك وهزم فى حملة فارنا Varna الصليبية ١٤٤٤م عقد هدنة مع السلطان محمد الفاتح فى العام ١٤٥١م مدتها ثلاث سنوات ، استغاث به الإمبراطور البيزنطى الحادى عشر لنجدة القسطنطينية، لكنه اشترط ضرورة حصول المجر على مسيمبريا Mesembria التى حصل عليها بالفعل ١٤٥٣م . ظهرت رسله فى معسكر السلطان الفاتح مهددة إياه برفع الحصار عن القسطنطينية . الأمر الذى لم يقبله محمد الفاتح، واستمر فى مشروعه الحربى، انظر: O. D.B, vol . 2 , p. 958 .

كان زاجان Zagan ، الأصغر سنًا ، بمثابة الوزير الثاني للسلطان ، ويعد عدوًا للمسيحيين، يشعر بالغيرة من مكانة خليل باشا. وكان أيضًا معبّرًا- بشكل واضح- عن مدى قوة سيده. بحيث لم يكن هناك أحد ليجرؤ على أن يقف فى مواجهته ، ولهذا فقد كانت نصيحته بضرورة مواصلة الهجوم على البيزنطيين الذين كانت مواردهم محدودة للغاية . وتمكنت قواته بسهولة من تدمير الأسوار بعد استخدام المدفع ، بينما كان البيزنطيون على الجانب الآخر يعانون من مسألة نقص أعدادهم ، وبالتالى كان موقفهم ضعيفًا ، وفى غاية التعب والإنهاك بسبب ما يقومون به يوميًا من عمل شاق . وهكذا كان من السهل أن تصيبهم الهزيمة فى ظل عدم توقعهم لأية مساعدة قادمة من إيطاليا.

ولم يحاول خليل باشا أن يغير من قناعة الإمبراطور بخصوص مسألة الهجوم على المدينة، تلك الفكرة الخاطئة . وانقسم الجنوية على أنفسهم، أما البنادقة فقد هوجموا من قبل دوق ميلانو Milan ، ولم يرسل أحدًا أية مساعدة .

لم يجرؤ طرخان Turahan[١] ، القائد المسئول عن قوات تراقيا، على مساندة اقتراح خليل باشا، ولذلك قام بتشجيع السلطان على انتهاج سياسة عدوانية. أمّا الخصى الأكبر الذى كان بمثابة الوزير الثالث، فقد أيد موقف السلطان وعندها صاح القادة العسكريون الأصغر رتبة بالسلطان «من ذلك الذى يحاول أن ينتقص من شجاعتنا الفطرية التى جُبلنا عليها ، ويحاول أن يملأ قلوبنا بالخوف ؟ يجب على أميرنا الذى لايقهر أن يضع الخطط المحكمة ، وأن يحاول تنفيذها بشتى السبل ، وأن يتصرف بشكل عظيم ومهيب ، مهما كلّفه ذلك من أمر ».

وعندما رأى زاجان أن الأغلبية تقف إلى جانبه ، أضاف قائلاً «سيدى دعنا نبادر بالهجوم، وبمشيئة الله ، فإنك سوف تنتصر ، وتحرز مجدًا عظيمًا».

١- كان طرخان أحد أهم قادة السلطان محمد الفاتح ، الذى سبق أن أرسله فى حملة عسكرية إلى المورة فى خريف العام ١٤٥٢م لشن الحرب على توماس وديمتريوس شقيقى الإمبراطور البيزنطى وبعضهما من تقديم المساعدة له وللقسطنطينية . ونجحت قوات طراخان فى التقدم حتى مضيق كورنثه Korinth وإحكام الرقابة على الممتلكات البيزنطية هناك انظر:

Runciman , Op. cit, p. 74 ; Babinger, Op. cit, p. 80 .

تأثر السلطان بهذه الكلمات قائلاً « نعم ، دعنا نقم بما هو مقدر علينًا . هل قواتي هي أقلّ مقدرة من قوات الإسكندر المقدوني Alexander of Macedon (١)، ألم يكن يمتلك قواتًا أقل قوة ، ونجح في إخضاع العالم كله ؟ ألم يكن أبي ، وجدي ، أو أبيه من قبله ، قد قاموا جميعًا باستدعاء الجيش واقتربوا من المدينة ؟ فلتحدد يوم المعركة ، زاجان ، ودع قواتك على أهبة الاستعداد . وباشر التجهيزات الخاصة بالمعركة بشكل عاجل».

بعد أن وجد الوزير الأكبر خليل أن نصيحة منافسه زاجان قد وجدت صدى طيبًا عند السلطان . وأصبح الهجوم واقعًا لا محالة ، أرسل معلومات سرية ، بواسطة رسله المقربين المقربين للغاية ، ليبلغ الإمبراطور بكل ما حدث ، ويبلغه ألاّ يفزع نتيجة للأعمال الحمقاء التي يقوم بها شاب متحمس ومغرور .

لم يكن البيزنطيين ، بخائفين من عدو هو نفسه يشعر بالخوف ، ولايشعرون بالقلق لدى رؤيتهم لحشود من الجنود غير المدربة جيداً ، وكان على حراسهم أن يستمروا في مراقبة الموقف بشكل جيد، وأن يستعدوا لنشوب المعركة في أية لحظة. وبالطبع لم يكن هناك شئ غير مألوف في الرسائل التي قام خليل باشا بارسالها إلى الإمبراطور.

نودى في معسكر السلطان بأنه يجب ايقاد النيران في الأيام الثلاثة السابقة على يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من مايو ، وأن يتوجهوا فيها بالدعاء إلى ربهم، علاوة على صيامهم أيضًا (٢)، وأن يعدّوا أنفسهم للقتال من أجل الهجوم الرئيسي على المسيحيين.

١- الإسكندر الأكبر ابن فيليب المقدوني. آل إليه عرش مقدونيا عام ٣٣٦ ق.م بعد مقتل أبيه، ولم يكن الإسكندر قد تجاوز العشرين عامًا بعد ، ثارت عليه بلاد الإغريق محاولة استرداد حريتها ، لكنه سحقهم في غضون عامين ٣٣٦-٣٤٤ق.م. قام بحملة شرقية استولت على آسيا الصغرى ، ثم استولى على مصر. وذاعت فيها أسطورة بنوته لآمون كبير الآلهة المصرية . انتقل بعد ذلك ليغزو بلاد الرافدين، حيث سيطر على باقي الإمبراطورية الفارسية قبل أن ينتقل إلى وادي الهندوس ، ثم يعود إلى بابل ٣٢٣ق.م. مات في ريعان شبابه عن ٣٢ عامًا. نقل جثمانه إلى مصر ودفن في المدينة التي حملت اسمه، الإسكندرية. ولم يتمكن العلماء من تحديد مقبرته حتي الآن، عن ذلك . راجع : زكى على، مصر البطلمية ، القاهرة ، ٢٠٠٠م.

٢- انظر أيضًا ، نيقولو باربارو، المصدر السابق، ص١٦٢-١٦٣ : تيدالدى ، ص١١٤ .

ذكر المنادون – عبر أصواتهم العالية– بأنه حسب أوامر السلطان، فإنه سيتم منح المدينة للجنود لمدة ثلاثة أيام للحصول على الغنائم[١]. وأقسم السلطان ، بربّه الخالد، وبالأربعة آلاف نبي [٢]، وبمحمد، وبروح أبيه، وبالسيف الذى يتقلده، أن جنوده سوف يصبح لهم الحق في سلب كل ما بالمدينة ، سواء ما بها من ثروات وممتلكات ، فضلاً عن سبى الذكور والإناث ، وأقسم أيضًا أنه لن يحنث بهذا القسم تحت أى ظروف كان .

يا إلهى ! .. إذا ما سمعت تلك الأصوات وهى ترتفع إلي عنان السماء، وهى تصيح «لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله»[٣] وهى تعنى أن الله موجود ، وسوف يستمر إلى الأبد، وأن محمد هو خادمه . ولابد أن لسانك سوف ينعقد، وتصاب بالدهشة والذهول لما يجرى.

وحدث ما أمر به السلطان تمامًا : قاموا بإيقاد النيران لمدة ثلاثة أيام من أجل ربّهم، وصاموا طوال اليوم، ولم يقربوا الطعام حتى حلول الليل، وأخذوا يحيّون ويودعون بعضهم البعض، ويتبادلون العناق والقبلات ، كما لو كانوا متأكدين من توجههم نحو الجحيم الأسفل ، عندما تنشب المعركة[٤].

١– ذكر المؤرخ البيزنطى دوكاس أن السلطان الفاتح وعد بترك المدينة نهبًا لرجاله ، وأنها سوف تكون من نصيبهم، لكنه لم يحدد فترة الثلاثة أيام ، انظر : ص٢٦٧ .

٢– لانعلم على وجه اليقين لماذا جعل ليونارد الخيوسى السلطان الفاتح يقسم أيضًا بالأربعة آلاف نبى. وهو ما ليس موجودًا فى العقيدة الإسلامية، وربما كانت الضبابية والجهل اللذان يلفان معرفته عن الإسلام، هى التى أدت به إلى تصور حدوث ذلك.

٣– على حين تحدثت جميع المصادر المعاصرة عن الصراخ والصياح الصادر من جانب الجنود العثمانيين، فإن ليونارد الخيوسى هو المؤرخ اللاتيني، المسيحى الوحيد الذى قام بتفسير تلك الصيحات الحماسية تفسيرًا منطقيًا ومقنعًا، وهناك مؤرخ عثمانى معاصر ، تحدث أيضًا عن تقدم الجنود العثمانيين فى القتال صائحين «الله أكبر» انظر: Tursun Bey , Op. cit. p. 55 .

٤– يرى الباحث أن تلك الجملة من رواية ليونارد الخيوسى تحمل دلالة بالغة . فهى تشى بأمرين هامين : الأول هو جهل ليونارد بالإسلام الصحيح ، وبالتأثير القوى لفكرة «الجهاد» عند المسلمين، وهو الأمر الذى جعل الجنود العثمانيين يقومون بتحية بعضهم بعضًا، ويتبادلون العناق والقبلات ، لقرب موعد الهجوم النهائى على القسطنطينية، ولتمكن فكرة «الشهادة» من قلوبهم ، ومن ثم الخلود فى «الجنة».

أما الأمر الثانى فيرجع إلى الكراهية التى يكنّها الأب ليونارد الخيوسى إزاء أولئك الجنود العثمانيين المسلمين ، الذين على وشك إسقاط أحد أهم العواصم المسيحية، عبر التاريخ الأوربى الوسيط، الأمر الذى جعله يتذكر أن أولئك الجنود المسلمين، سوف يُقتلون، ويوضعون فى الدرك الأسفل من النار.

وشعرنا من جانبنا بدهشة واسعة لهذه المشاعر الدينية العميقة، وتضرعنا إلى الرب بدموع غزيرة لكى ينظر إلينا بعين العطف . وحملنا الصور والأيقونات المقدسة، مبدين الندم عبر مسيرات حول أسوار المدينة، حيث سارت حشود من الرجال والنساء حفاة ، عبر شوارع القسطنطينية. وطلبنا من الرب بقلوب نادمة بألاّ يجعل أتباعه يلقون الهزيمة، وأن يتكرم ويتعطف بأن يبسط يده إكرامًا لأجل أتباعه فى تلك المعركة المروّعة. لأن الرب وحده . لا أحد غيره ، هو الذي يستطيع أن يقدم المساعدة للمسيحيين فى حربهم .

وبعد أن وضعنا كافة أملنا فى الرب، غمرنا شعور بالارتياح . ومكثنا فى انتظار يوم المعركة بقوى متجددة.

قام الإمبراطور باستدعاء السناتو، ووزرائه ، وكبار موظفى الدولة والضباط العسكريين ، حيث وجه إليهم حديثه التالى:

«أيها الرجال ذوى الأصل النبيل . قادة الحرب وأتباعهم الجنود، إننا نرى الآن أن يوم المعركة قد اقترب ، ولهذا قررت أن أجمعكم فى هذا المكان ليكون واضحًا لكم أنه يجب أن تقفوا معًا بشكل أكثر ثباتًا وصلابة . يجب أن تحاربوا بشكل مجيد ضد أعداء المسيح فى كافة الأوقات. والآن، فإن بلدكم ، مدينتكم ذائعة الصيت فى العالم كله . التى يحاصرها الأتراك الأشرار والوثنيون منذ اثنين وخمسين يومًا، هذه المدينة تعهد بنفسها إلى أرواحكم الشجاعة وحدها من أجل حمايتها والمحافظة عليها. لاتخافوا ولاتجزعوا بسبب تهدم أو سقوط أسوار المدينة بسبب قذائف الأعداء. استمروا فى دفاعكم تحت حماية الرب. ويجب أن تحولوا قوتكم وأسلحتكم تجاه الأعداء. إننى أعلم أن حشودهم غير المدربة جيدًا سوف تبدأ كالعادة فى الصياح بشكل عال ، وسوف يمطروننا بالسهام من بعيد إنها لن تصيب أجسادكم التى أرى أنها ترتدى الدروع بشكل جيد. سوف تسقط على الأسوار، وعلى دروع الصدور Breast-plates ، وكذلك على المتاريس ولهذا السبب لاتتبعوا مثال الفرسان من الرومان عندما حاربوا القرطاجنيين، وسمحوا لأنفسهم بأن يجزعوا من الأصوات المروعة الصادرة عن أفيالهم [(١)].

١- استخدم القائد القرطاجنى هانيبال الفيلة فى جيشه، الأمر الذى أثار فزع الرومان، إلاّ أن صعوبة جبال البرانس ، ونهر الرون وجبال الألب حرمته من جميع فيلته عام ٢١٨ق.م ، كما نعلم أن هانيبال بدأ معركته عام ٢٠٢ق.م بإطلاق الفيلة على الرومان، الذين تراجعوا وأصابهم الرعب أولاً ، قبل أن يتماسكوا ويلحقون بهانيبال هزيمة نكراء عند زاما. وهو الأمر الذى جعل الأخير يطلب من حكومته عقد الصلح مع الرومان. انظر: إبراهيم نصحى، المرجع السابق ، ص٢٨٧ .

ولايجب عليكم أن تفزعوا أو تهربوا من هذه المعركة ، نتيجة صياحهم وصراخهم ، بل يجب عليكم أن تتسلحوا بالشجاعة كى تستمروا فى المقاومة بقوة وصلابة . إن الحيوانات فقط هى التى تفر من الحيوانات . إنكم رجال ممتلئين شجاعة وبسالة، سوف تواجهون تلك الحيوانات المتوحشة، كما يفعل الرجال. أشهروا رماحكم وحرابكم وسيوفكم نحوهم كما تفعلون مع الخنازير البرية . دعوهم يدركون أنهم سوف يتقاتلون، لا مع حيوانات ، بل مع رجال يعدّون فى الحقيقة هم أسيادهم».

«أنتم تعلمون أن عدونا الكافر والمخادع قد أفسد سلامنا بلاسبب، فقد قام بحنث قسمه، وخرق المعاهدة الموقعة بيننا، لقد قام بمذبحة تجاه مزارعينا وقت الحصار . وقام بتبوير أراضينا الزراعية . كما قام بتشييد قلعة على بحر مرمرة لأجل ابتلاع المسيحية كما يريد . وقام بحصار غلطة ، متظاهراً بادعاء السلام. والآن يقوم بالتهديد بالاستيلاء على مدينة قسطنطين العظيم . مدينتكم ووطنكم ، المكان الذى قدم المساعدة لكل لاجئ مسيحى. الحارس على جميع بلاد اليونان، وأقسم (السلطان الفاتح) بانه سوف يقوم بتحويل المزارات المقدسة للرب إلى إسطبلات للخيول» .

«أيها النبلاء . إخوتى وأبنائى، إن مكانة المسيحية ومصيرها بين أيديكم الآن من أجل الدفاع عنها. وأنتم أيها الجنوية الشجعان، المشهورين بانتصاراتكم العديد، التى لا حصر لها، الذين قاموا دائمًا بحماية هذه المدينة. إنها مثل الأم بالنسبة لكم . وعبر المعارك العديدة التى قمتم بخوضها ضد الأتراك . حان الآن وقت إظهار قوتكم وروحكم العالية ضدهم. يا رجال البندقية ، لقد أظهرتم مقدرتكم أيضًا لمرات عديدة ولاحصر لها ، وقامت سيوفكم بسفك دماء الأتراك فى الماضى. وفي وقتنا القريب تحت قيادة لوريدان Loredan [1]، القائد الأكثر مهارة وبراعة لأسطولنا . وسبق أن أرسلتم العديد من سفن الكفار وأرواحهم إلى غياهب اليم. وقمتم بتزيين هذه المدينة ، كما لو كانت مدينتكم بالفعل، بالرجال، والنبلاء العظام. ولآن دعوا روحكم المعنوية العالية تزداد ارتفاعًا من أجل الاستعداد للقتال . وفى النهاية ، أيها الجنود، امتثلوا لأوامر قادتكم فى جميع الأحوال . واعلموا أن هذا هو يوم مجدكم . ولتعلموا أنه مقابل كل قطرة تنزف من دمائكم، فإنكم سوف تنالون مقابلها لأنفسكم تاج الشهادة ، والمجد الأبدى».

١- هو بييرو لوريدان Piero Loredan، القائد الشهير للأسطول البحرى البندقى، والذى تمكن من هزيمة وإغراق الأسطول العثمانى زمن السلطان مراد الثانى.

عندما انتهى الإمبراطور من حديثه ، تجمع كافة المسيحيين وأقسموا على التصدى للهجوم سلاية وثبات . وعندها صاح الإمبراطور «لتكونوا جاهزين ، لتظهروا جَلَدكم واحتمالكم غداً ، مساعدة الرب، فإننا نأمل فى إحراز النصر».

وعند هذه النقطة تراجعت مسألة تخوّف البيزنطيين من الحرب، وشعروا بالراحة مع مزيد ن الشجاعة . واتحدت جهودهم ، وتجمعوا على الفور من أجل الاستعداد للمعركة المقبلة.

وتم تنظيم عملية حراسة الأسوار عبر مختلف القادة ، والقباطنة، والتريبونز Tribunes، السنتوريونز Centurions ، والديكوريونز descurions(١).

وخلال الليلة التى سبقت المعركة الحاسمة ، استمروا فى مراقبة القناة، بعد قيامهم بإغلاق بوابات المدينة حتى لايستطيع أحد أن يتجه عائداً إليها، وسمعوا أصوات المعدات الخاصة الحصار ، وتحركت الأبراج ذات العجلات ، وتم إحضار السلالم لأجل تسلق الأسوار .

واتخذ الأسطول التركى موقعه بحيث انتشرت سفنه عبر كل من الميناء، والساحل المطلّ على المدينة. كما قاموا بإحضار الجسر من أجل تثبيته على ساحل المدينة القريب من الميناء. وكانت كافة معداتهم جاهزة ومستعدة . وقاموا بنشر قواتهم البسيطة وغير المؤثرة ليلاً ، من أجل الاحتفاظ بأفضل قواتهم عند هجوم الفجر.

وبدأ الهجوم، وأبدت قواتنا مقاومة ضارية . ونجحنا فى دفع الأتراك إلى الخلف بواسطة البنادق النارية. وسهامنا . وتعادلت الخسائر على الجانبين، فاستمر القتال المتكافئ طوال الليل، ثم بدأنا فى تحقيق بعض التقدم.

وعندما خبا ضوء النجوم، بشّر كوكب الزهرة Lucifer بنهوض فيبوس Phoebus(٢)، على دوّى النفير بصوت عال فى كلا الجانبين ، وقرعت أصوات الطبول ،

١- نتيجة للثقافة الواسعة للأب ليونارد الخيوسى، نجده يستشهد فى كتاباته عدة مرات بأحداث تاريخية جرت على عهد الرومان القدماء ، مثل حروبهم مع القرطاجنيين، وكذلك فى الاستعانة ببعض المصطلحات العسكرية التى تغيرت على عهد البيزنطيين ، لكنه يتمسك بإيرادها فى إشارة إلى التاريخ الرومانى ، باعتبار أن البيزنطيين هم امتداد للرومان، من ذلك استخدامه لمصطلحات Tribunes : المدافعين عن حقوق العامة ومصالحها ، و Centurions قادة المئة decurions : قادة العشرة فى سلام الفرسان الرومانى .

٢- يسبق كوكب الزهرة – فينوس– شروق الشمس ناحية المشرق عند الرومان. ويظهر فى الغرب =

وتعالى صياحهم «بـ لا إله إلا الله ، «لا إله» إلا الله ليعلو على باقى الأصوات فى دعوة القتال ، ويدأوا فى الضغط علينا بكثافة عددية كبيرة. وقمنا بالرد على ذلك بوابل من القذائف المميتة، وعبر إطلاق النيران والسهام على قواتهم.

وتسببت صلابة المقاومة التي أبداها المسيحيون (البيزنطيون) فى تحطيم صفوف جنودهم (الأتراك)، وتعالى صراخهم بشكل كبير، كما ارتفعت أعلامهم أيضًا بشكل واضح . ويمكن للمرء أن يندهش من حال تلك الحيوانات الضارية . لقد أبيدت قواتهم ، لكنهم مع ذلك كانوا يتجاسرون على الاقتراب من الخندق المرة تلو الأخرى. وسقط الأتراك أرضًا تحت وابل من الأحجار التى صرعت العديد منهم، وعبر وطء رفاقهم حاولوا القفز على الأسوار التى كانت قد أصيبت بفعل قذائفهم. قمنا بصدهم بكل ما أوتينا من قوة، على الرغم من جرح العديد من رجالنا، وتراجعنا عن المعركة قليلاً ، لكن قائدنا جستنيانى ظل صامدًا فى موقعه، وظل باقى ضباطنا يقومون بتحصين أماكنهم فى الفتحات الموجودة أعلى الأسوار.

صاح الإمبراطور «هيًا يا جنودى الشجعان ، لقد ضعفت وتيرة هجوم عدونا، وسوف نكلّل بتاج النصر بشكل أكيد . فالرب يقف إلى جانبنا، استمروا فى القتال».

ولسوء حظ المدينة، ففى تلك اللحظة أصيب جيوفانى جستنيانى بسهم فى إبطه[1]. وكالصبى غير المتعود على الحرب . فقد ارتجف عندما رأى منظر دمائه وهى تسيل وخشى على حياته، وحتى لايثبط همّة جنوده الذين لم يكونوا قد عرفوا بجرحه بعد، فقد ترك الصفوف بشكل سرى، من أجل البحث عن طبيب. ولو كان قد قام بتعيين بديل له فى موقعه، ما كانت المدينة قد سقطت.

= عند الغسق ، ويسمى الزهرة عندما يكون فى الصباح. أما فويبوس Phoebus فهو أبوللو Apollo ابن الإله جوبيتر ، وسمى فويبوس أى «النور والحياة» لأنه كان يقود مركبة الشمس . عن ذلك انظر:

كوملان ، المرجع السابق، ص٣٥ ، ٧٩ . Grant , Op. cit, pp. 23 , 25: نيهاردت ، الآلهة والأبطال فى اليونان القديمة، ترجمة هاشم حمادى، دمشق ، ١٩٩٤م، ص٢٦-٢٧ .

واستخدم ليونارد فى السطر السابق، لغته الأدبية العالية، وهو يقصد ببساطة أن ذلك كله قد حدث ، فى وقت السحر، فى الوقت الذى تخبو فيه النجوم ويسبق وقت الفجر.

١- عن جيوفانى جستنيانى، ودوره فى الدفاع عن القسطنطينية. انظر ما سبق، ص١١٥ .

عندما حمى وطيس المعركة ، لاحظ الامبراطور عدم وجود جستنيانى ، وبدأ فى البحث عنه بقلق عظيم ، وعندما رأى جنودنا أنهم أصبحوا بلا قائد، بدأوا فى التراجع والإنسحاب عن مواقعهم .

وفى تلك الأثناء، أصبح الهجوم التركى أشد ضراوة ، وشعرت قواتنا بالفزع والرعب ، وتملكهم قلق عظيم، ورغبة أكيدة لمعرفة ماذا حدث، وجعل موقفهم خطراً .

وهكذا حدث خطأ غير مقصود من جزء من قواته (جستنيانى) ، الذى كان يجب عليه أن يخبرهم بما يحدث عند النصر أو الهزيمة ، لكنه لم يفعل ذلك. فقد بدأ جنودنا يشعرون بالتعب والإرهاق يتغلب عليهم، وتراجعوا قليلاً تحت ضغط هجوم العدو عند سور Bachatureon الذى سبق أن قاموا بترميمه من قبل .

وعندما شاهد الأتراك ذلك ، رأوا أنه من المناسب أن يقوموا بالعبور بشكل مباشر، لأن الأحجار المهدمة من السور قد ملأت القناة ، وأخذوا فى الصياح «هيا إلى الهجوم». وتسلق جمع منهم الأسوار دفعة واحدة . وقاموا بتثبيت أعلامهم فى أعلى الأسوار ، وصاحوا صيحة الابتهاج والنصر ، ثم بدأوا فى مهاجمتنا بسيوفهم، وبذلوا قصارى جهدهم فى الفتك بنا ، أو فى إجبارنا على الاستسلام .

عندما رأى الإمبراطور التعس أن كبير قادته قد توقف عن القتال، صاح «آواه ! يا للمصيبة ! هل سقطت المدينة إذن ؟ ابق مكانك أيها القائد، أتوسل إليك . إن تراجعك وهروبك سوف يدفع الآخرين لأن يحذون حذوك . إن جرحك ليس مميتاً . تحمّل الألم، واثبت فى موقعك كما يفعل الرجال، وكما وعدت أن تكون» .

لكن جستنيانى كان قد نسى أين يقع مجده وخلاصه . وأظهر كثيراً من الجبن، وهو ما يختلف عن كل ما كان قد أظهره قبل الآن. وإذا كان يتمتع بالرجولة الحقة ، كان عليه ألاّ يتراجع أو ينسحب ، بل يتحمّل آلام جرحه ، أو على الأقل ، كان يجب أن يقوم بتعيين قائد آخر فى موقعه .

ونتيجة لما حدث ، فقد ضعفت الروح المعنوية لرجالنا ، وتبعوا قائدهم فى رحلة هروبه، آملين إنقاذ أنفسهم. وصاح جستنيانى «اعط مفتاح البوابة لجنودى» .

وفى الحال تم فتح البوابة حيث دخلوا في حشد كبير . وعندما تم فتح البوابة فر قائدهم

إلى بيرا، ونجح فى الهرب إلى جزيرة خيوس، حيث مات هناك مغموراً لم يشعر به أحد ، وجاء موته نتيجة لإصابته وجرحه ، وربما كان ذلك لإحساسه بالعار.

وفى محاولة من الإمبراطور لتجنب الوقوع فى الأسر، صاح «ألا يتقدم أحد من جنودى الشبان والشجعان ليقتلنى بسيفى هذا، باسم الرب»(١) وذلك حتى لاتسقط مهابته فى أيدى أعدائنا المخادعين ؟ وفى هذه اللحظة قال ثيوفيليوس باليولوغس، الكاثوليكى (٢)« الآن وقد سقطت المدينة بالفعل، فإنه لايمكننى البقاء على قيد الحياة».

وعلى الرغم من ذلك ، فقد عاش ، وقاتل أمام ضراوة هجوم الأتراك ، حتى أصابته ضربة فأس axe، شطرته إلى نصفين .

وبنفس الطريقة، فإن جيوفانى شيافو الاليرى ، حارب بشجاعة مثل هرقل Heraclus(٣) وقام بقتل الكثيرين قبل أن يضع أحد سيوف الأعداء حداً لحياته . وتم سحق العديد من المدافعين حتى الموت، بينما كانوا يحاولون الوصول إلى البوابة . وكان الإمبراطور من بين هؤلاء ، فسقط ثم نهض ثانية، ثم سقط مرة أخرى، ليفقد حياته وسط هذا الحشد . وهلك فى تلك الحادثة حوالى ثمانمائة رجل من جانبنا، بعد أن قاموا بوطء بعضهم البعض بالقرب من البوابة .

١- أشار باربارو فى ملاحظة هامشية إلى أن الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر توسل إلى أحد رجال حاشيته ليقوم بقتله بدلاً من السقوط فى أيدى الأتراك العثمانيين. وهذه رواية قام بترديدها أكثر من مؤرخ مثل ميخائيل دوكاس ، وليونارد الخيوسى، ونيقولو باربارو، انظر الأخير، ص١٧٨ ، هامش (٢) . ومن الواضح أنها محاولة من ليونارد الخيوسى لإسباغ صفة البطولة، ورفض الوقوع فى الأسر العثمانى على الإمبراطور البيزنطى، لكن ذلك لم يحدث فى الأصل ، فلم يكن الإمبراطور محارباً لايشق له غبار، كما أنه لم يسقط فى أيدى العثمانيين . عن مقتل الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر إبان اقتحام العثمانيين للقسطنطينية ١٤٥٣م ، وعن المراثى التى قيلت عن المدينة وعن الإمبراطور ، انظر رواية دوكاس ص٢٧٢-٢٧٥ .

٢- هو أحد أفراد أسرة باليولوغس، أيّد عملية الاتحاد الكنسى مع كنيسة روما الكاثوليكية ، عنه أيضاً انظر ما سبق ، ص١٢٤ ، هامش (١) ، انظر مايلى، ص٢٩١ .

٣- هو هرقل الطيبى، ابن الإله جوبتير، اشتهر بالبأس والقوة البدنية التى لايصدقها العقل لم يكن ليضارعه أحد فى قوته وشجاعته عن ذلك انظر:

كوملان ، المرجع السابق، ص١٨٠-١٨٣ : نيهاردت ، المرجع السابق، ص١٥٨-١٦١ ، فوار المرجع السابق، ص٩٢-٩٤ . Grant , Op. cit, pp. 66 , 88-89

وعندما اعتلى الأتراك باقى السور الخارجي، قاموا من أعلاه بتصويب الأحجار على قواتنا التى كانت خارج مدى القذائف . ووصلت إلينا أحد السرايا العسكريةِ التى قفزت من فوق السور، وأخذوا فى الصياح والصراخ . وأجبرونا على التقهقر والانسحاب. وعندما سمعوا الضجيج المصاحب لعمليات الفرار والانسحاب ، ورأوا الجنود الهاربين، قام باولو وتروبلو بوشياردى ، المواطنين اللاتين بالقسطنطينية ، برفقة عدد من البيزنطيين الشجعان والفرسان اللاتين ، بالاندفاع مباشرة صوب العدو، الذى اعتقد - لفرط شجاعتهم - أن عددهم أكبر مما هو عليه. مما دفعه إلى الانسحاب . ونخس باولو جواده باتجاه الأتراك ، وصوب رمحه الذى اخترق جسد أحدهم . مما أدّى بالباقين إلى التراجع . ولأنهم (البيزنطيين) كانوا فى وضع خطر بسبب الأحجار المنهمرة عليهم من كل صوب، فقد صاحوا بتروبلو «واحسرتاه ! لقد سقطت المدينة ! وسوف نسقط نحن أيضًا الآن إذا ما استطاع العدو محاصرتنا، وتلقى (تروبلو) ضربة على رأسه، ولكنه نجح فى إنقاذ نفسه، بينما دماؤه تنزف ، حيث هرب -برفقة أخيه - إلى غلطة .

ويمكن أن نتخيل مدى ذهولنا ودهشتنا لتحوّل الأحداث ! إن مدار فويبوس Phoebus لم يظهر حتى الآن نصفه عبر الأفق ، وأن المدينة سقطت كلها فى أيدى الكفار الذين شرعوا فى استباحتها . واندفع جنودهم بلهفة عبر المدينة، وأعملوا السيف فى كل من أبدى نوعًا من المقاومة ، وقاموا بذبح كبار السن ، وأصحاب الأمراض العقلية، ومرضى الجذام، وكل من أصابه وهن وعجز الشيخوخة. بينما صفحوا عن الباقين الذين قاموا بتسليم أنفسهم .

ودخل الكفّار إلى كنيسة أيا صوفيا Sancta Sophia ، ذلك المزار الرائع للحكمة المقدسة الذى يتفوق على هيكل سليمان [١]. ولم يظهروا احترامًا للمذابح ولا للأيقونات والصور المقدسة، بل قاموا بتحطيمها . كما أخذوا فى اقتلاع عيون تماثيل القديسين، وقاموا بتمزيق وبعثرة النخائر المقدسة أيضًا . وامتدت أياديهم الدنسة إلى أوانى الرّب المقدسة، وقاموا بحشو أكياسهم وجراب أسرجة خيولهم بالذهب والفضة التى حصلوا عليها من الصور والأوانى المقدسة.

١- هو سليمان ابن الملك داود الذى خلفه على عرش بنى اسرائيل ، استمر حكمه لمدة أربعين سنة ، يقال أنه أقام هيكل سليمان ، على مثال الرسم الذى أعطاه الله لموسى ، وكان أعظم أعماله على الإطلاق ، عن ذلك انظر: بطرس عبد الملك، جون الكسندر طومسون: ابراهيم مطر، قاموس الكتاب المقدس، ص٤٨١-٤٨٢ .

وتصاعدت صرخاتهم نحو عنان السماء . وتعرض كل شخص رجلاً كان أم امرأة ، وكافة المعادن الثمينة، وجميع أنواع الممتلكات في المدينة لعمليات السلب والنهب . كما استخدموا الفئوس في تحطيم صناديق حفظ النفائس . كذلك قاموا بحفر الأرض بحثًا عن الأشياء ذات القيمة والتي كانوا يعثرون عليها بشكل مستمر، سواء كانت جديدة أم قديمة ، لأنه ليست هناك مدينة في مثل هذا العمر تحتفظ بكل هذه الثروة . فكل ما كان مخبأً في الأرض، ظهر الآن في أيديهم. أواه أيها البيزنطيون نحن نشفق الآن على بؤسكم ، لأن حالة الفقر والبؤس التي تظاهرتم بها، قد ظهرت الآن جليّة، ثروتكم التي رفضتم أن تقدمونها من أجل وطنكم !

بعد استباحة المدينة لثلاثة أيام، قام الأتراك بتركها لسلطانهم، وتم جمع كافة الأسلاب والغنائم ذات القيمة إلى معسكرهم . وتم أسر حوالي ستين ألف مسيحي[١]. وطرح كافة الصلبان التي كانت تزين أسطح وجدران الكنائس أيضًا ، وتم وطئها بالأقدام.

وتم اغتصاب النسوة، وافتضت بكارات العذارى. وأجبر الشبان على إتيان الفاحشة، وتم ترك الراهبات في خلف الصفوف، وكان عددهن كبيرًا، ومن بينهم من أصبن بالخزي والعار بسبب ممارسة الفسوق .

يا إلهي .. كيف أظهرت غضبك وقسوتك علينا الآن، وتحوّلت عنا برحمتك ! ماذا يمكنني أن أقول ؟ أيجدر بي أن التزم الصمت . أم أتحدث عن الإهانات التي لحقت بمخلّصنا وبصور القديسين؟ اغفر لي ، واعف عني يا إلهي، إذا ما تحدثت عن تلك الجريمة النكراء. ماذا يمكن أن يصيب المسيحيين من اضطراب إذا ما تأخروا عن الانتقام والثأر لما أصاب ربهم المسيح! فلقد قاموا (الأتراك) برمي الصور المقدسة على الأرض. ولم يقوموا فقط بإشباع رغبتهم في السكر ، لكنهم أرضوا أيضًا شبقهم الجنسي . وقاموا بعد ذلك باستعراض صليب يمثل المسيح مصلوبًا Crucifix، في موكب ساخر وهازئ عبر معسكرهم . وكانوا يقرعون الطبول قبيل القيام بذلك ، معيدين عملية صلب المسيح ، كما قاموا بسبّه والبصق عليه، واستمطاره اللعنات . كما قاموا بوضع غطاء الرأس التركي، الذي كانوا يدعونه الزرقولا Zarchula[٢] فوق رأسه ، ساخرين وهازئين وهم يصيحون «هذا هو رب المسيحيين».

١- هذه مبالغة كبرى من ليونارد الخيوسي ، لاتتفق مع ما تذكره المصادر التاريخية المعاصرة ، ولا مع تعداد سكان القسطنطينية آنذاك.

٢- الزرقولا Zarcula أو Zarchula هي غطاء رأس تركي، يبدو أنه كان تقليداً لغطاء الرأس التتري=

أواه يا صبر الرب ! لابد أنك غاضب أيها المسيح المقدّس لهذه القسوة والمعاناة التى لاتستحقها ، وكأنك ظلمت ، وأوذيت من أجلنا مرة ثانية!.

الآن أصبح النصر حليفهم . واندمج الأتراك فى حالات الصخب والمرح. ثم حدث أن طلب السلطان فى حالة النشوة بسكره(١)، بأن يتم خلط بعض الدماء البشرية بعصير العنب. وأمر باستدعاء لوكاس نوتاراس والنبلاء البيزنطيين الآخرين ، مهاجمًا إيّاهم لأنهم لم يقنعوا الامبراطور بالتماس السلام، وتسليم المدينة، ووجد نوتاراس الذى أراد أن يكسب ود محمد (الفاتح) ، أنه من الأفضل أن يلقى باللوم على مواطنى بيرا (الجنوية) وعلى البنادقة ، الذين -بفضل توفيرهم للسلاح والجنود والنصائح الهامة- تسبّبوا فى صلابة موقف الإمبراطور وإعلانه المقاومة . وحاول هذا البائس (نوتاراس) الذى كان يتلهف دائمًا إلى المجد عن طريق

= المسمى سراقوج Saraguj وهو عبارة عن قلنسوة أو قباء تترى Qaba Tatari . عن ذلك انظر:

ماير . ل . أ، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، مراجعة وتقديم عبد الرحمن فهمي، القاهرة، د.ت ، ص٤٢ . ٥٦ ، ٨٠

وانظر كذلك : Dozy, R, Supplement Aux Dictionnaire Arabes, Tom. I Beyrouth, 1981 . p. 644 .

الذى يذكر أن السراقوج هى غطاء رأس تترى.

انظر أيضًا : دوكاس ، الذى تحدث عن ارتداء الاتراك لغطاء الرأس المعروف بالزرقولا Zerkula

Doukas, " Historia Turco- Byzantium " op. cit, p. 135 .

١- لم يرد لنا فى المصادر العثمانية أن السلطان محمد الفاتح كان يشرب الخمر. ويبدو أن ليوناردو يجعل السلطان المسلم، يسكر فرحًا بالنصر كما يفعل الأباطرة والملوك المسيحيين، وللدلالة على محاولة التشويه التى يقوم بها الأب ليونارد لصورة السلطان الفاتح، يكفى أن نقرأ بعد ذلك أنه أمر بأن تخلط الدماء البشرية بعصير العنب لكى يقوم بشربها !!؟ . وهى محاولة لجعل السلطان المسلم محمد الفاتح يبدو فى صورة مصاص دماء، بربرى ، متوحش . ويعتبر دوكاس هو المؤرخ البيزنطى الذى اتفق مع ليونارد الخيوسى فى وصفه لمحمد الفاتح بأنه كان يسكر ويشرب الخمر احتفالاً باقتحام القسطنطينية انظر، ما يلى ، ص٢٩٠ . أما المؤرخ المعاصر نيقولو باربارو ، فقد ذكر أن الأتراك – قبيل الهجوم النهائى على القسطنطينية – قد أخذوا فى الشراب والسكر طبقًا لعادتهم. انظر : المصدر السابق، ص١٦٦ .

أكاذيبه ومحاولاته بذر الشقاق الديني[١]، أن يهرب بنفس الوسيلة، فقام بتوجيه اتهاماته إلى خليل باشا، أكثر الوزراء الأتراك حكمة وأعلاهم شأنًا. فقال إن خليل كان يميل إلى البيزنطيين بشكل كبير، ودائمًا ما قام بارسال الرسائل إلى الإمبراطور، ليقنعه بعدم الاستسلام ، وحثّه على اتخاذ موقف متشدد وصلب. ولكي يثبت (نوتاراس) ذلك، قام بتقديم رسائل (خليل) التي كان يحتفظ بها إلى السلطان العثماني.

وهكذا ثار محمد الفاتح ثورة عارمة، وبدا لأول وهلة أنه إذا لم يقم الرب وحده بكبح جماح غضبه ، ومنعه من الإتيان بأي إجراء، فإن مدينة بيرا التي كانت قد سقطت للتو في قبضته سوف تدمر وتهدم. وكان سيأمر بإعمال السيف في أهلها. ثم أمر بسجن خليل باشا وتجريده من كامل ثروته وممتلكاته ، وقام بإصدار الأمر بترحيله إلى أدرنة، وقتله هناك. وبكى الجيش التركي كله على موته بشكل مؤثر [٢].

أما نوتاراس، فلم يشفع له حقده في الإفلات من العقاب، فتم قتل ابنيه الكبريان عند بداية المعركة، أما الثالث الذي لم يكن قد وصل بعد إلى مرتبة الرجولة ، فقد تم إحضاره للتسرية عن السلطان. وتم قتله على مرأى من أبيه. وفيما بعد تم قتله (نوتاراس) مع بعض نبلائه[٣].

كما أمر محمد (الفاتح) بقتل القنصل بندقي وابنه، مع بعض النبلاء البنادقة ، وكذلك أمر بقتل القنصل القطالاني واثنين من أبنائه[٤]، كما أخذ كاتارين كونتاريني، ذلك السيد المهذب

١- من الواضح أن ليونارد يتحامل في هجومه على القائد العسكري الأعلى ، لوكاس نوتاراس، وذلك لأن الأخير كان من أبرز دعاة الوقوف في وجه الاتحاد الكنسي، ورفض أن تتبع كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية . كنيسة روما الكاثوليكية . وهو ما دفع ليونارد الخيوسي إلى وصفه بأنه يساعد على وقوع الشقاق الديني. وسبق أن عبر ليونارد في تقريره عن عدم ارتياحه له، انظر ما سبق، ص١٣٩ .

٢- يزعم ليونارد هنا- عن غير حق- أن الجيش العثماني قد حزن بشدة على موت الوزير خليل، صديق البيزنطيين، الذي كان يحاول إثناء السلطان الفاتح عن فتح القسطنطينية . وهذا الزعم لاتؤكده باقي المصادر التاريخية المعاصرة.

٣- عن إصدار السلطان الفاتح أوامره بقتل القائد العسكري الأعلى لوكاس نوتاراس، وأبنائه ، انظر خالكوكونديلاس، ص٢٠٠-٢٠١ ، دوكاس، ص٢٩٠-٢٩٢ .

٤- أمر السلطان الفاتح بضرب عنق كل من قنصل البنادقة جيروليمو مينوتو، وقنصل القطلان بالقسطنطينية بيري جوليا Péré Julia الذي كان على رأس الجالية القطالونية في القسطنطينية وساعد =

والكريم، وستة من النبلاء البنادقة الآخرين كرهائن، مهدداً بقتلهم إذا لم يقوموا بفداء أنفسهم بسبعة آلاف قطعة من الذهب [١].

وعندما انتهت حفلات السكر، تم تسريح الجيش التركى، حيث عاد أفراده إلى بلدانهم وقراهم، آخذين معهم الأسرى البيزنطيين ، الذين لم تلتق عيون العديد منهم بمدينتهم بعد ذلك . أواه أيها البيزنطيون البائسون والتافهون، لقد حرمتم اللاتين من التواصل مع مذهبكم ومن التعبد فى مذابح كنائسكم ، وها أنتم الآن تتنازلون عن نفس المذابح إلى الكفار والمدنسين. لقد احتقرتم وازدريتم مسألة الاتحاد (الكنسى) ، عبر إيمان واحد، والآن، وكعقاب على آثامكم، لقد تفرقتم، وتم تشتيتكم، ولن تستطيعوا أن تتوحدوا مرة أخرى [٢].

أرجو أن تفكر فى هذا، أيها الأب الأكثر قداسة ، نائب المسيح على الأرض ، المهموم بالثأر والقصاص للأذى والضرر الذى أصاب ربنا وعباده المؤمنين. دع رحمة السماء تحركك لتأخذك الشفقة برعاياك المسيحيين . إنك تعرف الظروف والملابسات ، ويمكنك أن تفعل كل شئ، وعندما تومئ لكل أمير مسيحى ، سوف يكون مستعداً للثأر لما أصاب رفاقه المسيحيين . وإذا لم يقم بفعل هذا ، فيجب أن تعلم أن تعالى وغطرسة السلطان سوف تصل إلى ذروتها ، لأنه

= فى الدفاع عنها . انظر : لوميللينو ، ص٣٤٢ . Runciman , Op. cit , p. 84 .

وعن الدور الذى لعبه القطلان فى الإمبراطورية البيزنطية قبل ذلك . انظر:

Setton , K. " The Catalans in Greece 1311-1380 " , in Setton & Hazard (eds.), A History of the Crusades , vol , 3 , Wisconsin, 1975 , pp. 167-224 ; Idem, " The Catalans and Florentines in Greece 1380-1462" in , Setton & Hazard (eds.) , vol.3 pp. 225-277 .

وانظر أيضًا : أحمد كامل عبد المقصود ، الجماعات القطالونية فى الإمبراطورية البيزنطية ١٣٠٢-١٣٨٨م. رسالة ماجستير لم تنشر ، كلية الآداب، جامعة المنصورة، ١٩٩٦م.

١- قام العثمانيون بأسر ٢٩ نبيلاً بندقيًا ، كان من بينهم كاتارين كونتاريني، ثم قاموا بإطلاق سراحهم خلال عام واحد، بعد دفع فدية لكل منهم تراوحت ما بين ثمانمائة إلى ألفى دوكات بندقى. عن ذلك انظر: باربارو ، المصدر السابق، ص١٨٤-١٨٥ .

٢- يحاول ليوناردو الخيوسى هنا أن يعزو سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين إلى رفض شعب القسطنطينية فكرة الاتحاد الكنسى مع الكاثوليك .

لايستحى أن يتباهى ويجاهر بنيته فى النفاذ إلى البحر الأدرى ، من أجل الوصول والاستيلاء على مدينة روما Rome (١).

مرة أخرى ، يجب أن تتحرك سيدى الأعلى قداسة، بواسطة إيمانك ، وكرسى القديس بطرس، وبواسطة رداء المسيح الذى لايزال يحتفظ بآثار جروحه ، وبالاسفنجة ، والسيف الذى فُقد، وبالذخائر المقدسة التى جرى تمزيقها وإتلافها وبالمزارات المقدسة التى دمّرت ، وبكنائس الرب التى جرى تدنيسها بالقذارة .

وحدثت كارثة أخرى بعد سقوط القسطنطينية. فعندما رأى سكان بيرا أن المدينة قد سقطت ، قاموا بعدة محاولات مستميتة من أجل الهرب. وكان من بينهم أولئك الذين لم يستطيعوا الرحيل بسفنهم قبل وصول سفن الأسطول التركى إلى تلك المنطقة من الميناء ، حيث تم أسرهم . وأُخذت الأمهات ، وتركوا أطفالهن ، أو العكس ، حسب ظروف كل منهم. وألقى الكثيرون بأنفسهم فى المياه، حيث غرقوا . وتبعثرت المجوهرات والأحجار الكريمة، وقاموا بسرقتها من بعضهم البعض دون رحمة أو شفقة . إنه لواقعى بالفعل ذلك القول المأثور «إن الهارب الشرير يظن أن لا أحد يقوم بمطاردته».

ماذا يمكننى أن أقول لاحقًا : يا بودستا بيرا، لكى أصف مقدار الشر والحماقة لدى سكان مدينتكم ؟ إن السفارة المذعورة ، المصابة بالرعب والهلع ، التى أرسلت من بيرا إلى السلطان لتقدم له مفاتيح بدايات المدينة، لقد تسلم (السلطان) دليل ضعفكم ونقص قوتكم فى سعادة ، واعتبركم حلفاء له. أو بالأحرى عبيد له . وتم تعيين حاكم تركى، ومصادرة ممتلكات الذين نجحوا فى الهرب لصالحه ، كما أصدر أوامره بالإطاحة بأسوار وأبراج المدينة.

وأطاع سكان غلطة رغباته ، وقاموا بإخضاع أنفسهم لأوامره من أجل سلامتهم الشخصية وتناسوا التعليمات التى وصلتهم من جنوا، كذلك سمحوا بأن يتم هدم البرج

١- لم تكن هذه هى المرة الأولى التى تتحدث فيها أحد المصادر التاريخية المعاصرة عن نيّة السلطان محمد الفاتح فى مهاجمة روما معقل المسيحية الكاثوليكية وإسقاطها، مثلما فعل مع القسطنطينية معقل المسيحية الأرثوذكسية الأوربية . فقد سبق أن ذكر جياكومو تيدالدى ذلك فى روايته عن اجتياح السلطان الفاتح للقسطنطينية ، انظر : تيدالدى، ص١١٩-١٢٠ .

تمامًا ذلك البرج الذى كان قد اتخذ شهرته ومجده من صليب المسيح الموجود فى أعلى منطقة به (١).

وهكذا فإن الذين عاشوا أحرارًا من قبل ، وفى سلام، أصبحوا الآن عبيدًا نادمين على خطاياهم وآثامهم. لا أحد على الإطلاق يمكنه أن يخفف من وطأة ما حدث ، إلاّ بوساطتك ، باعتبارك البابا الذى ندين له بالولاء، وبالشجاعة والثقة بالنفس التى سيلهمك الرب إياهما من أجل الانتقام ، إننى أتقدم إليك بهذا المطلب، وأحضر متوسلاً ومتضرعًا أمامكم.

جرى تقديمه فى جزيرة خيوس ، فى ١٦ أغسطس ١٤٥٣م.

١- كان الجنوية فى بيرا قد مدّوا يد العون للسلطان الفاتح إبان حصار القسطنطينية، وهو الأمر الذى جعله يرسل لهم قائده زاجان باشا ليأمرهم بعدم الهرب من منطقة بيرا أو غلطة ، لأن السلطان سوف يحفظ لهم جميلهم، وسوف يجدد معهم المعاهدات التى تحتفظ لهم بامتيازاتهم التجارية- التى كانت المحرك الأول لموقفهم تجاه العثمانيين- ولمعرفة ما دار داخل أسوار غلطة ما بين الجنوية والعثمانيين، انظر رواية أنجيلو لوميللينو (قنصل الجالية الجنوية فى بيرا) ، ص٣٢٧-٣٤٥ .

لاونيكوس خالكوكونديلاس

Laonicus Chalcocondylas

«التاريخ التركى: الكتاب الثامن، ص٢٠١-٢١٤»

قام محمد (الفاتح) ابن مراد بجلب كميات ضخمة من الجصّ من الأراضي الآسيوية، وشرع في بناء قلعة أطلق عليها اسم لايموكوبيا Laemocopia (قاطعة الرقبة) ، على الشاطئ الأوربي للبوسفور وبحر مرمرة . في أضيق نقطة يمكن العبور عليها من قارة آسيا . وقام باستدعاء كافة عمّاله من آسيا وأوربا ، وأمر بتقسيم القلعة إلى عدة أقسام ، عهد بها إلى كبار قادته وضبّاطه . حيث تم الانتهاء من تشييدها بالفعل.

وقام (السلطان الفاتح) ببناء هذه القلعة من أجل توفير الحماية لطريقه عبر قارة آسيا، في حالة ما إذا حضر الغربيون (اللاتين) بسفنهم لاعتراض انتقاله إلى آسيا ، وكذلك توفير الحماية إذا ما حدثت ثورة ضده في الأراضي الآسيوية. كما أنه قام ببنائها أيضًا لمساعدته على حصار القسطنطينية[١] .

تم تشييد ثلاثة أبراج بالقلعة ، أكثر ضخامة من أية أبراج معروفة لنا آنذاك. كان برجين منهما يقعان بطول ساحل البوسفور ، كأساس للدفاع ضد أي هجوم يقع عن طريق البحر، وتميزت القلعة بضخامتها ، وتمت تغطية أسقف الأبراج بالرصاص، وبلغ سمك جدرانها اثنين وعشرين قدمًا ، بينما كانت الأبراج أكثر سمكًا ومناعة ، إذ بلغ سمك جدرانها ثلاثين قدمًا .

وبعد ثلاثة أشهر، حين تم الانتهاء من تشييد القلعة بشكل تام ، قام (محمد الفاتح) بغزو الأراضي التابعة للقسطنطينية . وأعلن الحرب على المدينة .

١- لعبت القلعة المعروفة باسم الروملي حصار (قلعة الروم) دورًا هامًا للغاية في حصار القسطنطينية، وفي سيطرة العثمانيين على مضيق البوسفور. لدرجة أن المصادر المعاصرة لبنائها تطلق عليها اسم قاطعة الرقبة Cut of throat - Laemocopia . عن الأهمية الاستراتيجية للقلعة ، وكيفية بنائها انظر:

Tursun Bey , Op. cit, pp. 40-45 ; Asik Posa, Op. cit, p. 137 .

دوكاس ، ص٢٢٤-٢٢٥ ؛ ريشيريو ، ص٣١١-٣١٢ . Kritovoulus, Op . cit, pp. 16 , 20 .

وانظر أيضًا ترجمة كاملة لعمل المؤرخ دوكاس Doukas, M. " Historia Turco- Byzantina , " Declina and Fall of Byzantium to Ottoman Turks. Trans . by, Harry J. Magoulias , Detroit , 1975 , p. 196 ' Sphrantzes, Op. cit, p. 69 ; Babinger, Op. cit, p. 82 ; Runciman , Op. cit, p. 56 ; Schlumberger , Op. cit, pp. 24-25 ; kielty , Op. cit, pp. 5, 77 ; Nicol, " Last Centuries". pp. 396-97 .

قام (الفاتح) بإرسال قائده طرخان Turahan فى الصيف التالى إلى البلوبونيز لمحاربة إخوة الإمبراطور البيزنطى [١]. فقام بمباغتة القوات الموجودة فى إقليم تساليا Thessaly[٢] والأراضى الأوربية فى منطقة فيراى Pherae[٣] تحت قيادة قائد القوات الأوربية . وقام أيضاً، بصحبة أبنائه، بغزو البلوبونيز ، ومحاربة حكام مدن تساليا ومقدونيا Macedonia [٤]. ووصل (طرخان) إبان حملته العسكرية إلى المناطق الداخلية للبلوبونيز، وهى المسماه أركاديا Arcadia [٥] قديماً .

وبعد أن قام بهجوم عبر تيجيا Tegea [٦] ومانتينيا Mantinea [٧]، توجه إلى المنطقة المجاورة لاثيوم Ithome، وميسينيا Messinea[٨]. ولعدة أيام أخذ فى عمليات سلب قطعان الماشية هناك ، تم قام بإخضاع نيوبوليشن . Neopolichne وبعد ذلك فرض حصاراً حول سيديرو بوليش Sideropolochne، لكنه لم يستطع دخولها. ولهذا بدأ فى سحب قواته، متّخذاً طريق العودة .

وفى تلك الأثناء ، كان قد تم أسر ابنه أحمد Achmat بواسطة أسن Asen أخو زوجة حاكم البلوبونيز ، حيث سقط فى كمين بالقرب من ميسينا ، فى مكان كان لابد له من اجتيازه

١- كان طرخان أحد أهم قادة السلطان محمد الفاتح ، قاد حملة عسكرية إلى المورة فى العام ١٤٥٢م من أجل محاربة توماس وديمتريوس شقيقى الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر، انظر:
Runciman , Op. cit, p. 74 ; Babinger, Op. cit, p. 80 .

٢- هو إقليم يقع فى وسط اليونان، جنوبى مقدونيا ، وشمالى هيلاس ، انظر O.D.B, vol .3 , p. 2072

٣- تسمى أيضاً Pherai أو Bera ، مدينة فى غرب إقليم تساليا : تأسست قبل١١٥٢م بواسطة اسحق كومنينوس، تحولت كنيستها إلى مسجد عام ١٤٢٣م بواسطة العثمانيين انظر . O.D.B, vol . I, p. 282

٤- إقليم يقع بين تراسى وابيروس . احتل بواسطة السلاف فى أوائل القرن السابع الميلادى. اشتهرت باراضيها الزراعية فى نهاية الإمبراطورية البيزنطية. انظر : O.D.B, vol , 2 , pp. 1261-62.

٥- هى منطقة جبلية تقع وسط إقليم البلوبونيز ، انظر: O.D.B, vol . I, p. 172 .

٦- مدينة قديمة جنوب شرقى أركاديا جنوبى اليونان ، انظر : W.N.G, D, p. 1193 .

٧- قرية قديمة شرق أركاريا شرقى البلوبونيز ، انظر: W.N.G, D, p. 726 .

٨- ايثوم وميسينا مناطق باليونان جنوب غربى لبلوبونيز ، انظر: W.N.G.D, p. 753 .

ى رحلة العودة . وتم أخذه إلى حاكم البلوبونيز فى مدينة أسبرطه Sparta (١)، حيث وضع حت الحراسة المشددة .

وفى بداية ربيع العام التالى (١٤٥٣م)، بدأ محمد ابن مراد هجومه على القسطنطينية ، لك الهجوم الذى كان قد انتواه منذ وقف سابق . حالما انتهى من تشييد قلعة لايمو كوبيا على حر مرمرة، وبينما كانت تلك المنطقة ، تعانى من برد الشتاء القارس ، أصدر أوامره إلى كل لأماكن الخاضعة له فى آسيا وأوربا بضرورة تشييد السفن بالقرب من الساحل . وكان لديه سفن لحمل السلع والبضائع ، وسفن قتالية مستعدة للدخول فى المعارك البحرية كما تمكن يضاً من صنع مدفع يعد الأضخم بالمقارنة مع أية مدفع آخر.

عندما شعر (محمد الفاتح) بأن الوقت قد حان لبدء هجومه ، أرسل أولاً إلى ساروجا Saruja (٢)، قائد القوات العسكرية فى أوربا، لكى يقوم بنقل المدفع مع قواته ، نظراً لتميز لمدفع بثقله وضخامته . وكذلك نقل باقى آلات الحصار نحو القسطنطينية حيث تم سحب جرّ ذلك المدفع الأضخم فى حجمه ، بواسطة سبعين زوجًا من الثيران، وحوالى الفين من لرجال.

وعندما اقتربت قوات ساروجا من القسطنطينية ، قامت بأسر فلاحى الأراضى المجاورة لمدينة، وجلبهم إلى معسكرهم ، حيث بدأوا فى تجويعهم، الأمر الذى أدى إلى وفاة الفلاحين الأسرى، وبعد ذلك تقدم ساروجا ليستولى على كافة الأراضى الزراعية المحيطة بالمدينة .

بعد ذلك بوقت قصير وصل السلطان بنفسه ، واتخذت قواته موقعها من البحر إلى البحر (من البوسفور إلى القرن الذهبى) . وكان قد جرى تنظيم قواته الآسيوية لتتخذ مواقعها عن يمينه، وإلى نحو ما كانت البوابة المعروفة بالبوابة الذهبية تقع على يساره ، بينما كانت تعسكر قواته الأوربية عند البوابة المعروفة بالبوابة الخشبية .

١- مدينة تقع جنوب شرقى البلوبونيز ، انظر .: W.N.G.D, p. 1147

٢- كان ساروجا أحد أهم وزراء السلطان العثمانى مراد الثانى (١٤٢١-١٤٥١م) ، واستمر فيما بعد فى خدمة السلطان محمد الثانى بن مراد الثانى، كان السلطان مراد قد أرسله فى العام ١٤٥٠م لإحضار عروس محمد الفاتح ، ست خاتون، انظر دوكاس ، ص٢٠٨ .

واتخذ السلطان موقعه فى منتصف قواته مع الإنكشارية ، وحرسه الخاص . واحتل زاجان، حمو السلطان ، موقعه على الجانب المقابل أعلى مدينة غلطه . وذكر بأنه فى ذلك الوقت كان هناك حوالى أربعمائة ألف رجل فى جيشه، بينما كان فى معسكره ضعف ذلك العدد من الحيوانات التى عملت فى حمل المعدات الثقيلة ، وكان هؤلاء دائمًا ما يوجدون بأعداد ضخمة فى المعسكرات ، من أجل حمل الإمدادات والطعام إلى المقاتلين وإلى خيولهم .

ولم يحصل أولئك الرجال على إمداداتهم الضرورية فقط، إبان القيام بالعمليات العسكرية، بل قاموا بالاستيلاء على أعداد كبيرة من الجمال والبغال من أجل تلبية رغباتهم ، حيث كانوا يستخدمونها كمصدر للترفيه ، فكان كل واحد منهم شغوفًا لأن يظهر أكثر الخيول والبغال والجمال مهارة وبراعة .

بعد وقت قصير من وصول السلطان ، ظهر أسطوله المكوّن من ثلاثين سفينة ثلاثية المجاديف ، وحوالى مائتى سفينة أصغر حجمًا . وعندما شاهد البيزنطيون سفن الأسطول تتجه نحوهم، قاموا بمد السلسلة الحديدية عبر المياه من الجانب الآخر من المدينة إلى سور القسطنطينية ، بالقرب من المكان المعروف بالاكروبوليس Acropolis . كما قاموا باستدعاء سفنهم للحراسة أمام السلسلة ، تلك السفن التى كانت قد حضرت من أجل توفير الإمدادات والتعزيزات العسكرية ، وكذلك من أجل ممارسة التجارة .

وأمل السكان بهذه الطريقة فى منع أسطول السلطان من النفاذ إلى ميناء القسطنطينية ، الذى امتد نحو الداخل لمسافة ثمانين ستاديا Stadia ، ولمسافة مائة وخمسين ستاديا بعيدًا عن الساحل .

لم تكن الأسوار بطول ذلك الجزء قوية بما فيه الكفاية ، ولم تكن هناك تيارات مائية سريعة تساهم فى إعاقة السفن المبحرة بطول الميناء ، وكان هناك سورين باتجاه الشاطئ: يتصف الأول باتساعه الكبير، لكنه ليس منيعًا بشكل تام. والسور الثانى الذى تم بناؤه خارج السور الأول، ويطل على القناة التى تم حفرها ، وكان مبنيًا من الأحجار ، ويبلغ عرضه عرض البلترون Plethron *.

---

* كلا من البلثرون "Plethron" والستاد "Stade" يبدو أنها كانت تمثل نصف طول تلك الوحدات فى العصور القديمة، حيث كانت تساوى تقريبًا ١٠٠ قدم والفورلنج Furlong (وحدة قياس تساوى ٢٢٠ ياردة أو ثمن الميل) (الترجمة الإنجليزية) .

وقرر الإمبراطور بعد عدّة مداولات مع البيزنطيين، أن يقوم بمواجهة الهجمات الواقعة على السور الخارجي ، المطلّ على القناة ، متّبعًا التكتكيكات العسكرية التى إتبعها أسلافه ضد الهجمات التى قام بها السلطان مراد ، عندما قام بحصار المدينة .

وفى تلك الأثناء أمر السلطان بسرعة نصب آلات الحصار، والمعدات الأخرى في أماكن متعددة حول المدينة. واتخذ قراره بضرورة هدم الأسوار عن طريق القذائف التى كان اثنين من أكبر مدافعه يقومان بإطلاقها، كان أحد هذه المدافع قد اتخذ موقعه فى مواجهة قصر الإمبراطور ، بينما كان موقع الآخر فى مواجهة بوابة القديس رومانوس ، حيث كان محمد نفسه قد اتخذ موقعه. وكان هناك أيضًا العديد من المدافع الأصغر حجمًا ، تلقى بقذائفها على البيزنطيين من جميع الأنحاء.

كان كل مدفع من المدفعين الأكبر حجمًا ، يلقى بقذائف يبلغ وزنها أكثر من تالنتين Talents (أى أكثر من مائة رطل) . وكانت هذه الأحجار التى يجرى قذفها سوداء اللون، وتم جلبها إلى معسكر السلطان، من منطقة البحر الأسود خصيصًا لهذا الغرض .

كان صانع مدفع السلطان يدعى أوربان Orban، الداشى المولد Dacian [1]، وكان يعمل فى السابق فى معسكر البيزنطيين. لكنه رحل عنهم، بعد أن زهد العيش معهم أكثر من ذلك. وقدّم نفسه للعمل مع السلطان، الذى منحه مبلغًا كبيرًا من المال، وبدأ فى صنع ذلك المدفع الضخم للسلطان[2].

١- انظر، نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١١٨ هامش (١) . ويذكر أحد المؤرخين المعاصرين أن المهندس أربان كان من ألمانيا ، انظر: جورجى دولفين، ص٣٢٨ .

٢- وصف المؤرخ البيزنطى المعاصر دوكاس تجربة ذلك المدفع الضخم بأنها رهيبة وفظيعة وإن صنعه استغرق ثلاثة أشهر . انظر ما يلى، ص٢٢٩-٢٣٠ .

وللدلالة على الآثار المدمرة التى ألحقها ذلك المدفع بأسوار القسطنطينية ، وصفه أحد الباحثين المحدثين بأنه يحدث دمارًا كالذى تحدثه القنبلة الذرية، انظر : Kielty . Op. cit. p. 125 .

عن ذلك المدفع انظر أيضًا المصادر التالية:

تيدالدى، ص ١٠٦-١٠٧: ليونارد الخيوسى، ص١٣٣ .

وأخذت المدافع الأخري فى إطلاق القذائف بشكل مستمر ، وبنفس الطريقة. ففى البداية كان المدفعان الأصغر حجمًا الموجودان بجوار المدفع الكبير يطلقان قذائفهما التى تزن الواحدة منها ثلاثة تالنت ، حيث قامت بتهديم الجزء الأكبر من السور . وكانت القذيفة كأنها محملة بقوة شيطانية وشريرة لاتقاوم ، ومندفعة ومتهورة . مما جعلها تتسبب فى خسائر يتعذر إصلاحها ، وقيل أن دوى انفجارها كان مرتفعًا للغاية، إذ تهتز الأرض لمسافة أربعين ستاديا من حولها .

تم توجيه القذائف إلى كلاّ السورين الخارجي والداخلي . وكان المدفع الأكبر يطلق قذائفه سبع مرات فى اليوم، بالإضافة إلى قذيفة أخرى فى آخر الليل. كاشارة على قدوم الفجر، وبزوغ النهار. حيث يستأنف القذف من جديد. وهكذا ، ففى بدايات الحصار، كان البيزنطيون يدافعون بقوة علي الرغم من إصابتهم بالذعر والهلع نتيجة أسلوب الهجوم الرهيب.

قام الانكشارية وباقى الجيش العثمانى، وهم يرتدون أغطية الرأس البيضاء والحمراء[١]، بإعداد الآلات والمعدات التى استخدمت للحماية ، والاختباء تحتها، وقاموا بحملها من معسكرهم ، إلى مواجهة جدران المدينة والقناة. ثم قاموا بحفر خنادق خارج القناة، وجعلوا فتحاتها بارزة على وجه الأرض. أمكنهم من خلالها إطلاق القذائف والسهام على البيزنطيين، دون أن يقوموا بكشف أنفسهم، وبدون أن يتعرضوا لأية خطورة ، لأنه كان من المستحيل مهاجمتهم .

وأمر السلطان أيضًا بحفر أنفاق تحت الأرض حتى تصل إلى ما تحت الأسوار. وقام الحفارون بوضع الأساس لأربعة أبراج بتجهيزاتها ، بحيث تقف فى الهواء على دعامات بقصد إطلاق النيران منها، لكن هذه المحاولات لم تنجح ، لأن البيزنطيين عرفوا أن العدوّ قام بحفر

١- مثّل الانكشارية مشاة الجيش النظامى العثمانى، والطائفة الممتازة فى الجيش، تأسست تلك الفرقة فى القرن الرابع عشر الميلادى، كانوا يتميزن بغطاء الرأس الأبيض، انظر : باربارو ، المصدر السابق، ص١٦٨ : Tursun , Bey , Op. cit; pp. 48-49 , 57.

ومن الواضح أن خالكوكونديلاس يجمع هنا بينهم وبين طائفة العزبان الذين ارتدوا أغطية رأس حمراء. كما قام المؤرخ العثمانى المعاصر طورسون بك بوصف العزبان Azabs بأنهم جنود محمد الفاتح الذين ارتدوا أغطية رأس حمراء ، انظر: Op. cit, pp. 49-50 .

الأنفاق فبدأوا من جانبهم أيضًا عمليات الحفر، حتى وصلوا إلى المكان الذى يعمل فيه حفارو السلطان ؛ وقاموا بمهاجمتهم وردّهم على أعقابهم (١).

وقام الأتراك بعد ذلك بتشييد برج خشبى هائل (٢)، وصنع أعداد كبيرة من السلالم الخشبية التى تقود إلى قمة البرج، وكانوا يأملون فى الوصول إلى الأسوار عبر تلك السلالم.

كانت تلك هى التجهيزات البرية التى أعدها السلطان من أجل مهاجمة المدينة ، ونظرًا لأنه لم يتمكن من النفاذ إلى الميناء ، وبالتالى مهاجمة المدينة برًا وبحرًا ، فقد اكتشف خطة لسحب وجرّ السفن خلف معسكر زاجان باشا، ثم إنزالها إلى أسفل حيث ساحل الميناء. وبهذه الطريقة تم سحب جزء من أسطوله عبر التلال، بأشرعتها المرفوعة ، ومجاديفها التى تتحرك أيضًا، حتى تمت عملية انزلاقها إلى ساحل الميناء (٣).

١- يبدو هنا أنه قد حدث خلط وتشويش لدى المؤرخ البيزنطى المعاصر خالكوكونديلاس ، إذ أن العثمانيين لم يتّبعوا أسلوب حفر الأنفاق تحت أسوار القسطنطينية إلا فى الأيام الأخيرة قبل الهجوم النهائى على المدينة . وهكذا فإن المؤرخ الطبيب نيقولو باربارو يخبرنا بأن أول الأنفاق العثمانية جرى اكتشافه يوم السادس عشر من مايو ١٤٥٣م. انظر. المصدر السابق، ص١٥٠-١٥١ . عن الانفاق وتصدى البيزنطيين لمحاولات العثمانيين النفاذ منها إلى داخل القسطنطينية. انظر Tursun Bey , Op. cit, pp. 47-51; ليونارد الخيوسي، ص ١٣٥ .

Schlumberger, Op. cit, pp. 203-204 ; Kielty , Op. cit, pp. 106-107 ; Runciman, Op. cit, pp. 118-119 .

٢- قام العثمانيون بتشييد هذا البرج الخشبى الكبير فى ليلة الثامن عشر من مايو، حسب ما ذكره باربارو ، انظر ، المصدر السابق، ص١٥٣-١٥٤ ، وعن ذلك البرج انظر المصادر التالية: تيدالدى ، ص الذى يذكر أن زاجان باشا هو الذي أمر بتشييد ذلك البرج الخشبى الضخم؛ ليونارد الخيوسى ، ص الذى ذكر أنه تمت تغطية الجدران الخشبية لهذا البرج بجلود الثيران لحمايته .

٣- هذا دليل آخر على مدى الخلط الذى اعترى رواية خالكو كونديلاس عن سقوط القسطنطينية إذ أنه ذكر - فى السطور السابقة- اعتماد العثمانيين على حفر الأنفاق بدءًا من ١٦ مايو ثم إشارته لذلك البرج الخشبى الهائل الذى تم الانتهاء منه فى ١٨ مايو . كل ذلك قبل أن يتطرق هنا إلى الخطة العبقرية التى أمر بها محمد الفاتح ، وهى نقل السفن العثمانية - بطريق البر- من مضيق البوسفور ، حتى إنزالها فى نهاية خليج القرن الذهبى . تلك العملية التى حدثت ليلة ٢٢ أبريل ١٤٥٣م. =

وهكذا قام السلطان بنقل حوالى سبعين سفينة صغيرة بهذه الطريقة ، تحتوى كل منها على ثلاثين إلى خمسين مجدافًا أصبحت جميعًا جاهزة للإبحار فى الميناء فىَ اليوم التالى مباشرة بينما تمركز رجال المدفعية فى موقع قريب من الساحل ، لصد أية محاولة لمنعهم من إطلاق القذائف.

عندما شاهد البيزنطيون السفن (التركية) فى الميناء، قرروا زيادة الاهتمام بحراسة سفنهم والمحافظة عليها، ومهاجمة السفن التركية وإحراقها إن أمكن ذلك . وشعر الأتراك ببداية الهجوم، فانطلقوا عليهم قذائف مدافعهم، وأغرقوا سفينتين لهم من تلك التى تحمل ثلاثين مجدافًا . وغرق من لم يعرف السباحة من بحارتهم (١)، أما الذين أنقذتهم اجادتهم للسباحة ،

= عن تلك الخطة الناجحة ، انظر: ليونارد الخيوسى، ص١٤١ : دوكاس، ص٢٥٧-٢٥٨ .

Tursun , Bey Op. cit, p. 52 ; Kritovulus , Op. cit, pp. 55-58 .

Runciman, Op. cit, pp. 105-106 ; Babinger, Op. cit, pp. 88-98 .

Nicol, " The last Centuries , p. 404 ; Idem , Byzantium and Venice A study in diplomatic and Cultural relations. Cambridge, 1988 , p. 401 .

وانظر أيضًا صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص٢٨٥ : السيد محمد المتولى، الدولة ، الدولة البيزنطية فى عالم القرن الخامس عشر ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة المنصورة ، ١٩٩٨، ص١٣٩-١٤٠ ، اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، مراجعة حسن الزين، بيروت، د.ت ، ص٤١ حيث يذكر أن محمد الفاتح أمر نقل السفن من المكان المسمى ضوله باغجة حتى المكان المسمى قاسم باشا.

١- قاد الربان البندقى جاكومو كوكو Gacomo Coco هذه المحاولة لإضرام النيران فى السفن العثمانية التى نجح محمد الفاتح فى إدخالها إلى خلية القرن الذهبى . غير أن إخبار الجنوية محمد الفاتح بنوايا البنادقة والبيزنطيين ، جعل العثمانيين يستعدون لهذا الهجوم ، الذى أسفر عن إغراق العديد من السفن المهاجمة، وغرق جاكومو كوكو، والعديد من البنادقة والبيزنطيين انظر : نيقولو باربارو، ص١٣٣ - ١٤١ ، الذى يقرر أن تلك المحاولة جرت يوم ٢٨ أبريل. عن محاولة البنادقة والبيزنطيين إحراق السفن التركية، انظر:

ليونارد الخيوسى، ص ١٤٧-١٤٨ .

Schlumberger, Op. cit, pp. 172-177 ; Kielty , Op. cit, pp. 115-119 ; Pears, Op. cit, pp. 699-700 ; Menzies , Op. cit, p. 85 ; Kinross, L, Op. cit, p. 103 .

صلاح ضبيع ، المرجع السابق ، ص٢٨٨-٢٨٩ .

وكان جاكومو كوكو مواطنًا بندقيًا ، عمل ربانًا للسفينة البندقية القادمة من طرابيزون، ولم يكن مجرد «بحار مغامر من طرابيزون يعرف باسم كوكو» . كما ذكر السيد المتولى ، انظر المرجع السابق ، ص١٤٠ .

فقد واصلوا العوم حتى الشاطئ المقابل، حيث سقطوا فى أسر الأتراك ، الذين اقتادوهم عند الفجر نحو بوابات المدينة ، حيث أعملوا فيهم القتل.

وكان هناك بعض الأسرى الأتراك الذين قام البيزنطيون بتقييدهم بالسلاسل ، فتم سحبهم وجرّهم إلى حيث الشرفات على سطح الحصون، وهناك تم ذبحهم على مرأى من الأعداء. وظللنا ، حتى المساء مهمومين ومشغولين بالنهاية القاسية لأسرانا .

اتخذت السفن التركية التى تم سحبها مواقعها فى الميناء، ولم يستطع أحد منعها من مهاجمة المدينة. وفى تلك الأثناء ، أقام السلطان جسراً عبر الميناء[١] من النقطة المواجهة المسماة كاراماريا Caramaria مستخدماً أزواجًا من البراميل الخشبية ، بعد ربطها بإحكام إلى بعضها البعض. وهكذا استطاعت القوات (التركية) العبور من معسكر زاجان باشا إلى مواجهة المدينة. لتصبح القسطنطينية محاصرة من جميع الجهات .

كان موقف البيزنطيين فى المدينة خطراً ، لأنهم كانوا يدافعون عن مساحة واسعة وعن عدد كبير من الأسوار التى يبلغ طولها تقريبًا مائة واحدى عشرة ستاديا ، حيث تعد (القسطنطينية) أكبر مدينة فى زمننا الحالى. ونظراً لأنه كان يجب على المدافعين عنها أن يمارسوا مهامهم فى عدة مواقع مختلفة ، فلم يكن المحيط الخارجي به حراسة جيدة.

١- عن ذلك الجسر ودوره الهام، وكيفية صناعته، انظر باربارو المصدر السابق، ص١٥٥-١٥٦ ؛ تيدالدى، ص١١٢ ؛ ليونارد الخيوسي، ص ١٤٢ .

ولمعرفة التفاصيل المتعلقة بصناعة هذا الجسر ، انظر : دوكاس ، ص ٢٦٥ ، الذى ذكر أن السلطان الفاتح أمر بإقامة جسر امتد من غلطه إلى مكان يقع بالقرب من بوابة kenegon فتم جمع أكثر من ألف برميل من براميل الخمور الفارغة ، وربطها معًا بالحبال، بحيث يصبح عرضها طول برميلين ، مكونة صفًا واحداً، ثم صف آخر مثل الصف الأول، وبعد ذلك تم ربط الصفين معًا عبر ألواح خشبية تم تثبيتها بالمسامير ، بحيث يوضع لوح خشبى سميك فوق البراميل ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى تكوين جسر خشبى يكفى عرضه لعبور خمسة جنود إلى الضفة الأخرى دون صعوبة تذكر، انظر أيضًا : باربارو المصدر السابق، ص١٥٥-١٥٦ الذى يذكر أنه تم الانتهاء من الجسر يوم ١٨ مايو، وتم الاحتفاظ به ليوم الهجوم النهائى.

وتبدو هنا أيضًا عدم الدقة فى رواية خالكوكونديلاس ، إذ أنه قفز فى حديثه مباشرة من يوم ٢٨ أبريل ، حيث محاولة جاكومو كوكو إحراق السفن التركية ، إلى يوم ١٨ مايو موعد تشييد الأتراك لذلك الجسر.

ولأربعة أيام تالية ، قام المدفع التركى بدكّ الأسوار الخارجية ، فقام بهدم القسم الأكبر منها، بالإضافة إلى أربعة أبراج بكامل تجهيزاتها. كما تسببت قذائف المدفع فى حدوث بعض الأضرار فى الأسوار الداخلية القوية وأبراجها.

وضع البيزنطيون منذ البداية مدافعهم على الأسوار، وأطلقوا القذائف التى تزن الواحدة منها تالنت ونصف فى اتجاه مدافع السلطان، لكنها كانت تتسبب فى حدوث ارتجاج بالأسوار وحدوث تهدمات بها، أكثر مما سببته من خسائر فى معسكر الأعداء .

وكذلك الحال، فإن مدفعهم الأكبر حجماً ، انفجر عندما قام بإطلاق أولى قذائفه . وقام البيزنطيون بتوجيه اللوم أولاً إلى المدفعجى ، موجهين له الاتهام بأنه تلقى رشوة من السلطان، وهمّوا بقتله. ولكن لعدم وجود دليل واضح يستحق بسببه الموت، قاموا بإطلاق سراحه، أما بخصوص الأسوار التى أصابتها مدافع السلطان بالضرر والتهدم ، فقد جرت عمليات ترميمها بسرعة قصوى طوال الليل، بعد أن تم وضع عوائق وحواجز من السلالم والبراميل الخشبية.

وإبّان ذلك، وصلت الأخبار للسلطان بأن سفينتين قد أبحرتا من بحر ايجه محملتين بالحبوب باتجاه القسطنطينية ، تخص السفينة الأكبر منها الجنوية ، بينما تخص الثانية الإمبراطور البيزنطى.

عندما سمع السلطان بهذا ، أمر فى الحال بتزويد سفنه ثلاثية المجاديف ، وبعض السفن الأخرى بالعتاد والرجال. وقام بإرسالهم لمواجهة السفن التى تقترب من القسطنطينية، حتى إذا ما اقتربت السفينتان وحملتهما الرياح المناسبة صوب المدينة، تقدمت السفن (التركية) ثلاثية المجاديف ، والسفن الأخرى لمواجهة السفن المسيحية، وقاموا بمهاجمة السفينة البيزنطية الأولى، وكانوا على وشك أسرها ، لكن السفينة الجنوية واصلت تقديم المساعدة لها، وقامت بمهاجمة السفن التركية.

كان السلطان، خلال تلك المعركة، موجوداً على الساحل ، يصيح بالأوامر إلى بحارته ، واندفع بفرسه نحو الماء بعد أن تمكنت السفينتان من المرور من السفن التركية ، ودخول الميناء[١].

١- مرة أخرى يحدث الخلط فى رواية خالوكونديلاس ، وبصرف النظر عن عدد السفن الذى كان أربعة =

وأصيب فى هذه المعركة *بلطه أوغلو* Balta Öglu، *القائد البحرى للسلطان* ، بجرح فى عينه، بواسطة أحد رجاله، وقام فيما بعد بالقسم للسلطان ، والتأكيد له أنه لولا الجرح الذى أصيب به، لكان قد نجح فى أسر السفينتين البيزنطية والجنوية، وهكذا تمكن (بلطه أوغلو) من الإفلات من عقوبة الإعدام(١). بينما تم وضع البحارة الآخرين الذين ارتاب فيهم السلطان بجرح ريّانهم فى السجن بانتظار حكم الاعدام .

أصبحت الأسوار الآن تعانى من الهدم والأضرار بشكل كاف يسمح للانكشارية بمهاجمة المدينة واقتحامها . وأمر محمد بإيقاد النيران فى جميع أرجاء معسكره، كما قام ببعض الاستعدادات المعتادة بنية الهجوم فى اليوم التالى. وأعلن فى قواته أنه سوف يسمح لهم بغزو المدينة وسلبها والحصول على الأسرى والعبيد منها.

= سفن ثلاثة لجنوا ، وواحدة للإمبراطور البيزنطى، فإن موعد تلك المعركة البحرية كان يوم ٢٠ أبريل . عن تلك السفن ، وعن هزيمة العثمانيين فى تلك المعركة البحرية ، انظر المصادر التالية :

باربارو ، المصدر السابق، ص١٢٤-١٢٥ .

Kritovulus, Op. cit, pp. 53-55 .

أما المؤرخ العثمانى طورسن بك فيذكر وصول سفينتين تتصفان بالضخامة «كل منهما تشبه سفينة نوح فى الاتساع» تحملان الأسلحة والإمدادات العسكرية والغذائية لسكان القسطنطينية. انظر . Op. cit, p. 53

١- تذكر بعض المصادر التاريخية المعاصرة أن السلطان الفاتح كان يراقب المعركة من موقع قريب، وعندما أدرك فشل السفن التركية فى أسر السفن المسيحية الأربعة، التى نجحت فى دخول ميناء القسطنطينية ، تميز غيظًا ، واندفع على صهوة جواده عبر مياه البوسفور يبغى الاشتراك فى المعركة. وأخذ يسب ويلعن، ويمزق رداءه فى حالة من الغيظ والغضب الشديد عن ذلك انظر: ليونارد الخيوسى، ص١٤٢-١٤٣ ، دوكاس، ص٢٥٤-٢٥٦ . kritovoulus, Op. cit, p. 54

والتمس المؤرخ العثمانى المعاصر طورسون بك العذر لبلطة أوغلو سليمان بك Balta -Öglu Süleyman Beg ، قائد الأسطول العثمانى، حيث ذكر فى كتابه « ... ماذا يفعل شخص واحد، حتى ولو كان أسدًا، أمام بلد كامل، لم يتيسر النصر ... وفتح الكفار باب الميناء (سلسلة الميناء) وأدخلوهما» انظر Op. cit, p. 53 كما يذكر طورسون بك أيضًا أن تلك الهزيمة البحرية قد سببت حالة من التوتر والقلق فى المعسكر العثمانى ، لكنه يستدرك اعتمادًا على آيات القرآن الكريم : «وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم». (سورة البقرة - اية٢١٦).

وذكرت القصة التالية أيضًا ، عندما نجحت المدافع فى هدم الأسوار ، فإن اسماعيل ابن سندر Scender حاكم مدينة سينوب Sinope [١]، قام بتقديم عرض للبيزنطيين لإقرار السلام يتضمن الترتيبات الآتية:

«أيا رجال بيزنطة، إن نهايتكم معلقة بحد الموسى. لماذا لاترسلوا رسولاً لمناقشة ترتيبات السلام مع السلطان؟ وإذا ما عهدتم بهذا الأمر إلىّ فإننى سوف اتخذ الترتيبات معه ليقدم لكم شروطه ، وبدون شك فإنكم لن تتمكنوا من مكافأة الرجل الذى سيقوم بهذا العمل من أجلكم . إن مدينتكم سوف يجرى استرقاقها واستعبادها، وسوف ترسل زوجاتكم وأبناءكم إلى العبودية . وسوف يتم القضاء عليكم تمامًا . أرسلوا بأقصى سرعة رجلاً من طرفكم يكون جديراً بالثقة ، وسوف أقوم بتقديمه إلى حضرة السلطان لإقرار ترتيبات السلام معه».

وجد اقتراح ابن سندر آذانًا صاغية لدى البيزنطيين ، وقرروا بالفعل بعث رسول لمعرفة نوايا السلطان تجاههم ، وأهم الأفكار التى تجول بخاطره . ولم يكن الرجل الذين قاموا بإرساله من ذوى المرتبة العسكرية العليا، وعندما حضر إلى مجلس السلطان يرافقه اسماعيل، طالبه السلطان بضرورة تقديم مائة ألف بيزانت Byzant سنويًا، وإذا لم يستطيعوا التعهد بذلك، فيجب عليهم الرحيل عن المدينة حاملين معهم ثرواتهم، والانتقال إلى أى مكان آخر يرغبون به.

تداول البيزنطيون فى هذا الأمر، وفضّلوا الاستمرار فى المقاومة ، على الرغم من خطورة موقفهم بدلاً من الرحيل عن المدينة دون قتال.

وفى رأيى الخاص ، فإن السلطان قدم اقتراحه ، كوسيلة لاختبار وجهة نظر البيزنطيين. وبعد فشل الحفارين فى عمليات حفر الأنفاق ، فإن السلطان كان شغوفًا لمعرفة ما يدور فى أذهان البيزنطيين. وكيف سيقومون بتأمين مواقعهم . وعلى أية حال فإن البيزنطيين ردّوا على اقتراحه بالطريقة التى سبق ذكرها .

عندما أكمل السلطان استعداداته للهجوم على المدينة ، أمر باستدعاء جنود الانكشارية وخاطبهم قائلاً :

٧- مدينة سينوب Sinop هى ميناء تركى يقع على البحر الأسود، انظر . W.N.G.D, p. 1120

«أيا أبنائى .. جنود الانكشارية ، لقد أظهرتم شجاعتكم فى كافة الحملات العسكرية التى قمت بها، والآن، وبواسطتكم، سوف تسقط هذه المدينة. هل تتذكرون عندما سألتكم عنها، وكانت إجابتكم إننا يجب أن نستولى عليها . فهل تهدمت الأسوار من أجلكم ؟ إذن وأنا معكم، فإننى أتساءل ماذا بعد سقوط المزيد من الأسوار ، بعد أن طلبتم ضرورة اسقاطها. وقد حان الآن وقت المعركة ، فإننى سوف أضيف بأن لكم سمعة وشهرة فائقة فى القتال مع أسلافى، ومعى ، لذلك كله ساعدونى الآن فى إسقاط هذه الإمبراطورية.

أنتم تعلمون كيف أن العديد من مناصب الحكم تحت تصرفى فى الأراضى الآسيوية الأوربية الخاضعة لى. وهذه المناصب سوف أقوم بمنح أفضلها إلى أول من يستطيع اجتياز ذلك الخط الدفاعى Stockade، كما أننى سوف أمنحه المجد والشرف الذى يستحقه . وسوف أقوم بمكافأته بثروة مناسبة . وسوف أجعله سعيدًا من بين رجال جيلنا . لكننى إذا ما رأيت أى رجل يتخلف داخل الخيام، ولايتقدم للمعركة فوق الأسوار ، فإنه لن يستطيع الإفلات من عقوبة الموت . حتى إذا ما امتلك أجنحة ، واستطاع الطيران وسط طيور السماء.

استعدّوا جميعًا من أجل المعركة ، التى سوف تجلب لكم الشهرة والثروة ، إن المدينة مليئة بالعبيد الذين يمثلون أهمية كبرى لكم، وكذلك النساء والأطفال ، فضلاً عن المخازن الضخمة من الثروات» .

بعد أن انتهى (السلطان) من حديثه ، استدعى القادة والجنود الذين حاربوا سابقًا أمام الأسوار وسألهم عما إذا كان من الممكن اقتحام المدينة. فأخبروه أنه يمكنه الآن بدء الهجوم لأن الظروف أصبحت مناسبة . كما أخبروه أنه يجب أن يكون واثقًا من النصر ، لأنهم سوف يقومون باجتياح المدينة دون تأخير، ثم طلبوا منه أن يسدى إليهم معروفًا بأن يسلمهم الرجال الذين كانوا قد أمر بالقبض عليهم لارتيابه فى أنهم قاموا بإصابة ربّانهم، فاستجاب السلطان إلى ذلك ، وأمر بإطلاق سراحهم (١) . لأجل خاطر الانكشارية .

١- لتفسير ذلك، انظر: دوكاس ، ص٢٥٦-٢٥٧ .

حيث يذكر أنه بعد الفشل الذريع الذى منى به بلطه أوغلو أمام السفن المسيحية، قام السلطان الفاتح بضربه على نحو موجع . وتلى ذلك قيام أحد الجنود من طائفة العزبان بضرب بلطه أوغلو بالحجارة لدرجة أن أحدها اخترق إحدى عينيه، ويفهم من السياق أن السلطان الفاتح أصدر أمرًا بالقبض على بعض الجنود العزبان نتيجة لذلك. وهو الأمر الذى جعل الجنود الانكشارية يطلبون إطلاق سراحهم .

والآن، بعد أن قرر (السلطان) القيام بالهجوم، أرسل رسالة إلى قواته ينكر فيها أنه يجب أن يحتلّوا مواقعهم في فجر اليوم التالى . ووعدهم بأن الذين سيبلون بلاءً حسنًا فى القتال سوف تتم مكافأتهم ، أما الذين لن يحاربوا بشجاعة سيكون مصيرهم الموت.

كان شيوخ الدين Zychides التابعين له، يسيرون حول المعسكر، لحثّ الجنود، وتنكيرهم بأجر الإيمان الحقيقى، إذا ما تطلعوا إلى الموت، وأن نبيّهم قد وعد الذين يموتون فى القتال بحظ طيب [١]. كما تقضى تعليمات دينهم .

وتمركز البيزنطيون إبان ذلك مع الجنوية، الذين حضروا لمساعدتهم بسفينة كبرى، على متنها ثلاثمائة جندى، فى نفس الوقت الذى قرر فيه السلطان، وجنوده الانكشارية القيام بالهجوم.

وقف الإمبراطور وبالقرب منه حرسه الشخصى، واستعد الجميع لمواجهة الهجوم، أما الكاردينال ايزوبور الروسى [٢]، الذى تم ذكره سابقًا ، فكان قد اتخذ موقعه بين البيزنطيين ، وقاتل معهم، وهو الذى كان موجودًا من أجل إقامة المجمع الكنسي، ومن أجل إيجاد توفيق بين آراء البيزنطيين، والبابا فى روما.

وعندما جاء صباح اليوم التالى ، يوم المعركة ، بدأ السلطان خطة الهجوم، وارتفعت أصوات الصنج، والصفائح المعدنية، كما ارتفعت أصوات المزامير والأبواق والنفير، كإشارة على بدء المعركة. وهاجم البرابرة المدينة من كافة الأجزاء وحاربوا بشراسة فى كافة الأماكن التى هاجموا من خلالها .

١- حثّ الإسلام على الجهاد فى سبيل الله، فهناك العديد من الآيات فى القرآن الكريم التى تحض على الجهاد وفضله . عن ذلك انظر: سورة التوبة آية ٤٤ «لايستئذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين»، ص١٩٤، وآية ٧٣ : «يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين، واغلظ عليهم، ومأواهم جهنم وبئس المصير» ص٩٩: سورة الصف : «تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون»، ص٥٥٢ .

٢- عن الكاردينال ايزيدور ودوره فى محاولة توحيد الكنيسة الغربية الكاثوليكية ، وكنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية انظر ما سبق ، ص١٢٣ ، هامش (١) .

دافع البيزنطيون عن السور الموجود عند الميناء بشجاعة ، وقاموا بردّ الأتراك على أعقابهم وقتلوا البعض منهم، الذين حاولوا تسلق الأسوار بواسطة السلالم الخشبية. وتعرض الجزء الذى تواجد به الإمبراطور لإدارة المعركة لهجمات الجنود الانكشارية، الذين نجحوا فى دفع الجنود الجنوية إلى الخلف بفضل قوتهم الضاربة.

وجرح جستنيانى فى ذراعه من طلقة بندقية (١)، كما جرح بعض رجاله، وغادروا مواقعهم فأستغل الأتراك ذلك، وقاموا بمهاجمتهم وقتلهم، وكان جستنيانى قد تمكن من الهرب مع الجنود الذين تبعوه، بعد أن ضغط عليهم الانكشارية بقوة.

وعندما شاهد الإمبراطور البيزنطى الجنود الجنوية وهم يتخلون عن مواقعهم ، ويتوقفون عن القتال ، هرع إلى جستنيانى، وسأله إلي أين هو ذاهب . لكنه أجابه قائلاً : «على أية حال، فقد ظهر الرب للأتراك اليوم».

تحول الإمبراطور إلى كانتاكوزينوس Cantacuzenus ورجاله القليلين معه، قائلاً : «دعنا على أية حال نهاجم أولئك البرابرة» . وقُتل الشجاع كانتا كوزينوس، بينما تقهقر الإمبراطور إلي الخلف، بعد أن أجبر على الانسحاب ، أصيب بجرح فى كتفه قبل أن يخرّ صريعًا (٢).

عندما شاهد باقى البيزنطيين (الأتراك) وهم يقفزون إلى الأسوار ، ويطلقون عليهم سهامهم وأحجارهم بالمقاليع من أعلى الأسوار ، وبينما فر جستنيان وجنوده ، أخذوا هم أيضًا فى الجرى من أمام الانكشارية . وقذف كل واحد منهم بنفسه داخل الأسوار ، حتى يهربوا من مواجهة العدو . وعندما تزاحموا بشدة عند بوابة القديس رومانوس، تساقطوا فوق بعضهم البعض، وكذلك سقط فوقهم الذين وصلوا متأخرين منهم، وسقط أولئك الرجال الأحياء فوق بعضهم ، مما أدى إلى منع مرور أى رجل آخر من البوابة . ومات معظم هؤلاء البيزنطيين بهذه الطريقة التعسة واليائسة . ولأنهم كانوا متلهفين للغاية على أن يسبقوا بعضهم البعض، جاءت نهايتهم على هذا النحو.

١- عن الدور الذى لعبه جستنيانى فى الدفاع عن القسطنطينية : انظر ما سبق ، ص١١٠ ، هامش (٥) .

٢- اختلفت الروايات حول مصرع الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر ، عن ذلك انظر ما سبق ص١١٧ ، هامش (١) . وانظر أيضًا رواية دوكاس، ص٢٧٢-٢٧٥ .

وبينما كانت البوابات مكدّسة بأجساد البيزنطيين الذين اتخذوا طريقهم من خلالها ، قام الانكشارية الذين عبروا الأسوار العالية (التى سقط الجزء الأكبر منها بفضل قذائف المدفع) بالاندفاع إلى داخل المدينة فى نفس المنطقة، وقاموا بتحطيم البوابات ، ليتخذ كل منهم موقعه الجديد.

عندما انتشرت الأخبار بسقوط المدينة، اتخذ العديد من البيزنطيين طريقهم باتجاه الميناء نحو سفن البنادقة والجنوية. وألقى عدد كبير منهم بأنفسهم بشكل هستيرى صوب القوارب الصغيرة ، وغرقوا فى الماء. وكما يحدث عادة فى أوقات الفوضى والاضطراب ، واندفع الجميع بحثًا عن سلامتهم دون أى نوع من الانضباط.

واستطاع معظمهم الهرب من الأتراك ، لكن حرس بوابات المدينة اتخذوا قرارًا تعسًا للغاية. فعندما شاهدوا البيزنطيين يتجهون نحو السفن بحثًا عن سلامتهم، اعتقدوا أنهم إذا أوصدوا البوابات ، فإن البيزنطيين سوف يجبرون على التراجع ويحاربون مرة ثانية .

كانت النبوءة الشائعة آنذاك تذكر أن الأعداء سوف يصلون إلى جزء من المدينة يسمى ساحة الثور [1]، حيث ينجح المدافعون عن المدينة فى إجبارهم على التراجع ، بعد أن يعودوا

١- إبان عهد كونستانس Constans (٣٢٧-٣٥٠م) قام مستشاره فالنتينيان Valentinian بتشييد مبنى كبير فى الهيبدروم، وكان بداخله أتون واسع استمر موجودًا حتى القرن الثامن الميلادى ، حيث قام الإمبراطور الوثنى جوليان (٣٦١-٣٦٣م) بحرق العديد من المسيحين داخله بذريعة ارتكابهم للعديد من الجرائم ، وكان هذا الأتون مجوفًا ويتخذ شكل ثور برونزى ضخم، فى محاكاة لما كان موجودًا فى منطقة نيوريون Neorion . وبسبب أعمال الحرق هذه ، لحق العار بالثور البرونزى حتى زمن الإمبراطور فوقاس Phocas (٦٠٢-٦١٠م) . وبعد ذلك قام الإمبراطور هرقل Heraclius (٦١٠-٦٤١م) بصهر تمثال الثور البرونزى، من أجل الحصول على أموال للحراس، وتجنيد أعداد جديدة من الجنود فى منطقة البحر الأسود . عن ذلك انظر المصدر البيزنطى التالى:

Cameron ,A & Herrin , J (eds.) Constantinople in The Early Eighth Century : The Parastaseis Syntomoi Chronikai , Leiden, 1984 , pp. 115-117 .

ويبدو أن إزالة تمثال الثور البرونزى قد ترك مكانًا فضاءً عرفه السكان البيزنطيون فيما بعد القرن السابع الميلادى بساحة الثور. عن ذلك أيضًا انظر:-

Speck, p, Understanding Byzantium : Studies in Byzantine Histoircal sources. "The legand of the Bull in The bus Square , in , Parastas eis 42 ", London , 2002 .

للقتال ثانية ويقومون بطرد الأعداء خارجًا، ويستردون المدينة. ولهذا السبب ، فيما اعتقد، قاموا برمى مفاتيح البوابات من أعلى الأسوار*.

توجه الحشد الكبير من الرجال والنساء، الذى كان أكبر من أى وقت مضى، نحو الكنيسة الأكبر بالمدينة، كنيسة الحكمة المقدسة(١). وهناك اجتمعوا معًا، الرجال والنساء ، والأطفال ، حيث تم أسرهم بواسطة الأتراك، دون أية مقاومة . وتم قتل الرجال الذين التجأوا إلى داخل الكنيسة . أما باقى البيزنطيين الذين هام بعضهم على وجهه فى حال من الاضطراب ، فقد تم قتلهم أو أسرهم، بينما أظهر الآخرون احتمالهم ، وجلدهم ، وحاربوا حتى الموت دفاعًا عن بلدهم، وكذلك من أجل منع زوجاتهم وأطفالهم من الوقوع فى نير العبودية .

وقتل ثيوفيلوس Theophilus من أسرة باليولوغوس لهذا السبب، وكان يبحث عن الموت بشجاعة فى المعركة ، كما قُتل ميتوخيتس Metochites باليولوغوس أيضًا مع أولاده أثناء القتال، وقُتل العديد من النبلاء البيزنطيين من ضمن حاشية الإمبراطور، لأنهم لم يرغبوا فى أن يشاهدوا بلدهم يسقط فى نير العبودية .

امتلأت شوارع المدينة بجثث الرجال القتلى، والهاربين والمطاردين الذين عانوا من القتل أيضًا ، وكان مصير نوتاراس كبير وزراء الامبراطور ، وأورخان Orchan الابن الأكبر لسليمان(٢)، كمصير السابقين. وطبقًا للرواية البيزنطية ، فإنهم عندما أدركوا أن المدينة قد

---

* تشير تلك الفقرة إلى البوابات الموجودة على الجانب الآخر للمدينة، بالقرب من خليج القرن الذهبى (الترجمة الإنجليزية) .

١- عندما نجح العثمانيون فى اقتحام مدينة القسطنطينية صباح يوم الثلاثاء ٢٩ مايو ١٤٥٣م، توجّه سكان القسطنطينية لالتماس الحماية والأمان داخل كنيسة أيا صوفيا . عن ذلك انظر المؤرخ البيزنطى المعاصر دوكاس، ص٢٧٧-٢٧٨ .

حيث يتساءل فى نبرة استنكار عن سبب لجوء سكان القسطنطينية الذين سبق أن عبّروا عن رفضهم للاتحاد الكنسى مع كنيسة روما ، إلى كنيسة أيا صوفيا التى سبق وأن تمت داخلها عملية الاتحاد الكنسى فى ديسمبر ١٤٥٢م.

٢- هو أورخان بن سليمان بن بايزيد . ونتيجة للهزيمة المروعة التى لحقت بالعثمانيين فى موقعة أنقرة ١٤٠٢م على يد تيمور لنك ، وأسر السلطان بايزيد وموته . اجتاحت الحرب الأهلية البيت العثمانى . وتنافس أبناء بايزيد : محمد وموسى وسليمان على الحكم . ولعب الامبراطور البيزنطى مانويل الثانى=

سقطت ، لجـوا إلى أحد الأبراج من أجل تنفيذ خطتهم بالهرب، وعندما وصلوا إليه، كان أورخان يرتدي رداءً ممزقًا كالرهبان ، وألقى بنفسه من البرج إلى أسفل ، حيث لقي حتفه . أما نوتاراس وأبنائه ورفاقه ، فقد تم القبض عليهم ضمن حشود الأسرى .

= باليولوغس Manuel II Palaelogus (١٣٩١-١٤٢٥م) على وتر الحرب الأهلية العثمانية، وساند الأمير سليمان في دعواه بالملك، لكن هزيمة الأخير أمام أخيه موسى دفعت بابنه أورخان إلى اللجوء للبلاط البيزنطي، مع آخرين من أبناء وبنات البيت العثماني. عن ذلك انظر: ابن عربشاه ، عجائب المقدور في نوائب تيمور، تحقيق أحمد فايز الحمصي، بيروت ، ١٩٨٦م، ص٣٢٨-٣٣٦ ؛ القرماني، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، القاهرة، د.ت ، ص٣٠١-٣٠٢ ، إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج١ ، القاهرة، ١٣١٢هـ، ص٤٩٦-٤٩٧ .

Barker , J. Maluel II Palaeologus 1391-1425 , A study in Later Byzantine Statesmànship , New Jersy . 1969 , pp. 247-251 . Nicol , " The last Centuries ," pp. 95-96 ; 400 ; wittek, p. De la defaite D'Ankara a la Praise de Constantirople", in, R.E.I, XII, 1938 , p. 17 ; Hidden , A . The Ottoman Dynasty , New York , 1912 , p. 36 ; la vallée , The Histoire de l'Empire Ottoman , Paris, 1855 , p. 158 , Dereksen, D, The Crescent and the cross, New York , 1964 p. 124 ; Pear , E, Op. cit, p. 149 .

صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص٢٠٩-٢١٢ .

ويذكر المؤرخ البيزنطي دوكاس أن أورخان قام باستبدال ملابسه بملابس أحد الرهبان، وقفز من أحد الأبراج إلى خارج القسطنطينية إبان اقتحام العثمانيين لها. فقام بعض البحارة العثمانيين بأسره واحتجازه في إحدى السفن العثمانية مع باقي الأسرى البيزنطيين، الذين أراد أحدهم إنقاذ نفسه، فتخبر ربان السفينة بأمر أورخان ، وأمر القائد العسكر الأعلى نوتاراس الذي كان ضمن الأسر، فقام الربان العثماني بقطع رأس أورخان ، وأبقى على حياة نوتاراس، انظر ، دوكاس ، ص٢٨٩ .

وانظر أيضًا : . kritovoulus , Op. cit, pp. 74-75

الذي يذكر أن أورخان قفز من فوق الأسوار ، ولقى مصرعه . ثم قام الجنود العثمانيون بقطع رأسه وتقديمها للسلطان محمد الفاتح، الذي كان متلهفًا إلى القبض عليه، حيًا أو ميتًا . عن ذلك انظر أيضًا :

Runciman , Op. cit., p. 150 .

وفى تلك الأثناء ، قام الانكشارية بملء معسكر السلطان بزوجات وأطفال أكثر النبلاء البيزنطيين أهمية . بالإضافة إلى العديد من الثروات التى جلبوها معهم. وازدحم المعسكر التركى بالرجال والنساء ، الذين أخذوا فى المناداة على بعضهم البعض، فضلاً عن الأطفال ، حيث تم القبض على الجميع فى تلك الكارثة.

تم جلب كميات ضخمة من الذهب والفضة من المدينة. وكانت هناك وفرة فى الأحجار الكريمة، وامتلأ المكان بالعديد من الأردية والأثواب غالية الثمن، وفى الحقيقة ، فإنه فى خلال يوم واحد، ازداد المعسكر ثراءً عبر وجود الأسرى من النبلاء ، والكنوز وكافة أنواع الثروات ، حتى أن العديد من الانكشارية لم يعودوا يعرفون ماذا سيفعلون بهذه الثروات الوفيرة المحيطة بهم. ونتيجة لذلك، أصبح بعض الرجال منهم أغنياء لحصولهم على مجوهرات دون مقابل ، لأن الانكشارية لم يعرفوا قيمتها الحقيقية . لدرجة أنه أحيانا ما كان يتم استبدال الذهب بالبرونز.

وابان ذلك الوقت كان قد تم أسر ايزيدور كاردينال سابينا، حيث تم جلبه إلى غلطة ، وبيعه هناك. غير أنه استطاع الهرب على متن احدى السفن إلى البلوبونيز ، وإذا ما كان السلطان قد عرف أنه الكاردينال ايزيدور نفسه، لكان قد أمر بقتله ، ولم يسمح له بالهرب، لكن ذلك لم يخطر بباله ، لأنه اعتقد أنه قد قتل.

وقام أحد الجنود الانكشارية بجلب رأس الإمبراطور البيزنطى إلى حضرة السلطان، وحصل على العديد من المنح والعطايا ، فضلاً عن توليته حاكمًا على أحد الأقاليم، ولم يستطع أحد من جنود الانكشارية أن يحدد كيفية مقتل الامبراطور ، لقد مات عند البوابة، مع العديد من رجاله، مثل أى شخص عادي، بعد فترة حكم استمرت لمدة ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر.

وتم أسر العديد من النبلاء البنادقة أيضًا، الذين عملوا بالتجارة (فى القسطنطينية) وكان عددًا منهم موجودًا بالميناء مع سفنهم ثلاثية المجاديف، وتمت إعاقة سفرهم، واحتجازهم بواسطة البيزنطيين [١]، وتم استخدامهم كقوات إضافية واحتياطية .

١- عن احتجاز السفن والبحارة والتجار البنادقة فى القسطنطينية من أجل مساعدتها فى التصدى للحصار العثمانى، انظر: نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص٨٩-١٠٠ الذى تحدث عن ذلك بتفصيل شديد.

وتم إحضار بايل البندقية للمثول أمام مجلس السلطان، الذى أمر بقتله [١]، أما باقى البنادقة فقد تم إطلاق سراحهم فيما بعد [٢].

وفى خضم تلك الأحداث ، كان الجميع بمن فيهم بحارة سفن السلطان، قد تجمعوا من أجل الحصول على الغنائم والأسلاب ، كانت سفن البنادقة من نوع الشينى Galley قد أبحرت عبر مضيق الدردنيل Hellespont[٣] لتصل إلى إيوبيا Euboea[٤]، فى اليوم الثالث من إبحارها وعلى متنها العديد من الرجال المحاربين. وقام البيزنطيون بانزال الجزء الأكبر من بحارتهم على البر، من أجل الاشتراك فى الدفاع عن المدينة. وأخذوا مواقعهم فى الفتحات العليا للحصون ، ثم جرى أسرهم فيما بعد، حيث قتل العديد منهم.

١- كان بايل Bailus (قنصل) البندقية فى القسطنطينية أنذاك يدعى جيروليمو مينوتو Jerulemo Minoto ، الذى لعب دوراً كبيراً فى الحفاظ على مصالح البندقية التجارية. كما لعب دوراً هامًا فى قيادة البنادقة، والدفاع عن القسطنطينية إزاء المحاولات العثمانية المتكررة لاقتحامها . ويبدو أن السلطان الفاتح لم يغفر لقنصل البنادقة هذا الأمر ، فأمر- فور نجاحه فى اقتحام القسطنطينية - بضرب عنق جيروليمو مينوتو. انظر : نيقولو باربارو ، المصدر السابق ، ص٩٢-٩٤ ، ٩٧ ، ١٠١-١٠٢ ، ١١٤ ، ١٤٤، لوميلينو، ص٣٤٢ .

هايد ، ف . تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة أحمد رضا ، مراجعة عز الدين فودة، ج٣ ، القاهرة ، ١٩٩٤م، ص١٩٣ .

٢- أورد نيقولو باربارو البندقى قائمة بأسماء ٢٩ من النبلاء البنادقة الذين أسرهم العثمانيون ، ثم قاموا بإطلاق سراحهم خلال عام واحد ، بعد دفع فدية تتراوح ما بين ٨٠٠-٢٠٠٠ دوكات بندقى لكل منهم، انظر ، المصدر السابق، ص١٨٥ .

ومن الجدير بالذكر أن باربارو يعد هو المصدر التاريخى الوحيد الذى ذكر أعداد الأسرى من النبلاء البنادقة ، وكيفية إطلاق سراحهم .

٣- هيلسبونت هو مضيق الدردنيل الذ يربط بحر ايجه ببحر مرمرة ، انظر -O.D.B, vol.2, p. 912 913 .

٤- إيوبيا هى نجروبونت Negrobont ، وهيَ جزيرة كبيرة فى بحر إيجه . مقابل الساحل الشرقى لليونان، انظر: O.D. B, vol . 2 , p. 736

عندما وصلت السفن إلى إيوبيا سمع ركابها بأخبار الكارثة التى حلت بالقسطنطينية ، ولم يتمكن أحد منهم من أن يقرر ماذا يجب عليهم فعله، لأنهم أصبحوا الآن معرضين للخطر وسقطت بعد ذلك معظم جزر بحر إيجه فى قبضة الأتراك، بعد هزيمة القباطنة البيزنطيين فى معركة حربية فى البلوبونيز، وبعد ذلك بوقت قصير ، تم حث الألبان الذين عاشوا هناك على القيام بالثورة .

بعد أن أتم السلطان غزو القسطنطينية ، أمر زاجان – حماه – بتجهيز الشينيات بالمؤن والرجال، والتوجه نحو مدينة غلطه، لمنعهم (الجنوية) من الإبحار بسفنهم، وشعر المسئول عن المدينة بالخوف والرعب، بعد ما رأى القسطنطينية تسقط فى أيدى السلطان، لأنه اعتقد أنه سيتوجه لمهاجمتهم بعد ذلك، ويوقع مدينته فى الأسر كما فعل بالقسطنينية ، ولهذا، فقد أخذ معه مفاتيح المدينة ، وتوجه إلى السلطان حيث قام بتسليمها له ، قائلاً أنه، وباقى مواطنيه يضعون ثقتهم به، وأنهم سوف يقومون بطاعة كافة أوامره مستقبلاً (١).

وكان قد تم إرسال زاجان من أجل الاستيلاء على المدينة، ومنع أى شخص من ركوب السفن ، لكن عندما شاهد سكان غلطه الشينيات تتجه نحو مدينتهم، اندفعوا بشكل كبير تجاهها ، وقام الأتراك بإجبارهم على التراجع ، وقاموا بقتل بعضهم من أجل اثنائهم عن الاندفاع تجاه السفن.

عندما دخل زاجان إلى المدينة، تصرف فى كافة أمورها ، وقام بتعيين حاكم جديد عليها من قبل السلطان ، الذى أصبح سيداً على مدينتين فى يوم واحد ، واحده عن طريق غزوها ، والأخرى بعد استسلامها، وأمر السلطان السكان بهدم الأجزاء العالية من الأسوار فوق اليابسة وذلك حتى إذا وصلت سفن المساعدة من إيطاليا، لايتمكن سكان المدينة من القيام بثورة لأن الأسوار منخفضة وليست عالية بما فيه الكافية . وأنه إذا ما وجد السلطان أنهم ينوون المقاومة ثانية ، يصبح من السهل عليه دخول المدينة والاستيلاء عليها.

١- كان جيوفان انجيلو لوميللينو هو البودستا الجنوى والمسئول عن مستعمرة غلطة (بيرا) . وكتب لوميلينو رسالة إلى أخيه ، يخبره فيها بكل ما جرى من أحداث تخص الجنوية في غلطة . عن ذلك انظر رواية لوميللينو : ص٣٣٧–٣٤٥ .

وتم حمل أكثر الأسرى البيزنطيين أهمية إلى غلطه ، حيث تم إطلاق سراحهم، وقام السلطان بنفسه بدفع الفدية المطلوبة عن إطلاق سراح نوتاراس ، الوزير الأول للإمبراطور البيزنطى وفعل السلطان الأمر نفسه تجاه زوجة نوتاراس وأبنائه، وبعد مناقشةتمت بينهما عن المساعدة المنتظرة (١)، أظهر (نوتاراس) له كل أمارات الاحترام والتوفير ، ومكث معه وقتا طويلاً.

اجتمع أولئك البيزنطيين الذين حصلوا على حريتهم، وبدأوا فى المساعدة على إطلاق سراح أقاربهم وأصدقائهم . لكن بعد ذلك قام السلطان بقتلهم بالطريقة التالية:

فقد نمى إلى علم السلطان أن لنوتاراس صبى فى الثانية عشرة من عمره ، فقام بإرسال أحد حجابه للإتيان به ، وعندما تلقى نوتاراس تلك الرسالة من الحاجب، غضب وتأثر بشدة وقال «إن هذا الأمر لايمكن احتماله . أن يأخذ السلطان ولدى . إننى لم أقم بشئ فى الوقت الحال يمكن أن يوّجه إلىّ اللوم بسببه . لقد صفح السلطان عن أخطائى فى الفترة السابقة، بعد أن قام بافتدائى ، وإذا كان يريد معاملتى بهذه الطريقة، فلماذا لم يأمرنى من قبل بتسليم ابنى فى الحال ليلقى موته محزنة ؟».

تلك كانت كلمات نوتاراس ، الذى رفض إرسال ابنه إلى السلطان ، وأنكر أن يكون قد أدين بأى ذنب أو خطأ ، أما الحاجب فقد فوجئ بهذا الرد، وقام بتوجيه النصيحة إليه بعدم الحديث بخصوص هذا الأمر، وبهذه الطريقة مع السلطان، لأنه سوف يأمر – فى الحال– بقتله لكن نوتاراس لم يمتثل للنصيحة.

بعد أن عاد الحاجب ، وسمع السلطان رد نوتاراس ، أصدر قراراً بإعدامه وأبنائه ورفاقه وعندما حضر الذين يقومون بعمليات الإعدام إلى نوتاراس ، طلب منهم، أن يقوموا بقتل أبنائه أولاً ، ثم قتله بعد ذلك مباشرة.

١- يذكر ليونارد الخيوسى أن القائد العسكرى البيزنطى الأعلى، لوكاس نوتاراس ، قدّم خدمة كبيرة للسلطان محمد الفاتح، مقابل إطلاق سراحه ، وهى تقديم الرسائل التى قام خليل باشا بإرسالها إلى الامبراطور البيزنطى يحثّه فيها على التماسك، وابداء المقاومة، حتى لاينجح السلطان الفاتح فى اقتحام القسطنطينية وهو ما أوغر صدر السلطان العثمانى ضده. انظر ما سبق، ص١٧٢ .

كما قدم نوتاراس للسلطان الفاتح قائمة بأسماء كبار الموظفين والنبلاء البيزنطيين، والقادة العسكريين، حيث تم أسر هؤلاء جميعًا. انظر ، دوكاس، ص٢٨٩ . الذى يذكر أنه جرى دفع ألف أسبر مقابل كل أسير منهم.

وأصيب أبناؤه بالفزع والرعب من فكرة الموت. وتوسلوا لوالدهم بأن يمنح جلاديهم المال الذى يملكونه فى إيطاليا. حتى لايقومون بإعدامهم ، لكنه لم يلق بالاً إلى ذلك . وطلب منهم مواجهة قدرهم ومصيرهم بشجاعة ، وهكذا ، تم قتلهم أولاً ، وبعد ذلك مباشرة قام نوتاراس بتقديم نفسه لتوقيع عقوبة الإعدام عليه (١).

بعد أن تخلص السلطان من نوتاراس وأسرته، أمر بالقبض على باقى البيزنطيين الذين تم إطلاق سراحهم ، وقتلهم. وهكذا مات أولئك ميته بلا مجد.

كان الدافع الذى قاد السلطان لعمليات الإعدام هذه، هو ذلك الرجل البيزنطى الذى وصل إلى هناك (غلطة) وبرفقته ابنته التى أغرم بها السلطان غراماً شديداً. فقد افتتن بالمرأة ، وغلبته عاطفته ، وأبدى تعاطفاً كبيراً مع أقاربها. وقال إنه، امتثالاً لطلب والدها، فإن جميع البيزنطيين الموجودين يجب أن يتم قتلهم. كان هذا هو المصير المشئوم للسكان البيزنطيين بالقسطنطينية.

من المؤكد أن ما حدث كان يمثل أكبر كارثة مؤلمة ومروعة عرفها التاريخ . إن الدمار الكامل الذى حاق بالبيزنطيين يعد مساوياً لسقوط طراودة Troy وغزوها بواسطة البرابرة ، كما هو حادث هنا بالفعل ، ولهذا فقد اعتقد الرومان أن هذه الكارثة التى حلت بالبيزنطيين جاءت بمثابة عقاب على سقوط طراودة منذ وقت بعيد (٢).

تلك هى الأحداث التى جرت حتى هذا الوقت. بعد ذلك قام محمد (الفاتح) بالقبض على وزيره خليل ابن (ابراهيم !؟) Braimcus ، الذى كان ينوي أن يتخلص منه منذ وقت مبكر ، لكنه كان يخشى عاقبة ذلك، لأن موقفه لم يكن آمناً بما فيه الكفاية ، ولهذا فقد كان يرجئ عملية القبض عليه، لكنه الآن يستطيع أن يقوم بذلك ، وقبض عليه بالفعل، وأرسله فى عربة إلى أدرنة لكى يسجن بها .

١- عن ذلك انظر، ليونارد الخيوسى، ص١٧٢ : دوكاس ص٢٩٢ .

٢- يذكر الشاعر الإغريقى الكبير هوميروس نجاح الإسبرطيين (القادمين من القارة الأوربية) فى اقتحام مدينة طراودة Troy التى كانت تقع على الساحل الشرقى لآسيا الصغرى، عن ذلك انظر، الإلياذة ، ص٢٠٥-٢١٤ .

ويبدو أن خالكوكونديلاس يستخدم ما جرى فى تبيان النجاح الذى حققه العثمانيون (القادمون من قارة آسيا) فى اقتحام مدينة القسطنطينية الواقعة فى الأراضى الأوربية .

قام (محمد الفاتح) بعد ذلك بالاستيلاء على ممتلكات خليل باشا وما يحتفظ به من الذهب والفضة ، فقد كان خليل يمتلك ثروة هائلة، جلبت الانتباه إلى ثرائه، الذى كان يبزّ ثروة بقية أهل بيت السلطان.

ومما شجع السلطان على القيام بهذا ، وقوف زاجان – حماه– إلى جانبه . وكانت ابنة زاجان مخطوبة من قبل إلى محمود بن ميخائيل ، لكن عندما قام زاجان، وربان سفينته بزيارة السلطان شاهد ابنته ، وتأثرت عاطفته بها، ولهذا قام بتزويجها لنفسه، تاركًا والدها زاجان ، يقوم بخطبة ابنة أخرى من بناته إلى محمود.

وهكذا تم تنفيذ حكم الإعدام فى خليل(١) وأتباعه يعقوب ، ومحمد، وعندما قام السلطان بالاستيلاء على خزائنه وجد بها أكثر من مائة وعشرين ألف قطعة ذهبية . وارتدى أهل بيت خليل وأقاربه الملابس السوداء . إشارة على حزنهم على مقتل الرجل الطيب.

وعندما نما ذلك إلى علم السلطان ، أصدر قراراً بأن أى شخص يرتدى السواد ابتداءً من اليوم التالى ، سوف يمثل أمام السلطان في الحال . وكان من نتيجة ذلك أنه لم يقم أى فرد بارتداء تلك الملابس السوداء بالمدينة.

كان محمد (الفاتح) قد أظهر من قبل عدة إشارات على أنه لن يتخلص من وزيره (خليل) ، بسبب السياسة العدائية الحادة التى يبديها، ورويت أنذاك الحكاية بواسطة شخص يمكنه التنبؤ بالأحداث ، إنه بينما كان (السلطان) يهم بعبور الطريق ، وجد أنثى الثعلب Vixen مربوطة ومعلقة فى باب قصره، فتوجه إليها بالسؤال «أيتها المخلوقة البائسة، لماذا تعانين كل هذه المعاناة ؟ قومى فقط بدفع بعض الأموال إلى الوزير خليل ، وسوف تصبحين حرّة فى الحال».

وعلم خليل باشا بهذه القصة ، وانتوى القيام برحلة حج إلى قبر محمد(٢)، حتى يتمكن ذلك من الخروج من البلاد، وحتى يهدأ غضب السلطان عليه، لكن الأخير خدعه بأن أظهر الكرم

١- عن إصدار السلطان محمد الفاتح أمراً بقتل وزيره خليل باشا. انظر: ليونارد الخيوسى، ص١٧٢ .

٢- بطبيعة الحال فإن المسلمين لايقومون برحلة الحج إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، لكنهم يقومون بها إلى بيت الله الحرام فى مكة المكرمة . وتشى العبارة السابقة لخالكوكونديلاس بضعف معلوماته عن الدين الإسلامى، ومدى الخلط والتشويش الذى يتمتع به تجاه الشعائر الإسلامية . على أنه يبدو أن =

الشديد تجاهه، وعندما شعر أنه يسبب له المتاعب ، ويعوق طريقه، عن طريق بث الإشاعات ، أمدّه بالمال ، وطلب منه ألاّ يخاف ، وألاّ يصدق ذلك الرجل الحقود والكاذب ، الذى قام بنشر الشائعة .

وبالفعل تم خداع خليل باشا، الذى أرسل رده قائلاً « ياسيدى ، إن كل شئ يعود إليك، سواء أكنا نشعر بالحزن والأسى، أم بالسعادة والابتهاج، وإذا ما أمرتنا بأن نبكى وننتحب ، فإننا سوف نفعل ذلك، وإذا ما أمرتنا بأن نبتهج فيجب أن نكون سعداء . ولايجب أن نشعر بالخوف ». لكنه مات كما سبق أن أوضحنا.

= خالكوكونديلاس يسقط أفكاره المسيحية على المسلمين، فإذا كان المسيحيون يحجون لرؤية قبر المسيح أو قبر الرب فى مدينة القدس ، فلابد أن المسلمين أيضًا يحجون إلى قبر محمد ! .

ميخائيل دوكاس

Michael Ducas

التاريخ البيزنطى ، الفصول ٣٣ -٤٢

الفصل الثالث والثلاثين

كان الإمبراطور يوحنا John[١] يعانى من مرض النقرس لعدة سنوات ، وأصابه هم وقلق كبيرين لدى عودته من إيطاليا، بسبب الاضطراب الذى حدث بالكنائس ، وبسبب فقدانه لزوجته الإمبراطورة . ولتمكّن المرض منه تمامًا ، ومات بعد عدة أيام وكان آخر من احتفظ بلقب الإمبراطور البيزنطى .

وتم استدعاء قسطنطين Constantine [٢] إلى القسطنطينية ، حيث أرسل وفدًا إلى السلطان مراد Murat[٣]، مقدمًا له إمارات الإجلال، ومحملاً بالهدايا ، ومؤسسًا لعلاقات وديّه معه، من أجل إزالة أية أسباب سابقة للنزاع بين البيزنطيين والأتراك .

أمّا السلطان مراد الذى كان متلهفًا على زواج ابنه ، فقد أحضر له عروسًا من نبيلات إحدى الأسر القاطنة على الحدود مع أرمينيا، كانت العروس ابنة تورغاتر Turgatir[٤]، زعيم التركمان الذين كانوا يعيشون خلف كبادوكيا Cappadocia[٥].

١- هو الإمبراطور البيزنطى يوحنا الثامن باليولوغس John VIII Palaeologus (١٤٢٥-١٤٤٨م).

٢- هو آخر الأباطرة البيزنطيين بالقسطنطينية. قسطنطين الحادى عشر باليولوغس Constantine XI Palaeologus (١٤٤٩-١٤٥٣م) . الذى كان حاكمًا فى المورة قبل استدعائه لتولى العرش البيزنطى.

٣- هو السلطان العثماني مراد الثانى (١٤٢١-١٤٥١م) ابن السلطان محمد جلبى وأمينة خاتون . عن حياته وأعماله انظر:

Asik Pasa, Op. cit, pp. 93-125 . Doukas, Op. cit, pp. 121-189 ; Sprantzes, Op. cit, pp. 11-63 , Spandounes, Op, cit, pp. 26-31 .

٤- قام السلطان مراد الثانى بتزويج ابنه محمد فى العام ١٤٥٠م من ست خاتون Sitt Khatun ابنة أحد الأمراء الأثرياء من التركمان ، وكان يدعى سليمان ذو القدر اوغلو Sulayman Dhul- Kadroglu حاكم مدينة ملاطيه Malatya . انظر:

Donkas , Op. cit, p. 303 not 222 ; Asik Pasaoglu, Op. cit, pp. 133-134 .

٥- إقليم قبادوقيا هو إقليم يتميز بوديانه، وجباله فى وسط آسيا الصغرى، ويمتد من جبال البحر الأسود إلى جبال طوروس ، ومن بحيرة الملح إلى نهر الفرات ، انظر:

O.D.B, vol , p. 378 .

وافق السلطان على هذا التحالف بشئ من الحذر ، لأنه وجد تورغاتر رجلاً يتمتع بالثراء والقوّة مثله تماماً ، ولأنه كان يقطن وسط السكان ذوى الأصول التركية والفارسية، Turco-Persian والكرمانيين Caraman، فقد كان على استعداد لعقد تحالف فى أى وقت مع ابن السلطان مراد، الذى كان يحكم فى أماسيا Amasia(١)، ومواجهة هجمات الكرمانيين من جانب، وهجمات قرا يوسف Caraiusuf(٢) من جانب آخر. وكان الزواج الذى ربط بينها يكفل له المساعدة إذا ما احتاجها . ولهذا ، قام بإرسال أحد وزرائه الذى كان يدعى ساروجا Saruja لاحضار العروس من منزل والدها فى موكب يتميز بالإجلال والأبهة والشرف . حاملاً معه العديد من الهدايا الثمينة، وبوطة تتألف من عدد كبير من النقود المعروفة باسم الطالن Talent(٣).

وحين بلغ حماها الجديد (السلطان مراد) أن موكب العروس قد اقترب من مضايق غاليبولى Gallipoli (٤)، قام بإرسال رئيس وزرائه من مدينة أدرنة ، برفقة حامية عسكرية مجهزة، حيث قابل الموكب وقاده عائداً إلى قصر سيده .

استقبل السلطان العروس بود كبير، وأمر بإعداد مراسم الزفاف، وقام بإرسال الدعوات إلى كافة القاده العسكريين، والنبلاء الأدنى مرتبة ، كما قام بإرسالها إلى المدعوين الأتراك والمسيحيين أيضًا ، وحضر الجميع للاحتفال بالزفاف ومعهم العديد من الهدايا ، وبدأت مراسم احتفالات الزواج فى شهر سبتمبر ، لتستمر حتى شهر ديسمبر .

١- أماسيا هى مدينة تتميز بحماية طبيعية فى وادى ليكوس على البحر الأسود . انظر:
O.D.B, vol , p. 74 .

٢- كان قرا يوسف Kara Yusuf (يوسف الأسود) ، زعيمًا لقبيلة الشياه السوداء Kara Koyunlu (١٣٨٨-١٤٢٠م) انظر : . Doukas, Op. cit, p. 303, not . 223

٣- الطالن هى عملة ذهبية قديمة ، غير أنه من اللافت للنظر أن الترجمة الأخرى الكاملة لحولية ميخائيل دوكاس ، لاتذكر اسم هذه العملة، انظر : . Doukas, Op. cit, p. 187

٤- غاليبولى أو Kallipolis مدينة على الساحل الأوربى لبحر مرمرة انظر . O.D.B, vol , 2 , p. 1094

استولى عليها العثمانيون عام ١٣٥٤ ، وانطلقوا منها للاستقرار فى أراضى البلقان. وحول الاختلاف على تاريخ استيلاء العثمانيين على غاليبولى، انظر:

Charanis, p. " On the Date of the Occupation of Gallivoli by The Turks" in , Social Economic and political life in the Byzantine Emire, London , 1973, pp. 113-117 .

وعندما اكتمل الزواج، قام مراد بمنح هدايا ثمينة إلى كافة خدم والد العروس الذين حضروا معها، وشملهم بعطفه وعطاياه، ثم أمر بإعادتهم إلى ديارهم.

وبعد ذلك أرسل ابنه الذى تزوج حديثًا مع عروسه ليبسط نفوذه وحكمه على آسيا الصغرى وعلى ليديا Lydia (١).

وفى منتصف يناير توجه محمد نحو ماجنسيا Magnesia(٢)، ومكث هناك حتى الخامس من فبراير ، عندما وصله أحد الرسل لأمر عاجل، وكان هذا الرسول قد سافر إليه بأقصى ما يستطيع من سرعة ، كأنه ملاك طائر ليضع بين يدى محمد رسالة لم تُفضّ أختامها ، فقام بفتحها وقراءة ما فيها ، حيث علم منها بوفاة والده.

كان خليل (باشا) وبعض الوزراء هم الذين قاموا بإرسال تلك الرسالة إليه. وفيها شرح خليل كيفية وفاة السلطان مراد. مشيرًا على ابنه بعدم التأخر بعد قراءته للرسالة ، إذ يجب عليه أن يمتطى صهوة جواده، وأن يعود مرة أخرى إلى تراقيا بأقصى سرعة ممكنة، كما لو كانت تحمله رياح بيجاسوس(٣) Pegasus، وذلك قبل أن تنتشر أخبار وفاة السلطان بين الدول المجاورة.

١- يقع إقليم ليديا فى الجزء الغربى لآسيا الصغرى، انظر: . W.N.G.D, p. 699

٢- مدينة تقع فى إقليم ليديا غربى آسيا الصغرى ، انظر: . O.D.B, vol , 2, p. 1258

٣- هو الحصان المجنح فى الأسطورة الإغريقية التى تذكر أنه عندما قطع بيرسيوس رأس ميدوزا، تدفق الدم على الأرض، فأنتج بيجاسوس، أمسكت به منيرفا للميوسات ربات الفنون . كما تحكى الأسطورة أيضًا أن ينبوع هيبوكرين فى هيلكون، إنما هو من أثر رفسة من حافره . كان يجلب النصر لمن يمتطيه بفضل سرعته الفائقة ، وإجادته الطيران . عنه انظر:

إدموند فولر، المرجع السابق، ص٨١-٨٢ . Grant, Op. cit, p. 387

ويشير الشاعر وليم شكسبير إلى الحصان المجنّح بيجاسوس فى مسرحيته «هنرى الرابع» حيث يصف فيرنون الأمير هنرى:

رأيت هنرى الصغير وعليه فزوته

وعلى فخذيه وضع درع الساقين، متسلحًا بأناقة

يظهر من الأرض مثل ميركيورى المجنح

وبكل سهولة يتخذ مقعده

=

وفعل محمد ذلك تماماً . فبمجرد أن علم بوفاة أبيه ، وثب على صهوة أحد خيوله العربية الأصيلة ، دون أن يخبر نبلاءه بالأمر ، ولم ينبس سوى بجملة واحدة. «من أحبّني ، فليتبعني!». ورحل في الحال، متقدماً جنوده الانكشارية ، وكذلك المشاة المسلحين بالسهام، الذين ساروا بخطوات سريعة، وكان بإمكانهم القتال بيدهم الأخرى، كما تميزوا بقوة بنيانهم كالمردة والعماليق.

وخلال يومين، سافر محمد من ماجنسيا ، وقام بعبور مضيق الدردنيل Hellespont ليتوقف في خرسون Chersonese[١]. واضطر للتأخر يومين في غاليبولي ، من أجل جمع شمل أولئك الذين تبعوه . كذلك قام بإرسال رسول إلى أدرنة لإعلامهم أنه قد تجاوز مدينة خرسون.

انتشرت الأخبار ، وتردد صداها في كل مكان ، بأن السلطان الجديد قد وصل إلى مدينة غاليبولي.

وكانت وفاة السلطان أمراً يجب إخفاؤه وتكتمه ، خوفاً من انتشار القلاقل في أوساط العامة، الذين جرت عادتهم على القيام بعمليات تمرد عند عملية تغيير الحاكم . وخاصة إذا ما كان الشخص الذي سيرث الحكم غير موجود في نفس المكان الذي توفي فيه السلطان .

غادر محمد بعد ذلك مدينة غاليبولي. وبدأت مجموعات كبيرة من الشعب في الاحتشاد لتقديم آيات الاحترام إليه. وبمجرد اقترابه من السهل المجاور لمدينة أدرنة خرج لاستقباله كافة الوزراء والنبلاء ، وحكام الولايات الصغرى Satraps بالإضافة إلى حكام الولايات الكبرى والموظفين الرسميين، ورجال الدين في دينه الوثني، بالإضافة إلى الأدباء والعلماء ، ومجموعات واسعة من عامة الشعب .

= كأنه ملاك هبط من الغيوم

ليقود بيجاسوس المجنّح

ويسحر العالم بفروسيته النبيلة . انظر:

Peter Alexander (ed.) William Shakespeare , The Complete works, King Henry the Fourth , Part one, Act , 4 , London , 1978 , p. 504 .

على أية حال فإن ذكره للحصان بيجاسوس يشي بالثقافة الكلاسيكية العالية التي تمتع بها المؤرخ البيزنطي ميخائيل دوكاس ، وهو ما سوف تؤكده الصفحات التالية.

١- مدينة قديمة تقع الآن بجوار سيباستوبول Sepastopol في كريميا . O.D.B. vol . I, p. 418

وامتد ذلك الحشد لمسافة ميل كامل ، من أجل رؤية سلطانهم. وترجّل الجميع عن خيولهم ، وساروا بقية المسافة على أقدامهم تجاه السلطان. بينما ظل الأمير وحاشيته على متن خيولهم، وعندما تقدموا لمسافة نصف الميل تقريبًا ، فى سكون مهيب، توقفوا جميعًا ، ووجدوا متنفسًا لدموعهم، حيث أخذوا فى البكاء حزنًا وأسى .

بعد ذلك قام الأمير (محمد) وحاشيته بالترجل عن خيولهم ، وانخرطوا فى البكاء أيضًا. وامتلأ المكان بإمارات الأسى والحزن . وفى ذلك اليوم، كان يمكن رؤية حالة كبرى من العزاء فى كلا الجانبين، واقترب رجال الطبقة العليا، حيث اصطفوا جنبًا إلى جنب ، وعبر أياديهم الممتدة قاموا بأداء البيعة للأمير. ثم اعتلى الجميع صهوات جيادهم، وتوجهّوا المدينة من بوابة القصر. وعندما دخل السلطان المدينة بنفسه ، توجه الجميع إلى منازلهم.

فى اليوم التالي. وطبقًا للعرف المتّبع ، توجه كبار المسئولين للمثول بين يدى الحاكم الذى كان ما يزال شابًا يافعًا، وأمسك حديثًا بمقاليد السلطة . واحتل مكانه فى عرش والده. وما كان ذلك ليحدث سوى عبر إرادة الرب، ونتيجة لما ارتكبناه من خطايا وآثام(١).

ووقف على مسافة من السلطان الجديد ، وزراؤه خليل واسحق باشا، وحكام الولايات على عهد والده، وكما يقتضى العرف ، وقف وزراؤه المخلصين الآخرين، والخصىّ شاهين Siti-chin، وابراهيم Ibrahim إلى جواره تمامًا.

وسأل محمد وزيره الأول شاهين «لماذا يقف وزراء أبى على مسافة منى ؟ استدعهم إلى هنا . واطلب من خليل أن يتخذ مكانه المعتاد. ودع اسحق وحكام الولايات الشرقية يتوجهون إلى بورصا Prusa (١) لموارة جثمان أبى التراب . دعهم يتحملون مسئولية حكم الأقاليم الشرقية التابعة لى».

١- يريد دوكاس هنا أن يؤكد على فكرته القائلة بأن العقاب الذى الحقه السلطان محمد الفاتح بالبيزنطيين ، والمصير المفجع الذى عانته القسطنطينية على يديه ، إنما هو تنفيذ لمشيئة الرب بأن يتولى السلطان الفاتح العرش العثمانى، لإيقاع الكارثة بالبيزنطيين المسيحيين ، الذين ارتكبوا الكثير من الخطايا والآثام . لذلك فقد استحقوا غضب الرب الذى سلّط عليهم محمد الفاتح ليسومهم سوء العذاب .

وتتكرر هذه الفكرة فى ثنايا رواية دوكاس كثيرًا. وكذلك فى ثنايا الروايات المسيحية عن سقوط القسطنطينية.

٢- هى مدينة بروسا أو بورصا التى استولى عليها العثمانيون ١٣٢٦م ، وجعلوا منها عاصمة لهم، عن ذلك انظر: . O.D.B, vol. 3 , p. 1750

وعندما سمعوا ذلك الكلام، اندفعوا فى الحال لتقبيل يده كما جرى العرف. وبينما بقى الوزير خليل، كما توّجه اسحق إلى بورصا مع جثة السلطان الميت ويرفقته حاشية ضخمة، فى موكب تميز بالفخامة والأبهة . حيث قام بدفن الجثة فى المقبرة التى كان قد جرى بناءها سابقًا. وقام بتوزيع الكثير من الأموال على الفقراء أثناء إجراء مراسم الدفن.

لم يكن موت السلطان مراد مسبوقًا بمرض طويل ، فلم يتعذّب كثيراً كوالده، إذ كان مرضه قصيراً ومعاناته قليلة . وإننى أعتقد أن حكم الرب على الإنسان يكون حسب معاملته الطيبة لأتباعه ، وحسب تعاطفه مع الفقراء، فلم يقم (السلطان مراد) بخرق الاتفاقات التى أقسم عليها من قبل ، بل قام بضمانها والمحافظة عليها، سواء تلك التى تم إبرامها مع بنى جنسه ، ومن يشتركون معه فى ديانته الوثنية (المسلمين) ، أو تلك التى قام بإبرامها مع المسيحيين.

وإذا ما قام المسيحيون بالعمل ضد المعاهدة المبرمة معه، وقاموا بحنث اليمين الذى أقسموا على احترامه ، فإنهم لن يستطيعوا الإفلات من عين الرب الساهرة ، التى يتعذر اجتنابها ، سوف يعاقبون بأيدى الرب الذى سيقوم بالانتقام منهم. ولن يستمر هذا العقاب الإلهى فترة طويلة ، لأن ذلك البربرى (السلطان مراد) لن يستمر فى مطاردتهم وملاحقتهم بعد أن يتمكن من تحقيق النصر عليهم، فضلاً عن أنه لن يكون متعطشًا للانتقام بعد التدمير الكامل الذى أصاب الأمة (الشعب البيزنطى) . وعندما أرسل الشعب (البيزنطى) الذى تم غزوه عدة سفارات لمناقشة شروط السلام، فقد رحب بها (السلطان مراد) وأولاها عنايته الفائقة ، وأعاد السفراء ويرفقتهم اتفاقيات الهدنة التى تم الاتفاق عليها.

لقد كان مراد يكره الحرب، ويفضّل السلام ، ولهذا فإن رب السلام، منحه بالمقابل نهاية مسالمة، ولم يمنحه نهاية بحد السيف.

مرض مراد لأربعة أيام فقط، ورحل عن قصره بصحبة بعض الشبان، وعبر إلى جزيرة قام النهر بتقسيمها إلى قسمين بالقرب من المدينة (القسطنطينية) ، تاركًا وراءه مساحة كبيرة من الأراضى ذات التربة الخصبة بها محاصيل متعددة، وغابة خضراء ترعى فيها عدد لايحصى من الحيوانات ، كالأغنام والبغال ، والخيول حمراء اللون التابعة للسلطان، وكان بها مساكن فخمة وشهيرة، من أجل الإقامة براحة تامة وسعادة . وكانت المنطقة تتميز بدفئها أو برودتها حسب ذلك الوقت من العام. وكانت مجهزة بكافة سبل الراحة والمتعة.

قرر (السلطان مراد) قضاء عدة أيام فى مقرّه بتلك المنطقة مصطحبًا معه عددًا صغيرًا من خدمه، ملتمسًا الراحة وتجديد نشاط ذهنه من الإجهاد الذى تعرض له بعد انتهاء مراسم الزواج . ولدى عبوره النهر، قضى يومًا صاخبًا وعنيفًا بأكثر مما تتحمله صحته . وفى اليوم التالى أمر بأن يُحمل إلى القصر بعد أن شعر بخدر وتثاقل فى رأسه وباقى جسده . وبعد أن توجه إلى سريره ، مرض لثلاثة أيام، ثم توفى فى الثانى من فبراير فى العام ٦٩٥٨ للعالم[١].

ويحكى أنه ذات ليلة ، بعد زفاف ابنه محمد، وقبل توجهه (السلطان مراد) للجزيرة ، أتاه فى أحد الأحلام، الرجل الذى يثير ظهوره الخوف (الموت) ليقف أمامه، ويتناول يده، الأمر الذى ملأه بالذعر والرعب . وكان فى إبهام اليد اليمنى لمراد خاتم ذهبى ، أخذه الشبح ليغرسه فى إصبع السبابة، ثم تناوله من السبابة ليعيد غرسه فى الإصبع الأوسط لكفّ السلطان مراد، ثم فى الإصبع التالى. ليضعه فى النهاية فى الإصبع الأصغر ، ثم تناول الشبح الخاتم من الإصبع الأصغر ليختفى بعدها .

استيقظ السلطان مراد من نومه ليستدعى عرّافيه، وأخبرهم عن الرؤيا التى تعرض لها ، فأخبره بعضهم أن الخاتم يعبّر عن الحكم،، أما الأصابع فأولها يعبر عن السلطان نفسه . وباقى الأصابع تشير إلى أسرته التى ستتبوأ العرش من بعده .

بينما أخبره البعض الآخر، بشكل سرى بأن إصبع الإبهام كان يعبر عن فترة حياته، وأن انتزاع الخاتم يدل على فقدانه لسلطته . أما وضع الخاتم وخلعه من الأصابع الأربعة الأخرى، فقد قاموا بتفسيره على أنه عدد الأعوام التى سوف يحكمها خليفته محمد. وبعدها سوف تنتهى السلطنه العثمانية تمامًا .

دعونا الآن نعود إلى مواطنينا (البيزنطيين)، لنرى مدى القسوة والوحشية والتعطش للدماء التى يمتلئ بها الطاغية محمد. ومدى الدمار الذى تعرضوا له خلال فترة حكمه ، فبمجرد أن أرسل جثمان أبيه ليوارى التراب فى بورصا، بدأ يتحرى عن خزائن الدولة، والثروات التى آلت

١- اعتمد معظم المؤرخين البيزنطيين التقويم الذى يبدأ مع نشأة الكون والعالم، واعتقدوا أن ميلاد المسيح – عليه السلام– كان فى العام ٥٥٠٨ . وهكذا يمكن مقابلة العام ٦٩٥٨ لنشأة العالم، مع العام ١٤٥٠ لميلاد السيد المسيح .

عن مسألة التقويم البيزنطى . انظر : . Doukas, Op. cit, p. 264. not . 1

إليه . فوجد مخازن ضخمة مليئة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة. وما يزيد عن الحصر من نقود الطالنت Talent (١)، حيث قام بإعادتها جميعًا إلى الخزينة، وقام بختمها بختمه الشخصي.

كذلك وجد محمد، أخيه الأصغر ذى الثمانية أشهر ، الذى جاء نتيجة زواج شرعى بين والده، وبين ابنة اسفنديار Spentiar حاكم مدينة سينوب ، وكان محمد نفسه قد وُلد لفتاة من العبيد(٢).

ومثلت زوجة أبيه، أم الطفل الصغير ، بين يديه فى القصر ، وقدمت له عزاءها ومواساتها فى موت أبيه، حدث ذلك فى نفس الوقت الذى أرسل فيه محمد أحد ضباطه ، وحاجبه الرئيسى، ويدعى على Ali ابن افرينيز Evrenez، إلى منزل السيدة لخنق طفلها .

وقام محمد فى اليوم التالى بخنق علىّ نفسه، وقام بتزويج والدة الطفل (زوجة أبيه السابقة) رغمًا عن إرادتها إلى اسحق ، خادم والده، وأراد كذلك أن يقوم بتزويج زوجة أبيه الأخرى، ابنة جورج (برانكوفيتش George Brankovic (٣) الحاكم المطلق لصربيا، تلك

١- مرة أخرى فإن الترجمة الكاملة لحولية دوكاس ، والتى قام بها البروفسير هارى. ج ماجولياس Har-ry . J. Magoulias . لاتذكر نوع النقود الموجودة، بل تتحدث عن وجود ثروات وافرة من الذهب والفضة والنقود ، انظر: Dokas, Op. cit, p. 190 .

٢- كانت والدة السلطان محمد الفاتح مجرد فتاة من الجوارى اسمها دعيت باسم خما خاتون Hüma Hatun انظر: Runciman, Op. cit, p. 55 .

وانظر كذلك . Babinger, Op. cit, pp. 11-12 , 60-61

الذى يذكر أن والدة السلطان الفاتح حملت لقب Human Hatun بعد أن كان اسمها Hüma، وأن اسمها الجديد هو اسم لطائر الجنة فى الأسطورة الفارسية . كما يذكرّ بأن والدة الملك الفارسى الشهير اكسرخسز، كانت تحمل نفس الاسم .

٣- كان جورج برانكوفتش George Brankovic هو الحاكم المطلق لصربيا منذ العام ١٤٢٧م . شارك فى معركة أنقرة ١٤٠٢م مع العثمانيين ضد تيمورلنك ، كفصل Vassal فى الجيش العثمانى، وبعد هزيمة العثمانيين عاد إلى صربيا عن طريق القسطنطينية ، وقام باستغلال الضعف العثمانى بعد معركة أنقرة لبناء إمارة مستقلة ، انظر:

O.D.B. vol , 2 , pp. 835- 836 .

السيدة المسيحية الورعة ، إلى أحد خدمه . ولأنه كان يخشى من غضب والدها الذى كان سيقوم بإثارة المجَريين للحرب ضده. ولأنه لم يكن قد قبض على زمام الأمور بشكل تام، وخشية، حدوث قلاقل واضطرابات فى سلطنته ، فإنه لم يستطع الإقدام على هذا العمل .

ونمى إلى علم الحاكم المطلق لصربيا أن زوج ابنته (السلطان مراد) قد مات ، وأن محمداً قد اعتلى العرش. فقام فى الحال بإرسال ممثلين عنه لتعزيته فى وفاة والده والتعبير عن تعاطفه معه. وكذلك من أجل التأكيد على سريان الوعود والاتفاقيات التى سبق أن عقدها مع والده، وكذلك أيضاً من أجل السؤال عن ابنته، وإعادتها إلى بلدها.

وقام محمد بالموافقة على كل ذلك. فلم يكن هذا نابعاً من رغبته فى الحكم بود وصداقة وسلام. لكن من أجل الحفاظ على حكمه . ومن أجل كسب الوقت . وسوف تجدوه – من ناحية أخرى– مستعداً بما فيه الكفاية للتصرف بشكل غير عادل، إذا صادف هواه ذلك.

وفى هذا الأمر، وفى باقى الأمور ، فإن (محمد) يرتدى جلد الحمل الوديع، على الرغم من أنه ذئب بطبيعته، حتى من قبل أن يولد . ولهذا فقد قابل السفارة بحفاوة، وتبادل معها الوعود التى أقسم على المحافظة عليها. وجعلهم يرحلون فى سلام.

كما أرسل زوجة أبيه إلى والدها مع الكثير من آيات الاحترام والشرف ، محملة بالعديد من الهدايا الثمينة، ومانحاً إياها بعض المقاطعات خارج حدود صربيا، لكى تمدّها بإيرادات تسهم فى أن تعيش حياة رغدة .

كان البيزنطيون البائسون يعيشون داخل القسطنطينية ، وعلم حاكمهم قسطنطين بما حدث لدى العثمانيين. وبشكل مشابه ، قام بإرسال المبعوثين للتعبير عن مواساته ، فضلاً عن تهنئة محمد على تسلمه السلطة .

يا لسخرية الأقدار، لقد بعث الحمل بتحياته لتهنئته إلى الذئب ، لقد بعثت العصافير بتحياتها إلى الأفعى. وبعث الميّت وهو فى النزع الأخير بتحياته إلى الموت! كما أنه (محمد الفاتح) المسيح الدجال ، قبل ظهور المسيح الدجال، الذى قام بالقضاء على المسيح، الذى يقوم برعايتنا، عدوّ الصليب ، وعدوّ أولئك الذين يثقون بأن المسيح قد تم صلبه ، وأن وجهة قد تزين بالإكليل .

= عن الدور السياسى والعسكري لجورج برانكوفتش ، انظر:
Doukas, Op. cit, pp. 175 , 190 , 242 -243 ; Nicol," The Last Centuries" , pp. 368-378, 385-402 ; Housley , N, The Later Crusades, Wisconsin, 1989 , pp . 86-87 .

لقد تصرف (محمد الفاتح) مثل الحواريّ الحقيقى للشيطان، الذى اتخذ شكل الأفعى، فأستقبل سفارته بترحاب، كما عقد اتفاقيات جديدة معها ، وأقسم برب نبيِّه المزيف، وبالنبى الذى يحمل اسمه، وبالكتب الوثنية، وبالملائكة الكبار، بأنهم (البيزنطيين) قد صاروا أصدقاء له، وأنه سيظل طيلة حياته صديقًا وحليفًا للمدينة، وحاكمها قسطنطين . وكذلك الحال مع المناطق الريفية المحيطة بها، وكل ما يتبعها .

كذلك فإنه سوف يحافظ مدى حياته على العلاقات الطيبة التى جمعت بين والده وبين الإمبراطور يوحنا[١] من قبل ، وكذلك مع الأمير قسطنطين (حاكم المورة) فى السنوات الأخيرة. بالإضافة إلى تلك الوعود الوردية، فقد وافق على منح الإمبراطورية البيزنطية مبلغًا يتألف من ثلاثمائة ألف أسبر Aspri[٢] سنويًا، من إيرادات الأراضى الواقعة حول نهر ستريمون Strymon[٣].

لقد توسّم فيه أولئك البائسين (البيزنطيين) خيرًا، من أجل الحصول على الإمدادات الغذائية، وكذلك النفقات الأخرى المتعلقة بالإنفاق على أورخان Orchan المنحدر من نسل عثمان. الذى تم ذكره سابقًا [٤].

بعد تأكيد تلك الصداقة الواضحة والمتينة معه . اتجهوا نحو الاحتفال بذلك . كما فعل ذلك القادمون من والاشيا Walachia وبلغاريا Bulgaria. أما الذين عاشوا فى جزر ميتيلين Mytilene ورودس Rhodes، والسكان الجنوية فى غلطة ، فقد حضروا ومعهم الهدايا ، وقاموا بإذلال أنفسهم أمام ذلك الشيطان النّهم ، أكل لحوم البشر، بعد أن تسلّموا ما بدا أنه ضمانات ثابتة ، لم يقم باحترامها، وقام بإلغائها أكثر من مرة .

١- المقصود هنا هو الإمبراطور يوحنا الثامن باليولوغس (١٤٢٥- ١٤٤٨م) .

٢- يلاحظ أن الترجمة الكاملة لحولية ميخائيل دوكاس، لم تتطرق لنوع أو اسم النقود التى سيتم دفع المبلغ بها ، واكتفت بذكر أنها ٣٠٠ ألف من العملات الفضية ، انظر Duukas, Op. cit, p. 191 .

وعلى الرغم من ذلك فيمكننا تعريف الأسبر Aspri بأنه عملة صغيرة تعادل كل ٥٢ قطعة منها ، دوكات بندقى ذهبى واحد، عن ذلك انظر:

Theodore Spandounes, Op. cit, p. 109 .

٣- نهر فى منطقة البلقان يصب فى بحر إيجه انظر: O.D.B, vol .3 , p. 1968 .

٤- عن الأمير العثمانى أورخان وأسباب لجوئه للقسطنطينية . انظر ما سبق، ص١٩٥، هامش (٢) . وانظر ما يلى ص٢١٨،٢٢٠ .

الفصل الرابع والثلاثين

وهكذا ، فإن هذا الوغد (محمد الفاتح) كان يعتقد أن كل شئ قد جرى ترتيبه على نحو مرض بسبب تظاهره بالسلام مع كافة المسيحيين، كما عقد معاهدة لمدة ثلاث سنوات مع هونيادى Hunyadi[1] الوصى على عرش المجر. وتوجه بنفسه للحرب ضد القرمانيين Karaman ، وكانت حجّته فى ذلك كله، أنه أصبح الآن صديقًا مقبولاً بالنسبة للمسيحيين . ويجب عليهم أن يحافظوا على السلام وعلى العهد بينهما، على الرغم من كونهم من جنس مغاير ، ومن ديانة مختلفة.

وعلى الرغم من أن كرمان Karman[2] كان مسلمًا ، ويتبع إيمان (النبى) محمد، فإنه لم يتوقف مطلقًا عن إثارة القلاقل والحروب فى أوقات الأزمات . لهذا ، فقد استقر عزم محمد (الفاتح) على ضرورة وضع نهاية لهذا التهديد. وقام بالتخطيط لذلك ، وهو ما حدث بالفعل ، فقد علم محمد أنه بمجرد سماع كرمان بوفاة السلطان مراد، قام باحتياج الحدود ، والاستيلاء على ثلاث قلاع ومنطقة كبرى من الإقليم . ولم يكن (السلطان) مراد، قد ورث تلك الأراضى والقلاع عن أسلافه ، لكنه انتزعها بالقوة من أسلاف كرمان قبل فترة وجيزة.

وهكذا فإن محمد، الذى كان فى الأصل لصًا ، وقاطع طريق brigand مثلما كان أبيه أيضًا [3]، وقد وجد مبررًا معقولاً فى الخطا الذى ارتكب ضدّه حديثًا ، وخرج على رأس قوة عسكرية كبيرة ، لمواجهة الكرمانيين، واستعادة ممتلكاته .

١- هو القائد المجرى حنا هونيادى، انظر ما سبق ، ص١٥٩ ، هامش (١) .

٢- كان اسمه إبراهيم بك ابن كرمان ، الذى قام بالتحريض على قيام ثورة فى إمارات جرميان Ger-miyan ، وأيدن Aydin ، ومنتشة Menteshe ضد الحكم العثمانى، عن ذلك انظر : Doukas, Op. cit, p. 304, not . 232 ; Runciman . op. cit, p. 64 .

٣- امتلأت حولية المؤرخ البيزنطى ميخائيل دوكاس ، بالعديد من عبارات السب والتجريح فى حق السلطان محمد الفاتح وأسلافه العثمانيين. ويمكن فهم ذلك- بالطبع - فى ضوء المرارة ، التى يشعر بها المؤرخ البيزنطى تجاه الأتراك العثمانيين المسلمين الذين قاموا بتقويض أركان الإمبراطورية البيزنطية المسيحية ، وتمكنوا من فتح القسطنطينية، وجعلوا منها عاصمة لدولتهم .

وإن كان ذلك لايمنعنا من تلمس رؤية أخرى لدى دوكاس ، تجاه محمد الفاتح وأجداده العثمانيين ، بوصفهم فى الأصل من العناصر الرعوية . التى امتهنت الرعي، وحياة الصحراء، وربما الانقضاض على مراعي وحيوانات الآخرين.

فقام بعبور المضايق مع قواته الغربية ، وانتظر في بورصا حتى لحق به قائد جيشه الشرقي، وعندها تحرك باتجاه كوتاهيه Cotyaeum ، ومنها واصل تقدمه نحو سالوتارس Salutaris في فريجيا Phrigia ، والتي أطلق الأتراك عليها اسم قارا ساراى Cara Sarai، المتاخمة للحدود مع كرمان .

عندما شعر سكان كرمان، باقتراب جيش محمد، أرسلوا له رسلاً من طبقة النبلاء ، لالتماس الصفح عن أخطائهم، وتقديم المقابل عن القلاع التي قاموا بالاستيلاء عليها.

قام السلطان بالصفح عنهم للسبب التالي:،فقد تشاور البيزنطيون معًا ، وقرروا – بحماقة- اتخاذ خطوة عديمة الجدوى، وإرسال سفارة إليه تخبره بأن قسطنطين قد أصبح الآن هو الإمبراطور . وفي الحقيقة فلم يكن قد تم تتويجه بعد، ولما كان ذلك لم يحدث حتى الآن، فإنهم لم يشيروا إليه أبدًا بكونه «إمبراطور البيزنطيين».

وكما جرت العادة ، قابلته السفارة البيزنطية الوزراء أولاً، وقاموا بتسليم الرسالة إليهم، التي كان فحواها أن «الإمبراطور الجديد» لم يتسلم بعد المبلغ المالي السنوى ، المقدّر بثلاثمائة ألف أسبر . وفضلاً عن ذلك ، فإن أورخان المنحدر من نسل عثمان، تمامًا مثل حاكمكم محمد، هو الآن رجل في شرخ شبابه ، ويحضر إليه يوميًا جموع من الناس لتقديم احترامهم له، ويقدمون له التحية كسيدهم والمسئول عنهم، وإنه سعيد بحياته، ومنزلته العالية تلك ، وأنه يقوم بتقديم العديد من الهدايا إليهم ، وأنه الآن لم يعد لديه ما يقدمه. ولهذا فقد التمس الأموال من الإمبراطور ، الذي يعاني من فقر الامكانات. ولهذا فنحن نقدم لكم اقتراحين: أن تضاعفوا المبلغ المخصص ، أو أن نطلق أورخان ليتوجه إلى حيث يريد، فلايوجد لدينا سبب يجعلنا نقوم بإعالة أحد أبناء عثمان، الذي يجب أن يتلقى الاعتمادات المالية من أهله وذويه . يكفي أننا نقوم بحراسته. ونقوم بمنعه من مغادرة القسطنطينية».

استمع خليل باشا إلى ذلك ، وكان يشعر بميل ناحية البيزنطيين لسببين: الأول أنه كان بطبيعته رجلاً طيبًا سمح النفس، والثاني أنه كان على استعداد لتقبل الرشاوى . وإذا ما جاءه أحد الأشخص للحديث معه، حاملاً معه ذهبًا ، فإن هذا يجذب انتباهه كلية كأنه ينظر في المرآة . ويستطيع هذا الشخص أن يقول ما يريد قوله دون خوف منه ، حتى لو كان ما يقوله عدائيًا بالنسبة له .

ولهذا ، فعندما سمع خليل باشا ما يريد الإمبراطور والسناتو قوله للسلطان محمد ، أجاب على السفراء البيزنطيين قائلاً :

«إنكم تتصفون بالحمق والجهل أيها البيزنطيين! منذ فترة طويلة وأنا أدرك حيلكم وخداعكم الدنئ. يجب عليكم أن تغيّروا من أساليبكم، كان السلطان السابق (مراد) ليّن العريكة. وكان ودودًا يتصف بالصدق والاخلاص، ويتعامل بوحى من ضميره وأخلاقه فى كافة معاملاته. لكن سلطاننا الحالى، محمد، ليس إنسانًا طيبًا كما تعتقدون. وإذا ما أفلتت القسطنطينية من قبضته، لأننى أعلم جرأته واندفاعه وجموحه، فسوف أدرك حقًا أن الرب ما زال يغفل عن مؤامرتكم وخططكم الشريرة، وإنكم لحمقى بالفعل! لقد عقدنا بالأمس اتفاقية، أقسمنا على احترامها. وما زالت موجودة بين أيدينا كما أن المداد الذى كتبت به، لم يجف بعد.

لماذا عبرتم هضبة الأناضول، وحضرتم إلى فريجيا بنيّة تخويفنا، وإفزاعنا، ونشرتم أشباحكم من أجل وضع الخطط ضدنا. نحن لسنا أطفالاً نفتقر إلى التفكير وإلى التقص فى استخباراتنا ومعلوماتنا، فضلاً عن تمتعنا بالقوة العسكرية، وإذا ما أردتم القيام بعمل عدوانى ضدنا، فلتقدموا على ذلك، وإذا أردتم أن تدفعوا المجريين على عبور الدانوب ومواجهتنا دعوهم يفعلون ذلك. وأيضًا إذا ما أردتم محاربتنا وغزو أراضينا – وهو الشئ الذى انعدمت فرصته لديكم منذ وقت بعيد – لماذا لاتفعلون ذلك؟ يجب أن تدركوا أنكم لن تتوقوا إلى فعل أىّ من هذه الأفعال. ومن ناحية ثانية، مهما كان ما تفكرون به، فإننا سوف ننتزعه من قبضتكم. وعلى أية حال، سوف أخبر سيدى بطلباتكم، وأيًا ما كانت إرادته فهى التى سيجرى تنفيذها».

استشاط محمد (الفاتح) غضبًا عندما سمع برسالة الوفد البيزنطى. وعلى الرغم من حيرته وتردده، فقد اضطر للتراخى مع كرمان، فى نفس الوقت الذى كان قد استقر فيه عزمه على القضاء عليه تمامًا، لكنه حدّث نفسه قائلاً «بينما أنا هنا فى الشرق، فإن إمبراطور بيزنطة ربما يقوم باستدعاء المسيحيين الآخرين (المجريين والصرب) لمهاجمتى. كما أنه ربما يطلق سراح أورخان، ويقدّم له المساعدة، وربما يستولى على الجزء الشرقى لإمبراطوريتى، بينما يسقط الجزء الغربى من الإمبراطورية فى يد البيزنطيين.

دارت تلك الأفكار فى خلده، فقام باستقبال رسل كرمان، بحفاوة كبيرة، مستخدمًا كافة وسائل الترهيب والترغيب بشكل ملائم، حيث عقد معهم معاهدة سلام، وأعادهم إلى بلادهم بطريقة وديّة.

وأجاب محمد رسل الإمبراطور البيزنطى قائلاً «عما قريب سوف أكون فى أدرنة ، وعندها، يجب أن تخبرونى بكل احتياجات الإمبراطور، وما ينقص مدينتكم ، وسوف أكون مستعداً لتلبية كافة احتياجاتكم».

وتركهم يتصرفون من عنده، بعد أن قام بإرضاء غرورهم ، بوعود طيبة من هذا النوع .

وقام بعد عدة أيام بعبور المضايق والوصول إلي أدرنة ، ثم أرسل أحد خدمه إلى منطقة ستريمون ، من أجل إيقاف المبلغ السنوى الذى كان قد تم إقراره للإمبراطور البيزنطى من قبل[١] . كما قام أيضًا بإبعاد الأهالى والموظفين من تلك المنطقة، الذين تمتعوا بالبقاء بها لمدة عام واحد. وبدأ بعد ذلك فى عملية تسببت فى حدوث ضرر فادح للبيزنطيين .

أرسل فى بداية الشتاء ضباطه برسائل إلى كافة أقاليمه الغربية والشرقية، طالبًا إمداده بالآلاف من عمال البناء، الذين يعملون فى حرق الجير.

وبإيجاز شديد، كان العمال والمواد الخام جاهزين فى فصل الربيع (١٤٥٢م) من أجل تشييد قلعة عند مضيق البوسفور ، فى مواجهة القسطنطينية.

سمع البيزنطيون بتلك الأخبار السيئة ، وكذا سكان القسطنطينية وآسيا وتراقيا ، وكذلك المسيحيون فى الجزر، الذين امتلأوا بالحزن والأسى، وشعروا بالخوف ، ولم يكن بوسعهم أن يفعلوا شيئًا ، سوى القول «الآن، لقد أصبحت نهاية المدينة وشيكة ، تلك هى الإشارة التى سوف تعبر عن نهاية أمتنا وشعبنا ، لقد جاء وقت المسيح الدجال ، ماذا يمكننا أن نفعل ، وما سوف يكون عليه قدرنا ومصيرنا ؟ أيها الرب، اقتص أرواحنا ، قبل أن ترى عيون عبيدك تدمير المدينة. لاتدع أعداءك – أيها الرب– يقولون : أين أولئك القديسين الذين يقومون بحمايتها والسهر عليها»؟.

واجه الجميع تلك الأخبار . أولئك الذين سكنوا القسطنطينية ، وكافة المسيحيين الذين عاشوا فى مناطق متفرقة من الأناضول ، وسكان الجزر ، والذين كانوا فى الغرب، تلك الأخبار السيئة بالبكاء والنحيب.

١- كان مقداره ثلاثمائة ألف أسبر Aspri من أجل إعالة الأمير العثمانى أورخان ، عن ذلك انظر ما سبق ، ص٢١٨ .

وخلال تلك الأثناء ، بدأ محمد فى بداية الربيع فى إحضار عمال البناء والحرفيين من كافة الأنحاء.

قام الإمبراطور بارسال سفرائه إلى أدرنة ، لا من أجل التساؤل حول نوايا السلطان ولا من أجل البحث حول اعتراض محمد على مضاعفة المبلغ السنوى المتفق عليه ، لكن لكى تبلغه بالآتى: «لقد مر الآن أكثر من مائة عام على احتلال سلفك مراد ابن أورخان لمدينة أدرنة (١). ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن، وبفضل المعاهدات والاتفاقيات التى عقدت بيننا وبينكم، لم يقدم أحد من أسلافك على بناء قلعة ، أو حتى مجرد كوخ بالقرب من المدينة (القسطنطينية) ، وإذا ما حدث أن ظهرت نذر الحرب بيننا ، ويدأ كل طرف فى الاستعداد لها، فإن اجتماعاً يعقد بيننا ، كان كفيلاً بإقرار السلام . وعندما أراد جدك محمد بناء قلعة(٢) على الجانب الأناضولى

١- على الرغم من استيلاء العثمانيين على مدينة أدرنة عام ١٣٦٩م، فإن السلطان العثمانى مراد الأول Murad I لم يدخل المدينة إلاّ فى شتاء العام ١٣٧٦-١٣٧٧م، واستمرت مدينة أدرنة عاصمة للعثمانيين من ذلك الوقت وحتى نجاح السلطان محمد الفاتح فى فتح القسطنطينية ١٤٥٣م . عن فتح أدرنة انظر:

Asik pasaoglu , Op. cit, pp. 57-58 .

القرمانى، أخبار الدول، ص٢٩٩ .

Zachariadon, E. " The Conquest of Adrianople by The Turks" in, S.V, XII, 1970, pp. 211-217 ; O.D.B, vol , I, p. 23 .

٢- جانب الصواب المؤرخ البيزنطى دوكاس فى هذه المعلومة. إذ أن السلطان العثمانى بيازيد الأول Bayazid I (١٣٨٩-١٤٠٢م) هو الذى قام ببناء تلك القلعة المعروفة باسم قلعة الأناضول Anadolu Hisar على ضفة البوسفور فى العام ١٣٩٦م ويبدو أنه من الصعب علينا أن نتخيل أن السلطان العثمانى بيازيد الأول قد طلب تصريحًا من الإمبراطور البيزنطى مانويل باليولوغس Manuel II Palaeologus (١٣٩١-١٤٢٥) لأن السلطان العثمانى كانت له اليد العليا على الدوام، ومارس علاقة التبعية مع الإمبراطور مانويل، وأصدر إليه العديد من الأوامر التى قام مانويل بتنفيذها . وفى إحدى المرات تذمر الإمبراطور مانويل من ذلك، الأمر الذى جعل السلطان العثمانى بايزيد الأول يوجه إليه رسالة ضمّها عبارته الشهيرة «إذا لم تكن راغبًا فى تنفيذ أوامرى ، فأغلق عليك أبواب مدينتك (القسطنطينية) واحكم داخلها ، فكل ما وراء الأسوار ملك لى » عن العلاقة بينهما انظر:

Asik pasaoglu, Op. cit, pp. 68-70 ; Doukas, Op. cit, pp. 83-86 .

صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص١٦٤-١٧٤ Barker , Op. cit, pp.

(الشرقى) لمضيق البوسفور ، فإنه طلب تصريحًا من الإمبراطور مانويل بذلك، وظل يلتمس هذا الأمرَ لوقت طويل وكان مثل الابن الذى يلتمس أمرًا من أبيه ، حتى سمح له بذلك.

ووافق مانويل على بناء تلك القلعة ، لأن الأناضول بالكامل كان من ممتلكات الأتراك العثمانيين منذ عدة أجيال سابقة ، لكن الآن وعلى الرغم من العلاقات الجيدة بيننا ، فإننا نلحظ بوضوح تام، أنك تنوى أن تمنع الفرنجة من العبور إلى البحر الأسود ، وأن تقوم كذلك بتجويع مدينتنا، وأن تمنع عنها الإيرادات التى تعود عليها من عمليات تجار العبور . يجب عليك أن تقوم بتغيير خططك . إننى التمس ذلك منك . وسوف نكون أصدقاء مخلصين لك. مثلما كنّا مع والدك . ذلك الحاكم النبيل . وإذا ما أردت منا أن نقوم بدفع ضريبة لك ، فسوف نوافق على ذلك ».

وكان رد محمد (الفاتح) هو التالى «لاشئ يجذب اهتمامى نحو مدينتك ، التى تحتفظ بتحصيناتها الخارجية ولاتتبعها أية مناطق أخرى، كما أنه لاتوجد بها سلطة قضائية ، وإذا ما كانت رغبتى هى إنشاء قلعة على البوسفور ، فلا أحد يستطيع منعى من تحقيق ذلك، فجميع الأراضى تابعة لى، وسوف أقوم بإنشاء القلاع على الجانب الآسيوى للمضايق، حيث يقطن الأتراك هناك . كما أن الأراضى الواقعة فى الجانب الغربى هى ملكى أيضًا وليست أراضٍ مستأجرة . ولهذا فإن البيزنطيين غير واثقين من دوام الاستقرار بها. لابد أنكم نسيتم المشاكل التى سببتموها لوالدى، والوضع الخطر الذى حاق به ، عندما عقد إمبراطوركم تحالفًا مع المجريين، الذين هاجمونا عن طريق البر، بينما كانت سفن الفرنجة تتسلل إلى بحر مرمرة ، وتغلق الطريق إلى غاليبولى، مانعة والدى من العبور، ونتيجة لهذا فقد اضطر للتوجه إلى أعلى، حيث القلعة التي قام والده ببنائها، وتمكن ، عبر مشيئة الله ، من عبور البوسفور بواسطة القوارب الصغيرة . كنت فى ذلك الوقت صبيًا فى أدرنة انتظر قدوم المجريين، الذين كانوا فى ذلك الوقت ينهبون المناطق الريفية المحيطة بفارنا Varna . وكان الإمبراطور (البيزنطى) ، والمسيحيون Gavours[1] مبتهجين وسعداء، بينما كان المسلمون يفترسهم القلق والفزع.

١- استخدم البروفسير جونز Jones هذه الكلمة فى ترجمته لهذا الفصل من حولية ميخائيل دوكاس، بينما استخدم البروفسير ماجولياس Magoulias كلمة Gavurs. وقمت بترجمتها بالمسيحية وذلك بعد =

ويعد التعرض للعديد من الأخطار ، نجح والدى فى عبور البوسفور ، وأقسم على بناء قلعة أخرى فى الجانب الغربى مقابل تلك القلعة الموجودة فى الجانب الشرقى. ولم يتمكن من تحقيق ذلك، لكن بمشيئة الله وعونه ، فإننى سوف أقوم ببنائها .

لماذا تحاول إثنائى عن بنائها ؟ ألا أستطيع أن أقوم بذلك ضمن ممتلكاتى ؟ اذهب ، وأخبر إمبراطورك ، أن هذا الحاكم يختلف عن أسلافه ، وأن الذى لم يكن لدى أسلافه القدرة على تحقيقه، قد أصبح الآن ملك يمينه، ومن السهل عليه إنجازه . كما أنه لديه الإرادة والرغبة الشديدة لإنجاز ما لم يحاول أسلافه القيام به. وإذا ما عادت أية سفارة للحديث فى هذا الموضوع ثانية، فلابد أنها بذلك تسعى إلى الإطاحة برؤوس أصحابها!» .

عندما استمع رسل الإمبراطور إلى رد السلطان، الذى تميز بالقسوة والصرامة، وامتلأ بالصلف والغرور، عادوا إلى القسطنطينية، وقدّموا للإمبراطور تقريراً بكل ما جرى .

شعر سكان المدينة (القسطنطينية) بالخوف الشديد. وكلما قابلوا بعضهم البعض، بادروا إلى التساؤل ، إنه سوف يهاجم مدينتنا ويقوم بقهرها ، إخضاعها . ويقوم باسترقاقنا داخلها. وسوف يسحق بقدميه التماثيل والأيقونات الخاصة بديننا، ويقوم كذلك بتخريب وتدمير معابدنا الطاهرة، وسوف يلقى إلى الشوارع برفات القديسين والشهداء . واحسرتاه ! ماذا يمكننا أن نفعل ؟ أين يمكننا أن نجد الملجأ والمأوى ؟ وتبادلوا تلك الكلمات والمراثى ، وأخذوا فى البكاء والنحيب ، والتحسر على مصيرهم .

وفى نهاية شهر مارس ، إبان فصل الربيع ، أصبح الجص جاهزاً بعد أن تم حرقه بكميات كبيرة فى الأفران التى تمت إقامتها فى أماكن مغطاة ومخبأة ، وكان يتم جلبه بشكل يومى،

= العودة للأصل التركى للكلمة ، حيث تعنى كلمة Gavur الشخص المسيحى ، أو الملحد ، أو غير المسلم، انظر: Mevlüt Sari, El - Mevarid Türkçe - Arabça Lügati, Istanbul , 1985 , p. 186.

كذلك الأمر، فقد ذكر المؤرخ العثمانى المعاصر لفتح القسطنطينية ، طورسون بك الكلمة مع تحريف بسيط Geber، بمعنى الكافر Kâfir أو المجوسى الذى يعبد النار Atesperest، انظر:

Tursun Bey , Op. cit, p. 247 .

وهكذا فإن دوكاس يعنى بالمسيحيين هنا Gabours كل من البيزنطيين ، والمجريين ، الفرنجة (اللاتين).

كذلك تم جلب الأخشاب من نيقوميديا Nicomidia(١) ومن Pontic Heraclia (٢)، وجلب الأحجار من الأناضول.

وطبقًا لأوامر السلطان، كان يجب على حكام الأقاليم فى الأناضول ، وفى الأراضى الغربية إحضار العمال عن طريق التجنيد الإجبارى .

وبعد ذلك غادر محمد أدرنة ، وحضر إلى المكان الذى سيتم تشييد القلعة عليه، حيث اختار منطقة مرتفعة قريبة من المكان المسمى Sosthenium (أو Phonea كما قال القدماء) وأمر بوضع الأساسات على شكل مثلث . وضرورة تنفيذ تعليماته على الفور، كما أمر بأن تسمى القلعة التى كانت تقف فى مواجهة القلعة التى قام جدّه ببنائها باسم Pas- chesen ، التى تعنى قاطعة الزور Cut - Throat(٣).

جاء تنظيم عمليات تشييد تلك القلعة على النحو التالي: عهد إلى خليل باشا بأحد الأركان المواجهة لمضيق البوسفور ، مع تعليمات ببناء برج وقلعة شديدىّ الارتفاع والمناعة . وعهد إلى زاجان Zagan بمهمة بناء برج أخر امتاز بحجمه الضخم ، فى الركن الأخر الذى يطل على البر. أما الركن الثالث فقد عهد به إلى ساروجا Saritzia وكان به ثلاثة أبراج، كل منها كان منيعًا كقلعة ، وقام الثلاثة ببناء ذلك على نفقتهم الخاصة .

كان السلطان مسئولاً بنفسه عن باقى أجزاء القلعة، وأماكن اتصال الأسوار ببعضها البعض. وشوهدت أعداد ضخمة من العمال تم جمعها بواسطة القضاة Cadhis ، من كافة أرجاء البلاد، بعد أن تم تشريع عقوبة الموت للمتمردين والهاربين .

وقام (السلطان) بتوزيع العمل، مقدار ذراع واحد Cubit لكل بنّاء . وكان عدد العمال ألف عامل، لكل منهم مساعدين من أجل بناء السور الخارجي . ونفس العدد من العمال ومساعديهم لتشييد السور الداخلي.

١- كانت هذه المدينة القديمة، مكان مدينة ازميت Izmit التركية الحالية ، انظر :
W.N.G.D, pp. 561 ; 847 .

٢- مدينة وميناء على البحر الأسود ، أقام بها الجنوية مستعمرة تجارية بعد العام ١٢٦١م، ثم قاموا بشرائها من الإمبراطورية البيزنطية الضعيفة ١٣٦٠م . قام العثمانيون بغزوها عام ١٤٥٣م، انظر O.D.B, vol . 2, pp. 915-916 .

٣- لعبت تلك القلعة التى عرفت باسم الروملى حصار (قلعة الروم) دورًا هامًا فى حصار القسطنطينية، وسيطرة العثمانيين على مضيق البوسفور. عن ذلك انظر ما سبق، ص١٧٩ ، هامش (١) .

كان عدد العمال ضخماً للغاية، لأنه شمل أولئك الذين كانوا يقومون باحضار الحجارة، والجصّ ، وأولئك الذين وقفوا على أفران الآجر.

وأحياناً ما قام الرجال من الطبقات العليا – تحت وطأة النظرات القاسية لحاكمهم- بالمساعدة فى حمل الجصّ والأحجار.

تم نقل مواد البناء من السواحل البعيدة، وكذلك من الأراضى البيزنطية، ومن أطلال الآثار التى كانت تحتفظ بأهمية ذات يوم. من بينها عدد من الأعمدة تم جلبها من بقايا كنيسة ميخائيل كبير الملائكة Archangel Michael[١]. وأثار هذا الأمر، الحمية والحماسة الدينية لسكان القسطنطينية . وخرجت حملة عسكرية لمنع الأتراك من ذلك، لكن الأخيرين قاموا بتمزيقها شر ممزق.

رأى الإمبراطور أن خطة السلطان قد نجحت . فحاول أن يجرّب وسيلة أخرى فقام بإرسال مجموعة متنوعة من الهدايا إليه. فضلاً عن تزويده بالطعام والشراب بشكل يومى. فلم يكن لديه حريّة الاختيار ، سوى استمرارية التعامل والتفاوض مع ذلك الثعبان الوحشى، كما تقتضى إجراءات وطقوس الشرف والنبل [٢].

أرسل محمد بعضاً من جنوده الانكشارية من أجل الحراسة ومراقبة من يقومون بإتلاف المحاصيل ، لكنه أصدر أوامره إليهم أيضاً ، بألاّ يقوموا بمنع الأتراك الآتين إلى مراعى البيزنطيين بحثاً عن طعام لحيواناتهم من الخيول والبغال، أو أية حيوانات أخرى تستخدم فى حمل الأحجار ومواد البناء الخاصة ببناء القلعة.

وكان ذلك معناه ، أنه يسمح لهم فقط بالتجول ، دون مراقبة حقيقية لأى عملية إتلاف للمحاصيل . كما قال لهم أيضاً : «إذا ما غضب البيزنطيون لذلك وقاموا بالهجوم على الأتراك، يجب أن تتضامنوا مع الأتراك فى القتال ضدهم».

١- هو كبير الملائكة الذى ورد ذكره فى العهدين القديم والجديد، كانت له كنيسة عرفت باسمه فى القسطنطينية . انظر: O.D.B, vol , I, p. 155 .

٢- يحاول المؤرخ البيزنطى دوكاس ، إسباغ الكثير من صفات الشرف والنبل على الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر، فى نفس الوقت الذى يحاول فيه إلصاق جميع صفات التوحش ، والبربرية بالسلطان محمد الفاتح .

فى تلك الأثناء كان ابن اسفنديار Spentiar، أخو زوجة السلطان مراد ، والذى يعد بمثابة عم لمحمد، بعد زواج أبيه من أخته ، والذى جاء ذكره سابقًا، كان قد حضر من أدرمتيوم(١) Adramyteum على رأس جماعة من الرجال، استجابة لأوامر محمد السابقة، وذلك بغرض تقديم المساعدة، عبر الإلزام العام، من أجل بناء القلعة.

وبمجرد وصوله إلى البرج المسمى ابيباتا Epibata (٢)، ترك – ومرافقوه – خيولهم والحيوانات التى تحمل أغراضهم غير مربوطة بإحكام ، من أجل البحث عن طعام وسط محاصيل البيزنطيين، فقامت بإتلاف الحنطة ، وباقى الحصاد.

وشاهد أحد الفلاحين البيزنطيين ذلك، فجرى لطرد الخيول من أرضه ، وأسرع أحد الخيالة الأتراك بإيقافه بضربة قوية. واندفع أحد أقارب الفلاح البيزنطى لنجدته، ولحقه بيزنطى آخر. بينما تجمع العديد من الجنود الأتراك لمواجهتهم ، وأسفرت الموقعة عن سقوط العديد من القتلى على الجانبين .

وفى وقت مبكر من صباح اليوم التالى، توجه كاجيا بك Kagia Bey إلى السلطان وبعد تقديم التحية حسب العرف المتبع ، قدم له تقريرًا بكل ما حدث عند قلعة ابيباتا. ولم ينتظر محمد سماع رواية أخرى لما حدث ، ولم يكلف نفسه عناء البحث عن تفسير آخر لما حدث . لكنه أخبر كاجيا بك بأن يأخذ جنوده وأن يتوجه فى الحال لقتل الفلاحين البيزنطيين المجاورين لممتلكاته .

وهذا ما حدث بالفعل ، إذ قام الأتراك بهجوم مباغت عند الفجر، بينما كان الفلاحون متوجهين لحصد المحاصيل ، فقتلوا حوالى الأربعين منهم(٣)، وكان ذلك بمثابة إعلان للسياسة العدائية ، التى تهدف إلى القضاء على البيزنطيين .

١- هى الآن مدينة أدرميت Edremit على الساحل الشمالى الغربى لآسيا الصغرى. استولى عليها اللاتين ١٢٠٥م ، سيطر عليها الجنوية عام ١٣٠٤م. تمكن العثمانيون من الاستيلاء عليها حوالى العام ١٣٣٤م ، انظر . O.D.B, vol , I, p. 227

٢- هو حصن يقع على ساحل بحر مرمرة بالقرب من مدينة سليمبريا Selymbria ، قام ببنائه الكسيوس أبوكاكوس قبل نشوب الحرب الأهلية البيزنطية (١٣٤١- ١٣٤٧م) ، وذلك لكى يصبح ملجأ إذا دعت الظروف الطارئة إلى ذلك . انظر : Doukas , Op. cit, p. 304 . not , 235 .

٣- عن ذلك انظر: Schlumberger , Op. cit, pp. 27-28 ; Hidden, Op . cit, p. 55 ; Kielty . Op. cit, p. 78 .

عندما سمع الإمبراطور بما حدث ، قام بإغلاق بوابات المدينة (القسطنطينية) ، وأمر بالقبض على الأتراك الموجودين داخلها وسجنهم، لكنه قام بإطلاق سراحهم بعد ثلاثة أيام. وماذا كان بوسعه أن يفعل أكثر من ذلك ؟ فقد كان من بين الأتراك الذين قبض عليهم بالمدينة، العديد من الخصيان العاملين فى بلاط محمد (الفاتح) .

وعندما مثلوا فى حضرة الإمبراطور ، أبلغه أحدهم : «أنه إذا ما أطلقت - جلالتكم- سراحنا قبل غروب الشمس ، فإننا سوف نقدم الشكر لكم على ذلك. لكن إذا قمت باحتجازنا إلى ما بعد غروب الشمس . ولم نمثل أمام سلطاننا فلن تلق منا أى استحسان لإطلاق سراحنا بعد ذلك ، لأن معنى هذا أنك تضمر لنا القتل. إن وضعنا ليدعو للشفقة والرثاء، يجب أن تطلق سراحنا الآن. وإذا لم تفعل ذلك، فمُر بضرب أعناقنا فى الحال ، إنه لمن الأفضل لنا أن نلقى الموت على يديك ، بدلاً من الموت على يد غازى العالم كله» .

عندما سمع الإمبراطور تلك الكلمات، تصاعدت عوامل الرحمة والشفقة لديه، وقام بإطلاق سراحهم فى الحال ، ثم أرسل مبعوثين للسلطان بالرسالة التالية:

«لأنك اخترت الحرب ، ونظراً لأننى لم أستطع تغيير طريقة تفكيرك عبر تذكيرك بالقسم الذى أقسمته، وبواسطة التزامى بإبداء الطاعة والخضوع كما أردت فإننى سوف أقوم - عبر إرادة الرب- بالبحث عن ملجأ ، فإذا ما كانت رغبته أن تسقط المدينة بين يديك ، فمن ذا الذى يستطيع معارضته فى ذلك؟ وإذا ما جعل السلام يزهر فى قلبك ، فسوف أتقبل ذلك بسعادة ، وإننى لأرجو- فى هذه الظروف التى نمر بها- أن ترجع إلى معاهداتك وإلى قسمك . علماً بأننى سوف أقوم بإغلاق بوابات مدينتى من الآن فصاعداً ، وسوف أقوم بالدفاع عن سكانها بكل ما أوتيت من قوة . ويبدو أنك سوف تستمر فى تسلّطك على رعاياك المظلومين ، حتى يحكم الرب برأيه السديد بينك وبيننا».

عندما وصلت تلك الرسالة إلى عدونا البربرى (السلطان الفاتح) ، لم يبذل أدنى محاولة للتراجع ، بل العكس ، أمر بإعلان حالة الحرب[1].

ظل الإمبراطور ، طوال ستة أشهر تلت ذلك، يستعرض كافة الاحتمالات الممكنة ، وقام بتوجيه اهتمامه نحو دفاعات المدينة، وجلب سكان المناطق الريفية القريبة إلى داخل الأسوار، بالإضافة إلى قيامه بتخزين القمح ، والمحاصيل الأخرى التى جرى حصدها ودرسها حديثاً .

١- قام السلطان الفاتح باحتجاز المبعوثين البيزنطيين، وأمر بقطع رقابهم، انظر:

Doukas, op. cit, p. not . 236 .

وكان محمد قد انتهى الآن من بناء القلعة ، مما بعث لديه شعوراً بالرضا والارتياح ، وتم تشييد الأسوار والأبراج بسمك ثلاثين ياردة ، وارتفع كل منهما بما فيه الكفاية، لتتناسب مع الغرض الذى أنشئت من أجله. وأقام خليل باشا فى البرج الذى قام ببنائه ، مدفعًا يستطيع أن يطلق قنيفة يبلغ وزنها ستمائة رطل. كما جعل فيروز أغا Feruz Aga، أحد خدمه الموثوق بهم، مسئولاً عن التحصينات وأصدر إليه الأوامر التالية:

«لايجب أن تعبر أية سفينة من بحر مرمرة إلى البحر الأسود ، أو من البحر الأسود إلى إلى بحر مرمرة ، أيا ما كانت جنسيتها ، حتى إذا كانت تخص مدن جنوا Genoa، البندقية Venice، كافا Caffa[١]، طرابيزون Trabizone أميسوس Amisus[٢]، أو سينوب، أو حتى كانت من السفن التابعة لى، سواء أكانت سفينة تجارية ، أم سفينة ثلاثية المجاديف Trireme أو ثنائية المجاديف bireme ، أو صندل barge لنقل البضائع، أو حتى سفينة شراعية Cutter، إلا إذا قامت بطى أشرعتها، ودفعت الجمارك، عند ذلك يمكن للسفينة مواصلة طريقها، ويجب على المدافع أن تقوم بإغراق أية سفينة لاتلتزم بهذه التعليمات .

وبعد أن وجّه إليه تعليمات أخرى، بنفس الطريقة المتعالية، قام بتحديد أربعمائة رجل لحراسة القلعة . بعد ذلك عاد السلطان محمد إلى أدرنة . واكتملت خطته خلال أربعة أشهر فكان العام الثانى من حكمه ٦٩٩١[٣] من خلق العالم (١٤٥٢م) يتخذ مجراه الطبيعي.

١- Caffa أو Kaffa هى مدينة قديمة على موقع استراتيجى جنوبى شرقي ساحل كريميا Crimea تقع فى المنطقة الممتدة ما بين البحر الأسود وبحر أزوف Azof. أسس بها الجنوية مستعمرة تجارية فى العام ١٢٦٦م لتصبح المركز التجارى الأكبر فى شرق أوربا . استولى عليها العثمانيون فيما بعد عام ١٤٧٥م. انظر:

O.D.B. vol . 2 . pp. 1088-1089 .

٢- هى مدينة سامسون Samsun الحالية فى تركيا على ساحل البحر الأسود ، قام بفتحها العرب ٨٦٣م، واستولى عليها الأتراك السلاجقة ١١٩٤م. ثم إمبراطور طرابيزون ١٢٠٥م فالسلاجقة ١٢١٤م، قامت بها بعض المستوطنات التركية والبيزنطية جنبًا إلى جنب، انظر: O.D.B, vol . I, p. 78 .

٣- ربما كان هذا خطأً مطبعيًا فى ترجمة البروفسير جونز Jones. إذ أن الصحيح أن يكتب تاريخ العام هكذا ٦٩٦١ من خلق العالم. وهو ما حدث بالفعل فى ترجمة البروفسير ماجولياس Magoulias لحولية المؤرخ ميخائيل دوكاس . انظر . Doukas, Op. cit, p.199

وكان العام البيزنطى ٦٩٦١م يوافق العام الميلادى١٤٥٢م، عن ذلك انظر ما سبق ، ص٢١٣، هامش (١).

الفصل الخامس والثلاثين

مكث محمد فى قصره من نهاية الصيف، وحتى الأيام الأولى لفصل الخريف. غير أنهّ لم يغمض له جفن ، فكانت أفكاره تتجه، ليلاً ونهاراً ، صوب المدينة (القسطنطينية) وكيف يمكنه الاستيلاء عليها ؟ كيف يمكنه أن يصبح سيداً لها؟ .

وحدث أنه بينما كان (محمد) مشغولاً فى بناء القلعة ، أن حضر من القسطنطينية حرفى بارع، مجرىّ الجنسية، يتصف بمهارته الكبيرة فى سبك وصب المدافع، وكان قد وصل إلى المدينة فى وقت سابق . وقام بإظهار مهارته وبراعته أمام وزراء الإمبراطور ، الذين قاموا بإحضاره للمثول فى حضرته ، حيث قام الإمبراطور بمنحه مبلغاً مالياً ، لكن ذلك كان أقل مما كان يجب أن يقدم إليه مقابل كفاءته وبراعته .

وفى الحقيقة فإنهم (البيزنطيين) لم يكونوا عازمين على دفع أى مبلغ آخر خلاف تلك العلاوة المالية البسيطة والتافهة والجديرة بالإزدراء، ولهذا السبب فقد (الحرفى المجرى) الأمل فى أن يحصل على التقدير المناسب من جانبهم . وبعد أن مكث بالقسطنطينية يوماً واحداً ، اتخذ طريقه باتجاه الأتراك . حيث استقبله السلطان بترحاب كبير . وعامله بشكل جدير بالاحترام ، وبشرف كبير، وقام بتوفير الطعام والملبس الحسن له ، ثم منحه مبلغاً مالياً ضخماً، كان ربع هذا المبلغ كفيلاً بإبقائه داخل القسطنطينية .

سأله محمد (الفاتح) عما إذا كان بإمكانه صنع مدفع ضخم بما فيه الكفاية لإطلاق قذيفة تحدث تأثيراً فى أسوار القسطنطينية ، برغم سمكها ومناعتها . فأجاب الرجل «إذا ما رغبت ، فإننى أستطيع أن أصنع لك مدفعاً أكثر ضخامة من ذلك. إذا ما تم توضيح ذلك لى الآن. إننى أعلم أن أسوار المدينة معروفة بمناعتها، لكن القذائف التى سوف تخرج من المدفع الذى سوف أقوم بصنعه ستقوم بقهرها وإخضاعها ، حتى ولو كانت تضاهى أسوار بابليون[١]

١- هى مدينة بابل القديمة بالعراق ، جاء اسمها من باب ايلو باللغة الأكادية ومعناه «باب الله». ورد ذكرها فى الكتاب المقدس أكثر من مائتى مرة. مؤسس المدينة هو «نمرود» حسبما جاء فى سفر التكوين ١٠:٩ إلاّ أن البابليين ينسبون ذلك إلى مردوخ إلهم الأكبر . وصفها هيرودوت ، وذكر ارتفاع سورها ومنعته. انظر: قاموس الكتاب المقدس ، ص١٥٢-١٥٣ .

كان اسمها بالعبرانى بابل، وباليونانى بابيلون ، وتقع مكانها الآن بالعراق قرية الحلة . انظر: أحمد زكى بك، قاموس الجغرافيا القديمة، القاهرة، ١٣١٧هـ، ص٢٠ .

Babylon نفسها . سوف أقوم بكل ما فى وسعى لصناعته بشكل دقيق ، لكننى لا أعرف مقدار المسافة بين القنيفة والأسوار . ولهذا فإننى لا أستطيع أن أضمن ذلك تماماً .

أجابه السلطان «اصنع لى هذا المدفع، وسوف أهتم بهذا الأمر بنفسى».

هكذا بدأوا (العثمانيون) فى توفير سبائك البرونز ، وبدأ الصانع الماهر فى صب هذا المدفع الذى اكتمل تماماً خلال ثلاثة أشهر ، وكانت النتيجة رهيبة وفظيعة [١]، وتجلى ذلك عبر حدوث حالة من الدهشة والرعب.

وخلال تلك الفترة، وصلت سفينة تجارية تابعة للبندقية ، بقيادة الربان ريتزو Rizzo وأخذت فى عبور البوسفور باتجاه القلعة قاطعة العنق ، دون أن تقوم بطى أشرعتها . فقامت حامية القلعة بإطلاق قذائف (المدفع) عليها، فانطلق حجر ضخم صوب السفينة تماماً ، ليقوم بإغراقها. ونجح الربان وثلاثين من بحارته فى الهرب والوصول إلى الساحل بعد أن استخدموا قارباً صغيراً ، لكن الأتراك قاموا بالقبض عليهم [٢]، وربطوا أيديهم ورقابهم بالسلاسل ، وأرسلوا بهم إلى السلطان، الذى كان فى ذلك الوقت موجوداً فى ديديموتيشوم Di-dymoteichum [٣]، حيث أمر بضرب أعناقهم جميعاً ، باستثناء الربان الذى أمر بخوزقته، بعد أن أمر بإجلاسه على حافة وتد، وتركت جثثهم جميعاً بلا دفن .

١- أحدث هذا المدفع العملاق نقلة نوعية فى حصار القسطنطينية . وتسبب فى إحداث خسائر جسيمة بأسوار المدينة ، عن ذلك المدفع ، والمصادر التاريخية المعاصرة التى تحدثت عنه باستفاضة انظر ما سبق، ص١٠٧ ، هامش (١) : ليونارد الخيوسى ، ص١٣٣ : خالكوكونديلاس ، ص١١٨ : ريشيريو ، ص٢١٣ .

٢- انظر نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص٨٤–٨٥ . حيث يقرر أن السفينة البندقية التى قام الأتراك بإغراقها كانت تحت قيادة الربان انطونيو ريتزو Antonio Rizzo ، الذى ألقى القبض عليه وتمت خوزقته فى مدينة أدرنة . كما يذكر باربارو أن قنصل البنادقة فى القسطنطينية جيروليمو مينوتو Jerulemo Minoto قام بإرسال فابروزى كورنر Fabruzi Corner لثنى السلطان الفاتح عن إعدام ريتزو ، لكنه وصل بعدما سبق السيف العذل . ويؤكد باربارو أيضاً على شئ هام ترتب على ذلك حيث يذكر «تعد مسألة مقتل انطونيو ريتزو بداية نشوب الحرب بالنسبة لنا أهل البندقية (ضد الأتراك العثمانيين)». انظر : المصدر السابق، ص٨٥ .

٣- مدينة تقع فى إقليم تراقيا Thrace على نهر إريثروس Erythrus . ظهرت منذ نهاية القرن الثانى عشر الميلادى كأمنع المدن وأكثرها حصانة بفضل سورها المزدوج . وأصبحت المدينة خلال الحرب الأهلية البيزنطية (١٣٤١–١٣٤٧)م بمثابة مركز القيادة ليوحنا السادس كانتاكوزينوس John VI Kantakauzenos، الذى تم تتويجه بها عام ١٣٤١م، انظر: O.D.B, vol. I, p. 620 .

ولقد شاهدت ما جرى بنفسى [١]، عندما تواجدت فى منطقة مجاورة منذ عدة أيام خلت .

رحل السلطان من مدينة ديديموتيشوم إلى أدرنة فى شهر يناير (١٤٥٣م) ، وهناك تفقد استعدادات قواته ، وقرر اختبار المدفع الذى قام المجرى بصنعه ، وكان مخططًا أن يتم إطلاق القذيفة فى صباح اليوم التالى. وجرت عملية إبلاغ عامة لجميع سكان أدرنة من أجل تحذير كل شخص من الصوت الهادر والمدوّى الذى سيحدث إبان ذلك، حتى لايصاب أحد بالذعر والهلع لدى سماع ذلك الصوت الفظيع وغير المتوقع ، وحتى لايحدث إجهاض لأية امرأة .

عندما جاء الصباح ، تم اشعال البارود، فانبعث كمية كبيرة من الهواء الساخن ، واندفعت القذيفة خارج المدفع مع انفجار مدوٍّ ، حيث امتلأ الجو بسحب الدخان. وسمع صوت انطلاق المدفع على مسافة مئات Stades [٢]، من وقوعه ، وبلغت مسافة إطلاق القذيفة ألف خطوة paces من النقطة التى خرجت منها، محدثة فجوة فى مكان سقوطها ؛ بلغ عمقها ستة أقدام. كم هو عظيم وهائل ، ذلك المدفع الذى قام باطلاق تلك القذيفة.

سيطرت فكرة وحيدة على عقل محمد (الفاتح) ، بشئ واحد ظل يحلم به ليلاً ونهارًا ، فى منامه ويقظته ، سواء أكان فى قصره أم فى مكان آخر. كانت هذه الفكرة تدور حول الوسيلة التى يستطيع بها الاستيلاء على القسطنطينية .

وعندما يقبل الليل، كان محمد (الفاتح) يسير بمعيّة رفيقين له، أو يعتلون صهوات جيادهم للمرور حول مدينة أدرنة . مرتديًا لباس جندى عادى، ومنصتًا لما يقوله رفاقه . وإذا ما التفت أحد العامة إليه، وأدرك أنه السلطان، وقرر أن يخاطبه بألقاب الشرف حسب الطريقة المعتادة كان محمد يقوم فى الحال بإصابته بجرح مميت، دون أية إحساس بوخز الضمير، أو الشعور بالشفقة تجاهه ، تمامًا ، كما يسعد المرء بسحق برغوث[٣] . ذلك الوغد الشرير ، الذى كان يجب – إذا روعى الإنصاف– أن يُقتل بواسطة جنوده وأن نسرّ لمقتله.

١– هذه هى المرة الأولى التى يذكر فيها دوكاس أنه شاهد ما جرى بنفسه .

٢– Stadium : وحدة رومانية قديمة لقياس الأطوال تساوى ٦٠٦,٩٥ قدمًا إنجليزيًا ، انظر منير البعلبكى، المورد: قاموس إنجليزى عربى، بيروت ١٩٨٧م، ص٨٩٧ .

٣– هذا الكلام لم تتحدث عنه باقى المصادر التاريخية المعاصرة على الإطلاق ، فضلاً عن مجافاته للمنطق، ويمكن تفسير ذلك فى طيات ما يكنّه المؤرخ البيزنطى ميخائيل دوكاس للسلطان الفاتح من مرارة وكراهية عميقة .

ذات ليلة ، بعد الساعة الثانية ، أرسل السلطان بعض حراسه لاستدعاء خليل باشا، فتوجهوا لمنزله ، وأخبروا خصيانه بذلك، فذهب أحدهم إلى غرفة نوم سيده لإخباره برغبة السلطان فى رؤيته. وعند ذلك أصابته رعدة ورجفة شديدة ، وأيقن بالهلاك ، ثم رحل عن منزله بعد أن عانق زوجته وأطفاله ، حاملاً معه سلطانية Bowel من الذهب ، مليئة بالعملات الذهبية، ولهذا السبب الذى ذكرته سابقًا، كان قلبه قد امتلأ بالخوف والرعب (١).

وصل خليل إلى غرفة نوم السلطان ، حيث وجده جالسًا، مرتديًا جميع ملابسه ، فخرّ على ركبتيه ، وقام بمد سلطانية النقود أمامه ، لكن محمد قال له : «ما هذا يا لالا Lala (٢)؟ (وهو مصطلح يعادل كلمة الأب أو المعلم) ، أجاب خليل «سيدى، إنه العرف المتبع إذا ما قام السلطان باستدعاء أحد وزرائه(٣) فى وقت غير اعتيادى، فلايجب على المرء أن يحضر بيد فارغة . ولهذا فقد أحضرت لك هدية ، على الرغم من أنها الآن لاتخصنى ، بل تخصكم الآن، لكن دعنى أقوم بتقديمها إليكم».

أجابه السلطان «إننى لا أحتاج إلى ثروتك . وبالفعل ، فسوف أمنحك أكثر مما حصلت عليه ، لكن هناك شيئًا واحدًا فقط أحتاجه الآن بالفعل ، أن تمنحنى القسطنطينية ».

عندما استمع خليل إلى تلك الكلمات ، أصابه الذعر ، فقد سبق أن قدم دائمًا كل ما يمكنه عمله من أجل حماية البيزنطيين، كما أنهم وثقوا به بشكل تام، بعد أن قام – عبر يده اليمنى- باستلام العديد من الهدايا والعطايا .

١- يبدو أن الوزير خليل باشا قد اعتقد أن السلطان محمد الفاتح قد علم بأمر رسائله ، واتصالاته السرية مع الإمبراطور البيزنطى، التى يحثهم فيها على مقاومة الحصار العثمانى للقسطنطينية وخشى لذلك من توقيع السلطان لعقوبة الموت عليه .

عن اتصالات خليل بك مع البيزنطيين، ورسائله التى قام القائد العسكرى البيزنطى الأعلى بتسليمها للسلطان الفاتح بعيد فتح القسطنطينية ، انظر: ليونارد الخيوسى، ص١٧٢ .

٢- تعنى كلمة Lala باللغة التركية لقب كان يطلقه السلطان على رئيس وزرائه ، أو على أحد الباشوات الذين قاموا بتعليم وتدريب السلطان فى صغره، انظر:

Sir James W. Redhouse , A Turkish and English Lexicon, Beirut , 1996, p. 1620 ; Mevlut Sari , Op. cit, p. 315 ; Bayerle , G. Pashas , Begs, And Effendis ; A Historical Dictionary of Titles and Terms in the Ottoman Empire, Istanbul, 1997 , p. 101 .

٣- من الغريب أن ترجمة البروفسير جونز احتوت على هذه الغلطة المطبعية ، حيث جاء بالنص الإنجليزى «أحد وزراءه» هكذا One of his Minitsers! .

وفى الحقيقة لقد أشير إليه بشكل شائع باسم "Gabour Ortaghi" الذى يعنى الرفيق أو الصديق من غير المؤمنين أو الصديق من بين الكفار والوثنيين .

أجاب خليل باشا سيده قائلاً «سيدى. لقد منحك الله القسم الأكبر من أقاليم البيزنطيين من قبل ، وإنه سوف يمنحك المدينة أيضًا ، إننى متأكد أنها لن تفلت من بين يديك ، وذلك بفضل مساعدة الله وإرادتك . إننى وباقى عبيدك سوف نقوم ببذل قصارى جهدنا ، ليس فقط عبر ثرواتنا، لكن أيضًا بأرواحنا ودمائنا ، ولايجب أن يتطرق إليك أدنى شك حول ذلك».

قام خليل باشا ، بواسطة هذه الكلمات ، باسترضاء سيده البربرىّ ، الذى قال له : «هل ترى تلك الوسادة ؟ طوال الليل وأنا أقوم بسحبها من جانب السرير إلى الجانب الآخر، ثم أعيدها مرة أخرى. إننى اضطجع فى فراشى وأنا مستيقظ ومنتبه تمامًا ، حيث لاينجح النوم فى التسلل إلى جفونى . دعنى أخبرك بشئ ، لاتقم بمحاولة خداعى عبر استخدام الذهب والفضة بدلاً من تقديم الإجابة التى يجب عليك أن تقدمها لى فقط . سوف نبقى ثابتين على عدائنا للبيزنطيين . وعبر الإيمان والثقة فى الله، وفى نبيّنا ، سوف نتمكن من المدينة».

بهذا الأسلوب ، وعبر استخدام بعض التعبيرات المشجّعة ، بالإضافة إلى بعض الكلمات التى تجعل القلب يشعر بالخوف ، وتجعل الدماء تتجمد فى العروق قام (محمد الفاتح) بتوديع خليل فى سلام.

وقضى (السلطان) جميع لياليه على نفس الوتيرة من اليقظة والانتباه، قادحًا زناد فكره حول الوسائل الناجعة لمهاجمة القسطنطينية . وكثيرًا ما تناول الريشة والورقة ورسم مخططات لتحصيناتها، موضحًا ما بها من مدافعين، وكيفية إحضار آلات الحصار ، وكيفية تنظيم التحصينات والخنادق ، فضلاً عن التعامل مع القناة المحيطة بالأسوار . وكيفية تثبيت السلالم الخشبية على الأسوار.

وهكذا كان (محمد الفاتح) يضع كافة تفاصيل خطته ليلاً ، ويلقى –فى صباح اليوم التالى– بتعليماته وخططه المحكمة إلى قادة جيشه كى توضع موضع التنفيذ.

الفصل السادس والثلاثين

إذا ما عدنا إلى الأحوال داخل القسطنطينية ، دعونا نأخذ فى الاعتبار ما جال بذهن المدافعين عنها، الذين كانوا يفكرون فى الوسائل التى تضمن الحفاظ على مدينتهم بمنأى عن أيدى ذلك النبوخذ نصر Nebuchadnezzer (١).

كان الإمبراطور قد أرسل إلى روما Rome ، ملتمسًا المساعدة ، عارضًا استعداده ورغبته فى إقرار الاتحاد الكنسى ، كما تم إقراره سابقًا فى مجمع فلورنسا Florence(٢). وموافقًا

١- هو ملك بابل ، جاء إلى أورشليم بعد زوال السيطرة الأشورية عليها، فسلمه حاكم يهوذا ، يهويا قيم المدينة فى العام ٥٩٩ ق.م . وعاش يهويا منذ ذلك التاريخ عبدًا لنبوخذ نصر، إلاّ أنه تمرد عليه بعد ثلاث سنوات ، فاتاله نبوخذ نصر وعين مكانه ابنه يهويا كينى ٥٩٧ ق.م ثم عاد فاتال الأخير ونفاه مع كبار قومه إلي بابل ، وأقام مقامه صدقيا، الذى سرعان ما انقض على البابليين . الأمر الذى دعى نبوخذ نصر إلى الحضور بجيشه لحصار أورشليم ٥٨٧ق.م ، حيث عانت المدينة من الجوع، والمرض ، وهرب اليهود وعلى رأسهم صدقيا . لكنهم وقعوا فى أسر البابليين، حيث أمر نبوخذ نصر بسمل عينى صدقيا وإرساله إلى بابل. ثم قام نبوخذ نصر بنهب مدينة أورشليم وهدم أسوارها ، وتدمير هيكل سليمان ، وقام بسبى اليهود إلى بابل. وهكذا انتهت دولة يهوذا ٥٨٦ ق.م وأصبحت أورشليم مستعمرة بابلية تدفع الضرائب لبابل، وانتشرت بها اللغة البابلية التى أصبحت اللغة الرسمية للبلاد حتى الغزو الفارسي لأورشليم ٥٣٨ ق.م عن ذلك انظر:

الكتاب المقدس، سفر الملوك الثاني، الإصحاح ٢٤-٢٥، القاهرة، د.ت ص٦٢٩-٦٣٢ : أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٣٦ ، ص٧٣٦-٧٣٧ .

الطبرى(أبو جعفر بن جرير ٢٢٤-٣١٠هـ) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، القاهرة، د.ت، ص ٥٤١-٥٤٣ ، قاموس الكتاب المقدس، مادة «سبى» ، ص٤٥٨: محمد خليفة حسن، تاريخ الديانة اليهودية ، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٢٠٦ .

وهكذا فإن المؤرخ البيزنطى دوكاس يستخدم مفردات العهد القديم فى التعبير عن تلك المرحلة من العصور الوسطى. فهو يحاول ايجاد مشابهة تاريخية ما بين محمد الفاتح ونبوخذ نصر، وما بين القسطنطينية وأورشليم ، فى محاولة ليست خافية لتبيان مدى الدمار الذى ألحقه محمد الفاتح بالمدينة ، علاوة على أسر أو سبى العديد من البيزنطيين كما سوف نرى.

٢- عن مجمع فلورنسا. انظر رواية ليونارد الخيوسى، ص١٢٧ ، ١٢٨، هامش (١) . وانظر أيضًا :

Schroeder . Op. (ed.) ; Disciplinary Decrees of the General Councils. Text . Translation, and Commentary . London . 1937 . pp. 473-479 .

كذلك على ضرورة ذكر اسم البابا (الكاثوليكى) فى الشعائر الدينية التى تؤدى فى الكنيسة العظمى . وكذلك على وجوب عودة البطريرك جريجوريوس Gregorius[١] إلى موقعه . كما طلب الإمبراطور من البابا ضرورة إرسال وفد بابوى من أجل القضاء على ما تبقى من حقد وعداوة تسببت فيها عملية الانشقاق الدينى.

وقام البابا بإرسال الكاردينال البولندى ايزيدور Isidore[٢]، الذى كان سابقًا رئيس أساقفة الكنيسة الروسية . وكان يتصف بالحكمة والحنكة والقدرة على فهم الأمور. تربى ونشأ على العقيدة الأرثوذكسية ، وهو بيزنطى المولد، جعل من نفسه أبًا جديرًا بالاحترام فى الكنيسة، وحدث ذلك فى مجمع فلورنسا ، كما ذكرت سابقًا .

سافر الكاردينال ايزيدور على متن سفينة تجارية كبيرة [٣]، مكث وقتًا طويلاً فى جزيرة خيوس منتظرة إنهاء التجار الجنوية لعملياتهم التجارية ، بعد أن قاموا بإنزال السلع والبضائع التى قاموا بجلبها ، واستقبلوا معهم على متن السفينة بعض البضائع الأخرى التى جلبوها لممارسة تجارتهم، وكان هؤلاء التجار الجنوية ينتظرون سفينة أخرى للإبحار باتجاه كافا Caffa .

كان برفقة الكاردينال خمسين إيطاليًا ، كما قام بجلب بعض المرتزقه اللاتين من خيوس وعندما ظهرت السفينة التى كانوا بانتظارها، قاموا بمغادرة خيوس على متنها، واتخذوا طريقهم صوب القسطنطينية ، ليصلوا إلى مينائها فى نوفمبر ٦٩٦١ لنشأة العالم (١٤٥٢م).

١- هو جريجورى الثالث ماماس Gregory III Mamas ، كان كاهن الاعتراف للإمبراطور يوحنا الثامن باليولوغس ، ومؤيدًا قويًا لسياسة الاتحاد الكنسى مع كنيسة روما، أصبح بطريركًا لكنيسة القسطنطينية فى العام ١٤٤٣م ، ونتيجة المنازعات مع دعاة الانشقاق الكنسى، هرب إلى روما فى العام ١٤٥١م ومات عام ١٤٥٩م. انظر : . Doukas, op. cit, p. 306. not 243

٢- عن الكاردينال ايزيدور ودوره فى إقرار الاتحاد الكنسى فى القسطنطينية ، انظر ما سبق ، ص١٢٣، هامش (١) .

٣- عن ذلك انظر: نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص٨٥-٨٦ ، الذى يذكر وصول الكاردينال ايزودور إلى القسطنطينية على متن سفينة جنوية حمولتها ٣٦ ألف قنطار ، وبرفقته مائتين من الرجال المحاربين للدفاع عن المدينة.

قام الإمبراطور البيزنطى باستقبالهم بترحاب ، وعاملهم بما يستحقون من شرف ، وبعد أن استقروا ، بدأوا فى مناقشاتهم بخصوص فكرة الاتحاد الكنسى، فوجدوا الإمبراطور مؤيداً لها. لكن أغلبية القساوسة والرهبان ، ورؤساء الأديرة ، والكهنة الذين يلون الأسقف فى المرتبة ، وكذلك الراهبات ، كانوا جميعًا ضد فكرة الاتحاد الكنسى، هل ذكرت أنهم كانوا الأغلبية ؟ إن ما ذكرته حول الراهبات ، يجعلنى مرغمًا على تبديل كلماتى، وجعلها أكثر وضوحًا . إذ لم تقبل واحدة منهن بهذه الفكرة، وكان الإمبراطور وحده الذى تظاهر بالموافقة على فكرة الاتحاد الكنسى.

ومع هذا ، فإن أولئك الذين أعطوا انطباعًا بالموافقة على فكرة الاتحاد الكنسى، كانوا من القساوسة والشمامسة من بين رجال الاكليروس بالإضافة إلى الإمبراطور ومجلس السناتو ، الذين تقابلوا جميعًا فى الكنيسة العظمى[١] من أجل الاحتفال بالقربان المقدس Divine Eu-charist، وتقديم الصلوات للرب بقلوب صادقة ومخلصة معًا فى وفاق تام.

وفى غضون ذلك ، اتخذ الذين دعموا فكرة الانشقاق الدينى طريقهم تجاه صومعة جيناديوس Gennadius[٢]، الذى كان يدعى سابقًا جورجيوس سكولاريوس Georgius Scholarius عندما كان فى دير البنتوقراتور Pontocrator حيث بادروه بالقول «ماذا يجب علينا أن تفعل الآن؟ ». وظل (جيناديوس) صامتًا ، لكنه تناول ورقة كتب رأيه عليها . وتمت قراءة ذلك كالتالى :

«أيها البيزنطيين التعساء . لماذا تريدون أن تضلّوا وتتفرقوا، وتنأوا بأنفسكم عن الثقة بالرب؟ وأن تضعوا ثقتكم في شجاعة الفرنجة (اللاتين الكاثوليك) .

١- تم عقد الاجتماع الخاص بالاتحاد الكنسى يوم الثالث عشر من ديسمبر ١٤٥٢م فى كنيسة أيا صوفيا، بحضور الكاردينال ايزيدور ، والإمبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر ونبلائه ، انظر: نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص٨٩ .

٢- عن جيناديوس المعروف باسم جورج كورتيسيس سكولاريوس . دوره، وموقفه من عملية الاتحاد الكنسى، انظر رواية الخيوسى، ص١٣٩، هامش (١) .

وعن علاقته بمحمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية ، انظر:

Papadakis. A , " Ginnadius II and Mehmet the Conqueror" in, B. Tom. XLII, 1972 , pp. 88-106 .

لقد خسرتم دينكم ، وكذلك أصبحت المدينة على وشك الدمار والهلاك . ارحمنى أيها الرب! إننى أناشدك ، عبر حضورك ، بأن تشهد بأننى لم أرتكب أية خطيئة . أواه أيها المواطنون التعساء ، افعلوا ما يجب عليكم فعله ، إنكم لن تحكموا على أنفسكم بالعبودية فقط، لكنكم أيضًا سوف تخسرون الإيمان الذى قام أباؤكم بتسليمه إليكم، وتوافقوا على العقوق وعدم التقوى، وأأسفاه عليكم . الويل لكم عندما يقوم الرب بحسابكم ».

قام (جيناديوس) بكتابة ذلك وأكثر على متن الورقة . وقام بتدبيسها على باب صومعته ، محتفظًا بصمته داخلها ، بينما تتم قراءة الورقة.

بعد ذلك ، قامت الراهبات ، أولئك العذروات المقدسات . اللائى فقن الجميع فى محافظتهن على المبادئ والقواعد الأرثوذكسية ، ونتيجة لتطابق مشاعرهن الداخلية، مع تعاليم جيناديوس، بالتوحد مع مقدمى الأديرة ، وكبار الرهبان ، وكهنة (طقس) الاعتراف . وباقى القساوسة ، بالإضافة إلى باقى الشعب فى التقليل والانتقاص من قدر ذلك الشئ البغيض والملعون (وحدة الكنائس) ، وحكم الجميع بالحرمان الكنسى Exommunication على أولئك الذين أيّدوا قرار الاتحاد الذى تم التوصل إليه بواسطة المجمع الكنسى Synod وكذلك على الذين ما زالوا يؤيدونه ، فضلاً عن أولئك الذين سيقومون بتأييده فى المستقبل .

وغادر ذلك الحشد من عامة الناس مبنى الدير متوجهين إلى الحانات . وبعد احتسائهم للعديد من قنانى النبيذ الصافى، أنزلوا اللعنات على أولئك المؤيدين للاتحاد الكنسى. كما شربوا على شرف أيقونة والدة الرب. وقاموا بدعوتها لتصبح حامية ومدافعة عن المدينة ضد محمد (الفاتح). كما سبق أن قامت بذلك من قبل ضد الفرس Chorsroes[٢] وضد Chagan [١]

١- Chorsroes أو Chosroes كما فى ترجمة البروفسير ماجولياس Magoulias ، المقصود بها هجمات كل من كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٨م) ، وكسرى الثانى أبرويز (٥٩٠-٦٢٨م) ملكا الفرس، اللذان هاجما حدود الإمبراطورية البيزنطية . عن ذلك انظر: O.D.B, vol, I, p. 432 .

٢- Chagan هى الخاقان Khaqan ، ويبدو إنها إشارة إلى المحاولات المتكررة للسلاطين العثمانيين لفتح القسطنطينية ، عن استخدام السلاطين العثمانين للقب خاقان Hakan، وخان Han انظر :

ادى شير، معجم الالفاظ الفارسية المعربة ، بيروت ، ١٩٩٠، ص٥٦ ، ٥٨ : نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص٨٤ ، هامش (د) .

Bayerle, Op. cit, pp. 73-75 .

والعرب Arabs *. وبعد ذلك أخذوا فى الصياح «نحن لانحتاج إلى المساعدة، ولا إلى الاتحاد مع اللاتين، اتركوا مسألة طقس التناول عبر الخبز غير المختمر Azymit(١) بعيدة عنّا».

قامت حشود المسيحيين ، الذين تجمعوا معًا فى الكنيسة العظمى، بإجراء صلاة شفاعة طويلة للرب، بعد ذلك استمعوا إلى خطبة الكاردينال ايزيدور، بعد أن أبدوا موافقتهم على الاتحاد الكنسى.

وتوصلوا أيضًا إلى اتفاق أنه عندما يتم رفع الحصار التركى، ويعود السلام ثانية، فإنه يجب أن يتم تعيين لجنة تتكون من أصحاب المقامات الرفيعة بالكنيسة. من أجل بحث ودراسة بنود الاتحاد الكنسى. وعمل أية مراجعات تبدو ضرورية.

وفى نفس الاحتفال ، الذى تم فيه الاتفاق على هذا، اتفقوا أيضًا على ضرورة إلحاق القربان المقدس بالكنيسة العظمى، ويشارك به الإيطاليون اللاتين والبيزنطيون جنبًا إلى جنب، وتخليد ذكرى البابا نيقولا (الخامس) ، والبطريرك الغائب جريجورى ، فى السجلات المقدسة.

---

* يقترح جريكو Grecu، وربما كان مخطئًا ، أن القراءة الصحيحة هنا هى Αβᾶρων وليس Αρᾶων وأن هذه الإشارة تدل على هجمات الآفار Avars على القسطنطينية ، (الترجمة الإنجليزية).

١- Azymit هو الخبز الذى لاتدخله الخميرة ، وكان طقس تناول العشاء الأخير Last Supper يتم به فى الكنائس اللاتينية والأرمينية. على عكس الكنيسة البيزنطية التى كانت تستخدم خبزًا مختمرًا. عن ذلك : انظر: O.D.B. vol . I. p. 241

وللاستزادة من هذا الموضوع يمكن الاستعانة بالتوضيح الجيد الذى قام به السيد المتولى، المرجع السابق، ص١١١-١١٢، حيث يذكر أن هذه المسألة استغرقت مباحثات استمرت لثلاثة أيام فى مجمع فلورنسا ١٤٣٩م . فعلى حين نادت الكنيسة البيزنطية بضرورة وجود الخميرة فى الخبز، تمسكت كنيسة روما باستخدام الفطير فى التناول، واتفق الطرفان فى النهاية على أن خبز القمح هو المادة الجوهرية لهذا الطقس . سواء تم صنعه على هيئة خبز أم فطير، وذلك لأن جسد المسيح يقدس بالخبز سواء أكان فطيرًا أم خميرًا .

عن ذلك انظر أيضًا . Runciman,op. cit , p. 53

الذى يقرر أن هذه المسألة لم تكن مسألة جوهرية فى الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية ، لدرجة أن البطريرك البيزنطى فوشيوس Photios عندما هاجم الكاثوليك لم يتعرض لطقس التناول على الفطير . وكان بعض سكان بيت المقدس والإسكندرية يستخدمون الفطير أيضًا، متأثرين بالحجاج والتجار اللاتين.

وتم أداء ذلك الطقس الديني المقدس، في يوم الثاني عشر ديسمبر لعام ٦٩٦١ من نشأة العالم (١٤٥٢م) . وعلى الرغم من هذا فقد كان هناك الكثيرون الذين لم يقبلوا بهذه الهدية ، واعتبروا أن عملية الاتحاد (الكنسي) ليست أفضل من عملية تقديم القرابين الوثنية المقيتة (١).

كان الكاردينال ايزيدور مدركًا لما في قلوب البيزنطيين ، وعارفًا بنواياهم . وأدرك أن هذا كله مجرد حيلة . وأنهم يحاولون خداعه ، لكن لأنه كان من نفس جنسهم ، فقد كان تواقًا إلى مساعدة المدينة (القسطنطينية) ، ولهذا فإنه لم يجهد نفسه كثيرًا .

إن ما حدث كان كافيًا لتقديم اعتذار عن عدم الاستجابة لرغبات البابا ، على الرغم من أن الجزء الأعظم من المسئولية عن ذلك تعزو إلى الرب ، الذى قام بترتيب الأمور على هذا النحو بأفضل طريقة مناسبة.

لكن سكان القسطنطينية ، والعامة منهم، عارضوا كل أمر يؤدى إلى حدوث أية تقدم نحو الأفضل. كما أن جذور الكبر والغطرسة والتعالي. كما إن صفوة الكبرياء المتغطرس ، حثالة الشعب البيزنطى، كانوا مستعدين للاستخفاف، واحتقار الباقين من بنى الإنسان، على الرغم من أنهم يزدرون أنفسهم. معتبرين أن كل ما جرى من أمور (الاتحاد الكنسى) وكأنها لم تحدث أبدًا(٢).

وهكذا فإن أولئك الذين دعموا فكرة الاتحاد الكنسى قد اختلطوا بأولئك الرافضين لفكرة الاتحاد Schimatics الذين قالوا «دعوا الأمر يسير وحده بلا مؤثرات، ثم راقبوا ما إذا كان الرب سوف يقوم بإزاحة ذلك العدوّ الذى يقوم بمهاجمتنا، ذلك الثعبان Serpent، الذى يتباهى بأنه سوف يزدرد المدينة كلها ، عندها سوف ترون ما إذا كان يمكننا الاتحاد مع صيغة طقس التناول بواسطة الخبز غير المختمر Azymit».

= انظر أيضًا ، السيد المتولى، المرجع السابق، ص١١١ .

وانظر كذلك : Ullman , W, The Origins of the Great Schism Astudy in Fourteenth Century ecclesiastical history, Connecticut , 1972 .

١- يذكر باربارو أن ذلك قد جري يوم الثالث عشر من ديسمبر ، انظر ، المصدر السابق ، ص٨٩ . حيث يذكر أيضًا رفض شعب القسطنطينية لهذا الاتحاد الكنسي، وإن كان ذلك قد جاء لديه فى جملة عابرة «وشهد هذا اليوم الكثير من البكاء والنواح فى شوارع المدينة ».

٢- كان كاتبنا المؤرخ البيزنطي ميخائيل دوكاس من مؤيدى فكرة الاتحاد الكنسى، ولهذا السبب فهو يقسو فى عباراته على سكان القسطنطينية الرافضين للاتحاد الكنسى .

عندما تفوّهوا بهذا الكلام ، فإن التعساء لم يدركوا النتيجة المترتبة على ذلك ، وبعد القسم الذي أدّوه عدة مرات من أجل الاتحاد (الكنسي) والوحدة بين المسيحيين مهما اختلفت كنائسهم، وبعد المجمع الذي تم عقده في مدينة ليون Lyon [١] زمن الإمبراطور الأخير لأسرة باليولوغس[٢]، وحتى الآن، حيث الاحتفال الحالي بالأسرار المقدسة ، باسم الثالوث المقدس، وبعد ذلك كله، فإن النتيجة الوحيدة هي أنهم (البيزنطيين) انتهوا إلى تدمير ذاكرتهم جميعًا، وكذلك مدينتهم (القسطنطينية) من على ظهر الأرض.

أيها التعساء . لماذا امتلأت قلوبكم بتلك الأفكار الفارغة؟ انظروا إلى القساوسة والرهبان، وإلى حراس غرفة المقدسات في الكنائس Sacristants الذين قاموا بالقربان المقدس Sacrament طبقًا لتقاليد الكنيسة الشرقية ، قائلين إن القربان المقدس قد تم تدنيسه ، ولم يعد مسيحيًا خالصًا . فقد تضاءلت البركة التي يقوم الكهنة بمنحها ، وتم وصف كنائسهم بأنها مجرد

١- تم عقد ليون الثاني في الفترة من ٧-١٧ يوليه ١٢٧٤م، من أجل إقرار وحدة الكنائس وكذلك من أجل استرداد بيت المقدس. أرسل الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني باليولوغس Michael VIII Palaeologus (١٢٥٩-١٢٨٢م) وفدًا برئاسة جورج اكروبوليتس George Akroplites لمقابلة الوفد اللاتيني. وكان مقررًا أن يحضر توما الأكويني Thomas Aquinas هذا المجمع لكي يتحدث عن أخطاء البيزنطيين الدينية، لكنه مات وهو في طريقه إلى مدينة ليون. على أية حال ، فقد توصل الطرفان البيزنطي واللاتيني إلى صيغة اتحاد كنسي مثلت نصرًا معنويًا للبابا جريجوري العاشر Gregory X (١٢٧١-١٢٧٦) ونصرًا دبلوماسيًا للإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوغس. انظر:

Nicol, "The Last Centuries", pp. 60-61 ; O.D.B, vol , 2 , p. 125 ; Housley , N, Op. cit, pp. 7-10-15 .

وعن مجمع ليون الثاني ١٢٧٤م وقراراته ، انظر:

Schroeder, Op. cit, pp. 324-364 .

انظر أيضًا : أمل أحمد حامد ، مجمع ليون الثاني ١٢٧٤م . دراسة في مشروع الوحدة بين كنيستي القسطنطينية وروما . في القرن الثالث عشر الميلادي. رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة المنصورة، ١٩٩٧م.

٢- هو الإمبراطور يوحنا الثامن باليولوغس John VIII Palaeologus (١٤٢٥-١٤٤٨م) والذي تم عقد مجمع فلورنسا في عهده .

أماكن وثنية لتقديم الأضاحى والقرابين، بينما فى الغد، كان نفس هؤلاء يسقطون فى أيدى البرابرة (الأتراك) ليتم تدنيس روحهم وجسدهم على حد سواء[١].

وشاهدت بعينى إحدى الراهبات التى تلقت تعليمات الكتاب المقدس فى الكنيسة، وهى تأكل اللحم ، وترتدى لباس البرابرة ، بل وأيضًا تقدم قربانًا إلى النبى الزائف ، وتعترف بارتدادها عن دينها بلا خجل[٢].

لكن ما الذى جعلنى أتخطّى حوادث خمسة أشهر فى روايتى؟ سوف نصل إلى هذه المرحلة بعد قليل . وعندها سوف يتم سرد تلك القصة المؤلة.

فى تلك الأثناء أرسل الإمبراطور بعض قادته إلى الجزر والمناطق الأخرى التى ظلت تحت سيطرة المسيحيين من أجل شراء القمح والحبوب والخضروات ، وباقى المواد الغذائية ، متوقعًا وصول السلطان (محمد) فى الربيع القادم . وقامت أربع سفن تجارية كبرى بجمع كل ما هو ضرورى من الإمدادات من جزيرة خيوس، كالقمح والخمور، والزيوت ، التين، الخروب، الشعير وكافة أنواع المحاصيل [٣]. بينما جرى انتظار سفينة أخرى قادمة من البلوبونيز . وعندما وصلت تلك السفينة، أبحرت السفن الخمس تجاه القسطنطينية ، وعلى متنها عدد كبير من المحاربين الشجعان، وكمية كبيرة من الأسلحة والدروع .

شعر كافة سكان الجزر بالقلق والألم على مصير المدينة، واعتقد البعض أنها سوف تُهزم ، وتسقط فى أيدى البرابرة، لكن الآخرين تذكروا أن والد محمد وجدّه[٤] اللذان رغبا من قبل فى الفوز بها ، قد ذهبت محاولاتهما سُدًى ، وأن هذه المحاولة ستلقى نفس المصير.

١- يشير دوكاس هنا إلى ما حدث بعد ذلك بعدة أشهر. عندما نجح العثمانيون فى اقتحام القسطنطينية وقتل وأسر البيزنطيين بها.

٢- هذه هى المرة الثانية التى يذكر فيها أنه شاهد بعينه. وتكاد هذه المرة الأولى تكاد تكون هذه هى المرة الأولى التى تذكر فيها أحد المصادر البيزنطية المعاصرة، تحول إحدى الراهبات من المسيحية إلى الإسلام، ومن الطبيعى أن يستخدم المؤرخ دوكاس العبارات السابقة فى وصف الراهبة المرتدة، ووصف نبى الإسلام- صلى الله عليه وسلم.

٣- عن ذلك انظر أيضًا : صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص٢٦٤ . Kritovoulus, op. cit, p. 36 . Schlumberger, op. cit, p. 37 .

٣- هى إشارة للحصار الذى فرضه السلطان مراد الثانى- والد السلطان الفاتح- على القسطنطينية عام ١٤٢٢م ، وكذلك للحصار الذى فرضه السلطان بايزيد الأول على المدينة عام ١٣٩٤-١٤٠٢م.

الفصل السابع والثلاثين

بعد انقضاء شهر يناير (١٤٥٣م) ، أمر السلطان فى بداية شهر فبراير بنقل مدفعه العملاق إلى مواجهة القسطنطينية ، وقامت ثلاثون عربة مشدودة إلى بعضها البعض، بالإضافة إلى ستين من الثيران التى تتميز بقوتها ، بسحب المدفع وجرّه.

وإلى جوار المدفع سار مائتى رجل على الجانبين ، قاموا بشدّه وجذبه ، محافظين على استقامة مسيرته، والتأكد من عدم انزلاقه عن مجراه . كما سار أمام المدفع خمسون نجاراً برفقتهم مائتين من المساعدين من أجل تشييد الجسور الخشبية فى الطرق التى لايكون فيها سطح الأرض ممهداً .

وأثناء ذلك، تم إرسال قاراجا بك Karaja Bey[١] على رأس قوة عسكرية لمهاجمة المدن المحصّنة فى البحر الأسود، وبالتحديد مدن ميسمبريا Mesembria [٢] انشيالوس Anchi-alus[٣]، بيزوس Byzus، وبعض المدن الأخرى، من أجل السيطرة عليها. كما نجح أيضًا فى الاستيلاء على قلعة القديس ستيفن St. Stephen بالقرب من سليمبريا Sclymbria[٤] بعد أن أبدت مقاومة اضطرته إلى قتل جميع من كانوا بداخلها . كما استسلمت

١- كان قاراجا بك هو الحاكم العسكرى للأقاليم الأوربية التابعة للعثمانيين، انظر:

Runciman, Op. cit, p. 74 .

٢- مدينة تقع فى بلغاريا على البحر الأسود . منحها الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر إلى حنا هونيادى ١٤٥٢م. استسلمت المدينة للعثمانيين قبيل سقوط القسطنطينية بثلاثة أشهر، انظر:

O.D.B, vol, 2, pp. 1348-1349 .

٣- مدينة تقع فى إقليم تراقيا على ساحل البحر الأسود استمرت تحت السيطرة البيزنطية حتى سقطت فى أيدى الأتراك العثمانيين عام ١٤٢٣م، انظر: . O.D.B. vol . I. p. 90

ولابد أنها عادت إلى بيزنطة مرة أخرى . الأمر الذى دعى قاراجا بك إلى مهاجمتها فى أوائل العام ١٤٥٣م.

٤- مدينة فى إقليم تراقيا ، على الساحل الشمالى لبحر مرمرة، توجد الآن فى تركيا تحت اسم سيليفرى Silivri وتقع غربى استانبول . قاومت الحصار العثمانى عام ١٤٥٣م، ولم تسقط إلاّ بعد أن تمكنّ العثمانيون من فتح القسطنطينية ، انظر:

O.D.B, vol .3 . pp. 1867 , 1579 .

له باقى القلاع والجند، وبينما نجح البعض منهم فى الهرب دون أن يتعرضوا لأذى، تم ضرب أعناق الذين أبدوا نوعًا من المقاومة. بعد أن أبدت مدينة سليمبريا مقاومة شديدة.

بعد أن تم إحضار التجهيزات العسكرية إلى المنطقة ، عهد إلى قاراجا بك بحراستها، وفضلاً عن ذلك قامت قواته بالهجوم على الأراضى المتاخمة للقسطنطينية ، وقام بمنع البيزنطيين من الخروج خلف بوابات المدينة.

وقضت ثلاث تجريدات عسكرية تابعة لقواته من ميسيا Mysia(١)، وبافلاجونيا Paph-lagonia (٢)، الشتاء بأكمله فى مراقبة المدينة ، ومنع البيزنطيين من الخروج ومهاجمة الأتراك.

وكانت القوات (التركية) التى اصطفّت لمواجهتهم (البيزنطيين) قد وصلت الآن إلى حجم مناسب . ولم يستطع البيزنطيون القيام بغارات مفاجئة ، لكنهم استطاعوا القيام ببعض الهجمات البحرية ، عبر استخدام سفنهم ثنائية المجاديف biremes، وثلاثية المجاديف Tri-remes بالقرب من منطقة Cyzicus(٣)، حيث قاموا بنهب وتدمير الساحل البحرى الموجود فى حوزة الأتراك، ونجحوا في أخذ العديد من الأسرى ، حيث تم قتل بعضهم، بينما احتفظوا بالباقين ليقوموا ببيعهم في القسطنطينية.

عندما هلّ فصل الربيع ، اشترك البيزنطيون فى تلك المناوشات العسكرية البسيطة، ثم بدأت أيام الصوم الكبير Lenten Fast . ولم يتم حل النزاع الذى دبّ فى الكنيسة . وبالإضافة إلى ذلك حدث نوع آخر غير عادى من الخلاف ، نشب بين أولئك الذين عهد إليهم بسماع الاعترافات . حيث وجدهم المسيحيون الذين حضروا إليهم للاعتراف بخطاياهم

١- مدينة قديمة كانت تقع شمال غرب آسيا الصغرى، جنوبى البحر الأسود، انظر:

W.N.G.D, p. 804.

٢- إقليم يقع شمالى آسيا الصغرى بين غلاطيه والبحر الأسود، اشتهر بزراعاته الوفيرة، استولى عليه الجنوية ثم الأتراك عند نهاية القرن الرابع عشر الميلادى، انظر:

O.D.B, vol. 3, p. 1579.

٣- تقع مدينة Kyzicus فى الساحل الجنوبى لبحر مرمرة اسمها التركى بالكز Balkiz قام السلطان العثمانى أورخان بغزوها عام ١٣٣٥م . انظر:

O.D.B, vol. 2, pp. 1164-1165.

يسألونهم عن علاقتهم بأولئك الذين تم توقيع عقوبة الحرمان الكنسى عليهم . وعمّا إذا كانوا قد استمعوا للقداس Mass وهو يتلى من قبل قسيس مؤيد لمسألة الاتحاد الكنسى، واستوجب هذا عقوبة قاسية، وكفارة Penance صادقة .

واعتبر الذين خضعوا للعقوبة والكفارة كما ينبغى جديرين – أكثر من الآخرين– بتلقى العشاء الربانى Communion المكوّن من جسد ودم سيدنا . فهم ممنوعين من الاتصال بالقساوسة المؤيدين لفكرة الاتحاد الكنسى ، وجرى التهديد بتوقيع العقوبة عليهم.

وأعلن بعض الرجال أنه لم يعد هناك كهنة حقيقيين ، وأن القرابين المقدسة التى يجرى تقديمها هى قرابين زائفة وليست حقيقية.

وإذا تم استدعاء القساوسة المعارضين لوحدة الكنيسة إلى مراسم الدفن والجنازة ، وكان القسيس المؤيد للاتحاد الكنسى موجودًا ، فإنهم يقومون فى الحال بالتخلص من ردائهم الكهنوتى Vestments، ويفرّون من المكان ، كما لو كانوا يهربون من النار .

وأصبحت الكنيسة العظمى بالنسبة لدعاة الانشقاق موئلاً للشياطين، ومكانًا لتقديم القرابين الوثنية . ولم تعد توقد فيها الشموع ، وافتقدت المصابيح إلى الزيت، وكانت مظلمة تمامًا ، ولم يكن يريد أحدا أن يبدوّ هذا الظلام.

وهكذا أصبح هذا المزار المقدس مهجورًا . كرمز على الخراب الذى حل بعد ذلك ، وباغت زواره السابقين ، كعقاب على آثامهم وخطاياهم .

واستمر جيناديوس إبّان ذلك فى إصدار أوامره وتحذيراته عبر صومعته ، مستمطراً اللعنات على أولئك المؤيدين للاتحاد (الكنسى) .

وكنت ، وفى وقت سابق ، قد صادفت سيدة ذات أصل نبيل ، تم أسرها عند سقوط القسطنطينية ، فأخبرتنى أنها كانت تعانى آلام المخاض فى يوم الأربعاء التالى لعيد الفصح Easter فأرسلت من أجل استدعاء كاهنها الذى كان يحمل اسم يعقوب Jacob، حيث قدّمت إليه اعترافها . وألح عليها القسيس بضرورة المشاركة فى العشاء الربانى Communion فسألته ما إذا كان هناك ثمة شئ ما يمنعها من تسلمه من يد قسيس يعمل فى كنيسة صغيرة بجوار منزلها . وكان ذلك القسيس قد انضم لمؤيدى الاتحاد الكنسى فى الكنيسة العظمى فى الثانى عشر من ديسمبر (١٤٥٢م) ، لكنه لم يشارك مشاركة فعلية فى القداس ، فقد ترك الاحتفال خارجًا ، مع آخرين وصلوا متأخرين، وكل ما قام به أنه وقف فى الكنيسة ، مرتديًا رداء الكهنة.

فأجابها كاهن الاعتراف الخاص بها «إن هذا المسموح به . وسوف يسمح الرب لك بفعل هذا . فالرجل ما زال كاهنًا ، وقسيسًا في الكنيسة . إنك تستطيعين أن تتناولي العشاء الرباني منه بأمان، كما لو كانت تقومين بتناوله من أي قسيس آخر».

وشعرت السيدة (التي كانت من معارضي الاتحاد الكنسي) بالخوف ، والقلق ، من رأى كاهن الاعتراف ، فأرسلت إلى كاهن اعتراف آخر يدعى نيوفيتوس Neophetus [١] وطالبته بالإجابة على سؤالها .

استغل نيوفيتوس الأمر وتحدث بحرية وجرأة شديدة ، لأنه كان كاهن الاعتراف بالقصر الإمبراطوري ، والعائلات الكبرى، فمنعها من ذلك قائلاً «إنه لمن غير المسموح لك القيام بتناول العشاء الرباني من أيدي ذلك القسيس ، لكن يسمح لك فقط ، بتناول النبيذ والخبز».

أواه يا مليكي المسيح ! كم كان صبرك وجلدك عظيمًا ! ما لهذه الحماقة وهذا الجهل ! إذا ما كان الكاهن لاتينيًا يجب على رعاياك الحمقى أن يفكروا مستعينين بعقولهم، حتى ولو كان ذلك غير منطقى بالنسبة لهم، ولهذا فيجب عليهم أن يقيموا الصلوات للرب باللغة اللاتينية ، ويجب ألاّ يكون الخبز مخمّرًا ، والمياه باردة ، ولايجب أن تؤدى الطقوس التي تؤدى بواسطة المسيحى الأرثوذكسى ، ولايجرؤ حتى على الهمس بها، عندما يتعلق الأمر بإقامة قداس الأسرار المقدسة، دون أن يستحق الرجم بالحجارة.

لكن ما هو الخطأ الذي يمكنك أن تجده لديهم إذا ما قاموا بأداء القدّاس بلغتهم الأصلية ، وبالصلوات التي تقوم بها أنت وباقى القساوسة الشرقيين؟ أيها الفريسىّ Pharisee التافه[٢].

١- عن نيوفيتوس ، انظر ما سبق ، ليونارد الخيوسي، ص١٢٤ ، هامش (٢) ، ص١٣٩ ، هامش (٣) .

٢- يتوجه دوكاس بهذه العبارات إلى الكاهن البيزنطي- رافض الاتحاد الكنسي- نيوفيتوس، فيصفه بالفريسي، أي أنه يشبهه بأحد أفراد طائفة الفريسيين Pharisaism وهم طائفة من اليهود ، تمسكت بالطقوس والتقوي الكاذبة ، على عهد المسيح - عليه السلام - الذى وبخهم بشدة على ريائهم وادعائهم البرّ كذبًا ، أما يوحنا المعمدان فدعاهم «أولاد الأفاعي» ويطلق على الفريسيين أيضًا لقب «الربانيين» لأنهم يؤمنون بما جاء في أسفار التلمود التي ألفها الربانيون ، وهم أحبار هذه الفرقة.

ويعتبر الفريسيون مسئولين عن تطوير ودعم فكرة السناجوج (المعبد) كمركز للعبادة والتعليم بجانب الهيكل ، كما توسعوا في عمليات تفسير النصوص بإصدار أحكام جديدة تتضمن الاعتراف بالتطور والنمو، ويعنى اسم الفريسيون حرفيًا «المنفصلون» أو «المعتزلون» عن الآخرين لأسباب تتعلق بالطهارة الطقوسية=

ماذا تبقى لديك حتى تقوله ، فيما عدا الزعم بأنك طاهر، وخال من النجاسة والدنس ، وأنك مرفوض من باقي المسيحيين ؟ وعلى أية حال ، فإنني أستطيع أن أقول وأنا في أعلى درجات الصدق، بأنك بمثابة شخص قام بتوقيع الحرمان الكنسى على نفسه .

وهكذا ترددت تلك المرأة ذات الأصل النبيل ، ما بين الرأيين المختلفين ، ولم تتمكن من الوصول إلى أى قرار . ولم تستطع بالتالى تناول العشاء الربانى ذلك اليوم ، وأنجبت طفلها فى نفس الليلة ، دون أن تتلقى الغفران . وإذا ما حدث أن ماتت السيدة إبان ذلك، فإن روحها لم تكن لتوسم بعلامة الروح القدس ، ولكان نيوفيتوس، والروح الشريرة التى استقرت بداخله ، هم المذنبين والآثمين فى هذه الحالة.

دعونا الآن نعود إلى المجرى الرئيسى لقصتنا. ونرى كيف ابتلع الفيضان الهادر والعنيف الفلك Ark[١] الذى كان، وقام بنفى نوح Noah القائم على دفّة السفينة ، وفى نفس الوقت

= ويمثلون فرقة دينية سياسية خلال فترة الهيكل الثاني، انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص٦٧٤-٦٧٥ ؛ على عبد لواحد وافى، اليهودية واليهود، بحث فى ديانة اليهود وتاريخهم ونظامهم الاجتماعي والاقتصادى ، القاهرة ، د.ت ، ص٩١-٩٣ ؛ محمد خليفة حسن ، تاريخ الديانة اليهودية، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٢٢٢-٢٢٤ .

١- Ark : هى سفينة النبى نوح - عليه السلام- إبان الطوفان، وحسب قاموس الكتاب المقدس، فقد صنعت من خشب السرو ، وطليت بالقار من الداخل والخارج ، وكانت مؤلفة من ثلاث طوابق . ولها باب فى جنبها وكوى من فوق ، وسقف يقى ساكنيها من المطر والشمس ، وتم صنعها لأجل سكن نوح وعائلته والحيوانات التى اختيرت للبقاء.

عن الرواية اليهودية- المسيحية للطوفان انظر: الكتاب المقدس، القاهرة ، د.ت ، سفر التكوين ٦-٩ ص١١-١٥ . وعن الرواية الإسلامية لطوفان نوح انظر: القرآن الكريم، القاهرة ، د.ت ، سورة هود ٣٢-٤٩، ص٢٢٥-٢٢٧ ، سورة العنكبوت ، ١٤-١٥، ص٣٩٧-٣٩٨ .

ومن الجدير بالذكر أن قصة الطوفان قد وردت فى التراث السومرى والبابلى عبر ثلاث روايات رئيسية تتشابه فى خطوطها العامة وفى الكثير من تفاصيلها ، عن ذلك انظر: فاضل عبد الواحد على، من الواح سومر إلى التوراة ، بغداد ، ١٩٨٩م، ص٢٦٩-٢٧٦ ؛ فراس السواح ، مغامرة العقل الأولى: دراسة فى الأسطورة (سوريا بلاد الرافدين) . دمشق ، ١٩٩٦م، ص١٥١-٢١١ .

على أية حال ، فإن المؤرخ البيزنطى دوكاس يستدعى مخزون ذاكرته من روايات العهد القديم، لكى يحدث مشابهة تاريخية جديدة ، بين «الطوفان» و«محمد الفاتح» و«سفينة نوح» و«القسطنطينية» ولايخفى التأثير الذى يريد أن يتركه دوكاس فى قلوب وأذهان قرائه المسيحيين .

نظر بارتياب واستنكار إلى حمامات السلام المقدسة Holy doves ، معتبراً إيّاها غير مقدسة، طالما انطلقت من أيدى نجسة وغير طاهرة.

أرسل السلطان (محمد) فى بداية شهر مارس (١٤٥٣م) لكافة الحكام فى إمبراطوريته آمراً إياهم بالحضور بقواتهم لمهاجمة المدينة (القسطنطينية) . وبالفعل وصلت القوات من كل حدب وصوب وجرى تسجيل أعدادها ، تلك القوات التى كان قادتها يقومون بدفع الجزية له . من كان يستطيع حصر العدد اللامحدود لأولئك الذين التحقوا بالجيش دون تجنيد الزامى؟ فقد أسرع كافة الذين وصلتهم الأخبار للمشاركة فى الهجوم، حتى أولئك الذين كانوا حديثىّ السن، وبالكاد يستطيعون السير، وأولئك الذين كانوا يعانون من صعوبة فى التحرك بسبب طعنهم فى السن. فقد حضروا جميعهم.

وفى غضون ذلك ، توجه سكان المدينة (القسطنطينية) بصلواتهم نحو الرب، حتى لايحلّ الهجوم (العثمانى) خلال الأسبوع المقدس، لأنهم سمعوا أن السلطان بنفسه ، كان مستعداً لبدء الهجوم فى هذا الموعد .

وفى يوم الجمعة التالى لعيد الفصح ، وصل هذا النبوخذ نصر Nebuchadnezzer إلى مواجهة بوابات القدس[١]، وضرب خيامه أمام بوابة خاريسيوس Charisius خلف التل الموجود هناك، وكان جيشه الكبير يمتد من بوابة زيلوبورتا Xeloporta القريبة من القصر ، إلى البوابة الذهبية جنوباً، ومن زيلوبورتا إلى كوزميديوم Cosmedium ومن الطرف الجنوبى بالقرب من بساتين الكروم إلى السهل الذى تم ذكره سابقًا ، والذى قام قاراجا بك بإتلاف محاصيله، وقاموا (العثمانيون) بحفر خندق حول المدينة منذ يوم الجمعة التالية لعيد الفصح، السادس من أبريل .

١- ينتقل المؤرخ البيزنطى دوكاس هنا من مرحلة المشابهة التاريخية- كما ذكرنا سابقًا- بين نبوخذ نصر ومحمد الفاتح ، والقسطنطينية والقدس، إلى رؤية جديدة تقوم بدمج الماضى بالحاضر بشكل مباشر لكى يدرك قرّاءة حجم المأساة ، وفداحة الكارثة ، وهكذا فإنه بدلاً من استخدام الأسلوب التقليدى فى ذكر وصول محمد الفاتح إلى بوابات القسطنطينية ، فإنه يستبدل ذلك بوصول نبوخذ نصر إلى بوابات القدس!!

وفى تصورى أنها محاولة جيدة من دوكاس لكسر الأطر التقليدية فى الكتابة التاريخية آنذاك فهو يسمح لقلمه بأن يتجول بين التاريخ القديم، والوسيط، بل والدمج بينهما فى سهولة تامة، من أجل تحفيز همم المسيحيين المتدينين .

قام سكان القسطنطينية بتجنّب الكنيسة العظمى ، منذ اليوم الذى تم فيه تبنى مسألة الاتحاد الكنسى داخلها . وبدت كما لو كانت معبداً يهودياً ، فلم تعد تقدم فيها القرابين ، أو البخور وإذا قام أحد القساوسة بقدّاس فى يوم عيد، فإن المتعبدين الموجودين بالكنيسة يبقون حتى لحظة تقديم القربان، ثم يرحلون جميعًا.

لقد اعتبر الرجال والنساء والراهبات والقساوسة ، الكنيسة العظمى ، كما لو كانت مذبحاً وثنياً ، وكما لو أن القربان يجرى تقديمه إلى الإله أبوللو Apollo[1] .

وبخصوص هذا الأمر، كان أشعيا Isaiah[2] قد تحدث كما لو كان الكلام قد خرج من فم الرب: «لذلك ها أنذا أعود أصنع بهذا الشعب عجبا وعجيبا فتبيد حكمة حكمائه ، ويختفى فهم فهمائه ، ويل للذين يتعمقون ليكتمون رأيهم عن الرب فتصير أعمالهم فى الظلمة ويقولون من يبصرنا ومن يعرفنا » (أشعيا ٢٩ : ١٤-١٥) . «ويل للبنين المتمردين المتمردين يقول الرب حتى أنهم يُجرون رأياً وليس منى ويسكبون سكيبًا وليس بروحى ليزيدوا خطيئة على خطيئة (أشعيا ٣٠ :١) .

وفى تلك الأثناء ، استمر جيناديوس يعظ ، ويكتب المقالات الدينية القصيرة، المناهضة لدعاة الاتحاد الكنسى، مستخدما القياس المنطقى Syllogism ، ومتبنيًا الآراء المضادة ،

١- Apollo : هو ابن الإله جوبيتر ، والأخ التوأم لديانا . وهو إله الموسيقى والشعر والفنون والطب والنبوات . كما سمى فويبوس Phoibos أى «النور والحياة» ، كانت له أعمال بطولية عديدة. ويقع معبد الإله أبوللو الرئيسى فى مدينة دلفى. عن ذلك انظر: كوملان ، المرجع السابق، ص٣٥-٣٧ .

Grant, Op. cit, pp. 23-25 .

نيهاردت، المرجع السابق، ص٢٦-٢٧ .

٢- أشعيا : هو آخر أنبياء القرن الثامن قبل الميلاد . وأهمهم على الإطلاق ، ومارس نشاطه النبوى فى عهد ملوك يهوذا : عزيا (٧٨٤-٧٤٦ق.م) ويوثام (٧٤٥-٧٤٢ق.م) وآحاز (٧٤١-٧٢٦ق.م) وحزقيا (٧٢٥-٦٩٧ق.م) .

والحقيقة أن سفر اشعيا قد أثار العديد من المشاكل النقدية التى أجبرت علماء نقد الكتاب المقدس على الاعتقاد فى وجود أكثر من نبى باسم أشعياء. وأن الإصحاحات ١-٣٩ كتبها اشعياء الأول. والإصحاحات ٤٠-٥٥ كتبها اشعياء ثان، والإصحاحات ٥٦-٦٦ كتبها أشعياء ثالث . عن ذلك انظر: محمد خليفة حسن، مدخل نقدى إلى أسفار العهد القديم، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٨٣-٨٤ .

المقدّس والأعلى حكمة، توماس الأكويني Thomas Aquines[١] ، وضد ديمتريوس كيدونس Demetrius Cydones[٢] مبرهنًا على هرطقتهم.

ونتيجة لتواطؤه وتحالفه ، فقد ذهب القائد الأعلى نوتاراس، الوزير الأول للإمبراطور ، بعيدًا في القول ، ضد مدينته أكثر مما هو ضد اللاتين، وخاصة بعد أن شاهد البيزنطيون ضخامة القوات التركية ، إذ ذكر «أنه من الأفضل له أن يرى عمامة الأتراك المنتصرة تحكم المدينة على أن يرى قلنسوة الكاردينال (الكاثوليكي)».

وفي وسط حالة اليأس هذه قال السكان «إذا ما سقطت القسطنطينية في يد اللاتين فقط ، الذين هم على الأقل يتوجهون بصلواتهم نحو المسيح والعذراء ، فإننا لن نطرد منها لكي نسقط في أيدي الوثنيين!».

وإذا كان القائد الأعلى نوتاراس قد أدلى بوجهة نظره في هذه المناسبة ، ففي مواجهته، كانت تقف كلمات النبي أشعيا التي قام بتوجيهها إلى حزقيال Hezekiah[٣] «اسمع قول رب الجنود، هوذا تأتي أيام يحمل فيها كل ما في بيتك . وما خزنه آباؤك إلى هذا اليوم إلى بابل، لايترك شئ يقول الرب . ومن بنيك الذين يخرجون منك الذين تلدهم يأخذون فيكونون خصيانًا في قصر ملك بابل» (اشعيا ٣٩: ٥-٧) .

١- سبق أن أوضحنا أن القديس توما الاكويني كان من الد أعداء كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية ، وأنه كان ينوي أن يلقي خطبة تحوي مثالب كنيسة القسطنطينية في مجمع ليون ١٢٧٤م . لكنه مات وهو في الطريق إلى تلك المدينة الفرنسية ، عن ذلك انظر ما سبق، ص٢٤٠، هامش (١) .

٢- هو الافلاطوني المحدث ديمتريوس كيدونس من مدينة سالونيك . يعد أحد أهم العلماء والباحثين في القرن الرابع عشر الميلادي، وأغزرهم إنتاجًا . قام بترجمة أعمال القديس أوغسطين، والقديس أنسلم ، والقديس توما الأكويني. عارضه جيناديوس في مسألة ضرورة الاتحاد الكنسي مع الكنيسة الغربية من أجل التصدي للخطر العثماني ، عن ذلك انظر:

Doukas, Op. cit. p. 309 , not . 258 ; O.D.B, vol , 2, p. 1160 .

٣- هو حزقيال بن بوزي ، أحد أنبياء السبي البابلي وأهمهم على الإطلاق، وهو يدعى أحيانًا نبي السبي . وعلى الرغم من اتفاق العلماء على ذلك، وأن سفره عمل متكامل لمؤلف واحد . إلاّ أن الأبحاث الحديثة قد أعادت النظر في تاريخ تأليف سفر حزقيال ، وفي المكان الذي جرى تدوينه فيه، لدرجة، أن بعض نقاد العهد القديم اعتبروا اختيار الموقع البابلي ضربًا من الخيال الأدبي فقط، وأنه جرت كتابة هذا السفر بعد السبي البابلي.عن ذلك انظر : محمد خليفة حسن ، المرجع السابق ، ص١١٦ .

الفصل الثامن والثلاثين

تولى الإمبراطور قسطنطين وضع الخطط المتعلقة بالدفاع (عن القسطنطينية) ، بالمشاركة مع جنوية غلطه ، الذين ساهموا فى ذلك بكل ما يمكنهم من قوة ، لأنهم كانوا على قناعة بانه إذا ما سقطت القسطنطينية ، فإن مدينتهم سوف يصيبها الدمار . كما أنهم كتبوا إلى مدينتهم الأم طالبين منها تقديم المساعدة ، ووصلهم الرد بأن سفينة على متنها خمسمائة جندى قد أصبحت جاهزة للإبحار تجاههم .

كذلك وصلت العديد من السفن التجارية التابعة للبندقية ، قادمة من بحيرة مايوتس[١] Maeotis ومن نهر تانايس Tanais[٢] ومن طرابيزون ، ولم يسمح لها الإمبراطور والسكان البنادقة فى القسطنطينية بمواصلة الإبحار إلى البندقية ، وقاموا باستبقائها من أجل مساعدة القسطنطينية [٣].

كما حضر أيضاً جيوفانى لونجو Giovanni Lango من أسرة جستنيانى Giustiniani، الذى وصل من جنوا[٤] ويرفقته سفينتين كبيرتين ، وكمية وفيرة من الأسلحة والمعدات الحربية،

١- المقصود ببحيرة مايوتس Maeotis هو بحر أزوف Azov ، الذى يقع الآن فى جمهورية أوكرانيا ، ويتصل بالبحر الأسود عبر مضيق كيرش Kerch، انظر:

W.N.G.D, pp. 102 , 707 .

٢- هو نهر تانايسTanais ، أو نهر الدون Don الذى يصب فى بحر أزوف. كانت به مستعمرات تجارية للبندقية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين. انظر:

W.n.G.D, p. 338 ; O.D.B, vol. 3 , p. 2009 .

٣- بذل الإمبراطور والنبلاء البنادقة بالقسطنطينية جهداً كبيراً من أجل استبقاء تلك السفن البندقية وتجارها وبحارتها، وعقد البنادقة أكثر من اجتماع بالقسطنطينية . وتم التصويت على هذا الأمر، الذى انتهى بضرورة الإبقاء على تلك السفن لمساعدة القسطنطينية فى الحصار العثمانى القادم. عن ذلك انظر نيقولو باربارو ، الذى تحدث عن هذا الأمر بالتفصيل الشديد، المصدر السابق، ص٨٩-١٠٠ .

٤- ذكر البروفسير فى هذه الترجمة الإنجليزية أن جيوفانى جستنيانى لونجو قد وصل بقواته من البندقية وهذا خطأ فادح . ولابد أنه خطأ مطبعى. لأن ترجمة البروفسير ماجولياس Magoulias تذكر أن جيوفانى جستنيانى، قد وصل من جنوا . وهو ما تؤكده جميع المصادر اللاتينية والبيزنطية والعثمانية . علاوة على أن جستنيانى نفسه جنوى، وأحد أفراد أبرز الأسر النبيلة فى جنوا، عن الدور العسكرى الذى قام به جستنيانى فى الدفاع عن القسطنطينية. انظر، رواية تيدالدى، ص١١٠ ، هامش (١) . وانظر مايلى ص٢٦٨، ٢٧٠ .

بالإضافة إلى قوة عسكرية من الجنود الجنوية، الذين تميزو بصغر السن، وبالتسليح الجيّد، وكانوا تواقين لخوض المعركة المرتقبة .

كان جيوفانى نفسه رجلاً يتميز بالكفاءة والبراعة ، وخبيراً في الاستراتيجية العسكرية، والتكتيك الحربى، وقام الإمبراطور بالترحيب به ، وجعله مشرفًا على كافة الجنود، مقدمًا له كامل التأييد والاحترام بعد أن منحه رتبة القائد العسكرى العام.

وأصبح جستنيانى مسئولاً عن الدفاع عن منطقة الأسوار القريبة من القصر الإمبراطورى لأنه لاحظ أن السلطان (محمد) قام بنصب مدفعه وباقى أدوات الحصار فى ذلك الاتجاه .

أصدر الإمبراطور مرسومًا بمنح جستنيانى جزيرة ليمنوس Lemnos[1]، إذا ما نجح فى ردّ السلطان محمد على أعقابه، وإجباره على الانسحاب دون أن ينجح فى تحقيق هدفه، الذى يتفاخر به ، وهو إسقاط مدينة القسطنطينية .

وحارب جنود جستنيانى اللاتين كالأبطال ، وقاموا – عبر البوابات – بهجمات مفاجئة ، ووصلوا عند التحصينات الخارجية ، وأحيانًا ما كانوا ينزلون إلى الخندق (أمام الأسوار)، ثم ينتهزون الفرصة المناسبة للوثوب من الخندق ، ويشتركون فى قتال متلاحم مع الأتراك. وقاموا بأسر بعضهم، واجبار البعض الآخر على الهرب.

وعلى الرغم من هذا، فإن هذه العمليات لم تتسبَّب فى إحداث تفوق عسكرى للبيزنطيين ، ويمكن أن يقال – دون مبالغة– أن الواحد منهم كان يواجه عشرين تركيًا .

ما هى الميزة التى تعود عليهم ، إذا ما قاموا بمثل هذه الهجمات المباغتة؟ وبالفعل وصلتهم الأوامر بضرورة التمسك بالقتال فقط عبر استحكامات الأسوار، مستخدمين القوس والنشاب، أو الأقواس الطويلة ، وبنادق البارود، التى كانت تطلق من خمس إلى عشر طلقات فى نفس

١– تقع جزيرة ليمنوس Lemnos شمالى بحر إيجه وتتحكم فى الطريق البحرى بين القسطنطينية وسالونيك، ثم منحها بعد العام ١٤٥٣م إلى جاتيلوزى من ليسبوس Gattilusi of Lesbos وفى عام ١٤٦٠ قام السلطان محمد الفاتح بمنحها – كجزء من الإقطاعات– التى منحها إلى ديمتريوس بالولوغس De-metrius Palaeologus ، الحاكم السابق للمورة، وقام العثمانيين بالاستيلاء عليها تمامًا فى العام ١٤٧٩م.

عن ذلك انظر: O.D.B. vol. 2 , p. 1205 .

اللحظة، وكان حجم كل طلقة يماثل حجم جوز البحر الأسود Pontic Walnut ، وتتميز بقدرة كبيرة على الاختراق . وإذا ارتطمت تلك الطلقة بمقاتل مدرع ، فإنها تقوم باختراق درعه وجسده، لدرجة أنها تستمر فى اندفاعها بعد ذلك لتصطدم بجسد آخر يقف فى طريقها ، وربما تستمر فى اختراقها لجسده أيضًا ، حتى تصيب جسدًا ثالثًا (٢). وهكذا فيمكن للمقاتل، أن يصيب من خلال طلقة واحدة، رجلين أو ثلاثة . وكان الأتراك على علم بهذا السلاح، واستخدموه أيضًا أفضل مما استخدمه البيزنطيون .

لم يحدث شئ له أهمية بعد مرور ثلثي شهر أبريل- سوي بعض المناوشات البسيطة- وخلال ذلك كانت قوات السلطان تتميز بأعدادها الضخمة، ومن المستحيل إحصائها بشكل دقيق ، لأنها مؤلفة من المحاربين الذين تم تجنيدهم بشكل إلزامي . وأولئك الذين قاموا بالتطوع فى الجيش ، وذكر الذين توجهوا لأداء عمليات الاستطلاع بأن عددها كان يزيد على أربعمائة ألف رجل (٢).

١- يعد ميخائيل دوكاس هو الوحيد الذى وصف بنادق البارود بهذا الشكل التفصيلي. وإن كنّا لانستطيع أن نمنع أنفسنا من القول بمبالغته الكبيرة ، حول نجاح الطلقة الواحدة لهذه البنادق فى اختراق أجساد ثلاث مقاتلين متتابعين .

٢- اختلفت المصادر فى تحديد أعداد الجيش العثمانى الذى قام بحصار القسطنطينية ، فقد ذكر المؤرخ البيزنطي خالكوكونديلاس أنه بلغ ٤٠٠ ألف رجل انظر ما سبق، ص١٨٢ ، فإن دوكاس هنا يزيد على هذا الرقم. بينما ذكر المؤرخ البيزنطي فرانتزاس Sphrantzes أنه تألف من ٢٠٠ ألف مقاتل ، انظر :
"The Fall of Constantinople", p. 69

بينما ذكر المؤرخ البندقى نيقولو باربارو أن محمد الفاتح بدأ حصاره للقسطنطينية بمائة وستين ألف رجل، انظر : المصدر السابق ، ص١١٣ ، ثم عاد وذكر أن الهجوم النهائى على القسطنطينية كان بواسطة ١٥٠ ألف رجل ، عن ذلك انظر، المصدر السابق، ص١٦٨ .

وناقش فرانتز بابنجر F. Babinger أعداد الجيش العثمانى ، ووصفها بالمبالغة الكبيرة، وذكر أن عدد الجيش العثمانى كان يزيد قليلاً على ٨٠ ألف مقاتل فقط بعد إضافة الرجال الذين لايشاركون فى القتال بشكل مباشر ، ويؤكد على أن إمكانات الدولة العثمانية لم تكن تسمح بجمع عدد يربوا على المائة ألف مقاتل.
عن ذلك انظر: . Mehmed The Conqueror and his time", p. 84

قام جنوية غلطة بإرسال سفارة إلى (السلطان) محمد، فى مدينة أدرنة وقبل وصوله (إلى القسطنطينية) ، أظهرت له أن صداقتهم ومودتهم تجاهه مستمرة- رغم الأحداث الأخيرة- كما أبدت السفارة استعداد الجنوية لإعادة تجديد المعاهدة والاتفاقيات السابقة التى قاموا بإبرامها معه من قبل .

كان جواب السلطان على ذلك أنهم أصدقاءه ، وأنه لاشئ يدفعه للتخلّى عن مودّته تجاههم، مشترطًا عليهم عدم تقديم المساعدة للمدينة (القسطنطينية)، وبالفعل، منحه الجنوية وعدًا بعدم القيام بذلك .

كان الطرفان يخدعان بعضهما البعض، فقد اعتقد الجنوية ، أنه نظرًا لفشل عملية حصار القسطنطينية فى الماضى والتى حدثت بواسطة جد (السلطان) محمد، الذى اضطر للانسحاب دون أن تكلل محاولته بالنجاح ، فإن نفس الشئ سيحدث هذه المرة . ومن أجل إظهار نواياهم الطيبة تجاه سكان القسطنطينية ، قاموا بإرسال عدد من رجالهم لتقديم المساعدة، واعتقدوا أن تأكيد السلطان على صداقتهم ومودتهم لن يتم تطبيقه، وقاموا - بشكل سرى- بعمل ما كان متوقعًا منهم، وإرسال المساعدات للمدينة (القسطنطينية) (١).

١- هاجم نيقولو باربارو ذلك التحالف الجنوى- العثمانى، واتهم الجنوية بأنهم أعداء المسيحية، وأعداء الدين المسيحى، وأنهم أطلعوا السلطان الفاتح على خطط البنادقة والبيزنطيين، عن ذلك انظر ، المصدر السابق، ص١٣٥ .

ويمكن فهم موقف باربارو فى ضوء حالة العداء والتنافس بين جنوا والبندقية لعدة قرون مضت .

حول المصالح والامتيازات التجارية في القسطنطينية منذ الربع الأخير من القرن الثانى عشر الميلادى، انظر: حاتم الطحاوى، بيزنطة والمدن الإيطالية (العلاقات التجارية ١٠٨١-١٢٠٤، القاهرة ، ١٩٩٩م) واستمرت حالة التوجس بين الطرفين إبان الحصار العثمانى .

والحقيقة أن موقف الجنوية فى بيرا كان يهدف إلى إقناع كلا الطرفين : البيزنطى والعثمانى بأنهم فى جانبه، وذلك من أجل الدفاع عن مصالحهم الاقتصادية فى مستعمرة بيرا (غلطه) ، وهو الأمر الذى تأكد فيما بعد نتيجة للمعاملة الطيبة التى عاملهم بها السلطان الفاتح بعد فتحه القسطنطينية حتى أنه عقد معهم معاهدة تجارية بعد ذلك مباشرة.

عن تلك المعاهدة ، انظر الملاحق، ملحق رقم (١) . وانظر الأصل اليونانى لهذه المعاهدة عند :

Miklosich & Müller, Acta et Diplamata Graeca , II, Vien, 1865, pp. 287-288 .

وفى تلك الأثناء ، كان محمد يحدّث نفسه «سوف أترك الحيّة الصغيرة فى سلام، حتى أقوم بقتل التنين ، وبعد ذلك فإن ضربة صغيرة على رأسها سوف تضع نهاية لها أيضاً».

وفى الواقع، فإن هذا هو ما حدث بعد ذلك تماماً .

وصل الأسطول التركى فى ذلك الوقت، مؤلفًا من السفن ثلاثية وثنائية المجاديف والسفن الخفيفة، وبلغت سفن الأسطول حوالى ثلاثمائة سفينة، وكان ميناء المدينة (القسطنطينية) مغلقًا بالسلسلة (١)، التى امتدت من بوابة هورايا Horaia إلى غلطه ، ووقفت السفن البيزنطية فى خط واحد داخل السلسلة، من أجل مراقبة وحماية الميناء والسلسلة.

١- انظر: نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٠٨ ، حيث يقرر أن الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر، أمر فى الثانى من أبريل ١٤٥٣م، المهندس الجنوى بارتولوميو سوليجو Bartolomio Soligo بأن يقوم بمد السلسلة Boom عبر مدخل القرن الذهبى من القسطنطينية إلى بيرا. وانظر أيضاً : Runciman , Op. cit., pp. 86-94 الذى يذكر بأن سوليجو قد تسلم مهمة حماية السلسلة والدفاع عنها، وقاد أسطولاً لهذه المهمة، خمس منها تابعة لمدينة جنوا ، وثلاث سفن تابعة لجزيرة كريت، وسفينة لكل من أنكونا والقسطنطينية.

وقد استخدمت العديد من المدن البحرية فى العصور الوسطى سلسلة حديدية طويلة لحماية موانيها، مثل ميناء دمياط الذى استولى عليه جنود الحملة الصليبية الخامسة ١٢١٩م، وذلك بعد نجاحهم فى كسر السلسلة الحديدية به، انظر : المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج١ ، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص١٥ ؛ محمود سعيد عمران ، الحملة الصليبية الخامسة على مصر ، القاهرة، ١٩٨٥م، ص١٨٧ . وعن استيلاء الحملة الصليبية السابعة على ميناء دمياط ١٢٥٠م، انظر المقريزى ، المصدر السابق، ص٢٢٠، جوانفيل، القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام ترجمة حسن حبشى، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٩٤-٩٦ .

ووجدت السلسلة الحديدية القوية فى مدخل القرن الذهبى فى القسطنطينية منذ وقت بعيد، وعلى الرغم من مناعتها، فإنها لم تستطع إيقاف تقدم سفن الحملة الصليبية الرابعة، التى قامت بتحطيمها والاستيلاء على مدينة القسطنطينية ١٢٠٤م. انظر: روبرت كلارى، المصدر السابق، ص٨١ «كانت ميناء القسطنطينية آمنة كل الأمن لوجود سلسلة حديدية ضخمة، قد ثبت أحد طرفيها فى المدينة والطرف الآخر عند برج غلطة بعد عبورها الميناء».

انظر أيضًا : فلهاردوان، المصدر السابق، ص٩٧ «... اتفق رأى باروناتنا على أن يعسكروا عند الميناء أمام برج غلطة ، حيث تمتد سلسلة تسد ميناء القسطنطينية التى لايمكن للمرء دخولها، إلا إذا اجتاز هذه السلسلة قسراً».

واحتفظ العثمانيون بعد الفتح بهذه السلسلة، وهى موجودة الآن فى متحف طوب قابى سراى Top Kapi Sarayi فى استانبول .

ظلت السفن الخمس التى تم ذكرها سابقًا، التى كانت إحداها تابعة للإمبراطور وتحمل الحبوب من البلوبونيز ، والسفن الأربعة الأخرى، التى قام الإمبراطور باستئجارها من مدينة جنوا ، ظلت جميعًا فى جزيرة خيوس طوال شهر مارس . لأسباب مختلفة استلزمت بقائها .

وعندما جاء شهر أبريل ، وأرادت تلك السفن الإبحار ، منعتها الرياح الشمالية من القيام بذلك، ولهذا السبب فقد أصاب اليأس والقنوط الجنود والمدافعين عن القسطنطينية لكن الرياح الشمالية خفتت، وبدأت الرياح الجنوبية فى الهبوب، فنجحت السفن فى مغادرة ميناء خيوس، لم تكن الرياح قوية فى اليوم الأول، لكنها زادت قوتها فى اليوم التالى ، مما دفع السفن إلى الإبحار فى سرعة مناسبة. حدث هذا فى الوقت الذى كان الجميع ينتظرونها بشغف فى القسطنطينية على الرغم من أنها لم تجلب لهم أية فائدة حقيقية.

عندما لاحت السفن، وتمكن السلطان من رؤيتها، تحول إلى تنّين هائج ، واندفع إلى أسطوله ، مصدرًا الأوامر بضرورة أن يحدث شئ من اثنين: أن يتم أسر تلك السفن، أو منعها من دخول الميناء.

قامت السفن التركية بفك الحبال Moorings التى تربطها بالميناء، واتخذت موقعها على مسافة قريبة منه، خارج البوّابة الذهبية، منتظرة مرور السفن.

وفى تلك الأثناء، وصلت تلك السفن واتخذت طريقها بشكل مباشر ومستقيم بغية الوصول إلى أكروبوليس ميجاديمترويوس Acropoli Megademetrius حتى تستطيع دخول القرن الذهبى ، وفى تلك النقطة قام أسطول العدوّ بمهاجمتهم .

كان البحر ساكنًا فى ذلك الوقت . وخفّت حدة الرياح ، وكان فى الإمكان رؤية منظر غريب، ثلاثمائة سفينة للأسطول التركى، فى مواجهة خمس سفن كبيرة [1]، وغطت جميع السفن صفحة البحر تمامًا، لدرجة أنها كانت تجد الماء بصعوبة ، وكان أولئك المحاربين على

١– اتسمت تلك السفن بالضخامة. لدرجة أن المؤرخ العثمانى المعاصر طورسون بك، وصفها بأن كل منها تشبه سفينة نوح فى الضخامة ، وتحمل الأسلحة والإمدادات العسكرية والغذائية لسكان القسطنطينية انظر: "Tarihi Ebul- Feth", p. 53 وإن كان قد ذكر أنهما سفينتين فقط ، انظر أيضًا ، ليونارد الخيوسى ، ص١٤٢ . حيث ذكر وصول تلك السفن من جزيرة خيوس، بالإضافة إلى سفينة من صقلية محملة بالقمح.

متن السفن (الكبيرة) مثل النسور المحلّقة عاليًا. يرسلون بسهامهم إلى أسفل تجاه الآخرين الموجودين فى مكان منخفض عنهم، كما قاموا بإطلاق البنادق تجاههم ، وهكذا فقد الأتراك عددًا كبيرًا من الرجال .

ودفع الغرور السلطان للوثوب على ظهر حصانه ، والاندفاع نحو الماء تجاه أسطوله ، فقد أراد أن يشق الموج- على ظهر حصانه- بهذه الطريقه ، لأنه شعر بالغضب الشديد، وشاركه جنوده وبحّارته هذه المشاعر .

وعندما خفتت الرياح ، تم فرد الأشرعة، واتخذت السفن (الكبرى) طريقها عبر سفن الأعداء (الأتراك) ، بحيث سبقتها ، وتقدمت باتجاه المدينة.

وهكذا استطاعت تلك السفن (الكبرى) المرور من حصار مائة سفينة تركية، وقام (السلطان) محمد، الذى لم يكن له أية خبرة بالحرب البحرية، بالصياح وإلقاء الأوامر بصوت عال، لكن قائد أسطوله لم ينتبه لأوامره ، لأنه كان من المستحيل عليه ذلك.

وفى غضب شديد ، أمر السلطان أسطوله بالإنسحاب ، إلى مكان الأعمدة المزدوجة Double Columns [١]، وبأن يمثل قائد الأسطول أمامه. وتمت الاستجابة إلى ذلك ، وتم القبض على قائد الأسطول وطرحه أرضًا ، بواسطة أربعة من الرجال ، بينما قام سيده (السلطان) بضربه على نحو موجع، مائة ضربة بالعصا التى كان رأسها يزن خمسمائة رطل من الذهب الخالص[*].

وقام محمد بضربه بنفسه ، وكان اسم الرجل بلطه Palda[٢]، وينحدر من أصل بلغارى، فقد كان ابن أحد الحكام فى بلغاريا ، والذى أصبح عبدًا، وتخلى عن ديانته ، والتحق بالخدمة

١- هذا المكان المسمى باليونانية Diplokionion هو رصيف بحرى على البوسفور ، يقع عليه الآن قصر دوله بخشه Dolma Bahce انظر: Runciman , Op. cit, p. 95.

* النص اليونانى يذكر «خمسمائة رطل»، الأمر الذى يبدو مستحيلاً ، لكنه من الصعب أن يتم تصحيحه، وإذا لم يكن ذلك مبالغة فادحة ، فإن بإمكاننا أن نختار ما بين خمسة أرطال ، أو خمسمائة دراخمة drachmas، التى تزن ما بين أربعة وخمسة أرطال ، (الترجمة الإنجليزية) .

كذلك الأمر فى ترجمة البروفسير ماجولياس لحولية دوكاس، فقد انتقد هذا الرقم الخيالى، واقترح أن وزن العصا كان خمسة أرطال فقط ، انظر:

Doukas, Op. cit, p. 311 , not . 269 .

٢- كان اسم قائد الأسطول العثمانى بلطه أوغلو سليمان Balta Öglu sulayman ويلتمس المؤرخ=

فى منزل والد محمد. وقاد حملة عسكرية من أربع سنوات على جزيرة ليسبوس واستطاع الحصول على عدد ضخم من الأسرى ، لكنه وقف فى وجه من قاموا معه بالحملة فقد احتفظ بأنصبتهم من الغنائم والأسلاب. وهكذا فعندما شاهده هؤلاء وهو يُضرب فى حضرة السلطان الثائر عليه، قام أحد هؤلاء العزبان Azabs بتناول حجر وضربه على جانب رأسه، حتى أنه اخترق إحدى عينيه .

على أية حال نجحت قافلة السفن الخمس فى الدخول إلى الميناء ، بعد أن قام المدافعون عنه بفكّ السلسلة وتمكن (السلطان) محمد من رؤية ثمانية سفن كبيرة ، وحوالى العشرين سفينة أصغر منها، من ضمنها السفن الخاصة بالإمبراطور. وتلك التابعة للبنادقة ، مع عدد كبير من المراكب الأصغر حجمًا. وأدرك أنه لن ينجح فى اقتحام الميناء بهذه الطريقة.

ونتيجة لذلك فقد ابتدع الخطة الجسورة التالية ، ليثبت أنه رجل فى غاية الذكاء، فقد أمر بأن يتم تعبيد طريق برى عبر الوديان الضيقة الواقعة خلف بيرا، عند النقطة الواقعة أسفل الأعمدة المزدوجة في الشرق ، إلى الجانب الآخر من غلطة، حتى المنطقة القريبة من ساحل القرن الذهبى المواجه لمنطقة كوزميديوم Cosmedium.

بعد أن تم تعبيد الطريق قدر الإمكان ، تم وضع سفنه ثنائية المجاديف على بكرات بعد أن قامت بفرد أشرعتها . وتم سحبها على الطريق من البوسفور حتى القرن الذهبى .

تمت هذه العملية بعناية شديدة، عبر رجال فى مقدمة السفينة ، ورجل على ذراع الدفة ، بينما كان الرجل الثالث يتولى عملية فرد الأشرعة.

وانطلقت أصوات الطبول والأبواق ، مؤلفه لحنًا بحريًا .

وبهذه الطريقة تم الإبحار ، عبر الوديان واليابسة ، مع مساعدة الرياح المناسبة. وأخيرًا وصلت السفن إلى الميناء ثانية، ثمانون سفينة ثنائية المجاديف انتقلت معًا بهذه الطريقة[١]، بينما ظلت باقي السفن فى مرساها الأول.

= العثمانى طورسون بك العذر لبلطه أوغلو فى عدم تمكنه من أسر تلك السفن المسيحية فيتكر « ... ماذا يفعل شخص واحد ولو كان أسدًا ، أمام بلد كامل. لم يتيّسر النصر ... وفتح الكفار باب الميناء (سلسلة الميناء) ، انظر : . "Tarihi Ebul- Feth", p. 53 .

١- عن تلك الخطة العبقرية للسلطان محمد الفاتح . انظر ما سبق، تيدالدى ، ص١٠٨-١٠٩، هامش (٣).
= Tursun Bey , op. cit, p. 52 ; Kritovoulus , op. cit, pp. 55-58 .

من رأى مثل هذا العمل من قبل ؟ أو حتى سمع به؟ حقًا لقد أقام (الملك) اكسر خسز Xerxes[1] جسرًا عبر البحر، قام جيشه بالمرور فوقه كما لو كان على اليابسة . لكن ذلك الإسكندر الجديد ، الأخير فى جنسه، قام بشكل أكيد بتحقيق رغبته، ومد الأرض عبر المحيط، وقاد سفنه عبر قمم الجبال، كما لو كانت مثل زبد الأمواج ، وقد تفوق بهذا العمل على اكسرخسز الذى عبر البوسفور ، ثم عاد ثانية بعد أن لقى الهزيمة من الأثينيين.

لقد عبر محمد الأرض كما لو كانت بحرًا ، ثم قهر البيزنطيين، مفخرة الدنيا، ثم استولى على ملكة المدائن .

تلك هى الأحداث التى جرت فى البحر، وعلى البر. وأحضر الأتراك مدفعهم الضخم إلى مواجهة الأسوار المجاورة لبوابة لقديس رومانوس St. Romanos . كما قاموا بصنع مدفعين صغيرين إلى جوار المدفع الضخم . وكانت تلك المدافع تطلق قذائفًا زنة الواحدة منها خمسين رطلاً [2]، من أجل تحقيق هدف السلطان محمد . فعندما كان يراد أن يقوم المدفع الضخم بإطلاق القذائف ، كان يتم تحديد الهدف أولاً، ثم يقوم المدفع الأصغر بإطلاق قذيفة نحوه، وبعد ذلك يقوم المدفع الضخم بإطلاق قذيفته فى نفس المكان .

عندما كان المدفع الأول يطلق قذيفته ، ويسمع المدافعون صوت ارتطامها ، كانوا يصابون بالذعر، ويبدأون فى الصياح «أيا الرب، اشملنا برحمتك!» .

وفى ذلك الوقت كانت أيقونة العذراء المقدسة[3] موجودة فى القصر (الإمبراطوري) ، حيث

Runciman , op. cit. p. 105-106 ; Nicol, " Byzantium and Venic , p. 401 ; Idem, " The = Last Centuries, p. 404 ; Babinger, Op. cit. pp. 88-89 .

صلاح ضبيع، المرجع السابق، ص٢٨٥ .

١- استخدم ميخائيل دوكاس مخزون خلفيته التاريخية للاشارة عن حملة الملك الفارسى اكسرخسز ، عندما هاجم اليونانيين الذين نجحوا فى هزيمته عام ٤٨٠ق.م.

عن ذلك انظر، حسن بيرينا، المصدر السابق، ص١١١-١١٦ ، وانظر : ليونارد الخيوسى، ص١٤٢ ، هامش(١) .

٢- حدد البروفسير جونز زنة القذيفة بخمسين رطلاً. بينما نجد أن البروفسير ماجولياس ، لم يحدد ذلك فى ترجمته لحولية دوكاس ، بل إنه ترك فراغًا بدلاً من ذكر الرقم «خمسين» .

٣- كان اسمها أيقونة هوديجيترا Hodegetria ، وهى أشهر الأيقونات وأكثرها اعتبارًا فى بيزنطة=

كنّا فى الأسبوع المقدس. ومن الآن فصاعداً ، تليت الصلوات بشكل متكرر فى دير خورا Chora(١)، حيث ظلت الأيقونة بها حتى تم الاستيلاء على المدينة.

وهنا تحققت نبوءة الرب، التى وردت عبر النبى إرميا Jeremiah (٦: ٢٠-٢٣) الذى ذكر «لماذا يأتى لى اللبان من شبا وقصب الذريرة من أرض بعيدة. محرقاتكم غير مقبولة ، وذبائحكم لاتلذ لى. لذلك هكذا قال الرب، «هو ذا شعب قادم من أرض الشمال، وأمة عظيمة تقوم من أقاصى الأرض. تمسك القوس والرمح ، هى قاسية لاترحم ، صوتها كالبحر يعج وعلى خيل تركب ، مصطفّة كإنسان لمحاربتك يا ابنة صهيون».

كيف تمّ ذلك. يمكنك أن تتساءل ، كيف استطاع الصانع الذى قام بصنع ذلك المدفع الذى سبب كل تلك الخسائر منع مدفعه من الانفجار ؟ لقد رأينا كيف ينطلق ذلك المدفع. وبعد انطلاق القذيفة ، فإنه يتحطم فى الحال إذا لم توفر له الحماية عبر تغطيته بحصير سميك من اللباد، وبعد تلك الاحتياطات ، كان يجب أن يتم تفكيكه إلى جزئين أو إلى ثلاثة أجزاء حتى يستطيع الهواء أن يجد طريقه إلى الأجزاء المعدنية الداخلية .

ماذا يجب على صانع المدفع أن يفعل ؟ بعد أن تنطلق القذيفة ، يصبح المدفع ساخنًا للغاية من حرارة الكبريت ، ونترات البوتاسيوم أو الصوديوم ، ويجب عليه أن يبلله بالزيت بسرعة ، وبالنسبة للأجزاء المعدنية المعرضة للهواء فإنها تبلل بالزيت أيضاً(٢). ولأن الأجزاء الباردة منه لاتتأثر، فإنها تبلل بزيت متوسط الحرارة ، وذلك حتى لاينفجر المدفع نفسه بسهولة، وأن يكمل دوره فى تدمير أسوار المدينة، وأن يساعد السلطان فى تحقيق خططه وأهدافه .

= يفترض أنه تم رسمها وتلوينها بواسطة ، القديس لوقا، كاتب أحد الأناجيل عن ذلك انظر:
Runciman, Op. cit, p. 146 .

١- ديرخورا Chora. يقع مكانه الآن المسجد المعروف بقارية جامع Kariye Camii الذى يقع فى المنطقة الشمالية الغربية للقسطنطينية، بالقرب من باب أدرنة . ويعزى تاريخه القديم إلى خال ثيودورا زوجة الإمبراطور جستنيان فى القرن السابع الميلادى ، تقلبت به الأحوال طوال التاريخ البيزنطى، إلى أن قام السلطان بيازيد الثانى (١٤٨١-١٥١٢) بتحويله إلى مسجد. عن ذلك انظر: O.D.B, vol. I, pp. 428-429 .

٢- يعتبر المؤرخ البيزنطى ميخائيل دوكاس، هو المؤرخ الوحيد، المعاصر لفتح القسطنطينية، الذى تحدث عن كيفية التعامل مع المدفع بعد إطلاقه للقذائف ، وكيفية صيانته والمحافظة عليه.

عندما تنطلق قنيفة المدفع ، كانت تقوم برجّ الأسوار وتحطيمها ، واستمر (الأتراك) فى إطلاق القذائف على نفس النقطة (التى تمت إصابتها من قبل) .

وعندما تواجد لديهم سفير حنا هونيادى John Honyadi (١)، أخذ يسخر من طريقتهم فى التصويب. وقال «إذا ما أردتم اسقاط الأسوار فعلاً، فيجب أن تقوموا بتصويب القذائف نحو جزء آخر من السور يبعد عن مكان إصابة القذيفة ، الأولى من خمسة إلى ستة فاثوم Fath-om، ثم تقومون بتكرار هذا بنفس الطريقة . وعندما تصيبون النقطتين الخارجيتين بشكل محكم، قوموا بإطلاق القذيفة الثالثة على نقطة ثالثة ، وهكذا فإن النقاط الثلاث سوف تكون على شكل مثلث . وعندها سوف ينهار السور بسهولة».

وكانت تلك بالفعل نصيحة هامة. قام المدفعجى باتباعها بنجاح.

يمكنك أن نتساءل ، ما الذى دفع ذلك المجرى إلى أن يمد السلطان بهذه النصيحة ؟ إننى أستطيع أن أخبرك ، فى ذلك العام كان إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، الذى جرى تتويجه بواسطة البابا نيقولا ، قد أزاح هونيادى عن موقعة كولى عهد للمجر، وقام بتعيين لاديسلاس ملكًا (*).

ولهذا السبب عقد هونيادى معاهدة سلام مع (السلطان) محمد لمدة ثلاثة أعوام . انقضى منها الآن ثمانية عشرة شهرًا ، واتبع هونيادى ذلك برسالة إلى (السلطان) محمد «إننى اتخلى عن المملكة (المجرية) لسيدى . ومن الآن فصاعداً فإننى لن أحافظ طويلاً على القسم الذى أقسمته، ها هى نسخة المعاهدة التى منحتها لى، أعطنى النسخة الثانية. التى تمتلكها . ويمكنك أن تتصرف كما تشاء نحو ملك المجر». لهذا السبب حضر سفيره (إلى العثمانيين) .

١- عن حنا هونيادى وعلاقته بالسلطان محمد الفاتح، انظر ما سبق، ص١٥٩ ، هامش (١) والملاحظ أن ترجمة حولية ميخائيل دوكاس الكامله، تكرته تحت اسم Janos . انظر: Doukas, op. cit, p. 216

* تمت ترجمة هذه الجملة عبر النسخة الإيطالية لحولية دوكاس . والتى تبدو – فى هذه الحالة– محافظة على النص الذى جرى تصحيحه ، أما المخطوطات اليونانية الباقية لحولية دوكاس ، ففيها جملة مشوشة ومضطربة تذكر تعيين ملك المجر، امبراطورًا على الرومان. (الترجمة الإنجليزية).

وكان لاديسلاس الخامس بوسوموس Ladislas V Posthumus فى الثالثة عشرة من عمره، عندما تم تتويجه ملكًا على المجر فى فبراير ١٤٥٣م. بينما استمر القائد حنا هونيادى فى إدارة شئون البلاد .

وبالنسبة للنصيحة التى كان يجب عليه- كمسيحى- ألايبديها ، فإننى سوف أكتب ما سمعته ، لقد قيل بعد هزيمته للمرة الثالثة (فى كوسوفو) ، وكما سبق أن رويت سابقًا، أنه قام بالفرار والهرب . حتى اقترب من أحد المنازل فى إحدى المناطق غير الآمنة . وهناك صادف عرّافًا، أخبره عن الكارثة ، متحسرًا على الحظ الذى هجر البيزنطيين، وابتسم للكفار الوثنيين. فأجابه العرّاف العجوز «يا ولدى، يجب أن تعلم أنه على الرغم من الدمار الذى أصاب البيزنطيين ، فإن الحظ لن يبتسم للمسيحيين ، لأن المدينة سيتم تدميرها بواسطة الأتراك ، وسوف يصل المسيحيون إلى نهايتهم المحتومة».

وبعد أن سمع (هونيادى) بأذنيه تلك النبوءة التعسة، كان رسوله شغوفًا لرؤية المدينة التى ستسقط دون تأخير، ولهذا السبب قام بإسداء النصيحة حول أفضل وسيلة لإسقاط الأسوار .

انهار قسمين من السور، بالإضافة إلى برج يقع فى منتصف السور. كذلك انهار البرج المثبّت فوق بوابة القديس رومانوس ، وهكذا أصبح من الممكن أن يشاهد المحاصرون والمدافعون بعضهم البعض ، لكن جستنياني وجميع رجاله قاتلوا بشجاعة ، جنبًا إلى جنب مع الجنود المتمركزين فى القصر. بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الرجال المسلحين القادمين من غلطه، الذين حضروا لإظهار دعمهم للمدافعين (عن المدينة) ، أولئك الرجال الذين اعتادوا على الرحيل عن مدينتهم، باتجاه المعسكر التركى ، بلاخوف، وقاموا بإمداد السلطان باحتياجاته الضرورية التى طلبها منهم، كالزيت من أجل المدفع ، وأية احتياجات أخرى. وكانوا - بشكل سرى- يتسللون ليلاً إلى البيزنطيين ليحاربوا فى صفوفهم طوال اليوم التالى.

وفى الليلة التالية، يقوم زملاؤهم بالتبديل معهم فى المدينة، ليظهروا فى منازلهم وفى المعسكر التركى. وهكذا جرى خداع العدو.

حارب البنادقة الذين شغلوا القسم الممتد من البوابة الإمبراطورية حتى Cynegum إلى جوار البيزنطيين ضد الأتراك ، وقام القائد الأعلى، برفقة خمسمائة من رجاله، بالمرور والطواف حول المدينة لتشجيع المدافعين عن مواقعهم، كما قاموا بمعاينة الحراس والنظر فى التزام الجنود المعيّنين بالحراسة فى أماكنهم، وجرت هذه الجولات الروتينية بشكل يومى، على الرغم من شبح الدمار والخراب، ولم يكن عدونا قد بدأ هجومه بكامل قواته بعد ، لأنه كان ينتظر الوقت المناسب الذى قام عرّافوه بتحديده.

بينما كان الإمبراطور يقوم بمعاينة الثغرة الموجودة فى التحصينات ، أيقن أن تلك البقايا الناتجة عن الدمار هى نذير سوء على ما سوف يحدث للمدينة، وله شخصياً .

ومنذ عهد الإمبراطور الأول ، قسطنطين فائق القداسة، عبر العديد من الحروب ضد السكيثيين Scythians[١]، والفرس Persians ، والعرب Arabs[*]، لم يسقط حجر واحد يزن رطلاً واحداً من الأسوار، لكن الآن، وعندما شاهد (الإمبراطور) الحجم الضخم لجيش أعدائه، ومدى ما يتميز به من كفاءة حربية ، وقدرة أسطوله البحرى، والأسلوب الذى ينتهجه إزاءهم غاص قلبه بين جنبيه .

أرسل (الإمبراطور) سفارة إلى السلطان، ملتمسًا فيها تحديد ضريبة سنوية، حتى لو كانت أكبر مما كان يقوم بدفعه، كما أنه سوف يقوم بتلبية أية طلبات يحتاجها ، إذا ما انسحب فقط بقواته، وأن يدعهم فى سلام[٢].

وجاء رد محمد كالتالى : «إنه لمن المستحيل علىّ الانسحاب الآن. فإما أننى سوف استولى على المدينة. أو أن المدينة سوف تستولى علىّ ، حيًا أو ميتًا. أما إذا أردت أن ترحل أنت عنها، فسوف أسمح لك بأن تعيش فى سلام في البلوبونيز ، كما أننى سوف أقوم بمنح إخوتك أقاليم أخرى ليقوموا بحكمها، وسوف يمكننا أن نصبح أصدقاء، لكن إذا ما منعتنى من دخول المدينة بسلام، وقمت باقتحامها ، عبر الحرب والقتال، فسوف أضعك ونبلاءك تحت حد السيف،

١- هم مجموعات من القبائل الرعوية الموجودة فى الاستبس، دفعتهم قبائل رعوية أخرى من أماكنهم شمال البحر الأسود للدخول فى الأراضى الرومانية داخل منطقة كريميا، واستخدم اسم Scythians متأخراً للحديث عن الآفار، الخزر، البلغار، المجريين ، البشناق، السلاجقة ، المغول والعثمانيين، وربما أيضًا السلاف والروس. عن ذلك انظر:

O.D.B, vol , 3 , p. 1858 .

* كما جاء فى الملاحظة التى ذكرت سابقًا، ص ، فمن الممكن أن تكون القراءة الصحيحة للكلمة هى الآفار، وليس العرب. (الترجمة الإنجليزية) .

٢- تحدث ميخائيل دوكاس باختصار عن تلك السفارة. على أن المؤرخ البيزنطى خالكوكونديلاس تحدث بالتفصيل عن السفارة البيزنطية التى جاءت بإيعاز من ابن سندر حاكم مدينة سينوب ، عن تلك السفارة ومطالب السلطان محمد الفاتح . انظر ما سبق، ص١٩٠ .

وسوف أهبُ باقي شعبك إلى جنودى ، ليصبحوا خدمًا لديهم، أما بالنسبة لى، فإننى سوف احتفظ لنفسى بالمدينة فقط».

لم يأخذ الإمبراطور فى اعتباره أبدًا تلك المطالب، لقد كان من المستحيل عليه تمامًا أن يقوم بتسليم المدينة التى تخص البيزنطيين ، إلى الأتراك ، وإذا ما كان قد حدث هذا ، فإلى أى مكان سوف يذهبون ؟ ما هو المكان الذى سيقيم به البيزنطيون، ما هى تلك المدينة المسيحية التى لن يتم البصق عليهم فيها، بعد أن يعيشوا فيها فى ازدراء واحتقار؟ وحقًا ، فقد كان كل من الأتراك واليهود يزدرونهم ويحتقرونهم.

فى تلك الأثناء ، كان جستنيانى يفكر مليًا فى شن غارة ليلية لإشعال النيران فى سفن الأعداء . وتم تجهيز سفينة ثلاثية المجاديف، بواسطة بحّار إيطالى، تم اختياره بعناية، وتم تحميلها بما هو ضرورى للقيام بهذه المهمة[1].

وعلم جنوية غلطة بما يحدث ، فقاموا بإبلاغ الأتراك [2]، الذين استعدوا طوال الليل وأيديهم على بنادقهم لمواجهة هجوم اللاتين، الذين لم يعلموا أن أولئك الكفار قد وصلتهم أخبار الغارة من غلطة .

اتخذت السفينة طريقها فى منتصف الليل بشكل صامت، واقتربت من السفن التركية، فانطلق الأتراك ، الذين كانوا يراقبون الموقف طوال الليل ، قذائف مدافعهم، واتخذت القذيفة طريقها باتجاه السفينة ثلاثية المجاديف ، وارتطمت بها محدثة دويًا عاليًا، ونجحت فى إرسالها نحو القاع برفقة بحارتها.

١- قام البنادقة والبيزنطيون بهذه المحاولة لإشعال النيران فى السفن العثمانية التى تسللت إلى داخل خليج القرن الذهبي، وقاد تلك المحاولة الربان البندقى جاكوموكوكو Gacomo Coco . وتحدثت معظم المصادر المعاصرة عن فشل تلك المحاولة ، وتحولها إلى كارثة على البنادقة والبيزنطيين . عن محاولة جاكومو كوكو الفاشلة . انظر رواية تيدالدى ، ص١١٠-١١١ : ليونارد الخيوسى ، ص١٤٧-١٤٨ ..

والجدير هنا أن دوكاس – يتفق هنا مع ليونارد الخيوسي– بذكر أن جستنيانى كان صاحب فكرة الغارة الليلة لاضرام النيران فى السفن التركية ، وهو ما لاتؤيده باقى المصادر البيزنطية واللاتينية المعاصرة .

٢- عن أخبار جنوية غلطة العثمانيين بخطط البنادقة والبيزنطيين نحو إشعال النيران فى السفن العثمانية، انظر : نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٢٥-١٣٧ .

سبَّب ما حدث الكثير من الأسى والفزع لدى اللاتين . أما جستنيانى نفسه، فقد ثبطت همته بقدر كبير، وبلغ عدد الرجال الذين غرقوا حوالى المائة وخمسين رجلاً،(١) من الشبان المتقدين حماسة ونشاطًا ، وولعًا بالحرب.

شعر الأتراك بالتفاؤل لتحول مجرى الأحداث ، وصاحوا جميعًا صيحة النصر، ولحق أولئك الذين كانوا على متن سفنهم بالآخرين على أرض المعسكر، فأحدثوا صخبًا وجلبة وصلت حتى عنان السماء ، وارتجّت الأرض فى المنطقة كلها، وتأوّه سكان القسطنطينية وغلطة من الفزع والرعب .

وعندما بزغ ضوء الفجر أخذ الأتراك فى مواصلة القتال، بروح معنوية عالية ، وكعلامة على الثقة ، التى بثتها عملية تدمير السفينة ، فيهم، قاموا بلقم مدفعهم بقذيفة أخرى كبيرة . وكانت هناك سفينة قد ألقت بمراسيها بالقرب من مدخل الميناء، إلى جوار غلطة، وهى محملة بالسلع والبضائع من كافة الأنواع التى تخص تجار غلطة، وتستعد للإبحار باتجاه إيطاليا، وأطلق الأتراك بالقذيفة من مدفعهم، فاتجهت نحو منتصف السفينة، وخلال لحظة واحدة ، كانت قد تحطمت متخذة طريقها باتجاه قاع البحر.

ويمكن اعتبار ما حدث بمثابة مكافأة للصداقة الخالصة والصادقة التى يكنّها سكان غلطة تجاه الأتراك (٢).

وفى نفس اليوم، توجهت سفارة (من سكان غلطة) إلى الضباط الأتراك المسئولين عن ذلك، وتذمرت مما حدث بصوت عال «إننا أصدقاؤكم . ولقد أثبتنا لكم عمق صداقتنا عند إخباركم بأمر السفينة ثلاثية المجاديف السابقة، وإذا لم تكونوا قد حصلتم على هذه المعلومات

١- تعتبر حولية دوكاس هى المصدر التاريخى الوحيد الذى ذكر أعداء القتلى البنادقة والبيزنطيين فى تلك المحاولة الفاشلة ، ولايملك المرء إلاّ أن يستغرب لهذا الأمر. وذلك لأن المؤرخ البندقى نيقولو باربارو ، الذى كان شاهد عيان على ذلك الحدث ، ورغم حديثه المفصّل عنه، فإنه لم يذكر ذلك العدد من القتلى والغرقى، بل ذكر حوالى العشرين من الرجال ذوى المكانة العليا وعلى رأسهم جاكومو كوكو، بالإضافة إلى ٧٢ من المجدفين ، انظر، نيقولو باربارو المصدر السابق ، ص١٣٩ .

٢- يستخدم دوكاس هنا أسلوب السخرية ، للتهكم على العلاقة الوطيدة والحميمة بين الجنوية والأتراك العثمانيين . وعن إغراق العثمانيين لهذه السفينة الجنوية انظر ما سبق، تيدالدى ، ص١١٧ .

من طرفنا ، لكان قد ذهب جهدكم الكبير فى سحب وجر سفنكم الثمانين من البر إلى الميناء سدىً . فقد كان سيتم إشعال النيران بها، لتصبح رماداً بواسطة البيزنطيين ، الآن تردّون الجميل ، وتدفعون لنا بسخاء نتيجة جهودنا لصالحكم ، فتتسببون لنا فى هذه الخسارة الكبرى! ».

وكان رد الوزراء الأتراك «لم نكن نعلم أن السفينة تخصكم ، لأننا تأكدنا أنها فى حالة مواجهة معنا ، فكان ما جرى، نحن لدينا الثقة ، ونأمل أن ننجح فى محاولاتنا الاستيلاء على المدينة. وفى الواقع ، فإن الوقت المحدد لهذا قد اقترب ، وحينها سوف نقوم بتعويضكم عن أية خسارة سوف نتسببّ فيها لكم»[1]. ورحلت السفارة ، بعد أن استمعت لتلك الكلمات المعسولة.

لم يدرك التعساء أنهم سيعاملون، ومدينتهم ، بنفس الطريقة التى تم بها التعامل مع القسطنطينية .

وقام السلطان (محمد) بإعداد جسر يمتدّ من غلطة إلى منطقة Cyncgun [2]، وتم عمله بعد أن أصدر الأوامر بإحضار أكثر من ألف من براميل الخمور الخشبية، وجمعها معًا وربطها بالحبال، بحيث يصبح عرضها هو طول برميلين ، مكونة صفًا واحدًا، ثم صفٌ آخر بجوار الصف الأول. وبعد ذلك تم ربط الصفين معًا ، عبر استخدام ألواح خشبية تم تثبيتها بالمسامير الواحد بالآخر. بحيث يوضع لوح خشبى سميك على قمتها.

وهكذا وفّر الجسر عرضًا يكفى لعبور خمسة من الجنود مشاة إلى الجانب الآخر، دون أية صعوبة تذكر .

١- يعد دوكاس هو المؤرخ الوحيد الذى ذكر ما حدث من «عتاب» بين الجنوية والعثمانيين نتيجة لذلك. وبينما يذكر أن إغراق السفينة الجنوية كان فى اليوم التالى لمحاولة جاكومو كوكو ، فإن البروفسير رنسمان يذكر أن ذلك قد حدث يوم ٥ مايو ١٤٥٣م، انظر: Runciman, op. cit,p. 116 .

٢- كان الوزير العثمانى زاجان باشا هو الذى أشار بتنفيذ فكرة هذا الجسر. عن ذلك الجسر الخشبى وأهميته، انظر ما سبق، ليونارد الخيوسى، ص١٤٢ هامش (١) .

ويذكر البروفسير رنسمان، أن ذلك الجسر تم الانتهاء منه يوم ١٩ مايو ١٤٥٣م، لكنه يضيف أن العثمانيين لم يحتاجوا إليه فى عملياتهم العسكرية حتى سقوط القسطنطينية. Op. cit., p. 111 .

الفصل التاسع والثلاثين

عندما شعر بالرضا عن الاستعدادات التى اكتملت ، أرسل محمد رسولاً لمقابلة الإمبراطور (البيزنطى) بالمدينة، مع الرسالة التالية:

«لقد اكتملت الآن استعداداتنا للمعركة ، وقد حان الوقت للقيام بما كنا نتوق إلى فعله منذ أمد بعيد ، وسوف نترك الرب هو الذى يقرر ما إذا كنا سنلاقى النجاح فى هدفنا.

ماذا لديك الآن ؟ هل تنوى مغادرة المدينة، برفقة وزرائك ، الذين يمكنهم اصطحاب ثرواتهم وممتلكاتهم معهم. على أن تقوموا بترك سكان المدينة ، ولن نتعرض لهم بسوء، وإما أن تختار البقاء والمقاومة . وبالتالى فسوف تفقد – ومن معك– حياتك وممتلكاتك ، بينما سيجرى سبى شعبك ، ليتفرق عبر أرجاء الأرض.

وجاء رد الإمبراطور ووزرائه كالتالى :

«إذا أردت أن نعيش معًا فى سلام ، كما فعل أباؤك من قبل، فيجب أن تتوجه بالشكر إلى الرب . لقد نظر آسلافك إلينا كآباء لهم[1]، وكنّا نقدم لهم ما يستحقون من شرف. وتعاملوا مع هذه المدينة، كما لو كانت بلدهم تمامًا . وفى الوقت الذى كانت تحدث فيه الاضطرابات ، فإن

١- ربما كان دوكاس يقصد هنا العلاقات الطيبة بين السلطان العثمانى أورخان Orhan (١٣٢٦–١٣٥٩م) والإمبراطور البيزنطى يوحنا السادس كانتاكوزينوس John VI Contacuzenus (١٣٤٧–١٣٥٥م) ، حيث استعان الإمبراطور بأورخان من أجل مساعدته فى الحرب الأهلية البيزنطية ضد الإمبراطورية أنا Anna الوصية على ابنها يوحنا بالولوغس ، ووريث الإمبراطور اندرونيكوس الثالث باليولوغس Andronicus III Palaeologus ، وبعد أن قدم السلطان العثمانى مساعداته للإمبراطور يوحنا السادس كانتاكوزيزس فى الحرب الأهلية، وكذلك ضد الصرب حيث ساعده فى هزيمتهم فى معركة ايمبيثون على نهر ماتيزا Matiza ونتيجة لذلك حدث الزواج بين أورخان وثيودورا ابنة يوحنا السادس كانتا كوزينوس الذى أصبح حمو السلطان العثمانى، عن ذلك انظر:

Doukas, " Decline and Fall of Byzantium", pp. 64 , 71 , 75-76 ; Nicol, Op. cit. p. 209 .

صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص١٠٢–١٠٤ .

جميع الذين حضروا عبر أسوار المدينة قد تم إنقاذهم (١)، ولم يكن ممكنًا لمن ينوى الوقوف في طريقهم أن يعيش طويلاً ».

«احتفظ بالحصون والأراضى التى استوليت عليها . إذا كنت تشعر أنك تستحقها . وقم بتحديد ضريبة سنوية كبيرة لنقوم بدفعها لك. وارحل بعد ذلك فى سلام . كيف يمكنك أن تكون متأكدًا ، على الرغم من أنك لست واثقًا ، بأنك سوف تكون الطرف المنتصر؟ إننى لا أملك المدينة حتى أقوم بتسليمها لك. ولايوجد أى شخص يعيش بها له الحق فى أن يقوم بذلك. لقد قررنا جميعًا أن نختار الموت على الاستسلام ، ولايوجد لدينا أى تردد فى تقديم حياتنا من أجل هذا الأمر .

عندما استمع (السلطان) محمد لهذا الرد، بعد ما وضع كافة آماله فى دخول المدينة عبر الموافقة على شروط السلام. أمر بأن يذاع عبر كافة قواته، أنه قد تم تحديد يوم الهجوم الرئيسي. وأقسم بانه لن يحتفظ لنفسه سوى بمبانى وأسوار المدينة، أما الباقى كله، الأسلاب والغنائم والأسرى، فإنه سوف يقوم بمنحها إلى قواته ، مما أدى إلى شعور الجنود بسعادة كبرى إزاء ذلك الأمر .

وعندما حل المساء ، قام محمد الفاتح بإرسال المنادين عبر أرجاء المعسكر ، وأمر بضرورة إيقاد المشاعل والقناديل فى كل خيمة . وعندما سطعت الأضواء كلها، أخذوا (الأتراك) فى الصياح ، ورفع أصواتهم التى تنبئ عن طبيعتهم الشريرة وأصبح المشهد جديرًا بالمشاهدة والسماع . فقد غطت أضواء نيرانهم الأرض والبحر ، لدرجة أنها سطعت أكثر من ضوء الشمس عبر المدينة، وحتى غلطة ، وكذلك فوق السفن الموجودة هناك ، ووصلت أضواؤها حتى تلك السفن البعيدة الموجودة خلف سكوتارى Scutari(٢). وبشكل عام أضاءت النيران سطح

١- يقصد دوكاس هنا أن القسطنطينية قد استضافت العديد من الأمراء العثمانيين الفارين نتيجة الحرب الأهلية العثمانية التى نشبت بعد هزيمة أنقرة ١٤٠٢م أمام المغول وآخر هؤلاء الأمراء هو الأمير أورخان بن سليمان بن بايزيد ، الذى يدفع العثمانيون نفقات إعاشته بالقسطنطينية، والذى كان طلب البيزنطيين زيادة نفقات إعاشته، مقابل عدم السماح له بالخروج من المدينة ومطالبته محمد الفاتح بالعرش العثمانى، سببًا فى تعجيل السلطان العثمانى بمسألة فتح القسطنطينية عن ذلك انظر ما سبق، من رواية دوكاس ، ص٢١٨ . وانظر أيضًا رواية خالكوكونديلاس ، ص١٩٥ ، هامش (٢) .

٢- سكوتارى Scutari هي منطقة اسكدار Uskudar التركية الحالية على الضفة الشرقية للبوسفور فى مواجهة القسطنطينية . وتعد الآن أحد أحياء استانبول الآسيوية، وهناك مدينة أوربية أخرى كانت تحمل نفس الاسم فى العصور الوسطى وهى مدينة Scutari فى ألبانيا . عن ذلك انظر: W. N. G. D. p. 1093 .

المياه، كما لو كانت أضواء الصواعق . أواه ! إذا ما كانت تلك هى الصاعقة، إذ لم تكتف بأن يسطع نورها فوق المدينة، بل قامت بتدميرها أيضًا عبر لهيبها .

واعتقد البيزنطيون أول الأمر أن النيران قد خبت فى المعسكر التركى، فتسللوا إلى ثغرة بالأسوار. وعندما شاهدوهم يقفزون فى الهواء، واستمعوا إلى صيحاتهم الشريرة ، أدركوا ما يحدث ، وبدأوا يتوجهون بصلواتهم القادمة نحو الرب، قائلين «أيها الرب . ارحمنا من غضبك ، وخلصنا من يد الأعداء» وشعر سكان المدينة بالرعب ، لدرجة الموت، نتيجة للأحداث والأضواء التى تنبعث من المعسكر التركى، ولم يتمكنوا من التقاط أنفاسهم بسهولة .

لكن جستنيانى استمر فى العمل طوال الليل . آمرًا بجمع كافة الشجيرات الصغيرة فى المدينة من أجل سد الثغرة الموجودة فى السور. كما أقام خندقًا ثانيًا فى الداخل من أجل حماية الأسوار إذا ما تعرضت للهدم. ورأى البيزنطيون الآن أن الطريق قد أصبح واضحًا للأعداء، للمرور والخروج منه أيضًا . بينما كانوا هم لايستطيعون الخروج من البوابة لمحاربتهم خارج الأسوار. لأن تهدّم الأسوار تركهم بلا حماية .

كان بعض الرجال من كبار السن يعرفون مدخلاً جانبيًا مغلقًا منذ عدة سنوات، ويمنح هذا الرجال منفذًا أسفل المستوى الأرضي للجزء الأسفل من القصر. وقاموا بإخبار الإمبراطور عن مكانه. فأمر بإعادة فتحه .

وهكذا، وعبر الحماية القوية للأسوار ، قاموا (البيزنطيون) بغارة مفاجئة، وقاتلوا الأتراك فى التحصينات الموجودة. خارج الأسوار. وكان الاسم الأصلى لتلك البوابة المغلقة سابقًا هو هو كيركوبورتا kerkoporta.

بدأ السلطان يشرك قواته فى المعركة النهائية منذ يوم الأحد. وعندما حلّ المساء، استمر فى الضغط على البيزنطيين طوال الليل، وكان ذلك الأحد هو يوم «أحد كل القديسيين»، الموافق للسابع والعشرين من مايو.

١- ذكر نيقولو باربارو فى يومياته مسألة صراخ العثمانيين وصيحاتهم العالية المستمرة وأشار - فى غير مرّة - إلى أن هتافات وصيحات العثمانيين العالية كانت تعبر البوسفور حتى الأناضول، على مسافة اثنى عشرة ميلاً من المعسكر العثمانى. انظر: المصدر السابق، ص١٢٣-١٤٦ ، ١٧٠، ١٧٢ .

٢- عن جستنيانى ودوره فى الدفاع عن القسطنطينية. انظر ما سبق : تيدالدى، ص١١٠ ، ليونارد الخيوسى، ص١٣٤-١٣٥ ؛ خالكوكونديلاس ص١٩٢ .

وفى فجر اليوم التالى، استمر محمد فى هجومه بشكل أقل حدة، حتى الساعة التاسعة وبعد ذلك قام بتحريك جيشه من أمام بوابة القصر إلى البوابة الذهبية Chryse كما قام بتحريك ثمانين سفينة من أمام بوابة زيلويورتا Xeloporta إلى بواته بلاتاى Plataia. أما باقى الأسطول الذى كان قد ألقى مراسيه عند منطقة الأعمدة المزدوجة، فقد انتشرت سفنه على هيئة قوس يمتد من بوابة هورايا Horaia إلى الاكروبوليس الخاص بديمتريوس الكبير Acropolis of Megademetrius، والبوابة الصغيرة التابعة لدير هوديجيتريا Hodegetria والمؤدية إلى أسفل القصر الكبير، والميناء، وقام الأسطول بحصار المدينة بالقرب من منطقة الفالانجا Valanga، وتم تجهيز كل سفينة بالسلالم الخشبية لتسلق الأسوار، وكافة أدوات القتال.

وتصاعدت صيحات القتال عند غروب الشمس. وامتطى السلطان جواده فى الساعة الثانية ليلاً، وقاد مجموعات كبيرة من جنوده للقيام بهجوم عبر الثغرة الموجودة فى الأسوار، بالإضافة إلى فرقة عسكرية من خيرة جنوده الشبان، المعروفين بالشجاعة، وهم الانكشارية، الذين تم اختيارهم من وسط عبيده المخلصين، وكان عددهم يربو على عشرة آلاف مقاتل، يحاربون بشراسة كالأسود[١]. وخلف هؤلاء، وعلى مقربة منهم، كان يوجد أكثر من ألف رجل. وفى الجزء الأسفل من المدينة بالقرب من البوابة الذهبية، كان هناك أكثر من ألف جندى آخر [٢]. بينما تواجد فى المكان الذي يرابض فيه السلطان إلى نهاية القصر خمسين ألف جندى آخر. على حين كان عدد الجنود فى السفن، وفوق الجسر، لا حصر له [٣].

١- عن فرقة الجنود الانكشارية فى جيش محمد الفاتح، ودورهم العسكرى الكبير، وإشادة المصادر البيزنطية واللاتينية المسيحية بهم، انظر ليونارد الخيوسي. ص١٣١، هامش (١). وانظر أيضًا : نيقولا باربارو، المصدر السابق، ص١٣٢-١٣٣ .

٢- الحقيقة أنه يوجد اختلاف حول هذا العدد فى هذه الترجمة، وبين ترجمة حولية دوكاس التى قام بها البروفسير ماجولياس Magoulias، فبينما يذكر البروفسير جوتز هنا أن أكثر من ألف جندى قد رابطوا بالقرب من البوابة الذهبية، فإن ماجولياس ذكر فى ترجمته أنهم كانوا أكثر من مائة ألف جندى. انظر:
Doukas, Op. cit, p. 222 .

٣- اختلفت المصادر التاريخية المعاصرة حول أعداد الجيش العثمانى المحاصر للقسطنطينية، عن ذلك انظر ما سبق، ص٢٥٢، هامش (٢) .

قام المدافعون بتوزيع أنفسهم فى عدة مناطق ، فتمركز الإمبراطور وجستنيانى أمام الثغرة الموجودة فى الأسوار، وعند التحصينات الموجودة خارج الأسوار الداخلية ومعهم ثلاثة آلاف من الجنود البيزنطيين واللاتين . بينما تمركز القائد العسكرى الأعلى عند القصر وبرفقته خمسمائة جندى. وكان عند الأسوار البحرية، وأعلى الحصون ذات الفتحات ramparts الممتدة من بوابة زيلوبورتا إلى بوابة هورايا أكثرمن خمسمائة من النشابين ورماة الأقواس.

ووقف رام واحد للدفاع عن كل برج من الأبراج التى امتدت من بوابة هورايا إلى البوابة الذهبية. وظلّوا جميعًا يقظين طوال الليل، إذ لم يتسلل النوم إلى جفونهم.

اتخذ الأتراك وقائدهم مواقعهم أسفل الأسوار، حاملين عددًا ضخمًا من السلالم التى قاموا بصنعها . وامتطى السلطان صهوة جواده خلف قواته، وقاد رماته باتجاه الأسوار، مستخدمًا عصاه المعدنية. متخذًا أسلوب الترغيب والترهيب ، بينما أبدى المدافعون مقاومة كبيرة قدر استطاعتهم. وخلال ذلك، كان جستنيانى الشجاع يحارب مع رجاله، وكذلك الإمبراطور، الذى كان يرتدى درعه. وحارب الجميع بقوة، وهم يتراجعون أمام ضربات خصومهم .

والآن فقط . بدأ الحظ يبتسم للأتراك ، فقد انتزع الرب [illegible] القادة البيزنطيين الذين يحاربون ببسالة ، القائد ذو الشهرة العسكرية الواسعة (جستنيانى) ، بعد أن أصيب ليلاً بزخات من الرصاص فوق مرفقه وخلف ذراعه.

كان درعه الحديدى مخترقًا ، وبدا كما لو كان درع أخيل Achilles[1]، ولهذا لم يتمكن من الثبات فى مكانه بسبب اصابته ، فصاح بالإمبراطور «اثبت مكانك بقوة . بينما سأتوجه إلى سفينتى، وحالما أجد طبيبًا يهتم بجرحى، سوف أعود حالاً ».

١- يقوم ميخائيل دوكاس هنا بعملية مشابهة تاريخية بين القائد الجنوى جستنيانى ، والقائد اليونانى أخيلليوس Achillius، بطل ملحمة حرب طروادة فى الياذة هوميروس، وكأن جسد جستنيانى كان محصنًا ضد الإصابة أو الموت، باستثناء المكان الذى أصيب فيه ، مثلما كان الحال لدى أخيل الذى تذكر الإلياذة أن أمه قد غمسته بعد ولادته فى نهر ستيكس حتى يكتب له الخلود، ولايصاب جسده فى الحرب، إلا أن مياه النهر غطت جسر أخيل الصغير فيما عدا عقب قدمه اليسرى الذى كانت تمسكه أمه منه . وفيما بعد تذكر الإلياذة ، أن أخيل لم يصب فى مقتل الاّ عندما نفذ سهم باريس إلى عقب أخيل . عن ذلك انظر : هوميروس ، الإلياذة ، ص٤٩-٥١ ، ١٩٩-٢٠٠ .

كانت تلك هى الساعة نفسها التى تحققت فيها كلمات النبى ارميا Jermiah، عندما قال لليهود «فقال لهما ارميا : هكذا تقولان لصدقيا ، هكذا قال الرب إله إسرائيل ها أنذا أرد أدوات الحرب التى بيدكم التى أنتم محاربون بها ملك بابل والكلدانيين الذين يحاصرونكم خارج الأسوار، وأجمعهم فى وسط هذه المدينة، وأنا أحاربكم بيد ممدودة. وبذراع شديدة ، وبغضب وحمو وغيظ عظيم، وأضرب سكان هذه المدينة الناس والبهائم معًا. بوباء عظيم يموتون لايترأف عليهم ولايشنق ولايرحم[١].

عندما شاهد الإمبراطور انسحاب جستنيانى ورفاقه ، شعر بالخوف والرعب، لأنهم كانوا يعتمدون عليه اعتمادًا كبيرًا .

وهكذا اتخذ الأتراك طريقهم تدريجيًا باتجاه الأسوار، وقاموا بحماية أنفسهم مستخدمين الدروع والمتاريس ، كما قاموا بإلقاء السلالم الخشبية على الأسوار ، لكنهم لم يوفقوا فى ذلك، لأن مقاليع الأحجار من فوق الأسوار منعتهم من ذلك، وتم إحباط محاولتهم.

تمركز الإمبراطور وجنوده البيزنطيين فى المنطقة المواجهة للعدو ، وجمعوا كافة قوتهم من أجل المقاومة ، ومنع الأتراك من التقدم عبر الثغرة الموجودة بالأسوار . لكن الرب أراد أن يتم الأمر بشكل آخر ، وقدم للعدو وسيلة أخرى دون أن يعرفوها .

فقد شاهد الأتراك أنّ البوابة التى تم ذكرها سابقًا قد تركت مفتوحة ، فقام خمسون من الجنود الانكشارية بالوثوب إلى داخلها ، واتخذوا طريقهم منها تجاه قمم الأسوار وهم ينفثون النيران واللهب[٢]، ويقومون بقتل كل من يواجههم ، كما اندفعوا نحو الرجال الذين كانوا يلقون الصخور عبر المقاليع فى أعلى الأسوار .

إن ما حدث من مشهد ليبعث على الرجفة ، ويثير الرعدة والقشعريرة ، فقد تم قتل بعض البيزنطيين واللاتين الذين حاولوا منع العدو من وضع السلالم على الأسوار، بواسطة الجنود الانكشارية ، بينما قام البعض بإغلاق عيونهم وقذف أنفسهم من أعلى الأسوار، مما أدى إلى موتهم بعد تهشّم أجسادهم .

١- سفر ارميا ٢١ : ٣-٦ . والسطر الأخير من ٧ . وهذا مثال آخر طيب على قدرة المؤرخين البيزنطيين على الاستشهاد بآيات متعددة من العهد القديم .

٢- يستخدم دوكاس هنا تعبيرًا مجازيًا لتشبيه الجنود العثمانيين الانكشارية فى قتالهم ، بالحيوانات الأسطورية المتوحشة التى تنفث النار واللهب من جوفها .

بعد ذلك ، تمكن الأتراك – دون صعوبة – من نصب السلالم ، وتسلّقها كالنسور المحلقة.

لم يعرف البيزنطيون المحيطون بالإمبراطور بما جرى . بسبب بُعد المنطقة التى دخل منها الأتراك عن موقعهم، ولأن انتباههم كان متركزًا على أعدائهم المواجهين لهم. وكان هناك عشرين جنديًا تركيًا مقابل كل جندى بيزنطى واحد. علاوة على أن هذا الجندى ، لم يكن ليتمتع بالخبرة القتالية الموجودة لدى الأتراك .

إلا أن انتباههم قد تحول عن ذلك الاتجاه ، بعد أن لاحظوا القذائف التى تساقطت عليهم من أعلى الأسوار، وقتلت العديد منهم، وعندما أداروا أبصارهم إلى أعلى ، شاهدوا الأتراك وهم يعتلون الأسوار.

كان رد الفعل المباشر لديهم هو الهرب داخل المدينة، لكنهم لم يستطيعوا المرور بشكل منظم عبر بوابة خاريسيوس، فقد كوّنت أجسادهم كتلة متلاصقة جرى رصّها بإحكام ، ونجح أولئك الذين تمتعوا ببنية قوية فى العبور من البوابة عبر وطء زملائهم . وشاهد جنود السلطان البيزنطيين وهم يتراجعون، وعبر صيحاتهم العالية، تدفقوا عبر البوابة، وقاموا بوطء رفاقهم أصحاب الحظ السيئ فى طريقهم .

وعندما اقتربوا (الأتراك) من البوابة ، لم يستطيعوا اجتيازها بسهولة. بسبب أجساد الذين ماتوا، أو فقدوا رشدهم ، التى قامت بإغلاق البوابة تمامًا ، مما اضطر معظمهم إلى اقتحام المدينة عبر تسلق الأسوار المهدمة بصعوبة . وهناك قاموا بقتل كل من وقف فى طريقهم .

انتصب الإمبراطور يائسًا ، شاهرًا سيفه وترسه. وصاح قائلاً «ألا يوجد أحد من المسيحيين يمكنه أن يقوم بضرب عنقي ؟»[1]. وقام الجميع بالتخلى عنه . فأصابه أحد الأتراك بسهم فى وجهه . فترنح إلى الخلف، ليتلقى سهمًا جديدًا. ثم بادره تركى آخر من الخلف بإصابة مميتة ، ليسقط أرضًا .

١- تواترت الروايات حول رغبة الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر فى الموت بأيدى جنوده عوضًا عن الأسر أو القتل بأيدى الأتراك العثمانيين. عن ذلك انظر كل من : نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٧٨ ، هامش (٢) : ليونارد الخيوسى، ص١٦٨ ، هامش (١) . =

= ولقى الإمبراطور حتفه عند الثغرة الموجودة بالأسوار المهدمة بجوار بوابة القديس رومانوس ، انظر:
Vacalopoulous, A, Origins of the Greek Nation: The Byzantine Period. 1204-1461, Trans. by Ian Moles, Revised by The author . New Brunswick, 1970 , pp. 199-200 , 343 not. 74
Doukas, Op. cit, p. 314 . not. 289 .

كما قدم لنا أوبرتينو بوسكولوس Ubertino Pusculus الرواية التالية «عندما دخل الإمبراطور للراحة فى خيمته ، قام بخلع خوذته ، وبدأ فى إغلاق عينيه المجهدتين (لأنه لم ذق طعم النوم تلك الليلة) ، لم يتمكن من الاستغراق فى النوم سوى للحظات – قليلة . واستيقظ فزعًا على صراخ حاد. فقفز من فراشه محاولاً منع محاولات سكان القسطنطينية للفرار. وقام بتوبيخ أتباعه على ذلك. وتحول لقتال ثلاثة من الجنود الانكشارية الاتراك، وقام بالإجهاز عليهم على مقربة من السور . لكنه أصيب بجرح مميت بسيف أحد الجنود الأتراك ، حيث قضى نحبه ». انظر:
Constantinopoleos Libri, IV , in . Ellisem Analecktin der mittel - und neugrie chiscuhen literatur, 3 , 1857, p. 81 .

والحقيقة أن مسألة مقتل آخر الاباطرة البيزنطيين فى القسطنطينية، قد ألهبت مشاعر العديد من الشعراء، فقاموا بكتابة العديد من الأشعار والمراثى التى تبحث عن مصير الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر، وهل قتل أم لم يتمكن منه الأعداء الأتراك ، أم أنه اختفى إلى حين .

ويشير بوليتس Polites, IV إلى مرثية قام بكتابتها راهب أرمنى فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى. زعم فيها أن الإمبراطور قسطنطين لم يقتل بواسطة الأتراك، بل هرب من القسطنطينية على متن سفينة لاتينية.

وتقول المرثية «عندما شاهد الإمبراطور الأتراك يقتحمون المدينة. ورأى نفسه وحيدًا يفتقد إلى المساعدة فى ميدان المعركة. قرر الانسحاب بعد أن شعر أن غضب الرب قد شمله . فاستقبله ربان السفينة التابعة للفرنجة (اللاتين– الإيطاليين) وكذلك استقبل نبلاءه الفارين معه على متن تلك السفينة التى اتخذت طريقها صوب البحر» انظر :
Proverbs and Traditions of the Greek People. vol . 2 , (In Greek), Athens, 1904 , p. 660 . and not.2

نقلا عن : Doukas, Op. cit, pp 316-317

وتعبّر المرثية السابقة على ما يدور فى مخيلة الوجدان الشعبى المسيحى ، حول رفض موت آخر الأباطرة المسيحيين بالقسطنطينية . ومحاولة تعويضية للانتقام من الانتصار التركى تحت دعوى أن الإمبراطور =

= قد تجح فى الانسحاب ، حتى يعود مرة أخرى لاسترداد القسطنطينية، وهناك مصدر هام يحتوى على العديد من الأشعار والمراثى التى قام بكتابها الأرمن حول سقوط القسطنطينية، انظر:

Mesrob K. Krikorian und Warner Seibt (eds.) Die Eroberung Konstantinopols im Jahre 1453 Aus Armeinscher Sicht. Kölne , 1981 .

كما ذكر البروفسور اليونانى بابرهيجو بولوس Paparrhegopoulos, . C بعض أبيات الشعر التى تحدثت بها المراثى البيزنطية حول مصير الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر. من ذلك:

أيها الإمبراطور قسطنطين ، المعروف باسم بدراجاش

أخبرتى عن مكانك، هل متّ فعلاً ، أم تواريت عن الأنظار

(الأبيات ٨٢٤-٨٢٥) .

هل ما زلت على قيد الحياة، أم متّ متشبثًا بحسامك؟

أيها الإمبراطور قسطنطين ، ما الذى يمكن أن يقوله المرء إليك؟

لقد قالوا إنك مت متشبثًا بحسامك

وسمعتهم يقولون أيضًا أنك قد اختفيت

تحت عناية اليد اليمنى، القديرة للرب

إنه لمن الأفضل أن تكون مختفيًا ، وعلى قيد الحياة

من أن تكون ميتًا بالفعل.

(الأبيات ١٠١٣-١٠١٧)

انظر : History of the Greek Natiom (In Greek) . 4 th. ed. by Karolides, vol . 2, " Lam-intation of Constantinople" Athens, 1903 , p. 661 .

وهكذا فضّل الوجدان الشعبى أن تحتل الأسطورة والشعر مكانة التاريخ ، فالإمبراطور المسيحى البطل لم يقتل ، ولم يهرب من القسطنطينية مجللاً بالعار، وبدلاً من ذلك تم إنقاذه من خطر الموت بمعجزة إلهية، عبر تدخل الرب، كما أن الإمبراطور قد اختفى عن عيون الناس، فى انتظار يوم تحرير الشعب المسيحى.

والحقيقة أن اهتمام الشعراء البيزنطيين والمسيحيين بمسألة سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين المسلمين، قد استحوذت على عدد من الباحثين فى شعر المراثى التى تمت كتابها حول سقوط المدينة، ومقتل، أو أختفاء الإمبراطور المسيحى، من ذلك ما زودتنى به الزميلة الفاضلة كوثر سرحان ، الباحثة فى جامعة إيوانينا Ioannina باليونان من أطروحتين علميتين تم تقديمهما إلى الجامعات اليونانية حول هذا الموضوع ، الأولى للباحثة كريتيكا اكدوسا Kritike Ekdose، تحت عنوان TO ANAKΛHMA THΣ KΩNΣTANTINOΠOΛHΣ

لم يعرف (الأتراك) أنه الإمبراطور، فقد اعتقدوا أنّه مجرد جندى عادى، لذلك تركوا جثته خلفهم بعد أن قاموا بقتله .

فقد الأتراك ثلاثة رجال فقط لحظة دخولهم المدينة، وكان ذلك قد تم فى الساعة الأولى من اليوم، ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد .

وعندما دخلوا إلى المدينة ، انتشروا فى مختلف الاتجاهات، من بوابة خاريسيوس حتى القصر. وقاموا بقتل كل من شاهدوه أمامهم ، حتى أولئك الذين فضّلوا الهرب. فقاموا بقتل حوالى ألفين من الجنود الذين أصابهم الرعب . وكانوا (الأتراك) متأكدين من وجود خمسين ألف جندى (بيزنطى) بالمدينة، ولهذا فقد بادروا بقتل ألفين منهم، لكنهم بمجرد أن علموا أن جميع أعداد المدافعين عن المدينة لاتزيد عن ثمانية آلاف جندى فقط، توقفوا عن إزهاق روح جندى واحد بعد ذلك.

كان لديهم شغف كبير بالحصول على المال. وكان الواحد منهم، إذ يقبض على قاتل أبيه، يمكنه أن يبيعه – بمنتهى البساطة– من أجل الحصول على الذهب. أنهم لايقومون فقط ببيع الشخص الذى لايتسبب فى حدوث أى أذى لهم، لكنهم يبيعون أيضًا من يتسبب فى حدوث ضرر لهم.

وعندما وضعت الحرب أوزارها ، قابلت العديد منهم (الأتراك) الذين قالوا لى، «لقد كنا نشعر بالرعب من أولئك الجنود المدافعين الذين واجهناهم من قبل، ولهذا فقد قمنا بقتل كل من شاهدناهم لاحقًا . لكننا لو أدركنا قلة أعداد الموجودين بالمدينة ، لكنّا قد استبقيناهم لبيعهم جميعًا كالماشية» *.

= والثانية قامت الباحثة انجيليكى ستاثى Angeliki Stathi بتقديمها إلى جامعة ايوانينا فى العام ٢٠٠١م تحت عنوان « المراثى اليونانية حول سقوط القسطنطينية ١٤٥٣م».

Greek Laments on the Fall of Constantinople in 1453 (Folk Monodies and Traditional Songs) University of Ioamnina, 2001 .

* ذكر البروفسور ماجولياس فى ترجمته لحولية دوكاس تلك الجملة كما يلى «.. لو أننا أدركنا قلة أعداد الموجودين بالمدينة. لاحتفظنا بهم جميعًا ولبعناهم كالأغنام ». انظر :

Doukas, op. cit, p. 225 .

أما الجنود العزبان Azabs التابعين لبيت السلطان ، الذين عرفوا أيضاً بالانكشارية (١)، فقد توجهوا ناحية القصر، أو إلى دير برودروس العظيم Great Prodromos ، الذى كان يدى أيضاً دير بترا Petra، كما اقتحموا دير خورا الذى كانت به أيقونة السيدة العذراء.

أواه أيها اللسان! ما تلك الشفاه التى تستطيع الآن أن تحكى عن المعاناة التى عانتها الأيقونة من أجل خطاياكم ؟

كان أولئك الوثنيين فى منتهى الشغف والاندفاع للحصول على المزيد من الغنائم والأسلاب، فقام أحد الأشرار منهم بتناول الفأس بيديه القذرة ، وقام بتحطيم الأيقونة إلى أربع قطع صغيرة. وأقاموا اقتراعاً بينهم، وحصل كل منهم على نصيبه من الحلىّ والزخارف التى أعجبوا بها وانتزعوا فى طريق عودتهم، كل ماله قيمة داخل الدير.

وبعد ذلك قاموا (الأتراك) باقتحام منزل البروتوستراتور Protostrator(٢)، وقاموا بفتح الخزائن المغلقة منذ فترة طويلة ، كما قاموا بإيقاظ الشابات النبيلات من مخادعهن ، فقد بدأ يوم التاسع والعشرين من مايو (١٤٥٣م) ونوم الصباح عذباً فى عيون الصبيان والعذارى، فقد كانوا يتمتعون براحة كاملة، وثقة كبيرة ، كما هو عهدهم فى الأيام السابقة.

كان عدد كبير من الأتراك يجرون فى الشوارع التى قادتهم نحو الكنيسة العظمى ، حيث كان من الممكن رؤية المشهد من كافة جوانبه * . فمنذ ساعات الفجر الأولى لهذا اليوم، وفى الوقت الذى أخذ فيه المدافعون بالفرار بعد اقتحام الأتراك للمدينة، توجه بعض البيزنطيين-

---

١- يخلط دوكاس هنا بين العزبان والانكشارية ، عن الجنود العزبان Azabs، axapi ودورهم فى حصار واقتحام القسطنطينية ، والاختلاف بينهم وبين الجنود الانكشارية، انظر: نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٣٠ ، هامش (١) . وانظر أيضاً : المؤرخ العثمانى طورسون بك . Op.cit, pp. 49-50

٢- ذكر البروفسور رنسمان خطأ أن البروتوستراتور كان ديمتريوس كانتاكوزينوس انظر:

Demetrios Cantacuzenns, pp. 53 , 93

بينما كان ديمتريوس إبان الهجوم العثمانى النهائى مسئولاً عن حراسة الأجزاء الجنوبية من الأسوار البحرية عند البوابة الذهبية انظر:

op. cit, pp. 53, 93 .

* هرول كل من العثمانيين والبيزنطيين باتجاه كنيسة الحكمة المقدسة . لأسباب مختلفة بالطبع . (الترجمة الإنجليزية) .

الذين بقوا على قيد الحياة- نحو منازلهم من أجل حماية زوجاتهم وأبنائهم، وقاموا بعبور منطقة الميدان الإمبراطورى واقتربوا من عمود النصب التذكارى للصليب المقدس، كانوا ملطخين بالدماء . ، فبادرتهن بعض النسوة بالسؤال عما يجرى وعندما استمعن إلى الأخبار الحزينة والمروعة ، «العدو الآن داخل أسوار المدينة. ويقوم بقتل البيزنطيين»، انخرطن فى البكاء والنحيب.

لم يصدقن ذلك فى البداية ، وبدأن فى توجيه الإهانات للجنود البيزنطيين على كلامهم الذى لايجلب سوى الحظ السيء، ونذر الشؤم.

وبعد أن حضر إلى المنطقة أحد الجنود، ثم جندى آخر من بعده، وكانوا جميعًا ملطخين بالدماء . أدركت النسوة حينئذ فقط فداحة الكارثة ، وأن حجم غضب السماء، قد لامس الآن شفاههن .

بعد ذلك شرع الجميع ، رجالاً ونساءً ، الرهبان والراهبات، بالجرى تجاه الكنيسة العظمى، وحمل الآباء والأمهات أطفالهم على أيديهم ، وتركوا منازلهم لمن يرغب فى الاستيلاء عليها، وأصبح الطريق المؤدى إلى الكنيسة مزدحمًا بالحشود المتوجهة نحوها .

وربما يمكننا أن نتساءل ما هو السبب الذى جعلهم - جميعًا - يفرون باتجاه الكنيسة؟.

لقد سمعوا منذ وقت بعيد من العرافين الزائفين بأن المدينة سوف تسقط فى أيدى الأتراك . وأن جنودهم سيقومون باقتحامها. وأن البيزنطيين سوف يتساقطون تحت سيوف الأتراك حتى يصل الجميع إلى عمود قسطنطين العظيم ، وعندها سوف يهبط ملاك من السماء شاهرًا سيفه ليخلّص الإمبراطورية ، مع رجل مجهول ، رث الهيئة ، يقف بالقرب من عمود قسطنطين، حيث يتوجه إليه الملاك بالحديث «تناول هذا السيف ، وانأر لشعب الرب» . وهكذا سوف تتم هزيمة الأتراك ، بعد أن يقوم البيزنطيون بتتبعهم، وإلحاق هزيمة ساحقة بهم، ثم يقومون بطردهم من المدينة، ومن المناطق الغربية والشرقية، لدرجة أنهم سوف يقومون بردّهم على أعقابهم حتى تخوم بلاد فارس ، نحو المكان المسمى مونودندريون Monodendrion [1].

ولأن نفرًا من الناس قد اعتقدوا أن تلك النبوءة لابد أن تحدث . فقد بدأوا فى الجرى، وقاموا بنصح الآخرين باتباعهم. وبدأ البيزنطيون فى تطبيق النبوءة التى آمنوا بها

١- هذا المكان عبارة عن موقع حدودى أسطورى يقع على تخوم نهر الفرات. وكان حدًا قديمًا بين بلاد فارس والإمبراطورية البيزنطية ، انظر: Doukas, Op. cit, pp. 317318, not, 289 .

منذ وقت طويل ، وقالوا «إذا ما قمنا بترك عمود الصليب خلفنا ، سوف نستطيع تجنّب الأحداث السيئة القادمة».

كان ذلك هو السبب وراء فرارهم وعزمهم على دخول الكنيسة العظمى . وخلال ساعة واحدة، كان ذلك المبنى الضخم قد امتلأ بالرجال والنساء، بشكل لايمكن إحصائه ففى الطابق الأرضى، والرواقات ، والشرفات الداخلية، والردهات، كانت الحشود تملأ كافة الأركان. وجرى إغلاق الأبواب . ووقف الجميع هناك فى انتظار عملية إنقاذهم.

«أيها البيزنطيون البؤساء والتعساء، لقد كنتم بالأمس ، وأول أمس تدعون هذه الكنيسة بالكهف الوثنى ، وبمذبح الهراطقة! ولم يقم أحد منكم بدخولها حتى لايصيبه الدنس، بسبب الشعائر التى تقوم بها إدارتها التى تعتنق فكرة الاتحاد الكنسى. والآن وبسبب الغضب الذى حلّ عليكم، فإنكم تفرّون إليها كما لو كانت الأمل الوحيد لإنقاذكم ».

«الآن فقط، وعندما حل غضب الرب عليكم، فإن قلوبكم تميل نحو إقرار السلام، وفى مثل هذه الظروف ، إذا ما هبط ملاك من السماء، وقدّم عرضه لكم قائلاً «إذا ما وافقتم على الاتحاد الكنسى، وعلى إقرار السلام بالكنيسة ، فإننى سوف أقوم بطرد أعدائكم من المدينة » حتى إذا حدث هذا، فإنكم لن توافقوا على عرضه . وإذا ما حدث ووافقتم عليه، فإن ذلك لن يعدو سوى تظاهر منكم بذلك، أنتم تعلمون جيداً ما استقر فى قلوبكم ، لقد قال أحدكم منذ عدة أيام». «من الأفضل لنا أن نسقط فى أيدى الأتراك ، على أن نسقط فى قبضة الفرنجة!»[1].

وفى تلك الأثناء، استمرت عربدة الأتراك ، وعمليات القتل والأسر، حتى وصلوا إلى الكنيسة ولم تكن الساعة الأولى من النهار قد انقضت بعد ، وعندما وجدوا أبوابها مغلقة ، أعملوا فيها فئوسهم لبعض الوقت حتى تكسرت الأبواب ثم اندفعوا إلى الداخل شاهرين سيوفهم.

وعندما شاهدوا ذلك الحشد الضخم من السكان (البيزنطيين) متلاصقين ببعضهم البعض، بدأ كل واحد منهم يقوم بتقييد أسراه، الذين لم يتمكن أحد منهم من إبداء أى نوع من أنواع المقاومة، كما لو كانوا جميعاً كالخراف .

١- هذه إشارة إلى ما قاله القائد العسكرى الأعلى، لوكاس نوتاراس.

من يستطيع أن يحكى عن الكابوس الذى تبع ذلك ؟ من يستطيع أن يصف بكاء وصراخ الأطفال. دموع ونواح الأمهات. بكاء وعويل الآباء؟ . وقام التركى باختيار الأسير الذى بدا عليه أنه الأكثر ثراءً . وفضّل الآخر وجهًا جميلاً من بين الراهبات ، بينما كان الثالث – الذى تمتع بقوة بدنية– يقوم بانتزاع غنيمته من زميله، ويقوم بربطها لتصبح فى حوزته .

وقاموا بجذب الفتيات الأسيرات من ضفائرهن ، وكانت أكتافهن ونهودهن وأذرعهن عارية، وكان كل شئ يجذب الانتباه إلى الأسير الذى تم اختطافه وسحبه أرضًا إلى الخارج . وتم جمع الخدم إلى جوار أسيادهم . والأرشمندريت Archimandrite مع الشمامسة . الصبيان الذين تربوا فى ترف تم ربطهم بالعذراوات اللائى لم يتعرضن لضوء الشمس بعد .

وبالكاد شاهد الآباء بناتهم العذارى، وتم سحبهم خارجًا . وإذا ما حاولوا إبداء المقاومة كان يتم سوقهم إلى الخارج تحت وطأة الضربات .

كان كل تركى لديه نهم شديد للمال . يريد أن يضيع أسيره فى مكان آمن، ثم العودة بسرعة من أجل الحصول على الأسير الثانى والثالث. وكان الخاطفون، الذين سينتقم الرب منهم، يقومون بعملهم بهمّة وسرعة، وخلال ساعة واحدة جرى تقييد كل شخص هناك، الرجال بالحبال ، والنساء بأقمشة ملابسهن .

وخرج الأسرى وهم مقيدين من الكنيسة ومزاراتها المقدسة ، على هيئة قطيع: الماشية الطويل، وعلى هيئة سرب الأغنام ، وهم ينتحبون ويرتعشون من البكاء ، ولايجدون من يقدم لهم الرحمة .

هذا ما حدث للكنيسة العظمى . كيف يمكننى أن أصف تلك الكارثة ، ماذا يمكننى أن أقول عن ذلك ؟ إن لسانى ليلتصق بحنجرتى . إننى لا أستطيع التنفس وفمى قد أغلق تمامًا .

وبدأ المتوحشون (الأتراك) بشكل مباشر فى تحطيم التماثيل المقدسة، وتجريدها من زخرفتها وزينتها ، وقاموا بتمزيق مفروشات الطاولة المقدسة، وقاموا أيضًا بتحطيم بعض الفازات التى تستخدم فى عمليات الإضاءة (الشمعدانات) ، واستولوا على البقية الباقية منها، وخلال لحظة واحدة قاموا بانتزاع كافة الفازات المقدسة المصنوعة من الذهب أو الفضة أو من أية مادة أخرى ذات قيمة . وتركت الكنيسة وهى خاوية على عروشها ، بحيث لم يتبق بها أى شئ .

هذا ما تحقق فى صهيون الجديدة New Zion حسب كلمات الرب التى تحدث بها النبى عاموس Amos (١)، فقال «يقول الرب إله الجنود: إنى يوم معاقبتى إسرائيل على ذنوبه أعاقب مذابح بيت أيل فنقطع قرون المذبح وتسقط إلى الأرض . وأضرب بيت الشتاء مع بيت الصيف فتبيد بيوت العاج وتضمحل البيوت العظيمة يقول الرب»(٢).

«بغضب كرهت أعيادكم ولست ألتذ باعتكافكم إنى إذا قدمتم لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى وذبائح السلامة من مسمناتكم لا ألتفت إليها. ابعد عنى ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع»(٣).

«فقال لى الرب قد أتت النهاية على شعبى إسرائيل ، لا أعود أصفح له بعد، فتصير أغانى القصر ولاول فى ذلك اليوم يقول السيد الرب، الجثث كثيرة يطرحونها فى كل موضع بالسكوت، اسمعوا هذا أيها المتهمون المساكين لكى يبيدوا بائسى الأرض ، قائلين متى رأس الشهر لنبيع قمحاً والسبت لنعرض حنطة ، لنصفّر الايفة ونكبّر الشاقل ونعوج موازين الغش لنشترى الضعفاء بفضة والبائس بنعلين»(٤).

«ويكون فى ذلك اليوم يقول الرب إنى أغيب الشمس فى الظهر وأقتم الأرض فى يوم نور. وأحوّل أعيادكم نوحاً وجميع أغانيكم مراثي»(٥).

كان ذلك اليوم الحزين الذى سقطت فيه المدينة يوماً مقدساً، إذ كان يوافق ذكري القديسة الشهيدة ثيودوسيا St. Theodosia(٦)، وكان الجميع ممثلين فى هذا الاحتفال ، وقضى

١- ظهر عاموس حوالى العام ٧٦٠-٧٥٠ ق.م ومارس نشاطه النبوى فى المملكة الشمالية فى عصر يرو بعام الثانى (٧٨٦-٧٤٦) ق.م عاش فى الفترة السابقة على الغزو الأشورى لفلسطين ٧٢١ ق.م عنه وعن سفره الذى يمتلئ بالنبوءات انظر:

محمد خليفة حسن، مدخل نقدى إلى أسفار العهد القديم، ص١٤٦-١٥٣ .

٢- سفر عاموس، الإصحاح الثالث، ١٤-١٥ .

٣- سفر عاموس، الإصحاح الخامس، ٢١-٢٣ .

٤- سفر عاموس ، الإصحاح الثامن، ٢-٦ .

٥- سفر عاموس، الإصحاح الثامن، ٩-١٠ .

٦- ولدت القديسة ثيودوسيا في النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى. قامت بدور قوى ومخلص=

العديد من الرجال والنساء ليلتهم- حتى الصباح - بجوار قبرها ، يتعبدون، ويحملون البخور والقناديل، مرتدين أقشب ملابسهم ، وفى كامل زينتهم عندما سقط معظمهم فى أيدى الأتراك.

كيف كان لهم أن يخمّنوا أن غضب السماء سوف يحل بالمدينة بهذه السرعة؟ فقط أولئك الذين شاهدوا ذلك ، هم الذين وعوا تماماً ما حدث.

انتشر الخطر الداهم على المدينة انتشار النيران، كما ذكرنا سابقًا، عبر بوابة خاريسيوس، وبوابة القديس رومانوس والقصر الإمبراطورى. لكن المقاومة التى أبدتها السفن وتحصينات الميناء منعت الأتراك من نصب سلالمهم على الأسوار فقد كان (المدافعون) البيزنطيون فى وضع عسكرى أفضل، وكانوا يرمونهم بالحجارة كما استخدموا الأسلحة الأخرى ، حدث ذلك حتى الساعة الثالثة من اليوم.

= واشتهرت بصمودها فى الدفاع عن الأيقونات . وتذكر سيرة القديسة ثيودوسيا أنها وقفت فى وجه الإمبراطور اللاأيقونى ليو الثالث فى العام ٧٢٦م بعد ما أصدر أمراً بتحطيم أيقونة بوابة خالكى Chalki. وعندما ارتقى حامل السيف ، السلم الخشبى للوصول إلى الأيقونة وتحطيمها ، ثار غضب العديد من النسوة التقيّات بزعامة القديسة ثيودوسيا، فأمسكن بالسلم وطرحن حامل السيف أرضاً ، وانقضض عليه، وأخذن فى ضربه حتى الموت . وبعد أن فرغن من ذلك تقدمن بانجاه بطريركية القسطنطينية وأخذن فى إلقاء الأحجار على انستاسيوس Anastasius الذى قام بتحريض الإمبراطور على تحطيم الأيقونة.

ونتيجة لهذا كله أمر الإمبراطور بضرب أعناق جميع النساء اللائى اشتركن فى هذه الأحداث . وتم القبض على القديسة ثيودوسيا ، حيث قام الجلاد بسحبها حتى ساحة ميدان الثور بالقسطنطينية وقام بذبحها على مرأى من جميع سكان القسطنطينية .

ومع هذا كله، فهناك من الباحثين من يشكك فى مشاركة ثيودوسيا فى تلك الأحداث: وعلى أية حال حققت ثيودوسيا شعبية متزايدة فى الفترة المتأخرة من التاريخ البيزنطى، فعندما دخل العثمانيون القسطنطينية فى ٢٩ مايو ١٤٥٣م، قابلوا حشداً من المسيحيين المؤمنين يحملون الشموع ، ومتوجهين نحو كنيسة القديسة ثيودوسيا فى يوم الاحتفال بعدها . عن ذلك كله انظر:

Talbot, D.M. (ed.), " Life of st. Theodosia of Constantinople" Trans. by Nicholas Constas, in , Byzantine Defender of Images. eight saints life in English Translation . Washington. D.C, 1998 , pp. 1-8 , esp . 1-2 ; Ropin Cormack , " Women and Icons and Women in Icons ", in, Women Men and Eunches: Gender in Byzantium . London, 1997 , pp. 24-51 , esp . 39-40 .

ثم وصل عدد من الجنود الذين كانوا يجمعون الأسلاب والغنائم من داخل المدينة، الذين ما إن شاهدوا استمرار البيزنطيين فى المقاومة حتى أخذوا فى الصياح بكل قوة ، واندفعوا لمهاجمتهم داخل الأسوار.

عندما شاهد البيزنطيون الأتراك داخل المدينة ، صاحوا بحزن وأسى : «واحسرتاه .. واحسرتاه ! ». وقاموا بالقاء أنفسهم من أعلى الأسوار إلى الأرض ، فقد كان واضحًا أنه لم تعد لديهم أية فرصة لإبداء المقاومة. وعندما رأى البحارة الأتراك رفاقهم يظهرون من داخل المدينة، أدركوا أن القسطنطينية قد سقطت ، فقاموا بنصب السلالم بسرعة، حيث تمكن بعضهم من خلالها من العبور إلى داخل المدينة، وهكذا تم تحطيم البوابات ، واندفع الجميع نحو الداخل.

شاهد القائد الأعلى الأتراك وهم يقتربون من موقعه[1]، فقام بالتخلى عن البوابة الإمبراطورية ، وفر – مع بعض رفاقه– باتجاه منزله، وفقد (البيزنطيون) الاتصال ببعضهم البعض، وتم أسر العديد منهم قبل الوصول إلى منازلهم، أما الآخرين الذين نجحوا فى الوصول إليها، فقد وجدوا أن أبناءهم وزوجاتهم قد اختفوا منها، وقبل أن تتوافر لديهم فرصة للتعبير عن الحزن بالبكاء والنحيب، وجدوا أياديهم وقد تم تقييدها خلف ظهورهم .

أما البعض الآخر فقد توجهوا إلى منازلهم، فوجدوا أن زوجاتهم وأبناءهم قد تم جرّهم وسحبهم وهم مقيدين إلى بعضهم البعض، مع أقاربهم وجيرانهم، أما بالنسبة للعجائز من الرجال والنساء، الذين لم يتمكنوا ، بسبب السن أو اعتلال الصحة ، من ترك منازلهم ، فقد تم قتلهم بلا رحمة . وجرى أيضًا إلقاء الرضّع المولودين حديثًا فى الطرقات .

وجد القائد العسكرى الأعلى بناته وزوجته المريضة ، وقد احتموا بالطابق العلوى من المنزل، وقاوموا محاولات الأتراك لاقتحامه . ثم سقطوا جميعًا فى الأسر. لكن السلطان أرسل تجريدة عسكرية لتصبح مسئولة عن القائد العسكرى الأعلى وأسرته، ومانحًا الأتراك الذين أحاطوا بالمنزل مبلغًا كبيرًا من المال، يكفى لتوضيح أنه قد قام بشرائهم. وحدث ذلك حتى لايكون قد حنث بوعده لجنوده. وهكذا تم وضع نوتاراس وأسرته تحت الحراسة.

١- أغفل البروفسور جونز Jones فى ترجمته لهذه الجملة أن القائد العسكرى الأعلى البيزنطى كان برفقته خمسمائة مقاتل. وهو الأمر الذى أوردته ترجمة البروفسور ماجولياس Magoulias لحولية دوكاس ، انظر: . Doukas, Op. cit, p. 229

اندفع جميع أفراد الجيش التركى إلى داخل المدينة. حتى الطهاة منهم، وأولئك الذين كانت مهمتهم العناية بالدواب والحيوانات ، بدأوا فى الحصول على الغنائم والأسلاب .

وبالنسبة لجيوفانى جستنيانى ، الذى توجه إلى سفينته من أجل علاج الجرح الذى أصيب به ، فلم يكد يصل إلى الميناء ، حتى لحق به رجاله يحملون أخبار اقتحام الأتراك للمدينة بالفعل . وأن الإمبراطور نفسه قد قتل. وكانت تلك الأخبار قاسية ومريرة .

عندما سمع (جستنيانى) بهذا ، أمر بنفخ الأبواق من أجل استدعاء جنوده وبحارته، واستعدت باقى السفن للإبحار مخلّفه وراءها الكثير من جنودها الذين سقطوا فى الأسر.

وبطول أسوار الميناء، كانت هناك حالات تبعث على الرثاء، كالرجال والنساء ، الراهبات والقساوسة ، الذين كانوا ينتحبون بمرارة، ويدقّون على صدورهم، ويتضرعون من أجل الركوب على متن السفن . لكن ذلك كان مستحيلاً، فقد كان عليهم أن يتجرعوا من الكأس الملئ بغضب الرب. ولم يحدث أن استجابت السفن لتوسلاتهم . وحتى إذا ما أرادت السفن أن تفعل ذلك، فإن أسطول (السلطان) محمد، لم يكن قد انشغل تمامًا بعمليات السلب والنهب التى جرت فى المدينة، فلم تكن لتستطيع سفينة واحدة منهم الهرب.

بعد ذلك غادر الأتراك سفنهم وتوجهوا نحو المدينة، فتمكن اللاتين من الرحيل عن الميناء دون إعاقة . وهو الأمر الذى جعل السلطان يصرّ على أسنانه، لكنه لم يكن ليستطيع أن يفعل شيئًا إزاء ذلك.

وفى غلطة ، أدرك السكان حجم الكارثة المرّوعة. وهرولوا جميعًا نحو ساحل القرن الذهبى برفقة زوجاتهم وأبنائهم، وبدأوا يتطلعون نحو القوارب من أجل الهرب. وعندما تمكنوا من العثور على إحداها ، وثبوا جميعًا على متنها ، متخذين طريقهم باتجاه السفن، مخلّفين وراءهم منازلهم وممتلكاتهم . واضطر العديد منهم إلى طرح مقتنياتهم فى البحر ، وعانوا من خسائر فادحة (نتيجة العجلة التى ألمت بهم).

وإبّان ذلك قام زاجان ، أحد كبار قادة السلطان، والذى يحتل مكانة أثيرة لديه، لأنه كان يشجّع على ضرورة الهجوم على المدينة، قام بالصياح بهم بعد أن أقسم برأس سيّده: «لاتخافوا ، إنكم مقربين من السلطان، لا أحد من رجالنا سوف يتسبب فى أى أذى لمدينتكم ، إن المعاهدات التى سبق وأن عقدتموها مع الإمبراطور (البيزنطى) سوف يتم تجديدها بشكل

أفضل معنا. من الأفضل لكم أن تصدقوننا بدلاً من أن تتسببوا فى إثارة غضب سيدن
تجاهكم».

بهذه الكلمات حاول زاجان منع الفرنجة Franks (١) سكان غلطة من الرحيل. لكن مز
استطاع منهم الهرب لم يفوّت الفرصة. وبالنسبة للذين آثروا البقاء، وبعد عقدهم لبعض
المشاورات، قاموا بحمل مفاتيح المدينة ، وتوجهوا برفقة حاكمهم البودستا Podesta (٢)، لإبدا
الخضوع للسلطان ، الذى تسلمها بسعادة بالغة ، وقام بصرفهم بعد أن أعاد على أسماعه
العديد من العبارات الطيبة والودية.

تمكنت خمس سفن فقط من فرد أشرعتها والهرب من الميناء، أما السفن الباقية، فل
تتمكن من الإبحار، وهكذا تم ترك عدد من السفن بالميناء، وحاول بحارتها الوصول إلى السفز
الأخرى، والهرب على متنها .

ونجحت تلك السفن فى الهروب بسلام، على الرغم من سقوط العديد من بحارتها فى
الأسر. وبمجرد مغادرتها للميناء ، هبّت رياح الشمال، فأبحرت بكل قوتها، بينما ركابها
يندبون قدر المدينة بالدموع والتنهدات والحسرات ، كذلك فعلت الشينيات التابعة للتجار
البنادقة (٣).

وفى تلك الأثناء ، قام البحارة الأتراك بالإحاطة بالرجال والنساء الذين كانوا خارج أسوار
المدينة ، وقاموا بحملهم على متن سفنهم ، بينما تم أخذ باقى سكان المدينة باتجاه المعسكر
التركى.

١- المقصود بهذه العبارة هم التجار الجنوية اللاتين.

٢- كان البودستا الجنوى الموجود آنذاك يدعى أنجيلو جيوفانى لوميللينو Angelo Giovanni Lo-melleno . وقام بكتابة رسالة إلى أخيه يشرح له فيها ظروف سقوط القسطنطينية. وتحالف الجنوية مع العثمانيين. وهى مصدر تاريخى معاصر فى غاية الأهمية، عن ذلك انظر ما يلى: لوميللينو، ص٣٣٧-٣٤٥ .

٣- عن هروب العديد من السفن التابعة للبنادقة والجنوية. انظر نيقولو باربارو الذى يعزو ذلك إلى هبوب الرياح الشمالية التى بلغت سرعتها أكثر من اثنى عشرة ميلاً فى الساعة . انظر: المصدر السابق، ص١٨٠-١٨١ .

الفصل الأربعون

جرت كل تلك الأحداث ما بين الساعة الأولى والساعة الثامنة من نفس اليوم. بعد ذلك قام السلطان بدخول المدينة (القسطنطينية) برفقة وزرائه وكبار قادته ، وكان واثقًا من نفسه، فلم يبد أية علامة من علامات الخوف أو الشك.

وأحاط به حرسه الشخصى من الجنود الانكشارية، الذين كانوا كمن ينفثون اللهب والنار (من فرط قوتهم) ، وكان الواحد منهم يتمتع بمهارة فى رمى السهام أفضل مما يتمتع به أبوللو Apollo. كما كان أكثر شبابًا وحيوية من هرقل Hercules الجديد ، وكان كل جندى منهم متحمسًا لمنازلة عشرة جنود من خصومه دفعة واحدة[١].

عندما وصل (السلطان) محمد إلى الكنيسة العظمى، ترجّل عن جواده، وولج إليها ثم توقف داخلها فى مشهد مهيب. ووجد هناك أحد الأتراك يقوم بتحطيم قطعة من رخام أرضيتها، فسأله «ما هى الفائدة التى ستعود عليك من تخريب المبنى » . فأجاب التركى : «إنما أفعل ذلك من أجل ديننا » . فمد (السلطان) محمد يده وضرب التركى بسيفه قائلاً : «فلتقنع بالأسلاب والغنائم والأسرى. أما مبانى المدينة فهى ملك لى ».

وبدأ السلطان يشعر بالندم على الوعد الذى قطعه سابقًا على نفسه [٢]، عندما شاهد الثروات الهائلة التى تم الاستيلاء عليها من المدينة، وكذلك العدد الضخم من الأسرى. بعد ذلك تم سحب التركى على الأرض، وإلقائه خارج الكنيسة بين الحياة والموت .

ثم أمر محمد أحد شيوخه الحقيرين باعتلاء المنبر (فى الكنيسة) من أجل إقامة صلاته الشريرة والفاسدة[٣]. وهكذا قام ابن الخطيئة ، الذى يبشر بالمسيح الدجال، باعتلاء الطاولة المقدسة، إيذانًا بقيام الصلاة.

١- عن الانكشارية. وإشادة المصادر اللاتينية والبيزنطية بهم، انظر: نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٢٢-١٢٣ . وانظر أيضًا ما سبق ص٢٦٩ . كذلك رواية ليونارد الخيوسى، ص١٣١ ، هامش (١).

٢- يشير دوكاس هنا إلى الوعد الذى قطعه محمد الفاتح لجنوده . باستباحة جميع ما فى المدينة. فيما عدا مبانيها التى ستعود إلى السلطان الفاتح . انظر ما سبق، ص٢٦٧ .

٣- لابد أننا نلتمس العذر للمؤرخ البيزنطى ميخائيل دوكاس. ازاء ما يشعر به من مرارة وإذلال بعد سقوط القسطنطينية .

يذكر أحد المصادر العثمانية المعاصرة للفتح أن السلطان محمد الفاتح ورجاله الفاتحين قاموا بأداء صلاة الجمعة الأولى فى مسجد أيا صوفيا الجديد انظر: = Asikpasaoglu, op. cit, p. 138 .

يا لها من فاجعة . يا للفأل الفظيع ! ما هذا المنظر الذى أشاهده ! يا للكارثة! التركى الوثنى يقترب من المذبح المقدس، حيث نضع رفات القديسين والشهداء ، ثم يقف فوقه ! أين أنت الآن يا نور الرب، أين الابن وأين كلمة الأب الذى قدم نفسه قربانًا على هذا المذبح، لكنه لم يفن أبدًا ؟ لابد أنه نظر إلينا – فى الحقيقة– كمحتالين، ولم يعد هناك أدنى اعتبار لمقامنا بين الأمم، وكل ذلك بسبب آثامنا وخطايانا، إن المعبد الذى بنى باسم الحكمة الخالصة بالكلمة المقدسة، التى دعيت باسم الثالوث المقدس ، الكنيسة العظمى ، وصهيون الجديدة ، يصبح اليوم مذبحًا للوثنيين، ومنزلاً لمحمد(١) من الناحية النظرية والعملية . يا له من حكم . أواه أيها الرب.

عندما غادر (السلطان) محمد الكنيسة، التى ظلت لفترة طويلة لاتوصف بأنها كنيسة (٢)، بادر بالسؤال عن القائد العسكرى الأعلى، وطلب إحضاره للمثول أمامه. وعندما حضر القائد الأعلى، انحنى أمام السلطان طاعة واحترامًا . فقال له السلطان: «هل كان ما قمت به ، من رفضك تسليم المدينة، عملاً جيدًا. تأمل الآن العقاب الذى حاق بكم. انظر إلى كمية التدمير التى ألمت بكم . وكيف سقط العديد من شعبك فى الرق والعبودية نتيجة لذلك».

= حيث تلا الخطبة . وأمَّ الصلاة الشيخ آق شمس الدين يوم الجمعة ٣١ مايو ١٤٥٣ م انظر: يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ج١ ، ترجمة عدنان سلمان ، مراجعة محمود الأنصارى، استانبول، ١٩٨٨م، ص١٤١ .

وذكر المؤرخ العثمانى المعاصر لفتح القسطنطينية ، طورسون بك ، أنه يصدق على كنيسة أيا صوفيا قوله تعالى «لم يخلق مثلها فى البلاد» الفجر آية ٨ . وأن بعض جدرانها قد تهدمت ، فقام السلطان الفاتح بتعميرها، عدا القبة الأساسية لاحتياجها إلى توسيع ، حيث قام أحد المهندسين المهرة بذلك بواسطة قناطر فريدة ، وأنصاف قباب ... وصارت بذلك تتسع لخمسين ألفًا». انظر : . Tarih-i Ebül- Feth: pp. 63-64

١– تعبر هذه الإشارة عن جهل دوكاس الكبير بالدين الإسلامى. فهو يسقط أفكاره ورؤاه المسيحية على الإسلام ، فإذا كان سكان القسطنطينية المسيحيون يؤمنون بأن الكنيسة هى بمثابة بيت الرب الذين يقومون بعبادته . فقد افترض دوكاس أن كنيسة أيا صوفيا وقد انتقلت الآن إلى أيدى الفاتحين المسلمين ، الذين قاموا بتحويلها إلى مسجد لمحمد وهكذا فإنه يحاول أن يذكّر أن المسيحيين يقومون بعبادة الرب، يسوع المسيح، فى الكنيسة ، وبالتالى فإن المسلمين سوف يعبدون النبى محمد فى المسجد الجديد.

٢– يقصد دوكاس هنا، بأن رافضى الاتحاد الكنسى. امتنعوا عنها ، ووصفوها بأنها أصبحت وكرًا للوثنية ولدعاة الاتحاد الكنسى .

أجابه القائد العسكري الأعلى : «سيدى. لم يكن بوسعى أن أفعل شيئًا، وحتى الإمبراطور لم يكن يملك سلطة تسليم المدينة لك . وبالإضافة إلى هذا ، فإن هناك من فى معسكرك من حثّ الإمبراطور على المقاومة، عبر إرسالهم الرسائل إليه، وأخبروه ألاّ يخشى بأسك . لأنك لن تنتصر عليه».

واعتبر السلطان ذلك إشارة إلى خليل باشا ، وتصاعد غضبه السابق تجاهه . ولأنه سمع الآن اسم الإمبراطور . فقد تساءل عنه . وعما إذا كان قد تمكن من الهرب على متن تلك السفن. وأجابه القائد العسكرى الأعلى بأنه لايعلم شيئًا عن مصير الإمبراطور، فقد كان مرابطًا عند البوابة الإمبراطورية عندما نجح الأتراك فى اقتحام المدينة عن طريق بوابة خاريسيوس، وتقدموا حتى المكان الذى تواجد به الامبراطور .

وعند هذا المنحى من الحديث تقدم جنديان، صاح أحدهما بالسلطان : «سيدى.. لقد قمت بقتله (الإمبراطور) ، كنت مندفعًا مع الرجال للبحث عن الغنائم ، وتركته يعانى من سكرات الموت» . وذكر الجندى الآخر أنه قام بضرب الإمبراطور الضربة الأولى. فقام السلطان بإرسال الجنديين لإحضار رأس الإمبراطور .

هرول الجنديان لتنفيذ ذلك، وقاما بفصل رأس الإمبراطور عن جسده، وأحضراها إلى السلطان ، الذى سأل القائد العسكرى الأعلى : «اخبرنى بالحقيقة، هل هذه هى رأس إمبراطوركم؟» ، فقام نوتاراس بتفحصها ، وأجاب : «إنها هى، يا سيدى» .

وشاهدها آخرون أيضًا ، وتعرفوا على صاحبها، وبعد ذلك جرى تعليقها على عمود فى ساحة أوجستيوم Augusteum[١]، حيث بقيت هناك حتى المساء. وبعد ذلك تم تفريغها من الجمجمة، وحشوها بنخالة الدقيق. وتم إرسالها– كإشارة على النصر– إلى حكام بلاد فارس وبلاد العرب، وكافة مناطقة الإمبراطورية التركية[٢].

١– هى عبارة عن مكان واسع يقع جنوبى كنيسة أيا صوفيا ، انظر :

O.D.B. vol. I, p. 232 .

٢– لم أجد فى المصادر العربية أو الفارسية المعاصرة ما يدل على وصول رأس الإمبراطور قسطنطين إلى المناطق العربية والفارسية . ولايعدو الأمر سوى مبالغة من المؤرخ البيزنطى ميخائيل دوكاس. =

وهناك رواية أخرى تذكر أن القائد العسكرى الأعلى قد تم العثور عليه برفقة أورخان Orhan(١) فى برج يشكل جزءًا من قلعة فرانتزس Phrantzes. وتم حصارهم بها ، وكان من المستحيل عليهم مقاومة الهجوم التركي، وكان برفقتهم العديد من النبلاء والقادة أصحاب المراتب العليا، بالإضافة إلى راهب، التمس منه أورخان أن يرتدى مسوحه بدلاً من ملابسه . وقام بعد ذلك بإلقاء نفسه إلى الأرض خارج المدينة عبر إحدى فتحات رمى السهام بالبرج . وتم القبض عليه بواسطة الأتراك الموجودين بالسفن ، حيث تم تقييده ، وقذفه على متن إحدى السفن . وهناك التحق بالأسرى الآخرين الذين تم جلبهم من البرج بعد أن قاموا بتسليم أنفسهم.

= وعلى أية حال فلايمكن التأكد تمامًا حول ما حدث لجثة الإمبراطور ، لأن الروايات تتعدد حول ذلك، فمنها من يذكر أنه لم يتم العثور عليها. أو تم العثور عليها ودفنها فى دير بير بيليبتوس Peribleptos فى هيبثوماثيا Hypsomatheia كما تحدثت بعض الروايات عن دفن جثمان الإمبراطور فى كنيسة الرسل المقدسة. وتم نقلها فيما بعد إلى دير القديسة ثيودوسيا ، عندما قام المعمارى البيزنطى خريستو دولس Christodoulos ببناء مسجد محمد الفاتح مكان كنيسة الرسل المقدسة.

كما أن هناك رواية أكثر رومانسية تذكر أن السلطان محمد الفاتح قام بتقبيل رأس الإمبراطور قسطنطين، وأمر بإحاطتها بإطار من الفضة ، ثم دفنها تحت مذبح كنيسة أيا صوفيا ، عن ذلك كله ، انظر:

Pears, E. The Destruction of The Greek Empire and The Story of the Capture of Constantinople by The Turks. New York , 1903 , p. 354. not. 2 .

حيث يستمر فى ذكره للروايات التى تذكر أن جثمان الإمبراطور قسطنطين موجود تحت مذبح كنيسة أيا صوفيا أو تم دفنه فى غلطة . أو فى أحد أركان القصر الإمبراطورى. كما يناقش أيضًا مسألة دفن جثمان الإمبراطور البيزنطى بالقرب من ميدان الموت Vefa Meidani ، عند زاوية مبنى تعود ملكيته إلى صناع سروج التحميل على ظهور الدواب ، وصناع الصنادل الخشبية، تحت صخرة عادية ، تقع تحت شجرة صفصاف متشابكة مع أزهار وأعناب برية، حيث تقوم السلطات التركية بإيقاد مصباح زيتى كل مساء فى هذا المكان. ويذكر البروفسير Pears، أنه لم يجد مصباحًا فى هذا المكان المزعوم، الذى لايعدو أن يكون مكانًا لأحد الدراويش الأتراك. انظر . Op. cit, p. 355 . not . 2 .

نقلاً عن : . Doukas, Op. cit, p. 315 , not . 289

١- عن وجود الأمير أورخان فى القسطنطينية . ودوره . وكيفية القبض عليه وإعدامه ، انظر : نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١١٥ هامش (٢) وانظر أيضًا : رواية خالكوكونديلاس ، ص١٩٥، هامش (٢)، ص١٩٦: انظر أيضًا ما سبق فى رواية دوكاس ، ص٢١٨، ٢٢٠ .

وقام أحد الأسرى البيزنطيين ، الذى كان يطمح إلى إطلاق سراحه ، بالتحدث مع قبطان السفينة قائلاً : «إذا ما أطلقت سراحى اليوم، أستطيع أن أقدم لك أورخان والقائد العسكرى الأعلى معًا ».

وعندما سمع القبطان ذلك، وعده بإطلاق سراحه. وفى الحال أشار إلى أورخان فى مسوح الراهب. وعندها تعرف القبطان على ماهية الأسير ، قام بضرب عنقه ، ثم ساق القائد العسكرى الأعلى إلى حضرة السلطان الذى كان موجوداً فى منطقة Cosmedium .

قام (السلطان) محمد بصرف القبطان بعد أن منحه مبلغًا كبيراً . وأمر القائد الأعلى بالجلوس، وأخذ فى مواساته ، وأمر بضرورة البحث عن زوجته وأولاده فى المعسكر والسفن التركية . وقام بدفع مبلغ ألف أسبرى Aspri[1] فداء لكل واحد منهم. وقام بإرسالهم إلى منزلهم ، ثم تحدث مطولاً مع القائد الأعلى، وكان حديثه يتصف بالسلاسة وبث روح الطمأنينة. وقال له : «إننى أنوى أن أضع هذه المدينة تحت مسئوليتك لتصبح المسئول الوحيد عنها، وحتى لاتشعر بأى خوف ، سوف أجعلك فى مكانة أكثر أهمية مما كنت عليه زمن الإمبراطور ». فقام نوتاراس بتوجيه كلمات الشكر إليه، وقام بتقبيل يده، وعاد إلى منزله .

وقبل أن يطلب منه (السلطان) محمد قائمة بأسماء كبار الموظفين النبلاء، وأصحاب الرتب العسكرية فى قصر الإمبراطور ، تم جمع هؤلاء جميعًا من مكان أسرهم، سواء فى المعسكر التركى أو على متن السفن، فى مقابل ألف أسبرى Aspri للرأس .

وفى الصباح التالى، لذلك اليوم الحزين ، الذى شهد تدمير ومحو جيشنا من الوجود قام (السلطان) محمد بدخول المدينة مرة أخرى، وتوجه إلى قصر القائد العسكرى الأعلى ، الذى هرول لملاقاته ، وقام بالانحناء أمامه. وبدأ ذلك الذئب الذى يرتدى ثياب الحملان فى الاقتراب من السيدة المريضة (زوجة نوتاراس) ، وقال لها :

«لابد أن تفرحى، أيتها الأم ، لما حدث ولاتحزنى. إنها إرادة الله، إننى سوف أقوم بتعويضك بأكثر مما فقدتيه . فقط اعتنى بصحتك».

١- Aspri هو الاسم الذى أطلقه البيزنطيون والأوربيون على العملة التركية المعروفة باسم أقجة Akça. وهى عملة فضية ظلت تتداول فى الدولة العثمانية حتى القرن الثامن عشر الميلادى، انظر:

Bayerle, . Op. cit. p. 11.

وبعد ذلك أظهر أبناء القائد العسكرى الأعلى آيات الاحترام والتبجيل له، وقاما بتوجيه الشكر إليه .

خرج السلطان بعد ذلك من أجل القيام بتفتيش عام على المدينة التى كانت مهجورة تماماً. ليس من الرجال فقط ، بل من الطيور والحيوانات ، ولم تتمكن من سماع أى صوت بها، حتى أصوات الطيور . كان بها فقط بعض الأتراك ، الذين كانوا أضعف من أن يحصلوا على الغنائم بأنفسهم . حيث قام البعض بقتل زملائهم ، عندما كانوا يتشاجرون من أجل انتزاع الغنائم من بعضهم البعض ، وعندما يحدث ذلك كان الجندى القوى العضلات ينجح فى الاستحواذ على ما يريد . بينما ظل الجنود الضعفاء ساكنين . أو كانوا يلقون مصيرهم عبر ضربة سيف قاتلة.

فى اليوم التالى للاستيلاء على القسطنطينية ، الثلاثين من مايو، قام الأتراك بدخول المدينة ثانية لجمع الأشياء التى تركوها وراءهم ، وقام السلطان بجولة فى المدينة واتبع ذلك بإقامة حفل للتمتع بالشراب إلى جوار القصر الإمبراطورى.

وعندما ثمل (السلطان) وذهب عقله ، أرسل إلى كبير خصيانه، وأمره بالذهاب إلى قصر القائد العسكرى الأعلى بالرسالة التالية: «سيدى يأمرك بإرسال ابنك الأصغر إلى حفله ».

وكان الصبى فى الرابعة عشرة من العمر . وسيم الطلعة . وعندما سمع والده بالرسالة ، تغيّر لونه، وبدا كما لو كان قد أصيب بالشلل من هول الصدمة . وأجاب الخصىَّ : «إن ديننا يمنعنى من أن أسلم ابنى بيدى لكى يفسق به السلطان. إنه لمن الأفضل لى أن يرسل (السلطان) الجلاد ليتخذ رأسى إليه بعد إعدامى». ونصحه كبير الخصيان بتسليم ابنه، حتى لايثير غضب السلطان. لكن نوتاراس رفض قائلاً : «إذا أردت أن تتخذه بالقوة ، فخذه وأذهب به، إننى لن أقوم بتسليمه لك بكامل إرادتى الحرة».

عاد الخصى إلى سيده . وأخبره بما قاله القائد العسكرى الأعلى، وكيف رفض تسليم الصبى. وغضب (السلطان) محمد لذلك غضباً شديداً ، وصاح بالخصىِّ: «خذ معك الجلاد واحضر الصبى. ودع القائد الأعلى وأبناءه يُقتادون إلى هنا بواسطة الجلاد». واتخذ الخصىّ والجلاد طريقهم لتنفيذ ذلك.

عندما استمع القائد العسكرى الأعلى لهذه الأوامر ، قام بوداع زوجته وأبنائه . وذهب مع

الجلاد ويرفقته ابنه وابن زوجته كانتاكوزينوس Cantacuzinus(١)، بينما قام كبير الخصيان باقتياد الصبى الصغير إلى سيده. تاركًا الآخرين عند بوابة القصر، بعد أن ألقى بالأوامر للجلاد بضرب أعناقهم .

قام الجلاد بمنحهم برهة قصيرة بالقرب من القصر ، ليخبرهم بقرار موتهم، وعندما سمع ابن نوتاراس أنه سيموت ، أخذ فى النحيب ، لكن والده وقف ثابتًا (كى يجعل الصبى شجاعًا) قائلاً له «أى بنى. إنك تعلم بما حدث بالأمس فى لحظة خاطفة من عمر الزمان، حيث فقدنا كل شئ، ثروتنا التى لم تكن لتنضب ، والسمعة الباهرة التى حققناها فى تلك المدينة العظيمة عبر العالم المسيحى كله. لانملك الآن سوى حياتنا ، ونحن لن نعيش إلى الأبد، لأننا سوف نموت فى النهاية، وكيف سنموت إذن؟ مجردين من كافة ممتلكاتنا ، ومن سمعتنا وشرفنا وقوتنا . يجب علينا أن نستخف بكل هذا ، فها نحن محتقرين ومنهكين ننتظر أن يأتينا الموت ليقوم بتحريرنا . أين إمبراطورنا؟ لقد قتل بالأمس، أين زوج أمى وأين أبيك . الحاكم والقائد الكبير؟ أين ثيوفيلوس باليولوغس Theophilus Palaeologus(٢)، والقائد العسكرى Protostrator وولديه ؟ لماذا لم يقتلوا بالأمس فى المعركة؟ ياليتنا متنا معهم، لكن الآن أزفت ساعتنا ، دعنا لانستمر طويلا فى اتباع طرق الشرّ ، من يعرف ، إذا ما تأخرنا ، فلربما ننتظر سهام الشيطان المسمومة كى تهزمنا» .

الآن أصبح الطريق واضحًا أمامنا ، باسم المسيح (الرب) الذى مات من أجلنا ، ونهض ثانية، دعنا نمنحه حياتنا، فلربما نجتمع معه لنتمتع بقداسته» .

بهذه الكلمات أزال (نوتاراس) المخاوف عن الأبناء، فاستعدا لاستقبال نهايتهما، ثم قال للجلاد «خذ الأولاد أولاً ، وافعل كما أُمرت» . فأطاعه الجلاد وقام بضرب عنق الولدين.

بينما وقف القائد العسكرى الأعلى وهو يبكى متضرعًا : «أنت فقط سيدى، اننى أومن بك فقط أيها الرب ». ثم قال للجلاد «امنحنى لحظة أيها الأخ ، كى أقوم بصلاتى».

١– كان هذا الصبى ابنًا للقائد الكبير اندرونيكوس باليولوغس كانتاكوزينوس Andronicus Palaeologus Cantacuzenus. وكانت عمته ايرين Eirene زوجة لجورج برانكوفتش ، حاكم صربيا ، انظر: Doukas, op. cit, p. 318 , not. 291 .

٢– عن ثيوفيلوس باليولوغس ، انظر رواية ليونارد الخيوسى، ص١٢٤، ١٦٨ .

وكانت هناك كنيسة قريبة ، فدخلها وقام بأداء صلاته بينما الجلاد في انتظاره .

بعد ذلك خرج من باب الكنيسة ، في نفس الوقت الذى كان فيه جسدىّ الولدين ما زالا ينتفضان بالحياة، وبعد أن وجه الشكر للرب. تم قطع رأسه .

تناول الجلاد رؤوس القتلى راجعاً ليقوم بعرضها على سيده الوحشى، الذى كان ما يزال يشعر بالسعادة من أثر الحفلة السابقة.

وتركت الجثث في الخارج دون دفن ، وقام البعض بالسطو علي ملابسهم غالية الثمن .

وقام (السلطان) محمد بإرسال الجلاد لقتل كافة النبلاء وكبار موظفى القصر بعد إحضارهم من مكان أسرهم (المعسكر والسفن التركية) ، بينما تم اصطفاء الفتيات العذارى الجميلات ، والغلمان وسيمىّ الطلعة، وعهد بهم إلى عناية كبير الخصيان. وتم وضع باقى الأسرى تحت مسئولية الآخرين للعناية بأمورهم حتى الوصول إلى مدينة أدرنة، التى عدّت بابليون Babylon الثانية [١].

كان جميع السكان الباقين على قيد الحياة بالمدينة قد انتقلوا الآن إلى المعسكر التركى، بينما أصبحت القسطنطينية مدينة مهجورة وخاوية، صامتة لا حياة فيها، بعد أن تم تجريدها من مجدها التليد...

١- هى إشارة من دوكاس إلى عملية السبى البابلى التى تعرض لها اليهود علي يد بنو خذ نصر ، فهو يحاول أن يذكر أن مدينة أدرنة- العاصمة العثمانية السابقة على القسطنطينية- قد أصبحت الآن محطة لتجميع الأسرى البيزنطيين وبالتالى فهى تشبه الآن مدينة بابل القديمة. حيث جرت أحداث السبى البابلى .

الفصل الواحد والأربعين(١)

أواه أيتها المدينة ! يا مدينة المدائن! أواه أيتها المدينة! التى تمثل مركز أركان العالم الأربعة. أيا مجد الدين المسيحى، والتى جرى تدميرها بواسطة البرابرة .

أواه أيتها المدينة! لقد كانت الفردوس الثانى الذى تم غرسه فى الغرب، كانت الحديقة التى ازدهرت بها العديد من الأشجار المحملة بالفاكهة الروحية! أين فضائلك وجمالك الآن. أواه أيها الفردوس ؟ أين قواتك التى بفضل وإحسان الروح القدس قد مكنتك من التمتع بالعقل والجسد؟ أين أجساد حوارىّ الرب التى ظلت طويلاً فى هذا الفردوس وازدهرت بشكل سرمدى، من بينها عباءة أرجوانية، وحربة، والاسفنجة، والمزمار . تلك التى سمحت لنا عندما قمنا بتبجيلها وتوقيرها بأن نؤمن بأننا نراه ينهض من فوق الصليب؟ أين رفات القديسين. أين رفات قسطنطين العظيم، والأباطرة الذين خلفوه ؟ إن الشوارع ، ومداخل المبانى، والطرق المتقاطعة، الحقول وبساتين الكروم التى كانت قد زخرت برفات القديسين، تزخر الآن بأجساد الرجال من أصحاب المكانة والمراتب العليا والدنيا. بالرهبان والراهبات المقدسين. يا لها من خسارة فادحة ومحزنة ! «إن جثث عبيدك أيها الرب، قد تم إلقائها لتصبح طعامًا لطيور السماء»، وتفرقت أجساد قديسيك حول صهيون الجديدة لتقوم الحيوانات المتوحشة بنهشها ، دون أن يستطيع أحد مواراتها التراب».

واحسرتاه على الكنيسة، تلك السماء الأرضية، والمنبع السماوى. ذلك المكان المقدس، صاحبة المجد من بين كافة الكنائس ! واحسرتاه على الكتب المقدسة، التى أوحى الرب بها. النواميس ، الجديدة والقديمة والألواح التى كتبت بإصبع الرب! واحسرتاه على الإنجيل الذى قيل بواسطة فم الرب نفسه. الأحاديث المقدسة التى تلّفظ بها الملائكة الذين اتخذوا هيئة بشرية، عقائد البشر التى ألهمها الروح القدس. ووصايا الأبطال أنصاف الآلهة!

١- اعتمد المؤرخ البيزنطى ميخائيل دوكاس أسلوبًا معروفًا فى الكتابة التاريخية فى العصور الوسطى . وهو إيجاد مشابهة بين الأحداث التى تجرى للمسيحيين، وتلك التى جرت لليهود، والتى ذكرها العهد القديم.

ويقوم دوكاس فى هذا الفصل برثاء مدينته النبيلة ، على غرار مراثى إرميا لأورشليم ويشبّه سقوط القسطنطينية وما تعرض له المسيحيون البيزنطيون من أسر على أيدى العثمانيين ، بما حدث من سقوط أورشليم واليهود أسرى فى أيدى بنوخذ نصر فيما عرف باسم السبى البابلى .

واحسرتاه على الإمبراطورية ، على الشعب، على الجيش الضخم الذى لايمكن حصره . كل ذلك ذهب إلى الأبد. مثل سفينة أغرقها الموج فى بحر مضطرم! واحسرتاه على المنازل وعلى الأمكنة جميعًا. وعلى الجدران المقدسة بالمدينة !

إننى اليوم أناشدهم جميعًا وأوجه نواحى تجاههم، كما لو كانوا موجودين جميعًا على قيد الحياة ، مقتديًا بالنبى ارميا Jeremiah فى مثل تلك المأساة الحزينة (١).

«كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب، كيف صارت كأرملة ! العظيمة فى الأمم. السيدة فى البلدان صارت تحت الجزية ، تبكى فى الليل بكاء ودموعها على خديها ، ليس لها معزّ من كل محبيها . كل أصحابها غدروا بها، وصاروا لها أعداء . قد سبيت يهوذا من المذلة ومن كثرة العبودية ، هى تسكن بين الأمم، لاتجد راحة ، وقد أدركها طارديها بين الطرقات. طرق صهيون نائحة لعدم الآتين إلى العيد، كل أبوابها خربة، كهنتها يتنهدون . عذاراها مذللة

١- يصنف سفر المراثى ضمن المكتوبات فى النص العبرى، كما أنه ينتمى إلى المجلات أو اللفائف الخمس. ويقع فى نسخة الفولجات اللاتينية بعد سفر ارميا ، ولذلك يسمى أحيانًا «مراثى إرمياء» ، ويقرأ هذا السفر عادة فى التاسع من أغسطس وهو ذكرى خراب أورشليم عام ٥٨٦ق.م . وذلك لأن موضوعه الأساسى رثاء المدينة لخرابها على يد بنو خذ نظر.

ويتكون سفر «مراثى ارمياء» حسب تحليل النقاد من مجموعة اصحاحات ، يتناول الإصحاح الأول موضوع سقوط اورشليم ، وما تعيش فيه من ذل على أيدى أعدائها ، وطلبها الخلاص من الرب.

ويعتقد بعض النقاد أن زمن تأليف السفر يقع بعد السبى البابلى عام ٥٨٦ق.م . وقبل نهاية السبى ٥٣٨ق.م وقد رتب النقاد الإصحاحات تاريخيًا فاعتبروا الاصحاحين الثانى والرابع أقدم الإصحاحات. ووضعوا الإصحاحين الثالث والخامس مع بداية الغزو البابلى ، وقبل سقوط أورشليم. والإصحاح الأول مع بداية الحصار فى ٥٩٧ ق.م وقبل السقوط.

وعلى الرغم من وجود مراثى شبيهة فى آداب الشرق الأدنى القديم مثل رثاء سقوط أور وأكاد، فإن علماء نقد الكتاب المقدس ينفون وجود تأثير خارجى على سفر مراثى ارميا . وإن اعترف بعض النقاد بوجود تأثير داخلى، حيث يظهر فى الإصحاحات تأثير سفر ارميا من خلال تكرار الأفكار فى السفرين.

وتدور فلسفة السفر حول رد الأحداث التاريخية المأساوية إلى خطايا جماعة بنى إسرائيل وكهنتها ، وأنبيائها الكذبة. وقيام الرب بمعاقبة جماعته لابتعادهم عن وصاياه وخروجهم على طاعته. فهو الذى أتى بالبابليين ليعاقب شعبه . وسوف تظهر قوته فى قوة البابليين، وهو الذى سيخلّص شعبه فى الوقت المناسب لمشيئته ، انظر : محمد خليفة حسن، مدخل نقدى إلى أسفار العهد القديم، ص٢٢٤-٢٢٦ .

وهى فى مرارة. سار مضايقوها رأسًا . نجح أعداؤها لأن الرب قد أذلها لأجل كثرة ذنوبها. ذهب أولادها إلى السبى قدام العدو، وقد خرج من بنت صهيون كل بهائها . صارت رؤساؤها كايائل لاتجد مرعى فيسيرون بلا قوة أمام الطارد. قد ذكرت أورشليم فى أيام مذلتها وتطوحها كل مشتهياتها التى كانت فى أيام القدم عند سقوط شعبها بين العدو وليس من يساعدها. رأتها الأعداء ضحكوا على هلاكها. قد اخطأت أورشليم خطية من أجل ذلك صارت رجسة. كل مكرميها يحتقرونها لأنهم رأوا عورتها ، وهى أيضًا تتنهد وترجع إلى الوراء»[١].

«بسط العدوّ يده على كل مشتهياتها . فإنها رأت الأمم دخلوا مقدسها الذين أمرت أن لايدخلوا في جماعتكَ ، كل شعبها يتنهدون ويطلبون خبزًا . دفعوا مشتهياتهم للأكل لأجل رد النفس. انظر يارب وتطلع لأنى قد صرت محتقرة»[٢].

«أما إليكم يا جميع عابرى الطريق. تطلعوا وانظروا إن كان حزن مثل حزنى، الذى صنع بى الذى أذلتى به الرب يوم حمو غضبه . من العلاء أرسل نارًا إلى عظامى ، فسرت فيها . بسط شبكة لرجلى. ردنى إلى الوراء جعلنى خربة اليوم كله مغمومة»[٣].

«رذل السيد كل مقتدر في وسطى . دعى على جماعة لحطم شبانى. داس السيد العذراء بنت يهوذا معصرة ». «صار بنى هالكين لأنه تجبّر بالعدو» [٤].

«بار هو الرب لأنى قد عصيت أمره، اسمعوا يا جميع الشعوب وانظروا إلى حزنى ، عذارى وشبانى ذهبوا إلى السبى. ناديت محبى. هم خدعونى. كهنتى وشيوخى فى المدينة ماتوا إذا طلبوا لنواتهم طعامًا لبردوا أنفسهم» [٥].

١- مراثى إرميا، الإصحاح الأول، ١-٨ .

٢- مراثى ارميا، الإصحاح الأول: ١٠-١١ .

٣- مراثى ارميا، الإصحاح الأول: ١٢-١٣ .

٤- مراثى ارميا ، الإصحاح الأول، ١٥ والسطر الأخير من ١٦ .

٥- مراثى إرميا ، الإصحاح الأول : ١٨-١٩ .

«سمعوا أنى تنهدت »(١). «صار السيد كعدو، ابتلع إسرائيل. ابتلع كل قصوره ، أهلك حصونه ، وأكثر فى بنت يهوذا النوح والحزن».

«حصر فى يد العدو أسوار قصورها ، أطلقوا الصوت فى بيت الرب كما فى يوم الموسم»(٢).

«انظر يا رب وتطلع بمن فعلت هكذا، أتأكل النساء ثمرهن أطفال الحضانة، أيقتل فى مقدس السيد الكاهن والنبى. اضطجعت على الأرض فى الشوارع الصبيان والشيوخ . عذارى وشبانى سقطوا بالسيف . قد قتلت فى يوم غضبك . وذبحت ولم تشفق»(٣).

«أتم الرب غيظه سكب حمو غضبه وأشعل ناراً فى صهيون فأكلت أسسها»(٤). «اذكر يارب ماذا صار لنا . اشرف وانظر إلى عارنا. قد صار ميراثًا للغرباء . بيوتنا للأجانب . صرنا أيتامًا بلا أب أمهاتنا أرامل»(٥). «على أعناقنا نضطهد ، نتعب ولاراحة لنا»(٦).

«آباؤنا أخطئوا، وليسوا بموجودين ونحن نحمل آثامهم. عبيد حكموا علينا، ليس من يخلص من أيديهم»(٧).

«جلودنا اسودّت كتنور من جرى نيران الجوع»(٨).

«أخذوا الشبان للطحن والصبيان عثروا تحت الحطب . كفّت الشيوخ عن الباب والشبان عن غنائهم. مضى فرح قلبنا صار رقصنا نوحًا، سقط اكليل رأسنا، ويل لنا لأننا قد اخطأنا. من أجل هذا حزن قلبنا، ومن أجل هذه أظلمت عيوننا، من أجل جبل صهيون الخرب، الثعالب ماشية فيه، أنت يا رب إلى الأبد تجلس . كرسيك إلى دور فدور. لماذا تنسانا إلى الأبد وتتركنا طول الأيام. أرددنا يارب إليك فنرتد. جدّد أيامنا كالقديم»(٩).

١- مراثى إرميا ، الإصحاح الأول: ٢١ .

٢- مراثى إرميا، الإصحاح الثانى، ٥ والسطر الأخير من ٧ .

٣- مراثى إرميا، الإصحاح الثانى: ٢٠-٢١ .

٤- مراثى إرميا : الإصحاح الرابع : ١١ .

٥- مراثى ارميا : الإصحاح الخامس: ١-٣ .

٦- مراثى ارميا، الإصحاح الخامس: ٥ .

٧- مراثى ارميا ، الإصحاح الخامس : ٧-٨ .

٨- مراثى ارميا ، الإصحاح الخامس: ١٠ .

٩- مراثى ارميا، الإصحاح الخامس : ١٣-٢٢ .

تلك هي المراثي التي عبر عنها النبي ارميا لدى سقوط مدينة أورشليم في العصور القديمة وانني أومن بأن الروح القدس قد أوحى إليه بحقيقة ما حدث لأورشليم الجديدة أيضًا.

لكن كيف يمكن للسان أن يمتلك القدرة على أن يصف بالكلمات ، تلك الكارثة التي حلت بالمدينة، ذلك الأسر المرعب والمخيف . والهجرة القاسية المريرة التي أزف وقتها ، وليست من أورشليم إلى بابل وبلاد أشور، لكن هذه المرة من القسطنطينية إلى الشام ومصر وأرمينيا وبلاد فارس، وإلى الجزيرة العربية، وأجزاء من إيطاليا وآسيا الصغرى، وباقي مناطق الإمبراطورية التركية.

كيف حدث ذلك؟ قد يجد الزوج نفسه في بافلاجونيا Paphlagonia(١)، بينما تساق زوجته إلى مصر، ويتم أخذ أبنائه إلى أماكن أخرى. بحيث يقومون جميعًا بتغيير لغتهم تبعًا للإقليم الموجودين به ، ويقومون بتبديل دينهم إلى الزندقة ، ومن إتبّاع كتبهم المقدسة، إلى إتباع كتابات وثنية خرقاء.

يا للرعدة . أواه أيتها الشمس . أواه أيتها الأرض ! فلتنوحي على شعبنا الذي تخلت عنه عدالة الرب ، بسبب ما ارتكبه من خطايا وآثام! إننا لانستحق أن نرفع عيوننا صوب السماء، دعونا نقوم بخفض عيوننا، ونحوّل وجوهنا نحو الأرض، ونمارس البكاء .

«أنت فقط أيها الرب، وها هو حكمك العادل. لقد ارتكبنا الخطايا والآثام(٢)، وقمنا بمخالفة ما أمرتنا به ، وارتكبنا الكثير من أعمال الظلم والعدوان على جميع الأمم. ولهذا فقد حق علينا أن نسلّم بحكمك الصادق والعادل . والآن فقط نتضرع إليك. اصفح عنا، وجنبنا أية معاناة جديدة أيها الرب»(٣).

١- بافلاجونيا هو إقليم بيزنطي كان يقع شمال آسيا الصغرى بين مدينة غلاطية القديمة والبحر الأسود .
O.D.B, vol , 3, p. 1579

٢- يعترف دوكاس هنا- في تكرار واضح - بأن المسيحيين البيزنطيين ينالون الآن قدرهم السيئ ، لأنهم عصوا الرب، وارتكبوا العديد من الخطايا والآثام. وهو يرجع هنا أيضًا، مع التورية، إلى ما ورد في مراثي إرميا، الإصحاح الرابع: ١٣، ٢٢ «من أجل خطايا أنبيائها وآثام كهنتها السافكين في وسطها دم الصديقين». «قد تم اثمك يا بنت صهيون، لايعود يسبيك، سيعاقب اثمك يا بنت أدوم ويعلن خطاياك».

وكذلك ما ورد في الإصحاح الخامس : ٧ ، ١٥ «آباؤنا اخطأوا وليسوا بموجودين ونحن نحمل آثامهم»، «سقط إكليل رأسنا. ويل لنا لأننا اخطأنا من أجل هذا حزن قلبنا، من أجل هذا أظلمت عيوننا».

٣- يتوجه دوكاس هنا بالدعاء إلى الرب، ليرفع المعاناة عن المسيحيين البيزنطيين، متمثلاً ما ورد في مراثي ارميا، الاصحاح الخامس : ٢٠-٢٢ «لماذا تنسانا إلى الأبد. تجلس كرسيك إلى دور فدور. لماذا تنسانا إلى الأبد وتتركنا طول الأيام، أردنا يارب إليك فنرتد . جدد أيامنا كالقديم، هل كل الرفض رفضتنا، هل غضبت علينا جداً».

الفصل الثانى والأربعين

أمر (السلطان) محمد أسطوله بالرحيل عن القسطنطينية ، بعد ثلاثة أيام من الاستيلاء عليها ، على أن تعود كل سفينة إلى الميناء الذى خرجت منه. وكانت السفن محملة بالغنائم المتعددة والثقيلة ، لدرجة أنها كانت – بالكاد– تسير فى البحر.

ما هى تلك الأسلاب والغنائم التى قام الأتراك بحملها معهم؟ إنها الملابس الغالية والمرتفعة القيمة والفازات الذهبية والفضية ، وتلك المصنوعة من البرونز والقصدير.

كما حملوا معهم عددًا ضخمًا من الكتب، ومن الأسرى من رجال الدين والعلمانيين من الرهبان والراهبات . وتكدست أركان السفن بالغنائم والأسلاب ، كما امتلأت – داخل المعسكر التّركى– كل خيمة بالعديد من الأسرى، وبكافة أنواع الغنائم التى تم ذكرها سابقًا .

وإذا ما تطلعت تجاه البرابرة (الأتراك) فيمكنك أن ترى أحدهم وقد ارتدى رداء البطريرك، والآخر وقد تمنطق بسلسلة الأسقف الذهبية حول وسطه، مستخدمًا إياها فى سحب كلابه. كما استعمل آخرون الملابس والأثواب المطرزة بخيوط الذهب، وبالصوف المجلوب من حمل الرب كوسادة، أو كدثار يتم ثنيه ليوضع تحت سرج الخيل حتى لاتصاب بالتقرّح.

بينما جلس الآخرون فى أماكنهم ، وأقاموا احتفالات صاخبة يمرحون فيها، ويأكلون فى الأطباق المقدسة، التى كانت قبل أن تسقط فى أيديهم ، مليئة بفواكه الأرض جميعًا، كذلك قاموا باحتساء النبيذ الخالص فى الفازات المقدسة.

حمل (الأتراك) إلى عرباتهم التى تجرها الخيول والبغال جميع المخطوطات التى وجدوها ، والتى كان لايمكن حصرها . حيث انتشرت تلك المخطوطات عبر قارتى آسيا وأوربا ، وتم بيع العشرة كتب ببيزانت Byzant واحد ، سواء أكانت كتبًا لأرسطو Aristotle(١)

١– أرسطو (٣٨٤–٣٢٢ق.م) الفيلسوف اليونانى الذى يعد من أعظم الفلاسفة علي مر العصور . ظل لمدة عشرين عامًا عضوًا بأكاديمية أفلاطون ، وبعد وفاة معلمه أفلاطون ، غادر أرسطو أثينا إلى أسوس ثم إلى ليسبوس بآسيا الصغرى. دعاه فيليب المقدونى ٣٤٢ ق.م لتعليم ابنه الإسكندر. عاد بعد ذلك إلى أثينا لتأسيس مدرسة جديدة تحت اسم «اللوقيوم» .

كتب أرسطو فى العديد من مجالات المنطق، علم النفس، نظرية المعرفة ، الوجود، الفلك، الطبيعة علم الحيوان ، السياسة والاقتصاد السياسى، وعلم الجمال .

=

أم لأفلاطون Plato [١]، أم كانت الكتب فى علم اللاهوت ، أو فى موضوع آخر من موضوعات المعرفة.

وبالنسبة للأناجيل Gospels التى كانت تفيض بالمعرفة، والمزخرفة بشكل قيم وثمين، فقد تم انتزاع خيوط الذهب والفضة من عليها، ثم بيعها بعد ذلك، أو إلقائها على قارعة الطريق. وتم إطعام كافة الأيقونات إلى النيران، وإذا ما حدث أن خبت النيران قليلاً ، كانوا يقومون بشىّ اللحم عليها، قبل تناوله .

دخل السلطان إلى غلطة فى اليوم الخامس بعد سقوط القسطنطينية، وكان عمله الأول هو الأمر بإجراء إحصاء رسمى للسكان . وتم خلال ذلك اكتشاف العديد من المنازل المغلقة تماماً، والتى كانت تخص اللاتين الذين تمكنوا من الهرب على متن السفن.

أمر محمد بفتح تلك المنازل فى الحال، وعمل جرد كامل لممتلكاتهم ، قائلاً : «إذا ما عاد سكانها فى غضون ثلاثة أشهر. دعوهم يستعيدون ممتلكاتهم أما إذا لم يعودوا فإنها سوف تكون من نصيبى».

كما أمر جيشه ، والسكان المجاورين للمدينة بهدم أسوار غلطة وتسويتها بالأرض، ثم قام بصرفهم بعد الانتهاء من هذه المهمة. وبعد أن قاموا بهدم الأسوار البرية، قاموا بترك الأسوار المواجهة للميناء.

= يعتبر أرسطو بحق أحد أهم دعائم الصراع الفسلفى اليونانى إن لم يكن أهمها على الإطلاق انظر: فؤاد كامل وآخرون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، مراجعة زكى نجيب محمود بيروت، د.ت ، مادة «أرسطو» ص٤١ .

١- أفلاطون (٤٢٨-٣٤٧ق.م) . ولد فى أثينا لأسرة أرستقراطية عريقة ، وبقى حتى آخر أيامه خصماً عنيداً للديمقراطية الأثينية . كرّس معظم حياته للدرس والنظر والتعليم وشعر بسخط الظلم والفساد الذى وصلت إليه السياسة فى عصره. وبدا له أن الأمل الوحيد فى إصلاح السياسة يتم عبر مدرسة يتكون فيها نوع جديد من الخلق السياسى.

بدأ أفلاطون حياته الأدبية بالعديدات من المحاورات حول الأخلاق . ألف بعد ذلك كتابه الهام «الجمهورية» كتب العديد من المحاورات التى تناولت قضايا الوجود والعالم ونشأته ، النفس والمعرفة بما فيها المعرفة الرياضية والتربية وغيرها . انظر: فؤاد كامل وآخرون ، المرجع السابق، مادة «أفلاطون» ، ص٥٤ .

بعد ذلك قام السلطان بإجبار العمال المشتغلين بالجير على العمل طوال شهر أغسطس، حيث قاموا بتجهيز الجير لإعادة بناء أسوار القسطنطينية المهدمة. ووجه عنايته بشكل خاص إلى إجبار خمسة آلاف أسرة تم إحضارها من الأراضى الخاضعة له فى الشرق والغرب ، على الإقامة بالقسطنطينية ، تحت التديد بعقوبة الموت، حدث ذلك فى نهاية شهر سبتمبر (١٤٥٣م) .

وجرى تعيين سليمان Suleiman، أحد خدم السلطان ، واليًا على القسطنطينية (١)، وبعد أن قام بتحويل الكنيسة العظمى إلى مزار وثنى لأجل ربه ، ولأجل محمد، ترك الآخرين يقومون بسلبها ، وتجريدها من كل ما بها، ثم بدأ بعد ذلك فى الاستعداد لعودته المظفرة إلى العاصمة أدرنة. حاملاً معه من الغنائم والأسلاب، مالايمكن حصره أو وزنه فضلاً عن أعداد ضخمة من الأسرى.

رحل السلطان عن القسطنطينية ، فى الثانية عشر من يونيه، جالبًا معه – على صهوات الجياد وعلى متن المركبات التى تجرها الخيول– كافة الأسرى من النساء النبيلات وبناتهن.

وماتت خلال تلك الرحلة زوجة القائد العسكرى الأعلى، بالقرب من مكان يدعى مسينا Mc-sene، حيث دفنت هناك، وكانت امرأة معروفة بالبر والإحسان تجاه الفقراء. وبمسلكها الحكيم والعاقل ، وكانت طاهرة من كافة أدران الروح.

دخل (السلطان) مدينة أدرنة فى موكب الفاتح والمنتصر . فى مشهد أكثر من مهيب وجليل. وتوافد إلى مجلسه كافة الحكام والزعماء المسيحيين من كل حدب وصوب. معبّرين له عن ودهم وصداقتهم وتحياتهم.

هل كان ما يشعرون به فى أعماق قلوبهم ودواخلهم يوافق ما نطقت به شفاههم!؟ ومع أن ذلك لم يكن بكامل إرادتهم، فقد انحنوا أمامه احتراماً وإجلالاً ، وقدموا له الهدايا مخافة أن يتعرضوا لنفس المصير.

١– عن تعيين سليمان بك واليًا على القسطنطينية ، انظر المصادر العثمانية المعاصرة التالية:

Tursun Bey, op. cit, p. 65 .

«... وصدر الأمر بتعيين سليمان بك، صاحب التجربة، والفطن ، واليًا على القسطنطينية .

Asik Pasaoglu, op. cit , p. 139 .

«.. أسند السلطان محمد خان الغازى (محمد الفاتح) مهمة الأمن فى البلاد بعد الفتح إلى سليمان بك. وبعث فى أرجاء البلاد يعلن : ليأت من يشاء، ليتملك المنازل والبساتين والحدائق».

جلس السلطان على عرشه متكبراً ومتغطرساً بسبب المجد الذى شعر به بعد نجاحه فى الاستيلاء على القسطنطينية ، بينما وقف القادة المسيحيون أمامه يرتجفون من الخوف ، ينتظرون ما ينوى القيام به تجاههم.

بدأ السلطان مقابلته للسفير الصربى، محدداً له ضرورة دفع ضريبة سنوية تبلغ ١٢ ألف بيزانت للخزانة العثمانية ، أما الحاكم المطلق Despote للبلوبونيز(١) فكان عليه دفع عشرة آلاف بيزانت ، كما أمره السلطان بإحضار الهدايا له . والحضور لمجلسه والانحناء أمامه. وإظهار الطاعة والولاء له سنوياً .

وبالنسبة لحكومة خيوس ، فقد حدد لها السلطان ضرورة دفع مبلغ ستة آلاف بيزانت سنوياً . وبالنسبة لميتيلين Mytilene(٢) فكان عليها دفع ثلاثة آلاف بيزانت سنوياً ، بينما طالب (السلطان) مدينة طرابيزون(٣)، والمدن الأخرى بالبحر الأسود بضرورة دفع الضرائب ، وإرسال سفير إليه يقوم بإبداء أمارات الطاعة والتبجيل والاحترام ، وحاملاً إليه الهدايا السنوية.

١- كان إخوة الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر ، توماس وديمتريوس Thomas & Demetrius هم حكام ميسترا Mistra فى البلوبونيز (١٤٤٩-١٤٦٠) انظر: . Doukas, op. cit, p. 319

٢- ميتيلين هى أهم مدن جزيرة ليسبوس Lesbos التى تقع فى شمال غرب بحر إيجه . استولت عليها الحملة الصليبية الرابعة، وتم منحها إلى بلدوين من فلاندر Baldwin of Flanders قبل أن يستعيدها البيزنطيون ١٢٢٤م . وتم منح الجزيرة إلى القرصان الجنوى فرانسيسكو جاتيلوزيو Francesco Gattilusio فى العام ١٣٥٤م ، حيث توارثت أسرته حكم الجزيرة حتى العام ١٤٦٢م. عن ذلك انظر:

O.D.B, vol , 2, p. 1219 .

وهى المدينة التى شغل فيها ليونارد الخيوسى Leonard of Chios كرسى كبير الأساقفة ، ومنها خرج إلى القسطنطينية بمباركة البابا نيقولا الخامس من أجل إقرار الاتحاد الكنسى بين كنيسة روما الكاثوليكية وكنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية وهناك عاصر ليونارد الحصار والاقتحام العثمانى للمدينة . وكتب تقريره عن ذلك من واقع ما شاهده بنفسه. انظر رواية ليونارد الخيوسى ، ص١٢٣-١٧٥ .

٣- قام الإمبراطور حنا الرابع كومنينوس إمبراطور طرابيزون (١٤٤٩-١٤٥٥م) بدفع ألفى بيزانت سنوياً انظر: . Runciman , op. cit, p. 168

وفى شهر أغسطس من نفس العام (١٤٥٣م) ، وصلت سفارة من الحاكم المطلق لصربيا ، قامت بدفع الضريبة المتفق عليها فى أدرنة بعد إبداء أمارات الطاعة والولاء .

وعملاً بتعليمات جورج George[1]، الحاكم المطلق لصربيا، قامت السفارة بدفع الأموال لافتداء الراهبات كبيرات السن ، والصغيرات منهن. فتم إطلاق سراح مائة راهبة ، وحسب تعليمات حاكم صربيا وزوجته الملكة، تم منح الأموال لجميع النبلاء الذين سقطوا فى الأسر من أجل افتداء أنفسهم .

وعندما انتهى فصل الخريف ، بدأ العام ٦٩٦٢ (١٤٥٤م) ، وقام محمد بقضاء الشتاء فى أدرنة . واضعًا الخطط لمهاجمة حاكم صربيا فى الربيع التالى، وذلك بنية إخضاع صربيا كلها لسيطرته .

كان حاكم صربيا يتوقع - يوميًا- ورود تلك الأخبار السيئة . وكان ينتظر حدوث ذلك لكى يبدأ أعماله العدوانية ضد السلطان، فقد منحته حياته الطويلة حكمة واسعة وخبرة عريضة ، وسبق له أن عانى الكثير منه، كما سبق ذكره سابقًا.

وكشف محمد عن نواياه بشكل واضح من أجل القيام بهجومه الجديد، جاء ذلك بعد أن أعلن أن «دولة صربيا، التى تقومون بحكمها الآن، ليست ملكًا لكم، وليس لكم أى حق فى وراثة حكمها. إنها تخص ستيفان Stefan [2]ابن لازار Lazar، وهى تمثل لى أهمية الآن،

١- هو جورج برانكوفتش Georg Brancovic حاكم صربيا المطلق Despote منذ العام ١٤٢٧م. اشترك إلى جانب العثمانيين فى معركة أنقرة ١٤٠٢م ضد تيمور لنك ، وبعد أن لقى السلطان بايزيد العثمانى هزيمته الساحقة ، عاد برانكوفتش إلى بلده صربيا عبر القسطنطينية وحاول استغلال الحرب الأهلية العثمانية التى نشبت بعد هزيمة أنقرة ١٤٠٢م للاستقلال بصربيا بعيدًا عن العثمانيين. انظر:

O.D.B, vol. 2 , pp. 835-836 .

وعن الدور السياسى والعسكرى لجورج برانكوفتش ، انظر:

Doukas , Op. cit, pp. 175, 190, 272-243; Nicol, "The Last Centuries", pp. 368-378 , 385-402 ; Housley, Op. cit, pp. 86-87 .

٢- هو ستيفان لازارفيتش Stefan Lazarvic ، أمير صربيا منذ العام١٣٨٩م، والحاكم المطلق عليها منذ العام ١٤٠٢م، وهو ابن لازار الذى قتل فى معركة كوسوفو ١٣٨٩م، فورث ممتلكات أبيه . اشترك فى معركة=

فارحل عنها فى الحال، وأنا مستعد لمنحك جزءًا من مملكة أبيك Vuk[(١)]، ومدينة صوفيا So-fia [(٢)]، لكننى سوف أقوم بمهاجمتك فى أى مكان آخر غير ذلك».

بعث السلطان برسالة مع أخلص خدمه، وأمره بضرورة مثوله مرة أخرى أمام سيده فى ظرف خمسة وعشرين يومًا . وتم إبلاغه أنه إذا ما فشل فى القيام بذلك، فسوف يتم فصل رأسه عن جسده، الذى سيصبح مستباحًا للحيوانات المتوحشة.

وبدأ رسول السلطان رحلته تجاه صربيا، لكنه وجد حاكمها غائبًا على الضفة الأخرى من الدانوب. وأكدّ له كبار وزرائه أنه سيعود فى نفس اليوم أو فى اليوم التالى .

وأثناء ذلك قاموا (الصرب) بتحصين قلاعهم واستحكاماتهم ، وبدأوا فى تخزين ما يحتاجون من إمدادات ضرورية من كافة الأنواع [(٣)]. وعندما أدرك الرسول أنه قد جرى

= نيقوبوليس ١٣٩٦م، ومعركة أنقرة ١٤٠٢م كفصل عثمانى اشرك فى العديد من التحالفات مع المجريين والعثمانيين. وكان يهدف إلى تكوين إمارة صربية مستقلة . لكن الهجمات العثمانية منعته من ذلك.

بعد وفاته ورث جورج برانكوفتش جميع ممتلكاته ، انظر:

O.D.B, vol, 3 , p. 1947 .

١- هو الملك الصربى Vukasin ، المعروف باسم Krales فى المصادر البيزنطية، الذى حكم بالمشاركة مع ستيفان أروش Stefan Uros منذ ١٣٦٥م انظر . O.D.B, vol , 3, p. 2188 .

٢- عاصمة بلغاريا الحالية ، ظلت خاضعة للبلغار حتى استولى عليها البيزنطيون ثانية ١٠١٨-١١٨٥م، ونجح العثمانيون فى فتحها فى العام ١٣٨٢م، انظر:

W.N.G.D, p. 1128 .

٣- بعد نجاحه فى فتح القسطنطينية ، قام السلطان العثمانى محمد الفاتح بعدة حملات عسكرية على صربيا فى الأعوام ١٤٥٤، ١٤٥٥، استطاع بعدها الاستيلاء على مناجم الذهب والفضة فى منطقة نوفو بردو Novo Brdo ، وتحقيق اتصال مباشر مع مقدونيا فى الشمال، ثم قام عام ١٤٥٦م بحملة عسكرية ثالثة على صربيا ، لكنها فشلت فى الاستيلاء على بلجراد، وفى النهاية تم عقد معاهدة بين السلطان الفاتح وجورج برانكوفتش تضمنت دفع صربيا الجزية للعثمانيين، انظر: نجلاء حسين توفيق. سياسة الدولة العثمانية فى البلقان تجاه الصرب (١٣٢٦-١٤٥٩م) رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب ، جامعة أسيوط، ٢٠٠١م، ص١٢٨ .

خداعه، كان يعيش فى رعب من التفكير فى العقوبة التى سوف توقع عليه نتيجة تأخره ، بعد أن مر عليه الآن ثلاثين يومًا .

وفى غضون ذلك شعر السلطان بالغضب، فرحل عن أدرنه متوجهًا نحو فيليبوبوليس Phi-lippopolis[١] بكامل جيشه ، حيث قابل رسوله هناك الذى أبلغه عن فرار حاكم صربيا نحو المجر ، وعن خداع وزرائه له، ومنعه من الرحيل . وكان السلطان قد انتوى على قتل سفيره لولا أن قام بإرسال رسالة قبل الموعد المحدد ، موضحًا فيها سبب تأخره ، ومناورات الصرب وهروب الحاكم المطلق لصربيا.

قام المجريون بعبور الدانوب، ونشروا الدمار فى المناطق المحيطة بمدينة ترنوفو Ter-novo[٢]، وحضروا بعد ذلك لمفاجأة الأتراك وتحقيق النصر. ثم يتراجعون ليقوموا بعبور النهر بعد الحصول على كمية ضخمة من الغنائم والأسلاب.

تقدم السلطان من فيليبوبوليس إلى صوفيا ، حيث ترك الجزء الرئيسى من جيشه فى الخلف برفقة وزرائه . بينما قام بقيادة جيش مكون من عشرين ألفًا من المقاتلين المشاة باتجاه صربيا، لكنه لم يجد خصمه فى طريقه، لأن حاكم صربيا كان لايزال فى المجر لبعض الوقت، ويرفقته جميع أفراد أسرته، بالإضافة إلى ممثلى بلاطه، وقبل رحيله قام بتحصين كافة القلاع والاستحكامات فى بلده، وحثّ شعبه على الصمود وعلى عدم تسليم أنفسهم ، وأن يتحملوا ما يحدث لفترة قصيرة ، لأنه سوف يعود وبرفقته جيش قوى لمساعدتهم .

وعلى الجانب الآخر، تقدم (السلطان) محمد بقدر ما من مدينة سمدروفو Smedrovo[٣]، الذى كا متلهفًا على غزوها بسبب قربها من نهر الدانوب، ولأنها تشرف على الطريق الذى

١- فيليبولوليس هى مدينة تقع فى تراقيا الشمالية على الضفة اليمنى لنهر ماريكا Marica . قام البلغار بغزوها ١٢٦٣م، وسقطت فى أيدى البيزنطيين، ثم أعاد البلغار احتلالها عام ١٣٢٣م بينما كان سكانها مشغولين بجمع الحصاد . وقام العثمانيون بالاستيلاء على فيليبوبوليس فى عام ١٣٦٣ أو ١٣٦٤م. عن ذلك انظر:

O.D.B, vol , 3, pp. 1654-1655 .

٢- مدينة فى شمال بلغاريا . كانت عاصمة للإمبراطورية البلغارية الثانية ١١٨٦-١٣٩٤م، نجح الأتراك العثمانيون فى الاستيلاء عليها فى العام ١٣٩٤م انظر:

W.N.G. D, pp. 1229, 1286 .

٣- هى أيضًا حصن Smederevo جنوب شرقى بلجراد ، تم تشييده فى الأعوام ١٤٢٨-١٤٣٠م=

يسلكه أولئك المتوجهين نحو المجر. لكنه لم يلق النجاح فى مسعاه ، وقرر الانسحاب ، ثم اتخذ قراره بمهاجمة أحد قلاع المدينة، التى قاومته بنجاح. وقام السكان الذين كانوا يعيشون بالقرب من القلعة بالدفاع عن أنفسهم وعلى الرغم من أن القلعة نفسها كانت منيعة وآمنة . فإن دفاعاتها الخارجية لم تكن كذلك، وقام السلطان باقناع المدافعين هناك بالاستسلام، بأن أقسم لهم بدينه، وقام بحنث قسمه فى الحال، واسترقاق جميع الذين تم أسرهم ، وأثناء ذلك ظلت القلعة نفسها صامدة ، فلم تسقط فى يده .

وعاد السلطان إلى صوفيا ، ومنها إلى أدرنة، حاملا معه كافة الغنائم والأسلاب، وهناك قام بتوزيع نصفها بين وزرائه وضباطه الذين اشتركوا فى تلك الحملة العسكرية معه. ثم أخذ نصف الأسرى ، وكان يبلغ عددهم أربعة آلاف رجل وامرأة ، وأرسلهم للسكن فى القرى المحيطة بالقسطنطينية. قبل أن ينتقل إليها بعد وقت قصير.

وبينما كان السلطان فى فليبوبوليس ، أمر بإعادة بناء الأسوار المهدمة بالقسطنطينية وعند عودته، وجد أنهم قد شرعوا فى إعادة بنائها، وأن العمل قد انتهى عى نحو مرض، فدخل إلى القسطنطينية ، وأمر بأن يجرى اقتطاع مساحة وسطها تبلغ ٨ ستادى Stades[1] أو أقل قليلاً، وأن يضرب سياج حول هذه المنطقة من أجل بناء قصر بها.

وتم عمل السياج ، وكذلك تغطية سقف المبنى بألواح الرصاص التى تم جلبها من الأديرة الخاوية من الرهبان ، والحقيقة أن دير البانتوقراطر Pantocrator قد تم منحه لقصرى النسيج الصوفى Fullers، وصانعى الأحذية الذين مارسوا عملهم فى كنيسة الدير، أما دير مانجانا Mangana فقد شغله الدراويش ، وآخرين من الأتراك مع زوجاتهم وعائلاتهم .

= بعد خسارة جورج برانكوفتش لبلجراد أمام المجريين عام ١٤٢٧م، وحصل على إذن من الأتراك العثمانيين ببنائها لتصبح عاصمة له. وقام السلطان مراد الثانى بالاستيلاء عليه ١٤٢٩م، لكنه أعاده إلى برانكوفتش ١٤٤م، قام السلطان الفاتح بالاستيلاء على Smederevoعام ١٤٥٩م انظر:

O.D.B, vol. 3, p. 1918 .

١– Stadium: وحدة رومانية قديمة لقياس الطول تساوى ٦٠٦.٩٥ قدماً انجليزياً، انظر: منير البعلبكى، المورد، ص٨٩٧ .

لم يكن على أن أكتب الأحداث التى تلت سقوط المدينة، إنه لمن الصعب على نفسى أن أقوم بتسجيل انتصارات وإنجازات الطاغية الوثنى، العدو القاسى، متحجر القلب، الذى قام بتدمير أمتنا، لكن ما سيأتى بعد ذلك سوف يوضح السبب الذى جعلنى أقوم بذلك.

عندما كنت مجرد صبى غرّ، سمعت ما قالته عجوز وقور وحكيم ، إن الإمبراطورية العثمانية وحكم أسرة باليولوغس سوف يصلان إلى نهايتهما فى نفس الوقت . فقد بدأ عثمان حكمه فى نفس الفترة التى صادفت وصول ميخائيل باليولوغس إلى العرش، وإن كان ميخائيل فى وقت مبكر قليلاً [١]. وأصبح عثمان حاكماً على عهد ابنه ميخائيل أندرونيكوس باليولوغس Andronicus Palaeologus [٢]، وعلى الرغم من هذا فقد قام بارتكاب بعض أعمال اللصوصية وقطع الطرق قبل ذلك ، ولهذا السبب، كان من المتوقع أن المدينة والأباطرة سوف يصلون إلى نهايتهم أولاً، ثم يحدث ذلك لخلفاء عثمان.

قام ميخائيل باليولوغس – ذات مرة – بسؤال أحد الكهنة ، عما إذا كان ابنه سوف يرث العرش بعد وفاته ، وقام ضميره بتوبيخه للاستيلاء على السلطة بشكل غير قانونى، بعد أن قام بسمل عينى الوريث الشرعى[٣]، حيث جلب اللعنات على نفسه وعلى خلفائه من بعده .

أما العجوز الحكيم فقد قدم فى إجابته الكلمة الخالية من المعنى AMAIMI[٤] التى يمكن تفسيرها كما يلى:

١- تولى الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوغس العرش ١٢٦١-١٢٨٢م. بينما تولى عثمان السلطنة العثمانية ١٢٨٨-١٣٢٦م.

٢- تولى أندرونيكوس الثانى باليولوغس العرش البيزنطى ١٢٨٢-١٣٢٨م.

٣- نجح ميخائيل الثامن باليولوغس فى دخول القسطنطينية ١٢٦١م ، بفضل قائده العسكرى الكسيوس ستراتيجوبوليس Alexios Strategopoulos ، وتم تتويجه مرة ثانية فى نفس العام إمبراطوراً على القسطنطينية وأمر بعد ذلك بسمل عينى حنا الرابع لاسكارس John IV Laskaris فى ديسمبر ١٢٦١م. لكى يصبح إمبراطوراً دون شريك . عن ذلك انظر: O.D.B, vol , 2, p. 1367 .

اسحق عبيد، الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغس ١٢٦١-١٢٨٢ ، بيروت ، د.ت ، ص٤١ .

٤- وجد الباحث تلك الكلمة فى ترجمة البروفسور ماجولياس لحولية ميخائيل دوكاس على هذا النحو ma-maimi، ويذكر أن هذه الحروف تعتمد على الحروف الأولى لأسماء الأباطرة البيزنطيين من أسرة باليولوغس على هذا النحو. =

«إن عدد حروف تلك الكلمة ، الخالية من المعنى، تماثل عدد الأباطرة من لدنكم ، وهكذا فإن القوة سوف تذهب عن المدينة، وعن خلفائكم»(*).

وها نحن الآن نعيش المرحلة الأخيرة . ونعانى من قدرنا القاسى والمشئوم الذى يهدد أمتنا، وتخلينا عن حلمنا بالحرية، ونتوجه للرب، عبر صلواتنا الحارة، وبهذه الطريقة يمكننا أن نعاقب أنفسنا ، وأن نداوى جروحنا ، ولعل نبوءة العجوز الحكيم فى الماضى تقودنا إلى حريتنا.

... وسوف أستمر فى تسجيل أعمال الطاغية، الذى قام بتهديدنا فى وجودنا وكينونتنا(١).

M- Michael VIII
A- Andronikos II
M- Michael IX
A- Andronikos III
I- Loannes or Jhon V
M- Manuel II
I- Ioannes or John VIII

وهكذا فإن ذلك لايشير إلى قسطنطين الحادى عشر كوريث شرعى للعرش البيزنطى، كذلك فلاتوجد اشارة فى تلك الحروف إلى حنا السادس كانتاكوزينوس Hohn VI Kantakouzenos، وأندرونيكوس الرابع Andronikos IV ، وحنا السابع John VII أما النبوءة الخاصة بأسرة آل كومنينوس فتشير إلى الكلمة AIMA كدلالة على أباطرة أسرة كومنينوس

A- Alexios I Kamnenos
I- Ioannes or John II.
M- Manuel I
A- Alexios II

انظر : . Doukas, Op. cit, p. 319 not. 295

* الأباطرة البيزنطيين الذين شغلوا العرش البيزنطى ما بين ميخائيل الأول وقسطنطين الأخير كانت أسماءهم كالتالى :

Andronicus . Michael . Andronicus . Iohannes, Manuel, Iohannes.

١- انتهت عند هذا الحد الفصول من ٣٣-٤٢ من رواية المؤرخ دوكاس التى اعتمد عليها البروفسور جونز فى هذا الكتاب. والحقيقة أن حولية ميخائيل دوكاس قد استمرت لعدة فصول بعد ذلك. إذ احتوت على ٤٥ فصلاً كاملاً لتنتهى عند أحداث العام ١٤٦٢م . وهى الحولية التى قام البروفسور ، ماجولياس Magoulias بترجمتها والتعليق عليها بشكل كامل. انظر قائمة المصادر .

كريستوفورو ريشيريو

Christoforo Riccherio

الاستيلاء على القسطنطينية

في يوم التاسع والعشرين من مايو عام ١٤٥٣م

كان محمد (الفاتح) رجلاً عظيمًا ، وتمتّع بذكاء ملحوظ. تولى حكم إمبراطوريته بعد وفاة والده (السلطان) مراد. ولأنه كان يطمح للقيام بإنجازات مجيدَة ، فلم يقنع بما تركه أسلافه . ولم يقنع أيضًا بما كانت تحمله أسرته من مجد، وهداه تفكيره القيام بمغامرة سوف تجلب له أقصى درجات الشرف والمجد. وأكبر من كافة الأعمال النبيلة التي قام بها أسلافه . وهكذا فعندما أعمل فكره جيدًا، قام بتحويل اهتمامه نحو مدينة القسطنطينية .

جاءت الأسباب التى قادته لاتخاذ هذا القرار كما يلي:

لقد وجد أنه ليس من الأمانة أن يدعو نفسه بإمبراطور بلاد اليونان لأن اللقب سيصبح فارغًا من مضمونه ، إلاّ إذا أصبح سيدًا على القسطنطينية، التي كانت مقر ومركز الإمبراطورية.

كذلك وجد أن استيلائه عليها سوف يمنحه شهرة خالدة بين أمم الأرض ، وأنه إذا ما استطاع أن يصبح سيدًا على تلك المدينة بالذات ، وهو بالكاد قد جاوز مرحلة الصبا، فإن العالم كله سوف يخشى قوته، وشدة بأسه .

وراقت له الفكرة فى النهاية بشكل كبير، لأن المحاولات السابقة التي قام بها أسلافه لحصار القسطنطينية انتهت بالانسحاب [١]، دون تحقيق نجاح يذكر ، مع أنهم كانوا معروفين بالشجاعة والإقدام.

بعد أن أمعن التفكير فى خطته بشكل سرى ، قام باستدعاء مستشاريه المقربين للمشاركة فيها ، ومتظاهرًا بأسباب أخرى لعدم لفت انتباه حكام أوربا لنواياه ، قام بإحضار عدد كبير من الحرفيين بسرعة غير عادية وبدأ بتشييد قلعة فى الطرف التراقى Tracian للبوسفور ، على مقربة من القسطنطينية [٢].

١– إشارة إلى فشل حصار السلطان بايزيد الأول للقسطنطينية ١٣٩٤–١٤٠٢م وحصار السلطان مراد الثانى للمدينة ١٤٢٢م.

٢– أمر محمد الفاتح بتشييد القلعة التي عرفت باسم الروملى حصار (قلعة الروم) والتي لعبت دورًا خطيرًا فى حصار القسطنطينية، وفى التحكم فى حركة السفن التجارية والعسكرية المتوجهة من والى البحر الأسود .

وأطلقت المصادر المعاصرة على هذه القلعة اسم قاطعة الزور Laemocopia Cut of Throat . عن الأهمية الاستراتيجية للقلعة ودورها الاستراتيجي. انظر المصادر المعاصرة :

=Tursun Bey , op. cit, pp. 40-45 ; Asikpasaogla, op. cit, p. 137 ; Kritovoulusu, Op. cit, pp. 16,20 .

تم الانتهاء من بناء هذه القلعة في وقت قصير للغاية[1] . ومنحته مركزًا عسكريًا متفوقًا ، وكان من الطبيعي أن يكون بها العديد من المدافع وجنود المدفعية، والكثير من المؤن الإمدادات، وكافة الاحتياطات لتكون مستعدة لكافة الاحتمالات .

بعد ذلك لم يعر (الفاتح) أهمية للتقاليد التي أرساها أسلافه عندما كانوا يقومون بإعلان الحرب على جيرانهم (البيزنطيين) . وقام أيضًا بالحنث بالإيمانات المقدسة التي وعد بها سابقًا من أجل الحفاظ على حالة السلام مع المسيحيين ، فقد كان مثل الرجل الذي نجح في إخضاع كل شيء له، حتى ولو كان لايسبب له المتاعب ، لأجل ما يشعر به من طمع ونهم شديدين.

وقام بتحريك قواته في مناورة عسكرية سريعة للاقتراب من القسطنطينية . وأصبح ريف المدينة محاصرًا تحت سيطرته[2]. بعد ذلك قام بتنظيم صفوف قواته في مواجهة المدينة ، وبدأ في مهاجمتها من الجانب المطل على البحر .

كان الإمبراطور البيزنطي وصغار وزرائه قد أحيطوا علمًا من قبل بتقدم واستعدادات محمد. وكانوا ممتلئين رعبًا ، مفتقدين روح المقاومة إزاء خصمهم القوى ، ولذلك قاموا بإرسال السفراء بسرعة إلى أوربا، من أجل إخبار البابا[2] والإمبراطور، وجميع الملوك والأمراء

= دوكاس ، ص٧٣ . Kritovoulus, op. cit, pp. 16,20 : خالكونديلاس ، ص١٧٩ ، هامش (١) : دوكاس ، ص٢٢٤-٢٢٥ .

١- يذكر المؤرخ المعاصر نيقولو باربارو أن السلطان أمر بتشييد هذه القلعة في شهر مارس ١٤٥٢م، وأن العمل قد انتهى بها خلال شهر أغسطس من نفس العام. انظر: المصدر السابق، ص٨٢-٨٣ .

٢- سيطرت قوات محمد الفاتح على ريف القسطنطينية ، وترك الجنود خيولهم وحيواناتهم تقوم بالرعي في الأراضي الزراعية الخاضعة للفلاحين البيزنطيين. وهو ما أحدث صدامًا بينهم وبين الجنود العثمانيين الذين أخذوا أيضًا في نهب المحاصيل وترتب على ذلك الصدام أن أرسل السلطان الفاتح قائده كاجيا بك ، الذي انقض -في صباح اليوم التالي- على الفلاحين البيزنطيين ، وقتل حوالي الأربعين منهم، انظر: دوكاس ، ص٢٢٦ .

Schlumberger , Op. cit, pp. 27-28 ; Hidden, Op. cit, p. 55 ; Kilty, Op. cit, p. 78 .

٢- أرسل الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر سفارة إلى البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧-١٤٥٥) يخبره فيها بأنه إذا تمكن العثمانيون من الاستيلاء على القسطنطينية، فإن وجهتهم التالية ستكون مدينة روما نفسها، كما أخبره بأنه قد اعترف بقرارات مجمع فلورنسا حول توحيد الكنائس .

كما أرسل السفراء إلى أخويه ديمتريوس وتوماس من أجل إرسال المساعدة كذلك أرسل قسطنطين=

المسيحيين بالكارثة الفادحة التى ستصيب بلاد اليونان . والأخطار التي تنتظر باقى البلاد المسيحية، فى نفس الوقت ، طالبين منهم مد يد العون والمساعدة لمواجهة هذا الحدث الجلل(٢).

وخلال هذا الوقت قام محمد بحشد جيش ضخم من كافة أرجاء إمبراطوريته بسرعة فائقة، وقام بتوزيع قواته البرية والبحرية . ووضع أمام أسوار القسطنطينية عدداً ضخماً من المدافع، وكان متأكداً من اجتياحه للمدينة.

ولكى يحقق أفضلية عسكرية على المدافعين (البيزنطيين) ، بدأ فى الهجوم عبر منطقة غير متوقعة ، كما وجه عنايته الكبيرة لحفر الأنفاق(٢) تحت الأسوار . وكان هدفه أن يسّهل على جنوده عملية الدفاع عن أنفسهم ضد أعدائهم، وأن يمنحهم ميزة الوضع المتفوق فى الهجوم. وكذلك أن يقوموا بإلقاء السلالم الخشبية على الأسوار من أجل الاستيلاء على المدينة، ولهذا فقد أمر بحفر خندق عريض تحت جميع أسوار المدينة.

= العادى عشر إلى مدينة البندقية التى ردت عليه بإبداء الاستعداد للمعاونة- مع دول أخرى- ومساعدة القسطنطينية. انظر:

صلاح ضبيع، المرجع السابق، ص٢٦٥-٢٦٦ . . Runciman , op. cit, p. 80

١- لم يكن الإمبراطور هو الوحيد الذى استنجد بالغرب الأوربى، فقد قام البنادقة فى القسطنطينية بإرسال جوان ديوسنايجى Zuan Diusnaigi فى أوائل عام ١٤٥٣م إلى البندقية ، حيث قدم تقريراً إلى الدوج البندقى فرانسيسكو فوسكارى Francesco Foscari . ونتيجة لذلك عقد مجلس السناتو البندقى جلسة فى ١٩ فبراير ١٤٥٣م تقرر فيها مساعدة القسطنطينية عبر إرسال ٨٠٠ مقاتل على متن سفينتين تبحران فى الثامن من أبريل ، مع خمس عشرة شينية أخرى وتم تدبير نفقات هذا الأسطول المتجه إلى القسطنطينية عن طريق فرض الضرائب على التجار الذين يعملون فى الأسواق البيزنطية . وفى موانئ البحر الأسود . وبلغت التكلفة الإجمالية لنفقات الأسطول ١٦ ألفاً من الدوكات البندقية . عن ذلك انظر:

نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٠٠-١٠١ .

Nicol, " Byzantium and Venice", p. 397 .

٢- الحقيقة أن البيزنطيين هم الذين فكروا أولاً فى استخدام الأنفاق تحت أسوار القسطنطينية لمباغتة العثمانيين ، وبعد استخدامهم لأحد الأنفاق المهجورة أسفل القصر الإمبراطورى ، قام العثمانيون بانتهاج أسلوب حفر الأنفاق للنفاذ إلى داخل القسطنطينية وعلى الرغم من حفرهم للعديد من الانفاق ، فإنهم لم ينجحوا فى التسلل إلى داخل المدينة ، بفضل يقظة البيزنطيين الذين قاموا باشعال النيران داخل الأنفاق ، عن ذلك انظر ماسبق، ص١٧٠٤ هامش (١) ، ٤٩ نيقولو باربارو ، المصدر السابق ، ص١٥٢، ١٥٨، ١٦٢ . وانظر أيضاً رواية تيدالدى، ص١١١: ليونارد الخيوسى، ص١٣٤-١٣٥ .

وقام عبر الجانب المواجه لمدينة بيرا Pera ، بعد أن غمرته مياه البحر ، بإقامة جسر[1] فى غاية الدقة والمهارة ، كما قام بتشييد آلة يبلغ طولها الفى خطوة، تحمل عدداً من الابراج الخشبية التى تم تزويدها بالأسلحة، بحيث تطلّ مباشرة على المدينة من على قمة الأسوار [2].

وسببت تلك الآلة المخيفة ازعاجًا شديداً للمدافعين عن المدينة عبر الغارات المتكررة ليلاً ونهاراً ، بحيث لم تترك لهم وقتًا لالتقاط الأنفاس.

احتفظ (المدافعون) بروح معنوية عالية. وكانوا مستعدين لتحمل أية معاناة، بدلاً من السقوط فى أيدى أعدائهم المتوحشين والقساة ، ولهذا قاموا بتحمل كافة الأخطار بشجاعة ونبل.

وأخيراً ، اعتبر محمد أنه قام باسقاط نسبة من الأسوار تكفى لأن تسمع لجنوده باقتحام المدينة والاستيلاء عليها. وكانت لديه ثقة كبيرة بالنصر ، على الرغم من أنه لم يكن قد تحقق بعد .

وأمر (الفاتح) المنادين بالإعلان ، عبر أرجاء المعسكر بأنه اعتباراً من اليوم التالى ، السابع والعشرين من مايو ١٤٥٣ لميلاد سيدنا ، والموافق للعام الثالث والثلاثين من حكم الملك شارل Charles ملك فرنسا [3]، يجب على كل فرد فى جيشه أن يكون جاهزاً ، وفى كامل استعداداته، لأن مدينة القسطنطينية سوف تصبح ملكًا لجنوده، وسوف يبدأون فى سلبها ونهبها، عندما يقومون بالاستيلاء عليها فى اليوم الثالث لبدء الهجوم.

١- انظر : نيقولو باربارو المصدر السابق، ص١٥٥-١٥٦ ، تيدالدى ، ص١١٢ : ليونارد الخيوسى، ص١٤٢ Asikpasaoglu, op. cit, p. 138.

وقد ذكر المؤرخ البيزنطى دوكاس بالتفصيل كيفية صناعة هذا الجسر الذى امتد من غلطة إلى بوابة Chi-nigo بعد أن تم ربط أكثر من ألف برميل من براميل الخمور جنبًا إلى جنب بعرض برميلين مكونة صفًا واحداً، ثم تكوّن صنف ثان مثل الصف الأولى ، وبعد ذلك تم ربط الصفين معًا عبر الواح خشبية جرى تثبيتها بالمسامير ، بحيث يوضع لوح خشبى سميك فوق البراميل . الأمر الذى أدى فى النهاية إلى ايجاد جسر خشبى يكفى عرضه لعبور خمسة من الجنود إلى الجانب الآخر دون صعوبة تذكر ، انظر ما سبق، ص٢٦٥ .

٢- نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٥٣-١٥٤ ، انظر تيدالدى، ص١١٢ : ليونارد الخيوسى، ص١٣٦ .

٣- هو الملك الفرنسى شارل السابع Charles VII (١٤٢٢-١٤٦١م) ، ويبدو أن فتح القسطنطينية حدث فى العام الواحد والثلاثين- لا الثالث والثلاثين- لحكمه.

عندما استمع أفراد الجيش العثماني لتلك الأخبار، شعروا بالسعادة والسرور وبدأ كل جندى فى تجهيز واعداد أسلحته ومعداته اللازمة ، ولم يقرب أى جندى الطعام بالنهار(١).

هكذا كان انضباطهم شديداً . وعملوا جميعًا على توفير كافة ما يلزم من أجل القيام بالهجوم.

وعندما حل الليل، وبدأت النجوم تومض ، جلسوا لتناول الطعام والشراب(٢)، وبدأ يمرحون ويصطخبون ، ويدعون بعضهم البعض للمشاركة فى احتفالاتهم .

ومرّ معظم الليل بهذه الطريقة ، وعندما اضطروا للتفرق من أجل نيل راحة بسيطة قاموا بوداع بعضهم بالعناق والقبلات ، وكأنهم لن يلتقون ثانية(٣).

وعلى الجانب الآخر ، علمنا نحن المسيحيين بتوجيهات محمد وأوامره ، وشاهدنا الاستعدادات التى قام بها العدو، وبدأ قساوستنا فى عمل مسيرة من جميع السكان، النساء والرجال بصرف النظر عن مرتبتهم الاجتماعية المرتفعة أو المتواضعة ، حاملين الذخائر المقدسة للقديسين، وأيقونة السيد المسيح والسيدة العذراء ، وقام هذا الحشد بزيارة جميع الكنائس ، وهم باكين منتحبين . وشرعوا فى الصلاة من أجل التماس مساعدة السماء(٤)، عبر التضرع إلى الرب وانشاد الترانيم والصوم، وعندما حل المساء قمنا باراحة أنفسنا عن طريق تناول وجبات بسيطة وتحركنا جميعًا نحو مواقعنا للدفاع عنها .

١- ما لم يقله ريشيريو صراحة ، هو توجه العثمانيين إلى الصوم قبيل الهجوم النهائى على القسطنطينية. انظر: ليونارد الخيوسى، ص١٦٢ .

٢- لابد أنهم جلسوا لتناول الافطار بعد يوم الصيام. ويبدو أن معلومات ريشيريو عن الدين الإسلامى قليلة، لأنه لم يدرك مسألة الصوم، مع أنه وصف مسألة الامتناع عن الطعام ثم تناوله ليلاً .

٣- انظر . ليونارد الخيوسى، ص١٦٢ ، الذى أشار أيضًا إلى حالات التصافح والعناق بين الجنود العثمانيين قبيل الهجوم النهائى على القسطنطينية . وإن كان لم يفسر لنا سبب ذلك ، غير أن ما جرى يدل دلالة بالغة على توجههم للجهاد فى صباح اليوم التالى.، ومن الممكن أن يستشهدون فى ميدان القتال. فكان لابد من التصافح والعناق قبل أن ينالوا شرف النصر أو الشهادة.

انظر أيضًا : خالكونديلاس ، ص١٩٢ ، الذى يذكر أن شيوخ الدين المسلمين Zychides فى معسكر محمد الفاتح كانوا ينتشرون وسط الجنود العثمانيين لحثهم على الجهاد ، وتذكيرهم بمكانة الشهداء فى الجنة.

٤- انظر: kritovoulus, Op. cit, pp. 58-59 : باربارو، المصدر السابق، ص١٦٣ : صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص٢٩٥ .

على الرغم من مناعة الأسوار وارتفاعها، فقد تعرضت للهدم، وكان من الضرورى ترميمها فى عدة أماكن، وكانت الأجزاء البارزة من جدران القلاع المخمسة الأضلاع (الباستين) bas-tions قد تهدمت وسقطت بسبب تهاون واهمال البيزنطيين . وكان أمل المدافعين يتركز على الأسوار الخارجية لمناعة الأجزاء البارزة منها، ولأنه كان قد جرى ترميمها بشكل جيد لمقاومة هجوم الأعداء. كما اتخذ العديد من الجنود مواقعهم أيضًا عند الأسوار الخارجية للدفاع عنها ضد هجمات الأعداء .

كانت القسطنطينية مدينة مثلثة الشكل. وجرت حماية جانبيها باتجاه البحر بالأسوار مخافة الهجوم البحرى، أما الجانب الثالث الذى يمتد بحذاء البر، فقد تمت احاطته بالأسوار الداخلية والخارجية ، وكذلك بواسطة قناة عريضة وعميقة.

كان البرابرة (الأتراك) متلهفين للحصول على الغنائم والأسلاب . وبدأوا هجومهم فجرًا بعد تلقيهم الاشارة بذلك ، وشعر المدافعون بالهجوم، وبدأ يستعدون للدفاع عن أنفسهم ، مستخدمين القذائف النارية، والسهام من أعلى الأسوار لرد الأتراك على أعقابهم .

وأعاق ظلام الليل الأعداء بشكل واضح ، لأنهم تقدموا بطريقة واحدة، وتمكنًا من قتل العديد منهم عبر اسخدام الأحجار والسهام[١].

وعندما اقترب ضوء النهار، وأصبحت الرؤية ممكنة، لحق محمد نفسه بجنوده أمام الأسوار ، وقام باستدعاء قادته آمرًا اياهم بان تتم مهاجمة القسطنطينية وبيرا فى وقت واحد ، من أجل منع البيزنطيين واللاتين من تبادل المساعدة مع بعضهم البعض.

قام محمد بتحديد موقع لكل قائد من قادته أمام الأسوار، بحيث يتمركز أمامه مع جنوده، وأن يكونوا مستعدين للقتال من أجل احراز المجد، كما قام بتنظيم صفوف الجنود من أجل القيام بالهجوم فى لحظة واحدة. وتم جلب القلاع الخشبية إلى أسفل الأسوار، من أجل رفعها لأعلى لكى تصبح فى مستوى الأسوار، وبالتالى في مستوي المدافعين عنها، بحيث يصبح القتال آنذاك أكثر يسرًا، مما يرفع من روحهم المعنوية.

وقام (محمد الفاتح) بإعطاء الإشارة لجنوده المستعدين من أجل اسقاط وتدمير الابراج والشرفات العليا بالأسوار. ولهذه كان على البيزنطيين أن يهتموا بما يحدث عند الأسوار. وأمر (محمد) باستمرار القتال دون توقف، حاثًا جنوده على القتال عبر استخدام الأبواق، والطبول والنفير.

١- نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٦٩ .

وقام الأتراك بحماية أنفسهم عبر استعمال الدروع ، وأمالوا السلالم الخشبية ناحية الأسوار، وقفزوا إلى أعلى الأسوار فى شجاعة وإقدام، وبدأ البيزنطيون الذين وجدوا (الأتراك) فى مواجهتهم بقذف أنفسهم إلى أسفل، فوق الصخور، كما قاموا برميهم بالقذائف وحامض الكبريت، وبكل ما وصلت إليه أيديهم، وفعلوا كل ما كان يمكنهم من أجل دفعهم إلى الخلف .

ولقى العديد من المحاربين– من الجانبين– نهاية مؤسفة، ولم يكن بالإمكان مشاهدتهم، لكنهم ماتوا بالفعل ، عندما بدأت تخمد وتيرة الهجوم .

وفى وسط غمار المعركة، لاحظ محمد أن جنوده بدأوا يفقدون حماستهم للقتال، فسعى بينهم بشكل سريع ، منادياً كل أحد باسمه، مما أعاد لهم ثقتهم وروحهم المعنوية العالية ، كما نجح – عبر استخدامه أسلوب الوعد والوعيد– فى اعادة معنوياتهم إلى النقطة التى بدأوا القتال عندها ، بل ارتفعت روحهم المعنوية إلى عنان السماء، وأصبحوا أكثر تصميماً على بلوغ قمة الأسوار ، وأن يقوموا بكل ما يمكنهم القيام به من أجل تحقيق هدفهم.

وعلى الرغم من البسالة التى أبداها المدافعون ، وقيامهم بقتل العديد من الأتراك ، فإن الامدادات المستمرة والقوات الجديدة كانت تندفع بشكل مستمر لتأخذ مكان الجنود الذين لاقوا حتفهم [١].

كانت تلك هى سياسة محمد. الاستمرار فى ارسال قوات جاهزة وجديدة للمعركة . وكان هدفه من ذلك ألاّ يدع مجالاً للبيزنطيين لالتقاط الأنفاس وهكذا يتمكن من هزيمتهم ، بعد ما تنفذ قدرتهم على القتال .

هناك شئ واحد جعل الأتراك غير واثقين من تحقيق النصر. وأوهن كثيراً من قدراتهم، هو – بلاشك– جيوفانى جستتيانى[٢] Giovanni Giustiniani ذلك النبيل الجنوى الثرى،

١– ذكر مؤرخ يوميات الحصار العثمانى، نيقولو باربارو، أن السلطان محمد الفاتح قام بتقسيم قواته إلى ثلاث فرق تكونت كل منها من خمسين ألف مقاتل ، تألفت الفرقة الأولى من المسيحيين فى الجيش العثمانى، والفرقة الثانية من مقاتلين من ذوى مكانة اجتماعية منخفضة، كالفلاحين والفرقة الثالثة من الجنود الانكشارية الشجعان أصحاب العمامات البيضاء. راجع ، المصدر السابق، ص١٦٨–١٧٠ .

٢– عن جيوفانى جستتيانى ودوره فى الدفاع عن القسطنطينية ، راجع ماسبق:

تيدالدى ، ص١١٠ هامش (١) : ليونارد الخيوسى، ص١٣٤–١٣٥ ، هامش (١)، خالكوكونديلاس ، ص١٩٣، دوكاس، ص٢٨٨–٢٧٠ . انظر أيضاً: نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٠٢–١٠٥، ١٧٣–١٧٤ .

وصاحب الشهرة الفائقة في وطنه. والذى كان بالمصادفة في القسطنطينية لدى حصار المدينة[١]. ولم يكن يعتقد أن مكانته ووضعه يضعانه في مكانة مختلفة عن باقى سكان المدينة. وشعر أنه من الضرورى أن يلعب دوراً في الدفاع عن القسطنطينية .

وهكذا التحق بالقتال مع باقى السكان، وتمتع بشجاعة فائقة وذكاء واسع، وأفسح له الجميع مكانة تسمح له بتولى قيادة عملية انقاذ المدينة، وأضفوا عليه آيات الشرف والاجلال.

حدث كل شئ عندما كان يحارب في صفوف القوات الأمامية التى تحاول رد الأتراك على أعقابهم، إذ كان (جستنيانى) سيئ الحظ بشكل كبير بسبب اصابته بسهم أطلقه أحد أتباعه، وتدفق دمه بغزارة.

ولأنه لم يكن يرغب في اثارة الفوضى لدى باقى جنوده إذا ما أرسل في استدعاء طبيب لمداواته ، قام بالانسحاب من ميدان المعركة بشكل خفى.

علم الإمبراطور قسطنطين بما جرى. وأدرك أن غياب جستنيانى يمثل خطراً داهمًا على دفاعات المدينة. وأنه إذا ما بقى في مكانه، فإنه سوف يساهم في انقاذها ، فتوجه الإمبراطور للبحث عنه، حاثًا اياه على عدم الانسحاب من المعركة، ومصراً على ضرورة عودته إلى الميدان.

ولم تُجْد توسلات وتضرعات الإمبراطور نفعًا معه. ورحل أخيراً بعد أن أخبره أنه سيعود للقتال بعد أن يتلقى علاجًا مناسبًا .

تم اغلاق كافة بوابات الأسوار الداخلية التى تؤدى إلى الداخل ، وهكذا فلم تكن هناك فرصة لهرب الجنود، وأدركوا بشكل جلى أنه يجب عليهم أن يحققوا النصر أو يموتوا شاهرين سيوفهم بأيديهم.

١- لم يكن القائد الجنوى جستنيانى موجوداً في القسطنطينية بالمصادفة كما يزعم ريشيريو، فحسب شهادة الطبيب نيقولو باربارو ، والذى لايكن الكثير من الاحترام للجنوية ولا لجستنيانى ، فإن الأخير وصل إلى القسطنطينية في السادس والعشرين من يناير ١٤٥٣م، ويرفقته سبعمائة مقاتل .. «لأنه أدرك مدى حاجة القسطنطينية إليه . وكذلك من أجل رفعة وسمو الدين المسيحى». انظر المصدر السابق، ص١٠٣-١٠٤ وانظر: أيضًا البروفسور رنسمان Runciman الذى يحدد وصول جستنيانى إلى القسطنطينية بتاريخ ٢٩ يناير ١٤٥٣م انظر:

The Fall of Constantinople", pp. 83-84 .

تم فتح البوابة من أجل جستنيانى. الذى تسبب فى ادماء قلوب الذين شاهدوا ما حدث ، فقد بدأوا يفقدون شجاعتهم شيئًا فشيئًا ، وأخذوا يفكرون فى الهرب بدلاً من الاستمرار فى المعركة.

شاهد القادة الأتراك ما يجرى، وأخذوا فى تسلق الأسوار بوتيرة أسرع، باثّين الشجاعة فى بعضهم البعض، ونجحوا فى دفع البيزنطيين إلى الوراء ، خلف مواقعهم السابقة ، واستولى الذعر على المدافعين ، وتحولوا للهرب باتجاه البوابة التى تم فتحها لجستنيانى ، وجعلوا منها منفذًا لهم، وأمل كل فرد فى انقاذ نفسه على الأقل.

عندما رأى (الإمبراطور) قسطنطين جنوده ينسحبون من أماكنهم ، نسى وضعه السياسى والاجتماعى ، وما ينبغى عليه أن يفعله بمقتضى سلطاته ، بمعنى أنه نسى أنه كان يجب عليه القتال حتى الموت، وفرّ خلف الباقين باتجاه البوابة، حيث كان كل فرد يناضل من أجل النفاذ منها، وسحق الجميع بعضهم البعض تحت الأقدام ولقى الإمبراطور حتفه بهذه الطريقة[١].

والحقيقة أنه من بين كافة الجنود المدافعين عن هذه المدينة التعسة، فإن اثنين فقط هما اللذان فكرا مليًا فى دينهما وشرفهما ، أكثر مما فكرا فى سلامتهما ، وفضلا أن يموتا ابان قتال الأعداء ، بدلاً من الفرار والهرب من مواجهتهم.

الأول كان ثيوفيلوس باليولوغس Theophilus Palaelogus[٢]، والثانى هو جيوفانى الدلماشى Giovanni Dalmata السلافي. وارتأى الاثنان أن التفكير فى الهرب هو شئ مخجل ومشين لرجل يتمتع بالروح العالية ، فاستمروا فى القتال حتى النهاية ، وماتا فى نبل، بع أن حوصرا بأعداد كثيفة من الأتراك. وبعد أن نجحا فى قتل العديد منهم.

١- عن مقتل آخر الأباطرة البيزنطيين. واختلاف الروايات حول ذلك . وكذلك الأشعار والمراثى التى قيلت بعد ذلك انظر:

نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٧١ : ليونارد الخيوسى، ص١٦٨ : خالكوكونديلاس، ص١٩٧ : دوكاس ، ص٢٧٢-و٢٧٥ .

٢- هو أحد أفراد أسرة باليولوغس ، كان مؤيدًا لمسألة الاتحاد الكنسى مع كنيسة روما، عنه انظر : ليونارد الخيوسى، ص١٢٤-١٥٣ .

وبعد وقت قصير من فراره إلى بيرا، سمع جستنيانى بنصر الأعداء، ونظراً لأنه لم يعد يشعر بالأمان هناك، فقد توجه منها نحو جزيرة خيوس، حيث مات بها، مع العار الذى لحق به بعد أن ترك المعركة فى لحظاتها الحاسمة ، أو مات مع جرحه الذى لازمه حتى الموت.

وهكذا فقد (جستنيانى) المجد الذى حظى به لفترة قليلة من الوقت، والحقيقة أن أكثر أوقاته حظًا وتوفيقًا، كانت إذا ما نال شرف الموت، متشبثًا بسيفه ، تحت أسوار القسطنطينية. وخلال الاندفاع القوى للأتراك عبر البوابة، قاموا بقتل حوالى ثمانين بيزنطياً ولاتينياً، وعندما دانت لهم السيطرة على قمم الأسوار، أخذوا فى مطاردة العديد من المدافعين عنها، الذين سبق أن قاوموهم عبر قذفهم بالأحجار، وجميع ما تطاله أيديهم.

بعد أن تمكن الأتراك من دخول المدينة بهذه الطريقة ، أخذوا يفكّرون فى كيفية نهبها وسلبها ، وبدأوا فى قتل كل من صادفهم ، وانتشروا فى كل مكان ، ووجدوا متنفساً لطبيعتهم الوحشية، واللاانسانية عبر ارتكاب كافة الأعمال التى تتصف بالقسوة والشبق الجنسى. دون أن يبدو احتراماً سواء إلى جنس أو عمر الذين تم الاعتداء عليهم(١).

بعد ذلك قاموا بقتل البعض منهم (الأسرى) ، بينما قاموا باغواء البعض الآخر لممارسة الفحش . ودفعوا بضعاف البنية ، وكبار السن إلى نير العبودية فقاموا بربطهم فى السلاسل مع الصغار أيضاً ، سواء أكانوا من الذكور أو الاناث من مختلف الطبقات الاجتماعية.

وعندما كانوا (الأتراك) يعثرون على أية فتاة جميلة، كانوا يتقاتلون من أجل الفوز بها ، وكثيراً ما نشب بينهم قتال حتى الموت من أجل الاستيلاء على الثروات والمقدسات الموجودة بالمدينة (٢).

استمر الجيش التركى، الذى تألف من عدة قوميات ، ومختلف العادات واللغات فى سلب المدينة التعسة لمدة ثلاثة أيام. ولم يقترف هؤلاء الوثنيين سوى الأعمال الشريرة . وامتدت أيديهم إلى كنيسة الحكمة المقدسة. ذلك العمل الرائع للإمبراطور جستنيان Justinian، وبعد أن قاموا بنهبها والاستيلاء على كميات كبيرة من الذهب والفضة، اشتركوا فى ارتكاب الكثير من الموبقات والأعمال القذرة والكريهة داخلها ، جاعلين منها ماخوراً عاماً، واسطبلاً لخيولهم(٣).

١- انظر أيضًا المصادر التاريخية المعاصرة: نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٧٦ : ليونارد الخيوسى، ص١٧٠ .

٢- انظر أيضاً: دوكاس ، ص٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩، ٢٨٢ .

٣- انظر. ليونارد الخيوسى، ص١٦٩-١٧٠ .

كما استولوا على الذخائر المقدسة للقديسين من هذه الكنيسة، ومن باقى الكنائس، حيث قاموا بطرحها وسط الشوارع والطرقات ووطئها بالاقدام، حتى يقوم كل من يعبرون الشوارع بسحقها تحت أقدامهم، كما قاموا باحراق كافة تماثيل السيد المسيح وحوارييه، قبل تحطيمها وتحويلها إلى قطع صغيرة[١].

وقع فى أيديهم (الأتراك) الكثير من الذهب والفضة على نحو مثير للدهشة . ومن المؤكد أن ارادة الرب كانت ترى أن هذه الثروات كان يجب أن تنفق فى عمليات الدفاع عن المدينة. وهكذا فإنها كانت ستصبح ذات فائدة قصوى لأصحابها ولبلدهم. يا لها من طريقة للبخل ، عندما كانوا فى حاجة إليها، لم يقوموا بانفاقها ، لكنهم فكروا فقط فى تكديس الثروات، ثم ماتوا جوعًا وسط ثرواتهم الوفيرة[٢].

استمرت عمليات السلب والنهب فى المدينة لمدة ثلاثة أيام، بعدها لم يتبق بها شئ سوى عمليات استرقاق مواطنى القسطنطينية البائسين، وقام (السلطان) محمد بجلبهم إلى معسكره، وكما كان قد وعد وزراءه وباقى قواده، أمر بتقطيع بعضهم إربًا اربًا من أجل التسلية والترفيه[٣].

١- انظر ، دوكاس ، ص٢٧٦ .

٢- هناك العديد من الاشارات التى تدل على تقاعس سكان القسطنطينية عن بذل المساعدة المادية للإمبراطور قسطنطين الحادى عشر من أجل حماية القسطنطينية من ذلك ما ذكره مؤرخ الحصار العثمانى، نيقولو باربارو عن تقاعس البيزنطيين عن حمل العديد من الستائر الواقية النقالة Manetlets لوضعها عند الأسوار ذات الفتحات العلوية، التى يطلق فيها النيران فى أعلى الأسوار البرية. وطلب البيزنطيون الحصول على ثمن ذلك العمل مقدمًا غير مدركين خطورة الموقف ، المصدر السابق ، ص١٦٥ . على أن الاشارة الأكبر التى تدل على لا مبالاة وخيانة بعض البيزنطيين لثقة الإمبراطور تمثلت فى مانويل جاجاروس Manuel Jagarus ونيوفيتوس Neophytus كاهن جزيرة رودس ، اللذان تسلما مبلغًا كبيرًا من الإمبراطور من أجل إنفاقه على عملية ترميم الأسوار ، لكنهم قاموا باخفائه لمصلحتهم، حيث عثر عليه الأتراك العثمانيين مخبأ فى أحد الجرار بعد اقتحامهم للقسطنطينية.

عن ذلك انظر المصدر التاريخى الوحيد الذى ذكر تلك الواقعة ، ليونارد الخيوسى، ص١٥٧-١٥٨ وانظر أيضًا المراجع التالية: . kielty, op. cit, p. 103-104

صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص٢٦٣-٢٦٤ . . Babinger, Op. cit, p. 118

٣- لم يرد فى باقى المصادر التاريخية المعاصرة ، البيزنطية واللاتينية والعثمانية، أن قام السلطان محمد الفاتح بقتل الأسرى البيزنطيين أو اللاتين من أجل التسلية. بل على العكس تنكر المصادر أن العثمانيين كانوا حريصين على حياة الأسرى من أجل بيعهم فى أسواق العبيد. كما أن السلطان الفاتح قد إفتدى العديد منهم من أيدى جنوده الأتراك.

وتم إحضار كير لوكاس Kyr Lucas(١)، الذى كانت له – فى الأوقات السعيدة السالفة – شرف ومكانة عالية فى بلاط الإمبراطور. وعندما رأى لوكاس ابنه الأكبر يُقتل أمام عينيه، والاحتفاظ بالآخر من أجل التسرية عن (السلطان) محمد، حصل على موافقة بأن يقوم بشنق نفسه(٢).

تمت معاملة الأجانب بنفس هذه الطريقة الوحشية، وكانوا قد توقعوا لأنفسهم نهاية سيئة، ما لم يوافقوا على افتداء أنفسهم من يدى أعدائهم بثمن باهظ.

أمّا الكاردينال الروسى ايزيدور Isidore ، الذى وصل إلى القسطنطينية قبل حدوث الحصار بوقت طويل كمبعوث من البابا نيقولا الخامس Nicholas V، فقد خطّط للهرب لدى سقوط المدينة . فقام بارتداء أسمال بالية، وسقط فى أيدى بعض الجنود المرتزقة ، الذين لم يتعرفوا على هويته (٣)، فقاموا باطلاق سراحه مقابل بعض الاسبريات Aspri، وكان ذلك هو اسم العملة التركية.

بعد سقوط القسطنطينية ، قام سكان بيرا، الذين احتموا بالجنود الجنوية، بالقاء أسلحتهم، وقاموا بارسال السفراء إلى (السلطان) محمد لكى يقوموا بتسليم المدينة إليه، ويطلبون منه الصفح(٤).

وعدهم محمد بذلك أول الأمر، لكنه هاجم بيرا كما لو كانت عدوة له، حانثًا بالقسم الذى سبق أن أبداه لهم. وقام بالاستيلاء عليها، واسترقاق ابنائهم ، ونسائهم ، وكبار السن منهم ، وأمر بقتل صغار السن من السكان، وهدم الكنائس والقصور ، والمنازل والأسوار، باختصار لم يبق شئ على حاله(٥).

وبعد سقوط بلاد اليونان فى قبضته . عاد محمد إلى القسطنطينية منتصرًا ، حيث جعل منها عاصمة لامبراطوريته ، ثم قرر مغادرتها بعد استتباب الأمور تمامًا بها.

١– هو القائد العسكرى الأعلى، لوكاس نوتاراس.

٢– لم يقم نوتاراس بشنق نفسه . بل تم قطع رأسه تنفيذًا لأوامر السلطان الفاتح .

٣– عن ذلك انظر: خالكوكونديلاس، ص١٩٧ .

٤– عن ذلك راجع : ليونارد الخيوسى، ص١٧٤ .

٥– لم يقم محمد الفاتح بقتل صغار السن من الجنوية سكان بيرا، لكنه أمر فقط بهدم أسوار المدينة. عن حقيقة ما حدث بين محمد الفاتح والسكان الجنوية فى بيرا ، إرجع إلى رواية البوبستا الجنوى فى بيرا ، جيوفانى لوميلينو ، الذى ذكر ما جرى بالتفصيل ، انظر ما يلى، ص ٣٣٧–٣٤٥ .

جورجي دولفين

Zorzi Dolfin

Cronaca, ff. 313-322

(Selections)

مختارات

كيف جرى تدمير القسطنطينية ، وما هى الطريقة التى دمرّت بها

سوف أقوم الآن بوصف الطريقة التى دمرت وخربت بواسطتها مدينة القسطنطينية مستمداً تفاصيل ذلك من المؤرخين الذين شهدوا هذا الحدث . لأن هناك اختلاف كبير بين ما تم تسجيله عن شهود العيان ، وتلك الروايات التى اعتمدت على الأقاويل والشائعات.

لقد تمت رواية ما حدث بشكل رائع بواسطة، المبّجل ، أسقف ميتيلين[1] ، الذى كان موجوداً ضمن حاشية كاردينال سابينا[2]، الذى تم أسره، ثم الافراج عنه بعد دفع الفدية.

كذلك رويت الأحداث بواسطة فيليبو دا ريمانو Filippo da Rimano القنصل الموجود فى كورفو Carfu.

لكننى فى البداية سوف أصف قوة وكفاءة السلطان العثمانى محمد (الفاتح) ، كما صوّرها السيد البندقى جياكومو لانجستو Giacomo Langusto، لكى أبيّن كيف كان العالم المسيحى بأكمله يخشى محمد (الفاتح) وأسلافه .

«كان السلطان التركى العظيم محمد، شاباً يافعاً فى السادسة والعشرين من عمره [3]، ذا طلعة بهية ، وقامة معتدلة، وكان ماهراً فى استخدام الأسلحة. يبعث مظهره الخارجى على الخشية، والخوف ، أو بالأحرى على الاحترام، قليل الضحك ، حذر فى أحكامه ، متصفاً بالكرم الشديد.

١- هو ليونارد الخيوسى، أسقف ميتلين ، الذى عاصر الأحداث ، وكتب روايته عما حدث فى تقرير قام بتقديمه إلى البابا نيقولا الخامس فى أغسطس ١٤٥٣م.

عن رواية ليونارد الخيوسى انظرما سبق، ص١٢١-١٧٥ .

٢- هو الكاردينال ايزيدور Isidore الذى وصل إلى مدينة القسطنطينية فى فبراير ١٤٥٢م مبعوثاً من البابا نيقولا الخامس لاقرار الاتحاد الكنسى، وهو ما حدث فى كنيسة أيا صوفيا فى الثانى عشر من ديسمبر ١٤٥٢م . سقط ايزيدور أسيراً فى أيدى العثمانيين ، ونظراً لانهم لم يتعرفوا عليه ، فقد أطلقوا سراحه مقابل فدية بسيطة. عن الكاردينال ايزيدور ودوره ، انظر ما سبق ، ص١٢٢، هامش (١) .

٣- اختلفت الروايات حول عمر السلطان محمد الفاتح لدى فتحه مدينة القسطنطينية فعلى حين يذكر دولفين أنه كان في السادسة والعشرين، فإن تيدالدى يذكر أن الفاتح كان في الثالثة أو الرابعة والعشرين، انظر ما سبق، ص١١٩ .

لقد أظهر قدرة كبرى على العناد ، والتشبث بطموحاته، واتصف بالشجاعة فى كافة الظروف ، كما أنه تاق لمعادلة مجد الاسكندر الاكبر .

وكان يتم قراءة التاريخ الرومانى، وتواريخ الأمم الأخرى ، فى مجلسه بشكل يومى، بواسطة رفيقه المسمى سيرياك الانكونى Cyriac of Ancona، وكذلك بواسطة شخص ايطالى آخر.

وطلب منهم (السلطان الفاتح) أن يقرأوا له لايرتوس Laertius(١)، وهيرودوت Herodotus(٢)، وليفى Livy(٣)، وكونتيوس كورتيوس Quintus Curtius.

١- لم أجد خلال فترة اعداد هذا الكتاب أية معلومات عن كلاً من Laertius Quintus Curtius، حتى إننى استعنت بقاموس Oxford Classical Dictionary, N.G.L. Hammond & H.H Scullard (eds.), Second Edition , Oxford, 1970 .

ولم أجده يقوم بتعريف أيًا منهما .

٢- هو هيرودوت الهاليكارناسى قام برحلات عديدة. فزار مصر، وأبحر فى النيل حتى أسوان . زار برقة وغزة وصور . وأبحر فى نهر الفرات حتى بابل . استمد الكثير من الحقائق التى ذكرها من مشاهداته الخاصة ، وعبر روايات الآخرين أطلق عليه شيشرون لقب «أبو التاريخ». كان هيرودوت أول من وضع كتاباً محكم الأسلوب، سهل القراءة. ويعتبر ذخيرة من الأساطير والخرافات الشعبية اليونانية والشرقية، وهو يقارن فى هذا الشأن بكتب الرحالة العظام فى العصور الوسطى أمثال ماركو بولو Marco Polo وابن بطوطه . وشكّك الكثيرون فى العديد من رواياته خاصة عن مصر . عن ذلك انظر: جورج سارتون، تاريخ العلم، ج٢، الفصل الثانى عشر، ترجمة محمد يوسف نجم، القاهرة ، ١٩٩١م، ص١٥٤-١٩٥ : اسحق عبيد، معرفة الماضى من هيرودوت إلى توينبى، القاهرة، ١٩٨١م، ص٩

٣- يعد ليفى ٥٩ ق.م - ١٧م أشهر المؤرخين فى العصر الأغسطى . كان ينتمى إلى أسرة عريقة . أصبح المؤرخ الرسمى لروما . لم يؤلف سوى كتاب واحد ضخم، وقف عليه حياته، كلها يحكى تاريخ روما منذ تأسيسها حتى زمانه. كانت المكاتبات والوثائق الرسمية فى متناول يده وأخلص لجمع السجلات الباكره واعادة ترتيبها حتى يكتب تاريخاً متكاملاً انطلاقاً من نظرية السمو الرومانية على باقى الأمم .

يؤخذ على ليفى عدم فهمه لفلسفة التاريخ. وإنما كان يختار من الوقائع ما يخدم أغراضه فضلاً عن تميزه لطبقة السناتو. ومع هذا فإنه مصدرنا الوحيد عن كثير من فترات عصر الجمهورية عن ذلك انظر: عبد اللطيف أحمد على، مصادر التاريخ الرومانى، القاهرة ، ١٩٧٠م، ص١٥-١٦ : جورج سارتون، المرجع السابق ، ج٦ ، الفصل الرابع والعشرين، ترجمة أحمد فؤاد الأهوانى، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٧٠- ٧٤ .

بالإضافة إلى وقائع تاريخ البابوات والأباطرة ، وملوك فرنسا ، واللومبارد وكان (محمد) يجيد ثلاث لغات: التركية واليونانية والسلافية».

«لقد بذل جهداً كبيراً ليستعلم عن الموقع الجغرافي لإيطاليا، والأماكن التى وصل إليها أنخيسيس Anchises(١)، واينياس Aeneas(٢)، وانتينور Antenor(٣). والأماكن التى يقع بها مقر البابا والإمبراطور. وكذا موقع العديد من الممالك الأوربية ، وقام بتحديد ذلك على خريطة توضح ممالكه وأقاليمه .

على أنه لاشئ مما قام بدراسته ، يبعث فى نفسه السعادة البالغة ، ويشبع شغفه أكثر من دراسته لجغرافية العالم. ودراسة فن الحرب . وكانت لديه رغبة مستعرة نحو الحكم . بينما كان حكيماً ومتعقلاً ، ويستعلم جيداً حول ما ينوى الاقدام عليه من مشاريع .

١- أنخيسيس Anchises. ينتمى إلى أسرة ذات أصل ملكي، فهو ابن ملك الداردانيين Dardanians كابوس وأمه هى ثيميس. هو والد اينياس من أفروديتى التى تخفّت فى هيئة ابنة الملك الفروجى «اوتريوس Otreus»، ونتيجة لعدم استطاعته كتمان ما طلبته منه الآلهة أفروديت ، أصيب بصاعقة جعلته بلا حول ولا قوة. وعند سقوط طروادة ، حملة ابنه اينياس فى رحلته للبحث عن مكان يأويه، مات ودفن فى صقلية.

انظر: هاو وهارر، معجم الاعلام والأساطير اليونانية والرومانية ، ترجمة أمين سلامة، ط١ ، القاهرة ١٩٥٥م، ص٤٩ .

٢- اينياس Aeneas، أخذ أبرز القادة الطرواديين بعد هكتور . وحل محله بعد مصرعه فى الحرب ضد الاغريق ، وحين سقطت طروادة هرب منها باحثاً عن مكان يأويه، ظل يتنقل من بلد إلى بلد متحملاً الكثير من المشاق والصعاب حتى وصل إلى الساحل الغربى لإيطاليا ، وعند نهر التيبر أدرك أنه وصل إلى المرفأ الذى حبته به الآلهة بعد سلسلة من الأحداث تزوج اينياس من لافينيا ابنة الملك لاتينوس وأسس مدينة لافينيوم تخليداً لاسمها ، وظل يحكمها لعدة سنوات ، بعد موت اينياس جرى تحويله إلى إله، حيث نقل إلى السموات.

وهو بطل الاينيادة Aeneid الشاعر فرجيل ، حيث صوّره الشاعر فى صورة رجل تقى عادل، ومحارب شجاع ، ورجل القضاء والقدر الذى لايقف أمامه شئ دون تحقيق رسالته الإلهية.

انظر: هاو وهارر، المرجع السابق، ص٨٠-٨١ .

٣- انتينور Antenor، أحد مشاهير القادة الطرواديين، عرف بحكمته وعدالته ، كان من الذين نادوا بعودة «هيلينا» إلى ديارها وانهاء الحرب مع الاغريق . وقع فى أسر الاغريق عندما استولوا على طروادة . وبعد أن قاموا باطلاق سراحه أبحر إلى تراقيا ومنها إلى ايطاليا ، حيث أسس هناك مدينة باتافيوم Pa-tavium. انظر هاو وهارر، المرجع السابق، ص٤٨ .

هكذا كان الرجل ، وهكذا كان يفكرّ ، فماذا كنا سنفعل – نحن المسيحيون– ازاءه ».

«عندما قرر (السلطان الفاتح) مهاجمة القسطنطينية بقواته ، قام – بعناية– بتجهيز أعداد ضخمة من الذخائر والعتاد والقوات الحربية. ثم دعى لاجتماع مهيب مع كبار قادته ومساعديه. حيث عرض أمامهم كميات كبرى من الذهب والحلي الذهبية، واللآلئ ، وبعض النفائس الأخرى.

وبعد أن فرغوا من تناول الطعام ، أخبرهم بأنه سوف يقوم بمنحهم الذهب والنفائس ، وأنه قد نمى إلى علمه أن المسيحيين ، وبعض الذين قدموا الرشوة لهم، قد حاولوا اثناءهم عن حصار وغزو القسطنطينية . ذلك المشروع الحيوى بالنسبة لوالده مراد ، وله من أجل زيادة قوة ومنعة مملكتهم.

وكان (السلطان الفاتح) متأكدًا من أن القادة سوف يظهرون اخلاصًا كبيرًا له لدى تلقيهم هداياه ، بدلاً من تلقي هدايا المسيحيين.

وبالفعل ، نجح السلطان الفاتح فى الحصول على تأييدهم لخطته، وأقسم كل منهم على اتباعه ، ثم قام بصرف مستشاريه الكبار من خدمته ، أولئك الذين قالوا له بأنه من المستحيل عليه غزو القسطنطينية ، واختار بدلاً منهم مستشارين أصغر سنًا، وأكثر تحمسًا لرغبته ».

بعد ذلك ، بدأ فى جلب الكبريت، والملح الصخرى (نترات البوتاسيوم أو الصوديوم) وكمية ضخمة من النحاس . وقام بدفع أجر كبير لصانع المدافع الألمانى، بحيث يصبح تحت امرته ، وقتما وأينما يريد، من أجل صنع مدفع له (١). ولما كان المدفع ضخمًا ، وهناك صعوبة كبيرة فى نقله، فقد جري تفكيكه إلى عدة أجزاء. وهكذا كان من السهل نقله إلى المكان المقصود».

«كان (السلطان الفاتح) رجلاً يقظًا دائمًا، ويستطيع تحمل التعب والارهاق ، الحرارة الشديدة والبرد القارس ، فضلاً عن الجوع والعطش. كما تميز بعناده وعنفه فى مهاجمة

١– عن أوربان Urban صانع المدافع، وعن كيفية صنع المدفع العملاق، ونقله إلى مواجهة القسطنطينية. وكمية الدمار التى سببها لأسوار المدينة راجع ما سبق: ليونارد الخيوسى، ص١٤٥ ، هامش (١) ، خالكوكونديلاس ، ص١٨١ . وانظر أيضًا: نيقولو باربارو، المصدر السابق، ص١١٨–١٥٧ .

المسيحيين (البيزنطيين) . ولم يكن يسمح للخوف بأن يتسلل إلى قلبه من أى شخص كان. كما قام بقتل أخيه فى مدينة أدرنة، حتى لايشاركه فى حكم مملكته [١].

وقال بأن قيصر، وهانيبال لايقارنون به، أما الاسكندر ، ابن ملك مقدونيا ، فقد تمكن من اجتياح آسيا بقوات عسكرية أقل مما يمتلكه الآن من قوات.

أما الآن فإنه يقول «لقد تغير الزمان ، وأنه ينوى الزحف من الشرق إلى الغرب ، كما سبق وأن زحف الغرب ذات مرة باتجاه الشرق [٢]. ومن الآن يجب أن يكون فى هذا العالم امبراطورية واحدة . ودين واحد للجميع ، ولايوجد مكان آخر أفضل من القسطنطينية يمكن فيه تحقيق هذه الوحدة . وبفضل مساعدة هذه المدينة، يمكنه أن يقوم باخضاع كافة المسيحيين».

«هو رجل لايخضع لشهواته الجنسية . ويتميز بجديته ورصانته . ولايطيق أن يسمع عن أخبار الشراب والسكر فى شهر رمضان [٣]، ولايضع نفسه تحت رحمة أية متع أو مسرات ، فقط كان يتوق إلى المجد.

وتخضع المدينة التى يقوم بغزوها لقوانينه، ويقوم بأخذ أفضل شبّانها، واخضاعهم لعملية الختان، ثم يجعلهم يتبعوّن الدين الإسلامى[٤]. وزعم (محمد) أنه فقط لايخضع لأية قانون ، سوى أنه يعترف ويسلم بوجود إله أعظم، كما فعل أبوه من قبل.

١- كان السلطان مراد الثانى ، والد السلطان محمد الفاتح، قد تزوج قبيل وفاته من ابنة اسفنديار، Spentiar حاكم مدينة سنوب، وأنجب منها ولدًا بلغ عمره ثمانية أشهر لدى وفاة السلطان مراد.

ويذكر المؤرخ البيزنطى دوكاس أن محمد الفاتح بمجرد أن علم بوفاة والده مراد الثانى، أرسل حاجبه الرئيسى على بن افرينيز Evrenez لخنق الطفل الصغير وبعد ذلك قام محمد الفاتح بقتل حاجبه على، وتزويج زوجة أبيه إلى اسحق خادم أبيه، عن ذلك انظر ما سبق ، دوكاس ، ص٢١٤ .

٢- ربما كانت تلك اشارة إلى الحروب الصليبية التى قام الغرب الأوروبى ، بشنها على الشرق العربى منذ نهاية القرن الحادى عشر الميلادى، حيث تتابعت الحملات الصليبية حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى.

٣- هذه هى الاشارة الوحيدة فى المصادر اللاتينية والبيزنطية على عدم تناول السلطان الفاتح للخمور، والمسكرات. وإن كان دولفين قد قصر ذلك على شهر رمضان، وهو ما لايبدو منطقيًا.

٤- يقصد دولفين هنا استخدام العثمانيين لما اصطلح على تسميته بنظام الدوشرمة Devsherme. وهى اسم مصدر تركى مخفف، وتعنى الجمع والالتقاط ، حيث التقط العثمانيون الشبان من المناطق =

وعندما كان يقوم بالاستيلاء على أراض جديدة، كان يفكرّ بشكل ملىّ فى الرجال الذين سوف يتمكن من الحصول عليهم، أكثر من تفكيره فى الاستيلاء على قطعان الماشية، أو الأسلاب ذات القيمة.

وأخذ على عاتقه تربية أفضل الصبية، الواعدين والمبشرين بالخير، وتدريبهم على استخدام الأسلحة. ودعاهم بالانكشارية Janissaries الذين لم يكن يجرى جلبهم من تركيا ومنطقة الأناضول . بل تم جلبهم من بين أبناء البيزنطيين، وأبناء الأمم المجاورة.

وبهذا الخصوص ، فقد أظهر (السلطان الفاتح) تمسكًا بهذه السياسة ، كما لو كان يتمنى أن تسفر مجهوداته عن ايجاد جيل جديد من الشعوب .

«ولكى يعطى دليلاً على قوته ، فإننى أستطيع حصر المناطق الأوربية والأسيوية التى جمع بها قواته وتجهيزاته العسكرية الضخمة. وبالفعل، فعن طريق اضافة ميزة امكان الاحتفاظ بأسطوله البحرى فى القسطنطينية، فإنه اعتقد أن بإمكانه حكم العالم، وإذا ما قام بارسال أسطول إلى البحر الأسود، كما كان قد فعل من قبل، فسوف يجعل من نفسه سيداً على مونكاسترو Moncastro، ليكوسكومو Licoscomo ، وباقى منافذ نهر الدانوب Danube، وكذلك صولدايا Soldaia، وكافا Caffa[1]. وبقدر ما متد نهر تاناس Tanais [2]،

= الخاضعة لهم، وأدخلوهم إلى خدمة الدولة العثمانية. وبدأ تطبيق نظام الدوشرمة بعد توقف حركة المد العثمانى نتيجة لهزيمة أنقرة ١٤٠٢م، وتعذر توفير أعداد كبيرة من الأسرى لدمجهم فى الجيش العثمانى ، بعد اعتناقهم الإسلام، وإجراء عمليات الختان لهم، وبعد ذلك يجرى تعليمهم العادات الإسلامية ، واللغة التركية فى السراى، أو فى القرى التركية فى الأناضول وروميليا، وبعد ذلك يجرى توزيعهم حسب كفاءتهم فى الجيش العثمانى، وإن كانوا قد تركزوا فى فرقة الانكشارية، انظر : اينالجك ، ح، العثمانيون : النشأة والازدهار ، فصل فى كتابه «دراسات فى التاريخ العثمانى» ترجمة سيد محمد السيد، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٨٩ ، هامش (٢) وانظر أيضاً : . O.D.B, vol, 2, p. 1031

Dennis, " Some Notes on the Devshirme", in, BSOAS, 29, 1966 , pp. 64-78 .

١- كافا Caffa أو Kaffa هى مدينة تقع جنوب شرقى ساحل كريميا، ما بين المنطقة الممتدة من البحر الأسود وبحر أزوف، انظر : . O.D.B, vol . I, p. 1088-1089

٢- تانايس Tanais هو النهر المسمى تانا Tana أو دون Don، ويصب فى بحر أزوف ، كانت به مستعمرات تجارية بندقية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، انظر:

O.D.B, vol , 3, p. 2009- W.N. G. D, p. 338 .

وسيباستوبول Sebastopol[١]، والى الجنوب من ذلك يمكنه أن يستولى على أماستريس Amastris [٢] وسينوب Sinope[٣] وأميسوس Amisus[٤] ، وتريبولس Tripolis بالقرب من طرابيزون Trebizond.

وإذا ما قام بارسال سفنه غربًا ، فسوف يستولى على ليمنوس Lemnos [٥]، وميتيلين Mytilene[٦]، وجزيرة خيوس Chios[٧]، وإذا ما توغل جنوبًا فسوف يتمكن من الاستيلاء على رودس Rhodes وقبرص Cyprus، وإذا ما توجه غربًا من هناك فسوف يستولى على نجروبونت Negropont [٨]، وباقى مناطق البلوبونيز.

وتشتمل امبراطوريته الآن على أرمينيا ، وبيثينيا Bithynia [٩]، وتينيدوس

١- هى مدينة ساحلية تقع فى اقليم كريميا Crimea بأوكرانيا الحالية كان بها مستعمرات تجارية فى القرن الثالث عشر الميلادى . انظر : . O.D.B, vol . 1 , p. 1101

٢- مدينة في الأناضول تقع على ساحل البحر الأسود، استولى عليها الجنوية في القرن الرابع عشر الميلادي، حيث تكونت بها جاليات من التجار الجنوية، انظر: . O.D.B, vol . 1, p. 74-75

٣- هى ميناء تركى يقع على ساحل البحر الأسود. انظر: . W.N.G.D, p. 1120

٤- هى مدينة سامسون Samsun التركية الحالية على ساحل البحر الأسود. كان بها مستوطنات تركية وبيزنطية جنبًا إلى جنب فى القرن الرابع عشر الميلادى، انظر . O.D.B, vol. I, p. 78

٥- جزيرة فى شمال بحر ايجه تتحكم فى الطريق البحرى ما بين القسطنطينية وسالونيك ، كان الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر قد وعد بها جيوفانى جستنيانى إذا ما نجح فى صد الهجوم العثمانى على القسطنطينية تمكّن العثمانيون من الاستيلاء عليها عام ١٤٧٩م انظر: . O.D.B, vol , 2, p. 1205

٦- هى أهم مدن جزيرة ليسبوس Lesbos الواقعة شمال شرقى بحر ايجه . كان ليونارد الخيوسى كبير أساقفها حين توجّه العام ١٤٥٢م للقسطنطينية للمساعدة فى اقرار عملية الاتحاد الكنسى. انظر O.D.B, vol, 2 , p. 1219 .

٧- هى جزيرة تابعة للإمبراطورية البيزنطية تقع فى شرقى بحر ايجه . استولى عليها الجنوية عام ١٣٤٦م، ولم يستطع العثمانيون الاستيلاء عليها إلاّ فى العام ١٥٥٦م انظر: .O.D.B, vol . 1, pp. 423-424

٨- نجروبونت هى ايوبيا، جزيرة كبيرة فى بحر ايجه مقابل الساحل الشرقى لليونان، انظر: O.D.B, vol , 2 , p. 736 .

٩- اقليم يقع شمال غرب آسيا الصغرى فى مواجهة القسطنطينية انظر: O.D.B, vol, I, p. 292 .

Tenedos[١]، وقيليقيا Cilicia[٢]، وفريجيا Phrygia[٣]، ومضيق الدردنيل Hellespont، والبوسفور ، وسواحل البحر الأسود، حيث تغطى ممتلكاته مساحة ايطاليا مرتين .

«امتلأ ذلك الوحش الغاضب (محمد الفاتح) بالغرور لدى سقوط العديد من البلاد تحت قبضته، وهى التى أمدّته بالقوات المحاربة على البر وفى البحر. وإذا ما قام بالاستيلاء على القسطنطينية وحمايتها ، فإنه سوف يحصل على موقع حصين، وعلى ترسانة بحرية تحافظ على سفنه . وسوف يتمكن من تحقيق رغبته فى العبور من آسيا إلى أوربا، ومهاجمة أى شخص يمكنه الوصول إليه».

كيف اتخذ المدافعون عن القسطنطينية مواقعهم استعدادًا للهجوم التركى النهائى

تم تحديد المواقع حسب الطريقة التالية :

كان الحراس مسئولين عن البوابات المحددة لهم عند الأسوار . وعند البوابة الذهبية القريبة من البحر ، حيث كان هناك سور مزودج (سورين) ، كان يرابض أندرونيكوس كانتاكوزينوس Andronicus Cantacuzenus مع كاتارين كونتاريني[٤]، ومجموعة قوية من الشبان المدربين جيدًا .

١- هذا هو الاسم القديم لها، واسمها الحالي بوزجادا Bozcaada ، وهى جزيرة تركية تقع شمال شرقى بحر ايجه ، تحكى الأسطورة القديمة أنها كانت قاعدة عبر من خلالها الملك الفارسي اكسرخسز Xerxes إلى بلاد اليونان . انظر :

W.N.G. D, p. 167 , 1197 .

٢- اقليم يقع فى شرقى آسيا الصغرى، انظر :

O.D.B, vol , I, p. 462 .

٣- اقليم جبلى فى آسيا الصغرى بين سواحل بحر ايجه والهضبة الوسطى، له أهمية استراتيجية كبيرة انظر:

O.D.B, vol , 3, p. 1671 .

٤- انظر: نيقولو باربارو، المصدر السابق، ص١٠٩ ، وعن دور كاتارين كونتاريني البندقى فى حراسة البوابة الذهبية، انظر : Nicol "Byzantium and Venice", pp. 400,405 الذى يذكر أيضًا سقوط كاتاريني فى أسر العثمانيين، مع العديد من البنادقة مثل جابرييل تريفيزان وزكريا جريوني، انظر كذلك:

Bartusis, M,. The Late Byzantine Army . Arms and Socity , 1204-1453 , Philadelphia, 1992 p. 124 .

كما أشاد ليونارد الخيوسي ببسالة كونتاريني عند البوابة الذهبية، انظر ما سبق ، ص١٥٣ .

وعند بوابة بيجى Pighi، كان موقع نيقولو جويديلى Nicolo Guideli، وبرفقته باتيستا جريتى Battista Gritti . ذلك الرجل الذى اتصف بالشجاعة والروح العالية».

وعند بوابة القـديس رومـانوس St. Romanus، اتخـذ كل من حنا وأندرونيكوس كانتاكوزينوس John & Andronicus Contacuzenus موقعهما، وعلى الرغم من كبر سنهما، فقد وقفا بقوة وسط مستشارى الامبراطور(١).

وعند البوابة الإمبراطورية، كان هناك كل من هيرونومو مينوتو Hieronomo Minoto، البايل Baile الموجود آنذاك(٢). برفقة جان جورجى Zan Zorzi قنصل فيسنزا Vicenza(٣).

وعند بوابة كاليجاريا Caligaria، كان هناك ايمانويل جويديلى Emmanuel Guideli، بينما رابط ايمانويل باليولوغس Emmanuel Palaeologus عند بوابة زيلوبورتا Xel-oporta.

وعلى مسافة قريبة من بوابة شينيجون Cynegion، كان هناك جابريل تريفيزان(٤) Gabriel Trivisan، وتحت قيادته بحارة سفينتين من نوع الشينى، بالإضافة إلى جورجى دى نيقولو من دريفاستو Drivasto، رامى الأقواس الشهير.

وكان اليكسيو ديسيباتو Alexio Dissipato مرابطًا عند بوابة فاروس Pharos، وكان جوان بلاكو Zuan Blacho مرابطًا عند بوابة القديس ثيودسيوس، بينما كان ميتوخيتس باليولوغس(٥) Mitochites Paleaologus موجودًا عند بوابة بلوتاى Plutei، وكان فيلانثروبو Philanthropo موجودًا عند بوابة بلاتيا Platea وكان لوكاس نوتاراس Lucas Notares موجودًا عند البوابة الامبراطورية، بينما كانت البوابات الأخرى الموجودة بالأسوار البحرية، تحت حراسة رجال جديرين بالثقة.

١- تم نشر ثلاثمائة من اللاتين فى كامل عدتهم من أجل توفير الحماية لبوابة القديس رومانوس، انظر، نيقولو باربارو، المصدر السابق، ص١٥٠ .

٢- هو البايل البندقى جيروليمو مينوتو. قنصل الجالية البندقية بالقسطنطينية ابان الحصار العثمانى، عنه انظر: نيقولو باربارو، المصدر السابق، ص٩٣، ٩٤، ٩٧، ١٠١-١٠٢، ١١٤، ١٤٣-١٤٤ .

٣- مدينة فى اقليم فينيتو Veneto فى شمال شرق إيطاليا، انظر: W.N.G.D, p. 1295.

٤- انظر ليونارد الخيوسى، ص١٥٤ .

٥- قُتل برفقة أولاده فى عملية اقتحام القسطنطينية. انظر: خالكوكونديلاس، ص١٩٥ .

المعجزات التى سبقت سقوط القسطنطينية

لقد اضطربت أذهان ، وأفكار الناس نتيجة قسوة ووحشية المصير الرهيب الذى بدأت نذره فى الظهور تلك الأيام ، سواء فى السماء أم على الأرض، أو فى البحر .

فلعدّة أيام سابقة كان المحار الذى يتم جمعه من البحر، يقطر دمًا عند فتحه . وظهرت فى السماء العديد من ألسنة اللهب، والأضواء الساطعة ، فضلاً عن هزيم الرعد.

وخيّم الظلام ، وأبرقت السماء بالرعود والصواعق ، وعلى الأرض هبّت العواصف الهائلة ، وحدثت زلازل هددت بتخريب وتدمير المنازل(١) .

وبات من الواضح أن الدمار النهائى للعالم قد أصبح وشيك الحدوث . وانتشرت الاشاعات بأن الأفعى الهائلة قد حضرت ، لتنشر الخراب فى القرى. وتقوم بالقضاء على قطعان الماشية، وأسراب الأغنام.

وهكذا، فقد تخلّى الفلاحون عن محاريثهم ، وأهملوا محاصيلهم التى تم جمعها من الحقول، حيث قامت (الأفعى) بمهاجمة الفلاحين بواسطة أنفاسها النارية اللافحة.

١- لم يكن جورجى دولفين هو الوحيد الذى تحدث عن ظواهر غريبة سبقت سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين، فقد اتفق معه مصدر بيزنطى وحيد حول ذلك الأمر ، انظر:

Kritovoulus, op. cit, pp. 35 , 58-59

الذى ذكر «أنه حدثت أشياء تعذر تفسيرها وبدا كما لو كانت نذيراً سماوياً ، وحدثت زلازل غير عادية ، وبراكين ، فضلاً عن البرق، والصواعق ، وأضواء ساطعة فى السماء، والعواصف ، والسيول الجارفة، بالإضافة إلى تحرك غير عادى للنجوم من مكانها المعروف» . كما ذكر كريتوفوليس سقوط أيقونة السيدة العذراء على الأرض ابان طواف سكان القسطنطينية توسلاً للرب، ولم يستطع أحد رفع الأيقونة التى اكتسبت وزنًا وثقلاً غير عادى». كذلك أشار إلى الضباب فى سماء القسطنطينية ، الذى استمر فى الصباح الباكر حتى المساء. عن ذلك انظر أيضًا : صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص٢٦٢ ، ٢٩٥ .

متباهياً بنصره ، قال التركى المغرور بأنه الآن قد انتقم وأخذ بالثأر للاعتداء الذى تم على العذراء الطراودية ، فى معبد بالاس Pallas(١).

وبعد ذلك ، بدأت عمليات البحث عن جثث القتلى، بناء على أوامر السلطان، حيث تم العثور على رأس الامبراطور قسطنطين(٢)، واحضارها إلى السلطان، الذى تقدم، وحدّجه بنظرة قاسية ، ثم قال للحشد المحيط به :

«هذا هو الشئ الوحيد الذى كان ينقصنا لجعل النصر الذى حققناه يتم بشكل كامل، الآن، وخلال تلك اللحظة السعيدة والسارة من عمر الزمان . لقد امتلكنا ثروات البيزنطيين، واستولينا على امبراطوريتهم، وتم اقتلاع دينهم بشكل تام.

لقد كان أسلافنا متلهفين على تحقيق ذلك، فلنبتهج جميعاً الآن ، لأن شجاعتكم هى التى أخضعت تلك المملكة لنا».

١- يكشف هنا دولفين عن ثراء خلفيته التاريخية، فهو يتخيل أن السلطان العثمانى محمد الفاتح القادم من آسيا الصغرى، حيث مدينة طروادة القديمة ، قد عاد بعد آلاف السنين ليثأر لكاسندرا التى اعتدى عليها أجاكس ابن أويليوس فى معبد بالاس - منيرفا ليلة الاستيلاء على مدينة طروادة .

انظر أيضاً : ليونارد الخيوسى، ص١٢٥، حيث يستخدم أيضاً نفس الأسلوب البلاغى ، الذى يعتمد على خلفية تاريخية ثرية، حيث يذكر «.. هبّت عاصفة من طروادة ، وقامت بابتلاع مدينة القسطنطينية » انظر أيضاً ، خالكوكونديلاس ، ص١-٢ ، الذى يذكر «... إن الدمار الذى حاق بالبيزنطيين يعد مساوياً لسقوط طروادة Troy وغزوها بواسطة البرابرة ، كما هو حادث هنا بالفعل ، ولهذا فقد اعتقد الرومان أن هذه الحادثة التى حلّت بهم، جاءت بمثابة عقاب على سقوط طروادة منذ وقت بعيد».

٢- عن مقتل الامبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر، انظر ما سبق، ص٢٧٢-٢٧٥ .

رسالة أنجيلو جيوفانى لوميللينو

Angelo Giovanni Lomellino

البودستا (القنصل) الجنوى السابق فى بيرا ، إلى أخيه

أخي النبيل والمحبوب ...

أرجو أن تصفح عنّي ، لأنيّ لم أكتب إليك من قبل ، وحتى فى هذه الرَسالة، فانني لا أقوم بالرد على رسائلك .

أنني أشعر فى الوقت الحالى، بأنني ميّت، أكثر من شعورى بأنني ما زلت على قيد الحياة.

لابد أنك سمعت بما حدث – إنني لعلى يقين من ذلك– من سقوط غير متوقع لمدينة القسطنطينية فى يد السلطان التركى، فى يوم التاسع والعشرين من الشهر الماضى. فى يوم كئيب ، لأنه بدا فيه لنا، أن انتصارنا كان مؤكداً.

قام السلطان بمهاجمة القسطنطينية من جميع جوانبها طوال الليل. وعندما حلّ الصباح تسلّم جيوفانى جستنيانى Giovanni Giustiniani (١) الـ ... *. وترك البوابة (التى كان يقوم بالدفاعه عنها) واتجه ناحية البحر.

ودخل الأتراك المدينة من نفس البوابة، فلم يجدوا أية مقاومة. وكانت تلك هى النهاية، فلم يكن المرء ليتوقع أن تصبح المدينة ، كمنزل وحيد لاقيمة له، وأنني أومن بشدة ، أن ذلك قد حدث نتيجة لأثامنا وخطايانا(٢).

يمكنك الأن– أخى العزيز– أن تدرك أحوالى، فقد منحنى الرب القوة لكى أتحمل ما جرى من أحداث .

١– عن الدور الذى قام به جيوفانى جستنيانى فى الدفاع عن القسطنطينية. راجع ما سبق تيدالدى ، ص١١٠ هامش (١) .

* هناك فراغ فى النص الأصلى. وهو يصف اصابة جستينانى بجرح عبر الكلمات Cepit in... men-tum (الترجمة الإنجليزية) .

٢– سبق أن وصف رجل الدين، ليونارد الخيوسى سقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين بأنه نتيجة لما ارتكبه سكان القسطنطينية المسيحيون من آثام وخطايا ، ارجع إلى ص١٢٥، وكذلك الأمر مع المؤرخ البيزنطى دواس، الذى ارجع سقوط المدينة لآثام وخطايا سكانها المسيحيين، ارجع إلى ص٢١١، ٢٩٧ .

وها هو البودستا الجنوى لمدينة بيرا، يبرر سقوط القسطنطينية لنفس السبب، وفى تصورى أن توجد النظرة الدينية (ليونارد الخيوسى) والنظرة العلمانية (دوكاس ولوميللينو) لتفسير ما حدث إنما مرجعه الأساسى إلى فداحة المصاب ، .. وهول الكارثة .

لقد تركوا (الأتراك) المدينة لعمليات السلب والنهب لمدة ثلاثة أيام [١]. ولايمكنك أن تدرك حجم المعاناة والآلام التى مررنا بها . ولايمكن حصر ما سلبوه منها.

لقد أرسلت للمدافعين عن المدينة بجميع المرتزقة الذين جاءوا من جزيرة خيوس، والآخرين الذين تم ارسالهم من جنوا[٢]، فضلاً عن عدد كبير من السكان القاطنين هنا ، ومعهم ابن أخى امبريالى Imperiali وعدداً من العاملين فى مؤسستى التجارية الخاصة.

ومن جانبى ، فالرب يعرف اننى فعلت كل ما كان ينبغى علىّ فعله[٣]، لأننى كنت أعلم جيداً أنه بمجرد سقوط القسطنطينية، فإن هذا المكان (بيرا) ، سوف يسقط أيضاً.

لقد قام الأتراك بغزو معظم أنحاء مدينة القسطنطينية. وتمكن العديد من الأشخاص الذين روّعوا من الوصول إلى بيرا ، بينما تمكن بعض التجار والمواطنين الآخرين من الهرب، والتقى معظمهم بعائلاتهم، وتم أسر البعض فى حواجز من السياج والأوتاد الخشبية [٤].

ونظراً لشعور قباطنة السفن بالخوف ، فقد هربوا بسفنهم دون انتظار لأحد [٥]. وبصعوبة شديدة استطعت جلب بعض من كانوا فى الأسر، ... لايمكنك أن تدرك كم هو مشهد رهيب .

١- عن منح محمد الفاتح جنوده مهلة ثلاثة أيام للحصول على الغنائم فى المدينة راجع: ليونارد، ص١٦٢؛ ريشيريو، ص٣١٤ .

٢- يقصد لوميللينو هنا الجنود الذين حضروا إلى القسطنطينية برفقة جيوفانى جستنيانى، الذى كان بصحبته ٧٠٠ جندى . كان مصدرهم جزيرة جنوا التى أرسلت ٤٠٠ جندى، وجزيرتى خيوس ورودس اللتان أرسلتا ٣٠٠ جندى. عن ذلك انظر:

Doukas, Op. cit, pp. 211 , 309 . not . 262 .

٣- هاجم ليونارد الخيوسى، الجنوى الأصل، موقف لوميللينو البوستا الجنوى على مدينة بيرا، واتهمه بالتقاعس عن نصرة القسطنطينية. والاستسلام لمطالب محمد الفاتح حول ضرورة هدم أسوار بيرا، ومصادرة ممتلكات التجار الجنوية الفارين، وضرورة تسليم مفاتيح المدينة له .

وكان ليونارد – فى روايته للأحداث– يشعر بشكل عام بالمرارة من مواقف الجنوية المتخاذلة ، والتى انطلقت من مصالحهم الاقتصادية لا الدينية. انظر : ليونارد ، ص١٤٨ ، هامش (١) ، ص١٧٤ .

٤- انظر: دوكاس ، ص٢٧٩–٢٩٨ .

٥- انظر: نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٧٩–١٨٠ : دوكاس ، ص٢٨٤ .

وبالنظر إلى الموقع الذى كنت فيه، فقد فكرّت أنه من الأفضل لى أن أفقد حياتى، عن أن أقوم بالتخلى عن المدينة (بيرا) ، لأننى إذا ما رحلت عنها، فسوف تسقط فى الحال.

ولهذا، فقد قررت ، أن اتخذ خطوات من أجل تأمينها . وأرسلت سفرائى فى الحال للسلطان ، مع هدايا فاخرة [١]، ليخبروه بأننا نمتلك معاهدة وديّة بيننا ، وليقوموا بسؤاله عما إذا كان يريد لهذه المعاهدة أن تمتد لفترة جديدة ، لكنه لم يمنحنا أية اجابة.

عندما تم جرّ السفن إلى منطقة تمكنت خلالها من فرد أشرعتها ، أرسلت رسالة إلى القباطنة أخبرهم أنه، لأجل محبة الرب، ومن باب الشفقة ، يجب عليهم أن يمكثوا إلى اليوم التالى، لأننى كنت متأكداً أننا سوف نصل إلى اتفاق مع السلطان (محمد الفاتح) ، لكن ذلك لم يحدث ، وأبحرت السفن فى منتصف الليل [٢].

وعندما علم السلطان فى الصباح برحيل السفن، أخبر سفراءنا أنه يريد أن تفتح المدينة أبوابها له. وأمكن لنا – بصعوبة– الحفاظ على رعايانا وممتلكاتنا ، وذكر السلطان بأننا قد فعلنا كل ما باستطاعتنا من أجل انقاذ القسطنطينية . وكنّا قد تمكنّا من منعه من الاستيلاء عليها فى اليوم الأول من هجومه على المدينة.

لقد كان السلطان يقول الحقيقة بالفعل، لقد كنّا نتعرض لوضع خطر للغاية، ومن أجل تحاشى غضبه، فقد تمّ بما يريد ، كما سترى فى هذا المظروف المغلق، وحدث كل شئ باسم السكان [٣].

لقد ارتأيت أنه من الأفضل لنا ألاّ نشترك فى أية أعمال عدائية. وبعد ذلك قمت بزيارة للسلطان، الذى حضر إلى هنا مرتين .

انتشر الدمار فى كل مكان نتيجة لاقتحام المدينة، كما تم تدمير الأبراج التى كانت موجودة أعلى الأسوار. وطمرت العديد من الخنادق والقنوات. وتم طرح برج الصليب المقدس أرضاً [٤].

١– انظر ريشيريو، ص٣٢٢ .

٢– انظر باربارو، المصدر السابق، ص١٨٠–١٨١ .

٣– انظر جياكومو تيدالدى ، الذى ذكر قيام سكان بيرا بتسليم مفاتيح المدينة للسلطان محمد الفاتح، وكان مجموع من بقى فى بيرا، آنذاك حوالى ستمائة رجل، انظر، ص١١٦ .

٤– انظر ليونارد الخيوسى ، ص١٤٨ . الذى يهاجم بوبستا جنوا، والتجار الجنوية فى بيرا، ويتهمهم بالحرص على سلامتهم ومصالحهم الشخصية، وتناسى التعليمات التى وصلتهم من المدينة الأم، جنوا. =

ودمرت أجزاء من أسوار الحصون الأمامية Barbicans، وجزء منها. بينما ظلّت الأسوار البحرية كما هي .

لقد استولى محمد الفاتح على جميع مدافعنا وأمر بجمع الأسلحة ووسائل القتال من أيدى المواطنين . كما أمر أيضًا بكتابة قوائم بالممتلكات التابعة للتجّار ، والمواطنين الذين رحلوا، وتركوها خلفهم، وقال: «إذا ما عادوا فسوف يتسلمون ممتلكاتهم ، أما إذا لم يعودوا فإنها ستصبح من حقّى».

ونتيجة لهذا، فقد أعددنا خطابًا لإرساله إلى جزيرة خيوس . من أجل إخبار جميع التجار والسكان الجنوية الذين رحلوا بأن فى امكانهم العودة. وأنهم إذا ما عادوا فسوف يتسلمون ممتلكاتهم مرة أخرى .

وقمنا بإرسال انطونيو كوكا Antonio Cocca، برفقة رسول السلطان، حيث قاما باخبار كافة التجار كيف قام التجار النبادقة بترك جميع مخازن بضائعهم هنا.

وبالنسبة لمواطنينا الذين هربوا برفقة عائلاتهم وممتلكاتهم ، فإن هذا الخطاب يخبرهم أنهم- وبنفس الطريقة- يمنكهم العودة ، والتجارة فى هذه المنطقة.

فى تلك الليلة عاد السلطان إلى مدينة أدرنة ، وهناك قام باستدعاء ، خليل باشا وأمره بدفع مبلغ كبير من المال[1].

وفى ذلك الوقت أيضًا ، أمر السلطان بضرب عنق البايل (البندقى) وابنه ، بالإضافة إلى سبعة رجال من البنادقة، وكذا قنصل القطلانيين Catalans مع خمسة أو ستة من رجاله[2].

= كذلك ينتقد ليونارد الخيوسى جنوية بيرا لسماحهم للسلطان الفاتح بهدم برج غلطه، الذى يرتفع فى أعلاه صليب السيد المسيح. انظر ما سبق، ص١٧٤ .

١- قام القائد العسكرى الأعلى البيزنطى لوكاس نوتاراس بتسليم السلطان محمد الفاتح رسائل التأييد والمساندة التى قام الوزير العثمانى خليل باشا بارسالها للامبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر. وهو الأمر الذى أوغر صدر السلطان الفاتح ضد وزيره خليل . فأمر بإرساله إلى مدينة أدرنة ، وتنفيذ حكم الاعدام به، راجع: ليونارد الخيوسى، ص١٧٢ خالكونديلاس، ص٢٠١-٢٠٢ .

٢- أمر السلطان محمد الفاتح بضرب عنق كل من قنصل البنادقة جيروليمو مينوتو، وكذلك قنصل القطلان بالقسطنطينية بيرى جوليا Pere Julia، الذى كان على رأس الجالية القطالونية بالمدينة ، وساهم فى الدفاع عنها، عن ذلك انظر:

نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٨١ ، هامش (٢) ليونارد الخيوسى، ص١٧٢ ، الذى يذكر أن الفاتح أمر بقتل القنصل البندقى وابنه ، والقنصل القطلانى مع اثنين من أبنائه.

... الآن فقط، يمكنك أن تدرك مدى الخطر الذى أحدق بنا .

وبحث (السلطان) عن موريتزويو كاتانيو Maurizzio Catanio، وباولو بوشياردى Paolo Bocchiardi، اللذان اختفيا عن الأنظار (١). وأرسل أحد ضباطه لحراسة القصر. بينما أرسل الضباط الآخرين نحو القسطنطينية مع حوالى ألف وخمسمائة من الانكشارية .

كما أرسل أحد ضباطه إلى جزيرة خيوس كما قيل ، للمطالبة بضريبة العبور التى تم فرضها ، كما قيل أنه سيرسل ضابطًا من لدنه إلى هنا (بيرا) ، كما أنه ينوي إرسال ضابط إلى ميناء كافا أيضًا ، وكذلك إلى كافة الموانئ الكبيرة الأخرى. كما أن السلطان طالب الحاكم المستبد Despot لصربيا بتسليمه الأراضي التى آلت إليه عن والده . والتى كان يرفض تسليمها له(٢).

خلاصة القول، أصبح السلطان فى منتهي الصلافة والغرور بعد نجاحه فى الاستيلاء على القسطنطينية . بحيث نظر إلى نفسه بوصفه سيد العالم أجمع وأقسم على رؤوس الاشهاد أنه- وقبل مرور عامين فقط من الآن- سوف يستولى على مدينة روما (٣).

إننى أقسم بربنا، الوحيد والحقيقى أنه إذا لم يقم المسيحيون بعمل حاسم وسريع (٤)، فإنه (السلطان) سيقوم بأعمال سوف تملؤهم بالدهشة والذهول . ومن ناحية أخرى، فإنهم

١- لم ترد تلك الأسماء ضمن المدافعين عن القسطنطينية سوى فى رواية ليونارد الخيوسى، حيث ذكر أنهما كانا من أبرز مساعده الجنوى جيوفانى جستنيانى فى عملية ترميم أسوار القسطنطينية . وفى تنظيم عملية الدفاع عن المدينة، انظر ما سبق ، ص١٥٢-١٥٦ .

٢- عن ذلك راجع: دوكاس ، ص٢٠١ . الذى ذكر إجبار محمد الفاتح له على دفع ضريبة سنوية ، فضلاً عن إظهار الولاء الطاعة له .

٣- من الطبيعى أن يسعد السلطان الفاتح بعد نجاحه فى فتح القسطنطينية، أما عن مسألة نيته الزحف حتى مدينة روما ، فهو مجرد حديث ورد فى المصادر اللاتينية والبيزنطية من أجل اثارة حماسة العالم المسيحى الأوروبى، واثارة حمية الكنيسة الكاثوليكية فى روما.

عن ذلك راجع : تيدالدى، ص١٢٠ ، ليونارد الخيوسى ، ص١٧٤ .

٤- هذه دعوة من لوميللينو للقوى المسيحية فى الغرب. للانتقام ، والأخذ بالثأر من السلطان الفاتح والعثمانيين . وهذه الدعوة تذكرنا بما كتبه الأب ليونارد الخيوسى للبابا نيقولا الخامس، حاثًا اياه- باعتباره- رأس الكنيسة الكاثوليكية- على الانتقام لما حدث ، انظر ما سبق ، ص١٢٣ ، ١٧٣-١٧٥ .

(الأتراك) إذا ما قاموا باتخاذ الاستعدادات العسكرية الضرورية، فإن القسطنطينية ستكون فقط مجرد أولى المدن التى تتعرض للخراب والدمار على أيديهم.

وليكن فى معلومك، فإن بنود المعاهدة التى عقدناها(١) ، تذكر أنه يمكن لمواطنينا تعيين موظف رسمى مسئول لاقرار العدالة بينهم.

وعندما تم عقد هذه المعاهدة، خططت لترك مقر الاقامة، وايجاد منزل آخر لى ، لكن المواطنين (الجنوية) سألونى البقاء به، والاستمرار فى حكمهم حتى وقت آخر يمكننى فيه الرحيل بشكل مناسب.

وإننى لسعيد بالموافقة على طلبهم ، لعدة أسباب، على الرغم، ولابد أنك سوف تفهم ذلك، من أن هذا لايتضمن الحصول على أى راتب .

لم يكن السلطان ينوى فرض أية ضرائب ، فيما عدا ضريبة الرأس . لكن المؤسسات التجارية الجنوية خسرت الأماكن التجارية الخاصة بها . وقمت بإسداء النصيحة ، لدوج مدينة جنوا، بشكل متكرر ، بأنه ينبغى أن يتخذ الترتيبات اللازمة ، وارسال سفارة ذات مكانة رسمية عالية إلى هنا، لمناقشة كل شئ جرى تطبيقه على ما نمتلكه من أماكن وسلع تجارية ، وفى نفس الوقت ، فلايجب عليه أن يتقاعس فى جهوده من أجل لمّ شمل الدول المسيحية. ويجب عليه القيام بذلك بشكل عاجل.

نحن نتطلع دومًا من أجل المساعدة، إذ أن قواتنا تتألف الآن من سفينة صغيرة واحدة، ومائة وأربعين رجلاً. اننى أستطيع أن المس تدخل يد الرب فى ما حدث ، لأن أحداً لم يقم بعمل ما ينبغى عليه بشكل تام ، سواء من البيزنطيين أو البنادقة. واعتماداً على ربنا، الوحيد والحقيقى، فإننى أقول أنه إذا لم يقم المسيحيون ببعض الأعمال والتحركات اللازمة ، فإن السلطان سوف يفاجئهم، لأن جميع طموحاته تتجه نحو القيام بحروب جديدة.

لقد تم أسر امبريالى ، ابن أخى ، وسوف أقوم بما فى وسعى لاستعادته . لقد تعّرف الأتراك على هويته، ولم يسمحوا له بافتداء نفسه.

وعندما سمع السلطان عنه، أمر بالاحتفاظ به، وكذلك بأحد البنادقة الآخرين، وكان ذلك بسبب نيّة السلطان الاحتفاظ ببعض اللاتين فى بلاطه . وقذف بى هذا إلى حالة من الكآبة والحزن، جعلتنى أشعر بالكاد أننى على قيد الحياة.

١- انظر الترجمة العربية للمعاهدة بين الجنوية والسلطان الفاتح فى الصفحات التالية: ٣٤٩-٣٥٠ .

لقد فعلت كل ما في وسعي – في الوقت الحالي– لكنني لم أنجح في استعادته. وإنني آمل ألاّ يتم أخذه بعيداً ، وإذا ما واصلت جهودي لاستعادته، فإن المال لن يقف عقبة في طريقي، حتي لو اضطررت إلى التضحية بكل شئ، ولم يعد لدّي سوى قميصي الذي أرتديه.

على أية حال ، فإنني أمر بالكثير من المشاكل والمتاعب ، واصفح عنّي إذا لم اكتب لك بوضوح تام. فإن عقلي يعاني من الاضطراب والتشوّش، وإنني بالكاد أدرك ما أقوم بعمله .

وخلال الثمانية عشر شهراً السابقة [١]، فإنني لم أقم بفعل شئ سوى العمل المضني والمرهق ، وخلال يوم واحد فقط . تحوّل كل ما قمنا به من جهد إلى قبض ريح . كل ذلك بسبب خطايانا وآثامنا [٢].

عميق احترامي لسيّدنا الدوج ، لم أكتب إليه لأن روحي المعنوية متدنّية للغاية. واحترامي أيضًا ، إذا ما سمحت ، لحميّ ، لأنني لم أستطع الكتابة إليه لنفس السبب ، ويمكنك قراءة هذا الخطاب عليه.

إذكرني بخير لدى والدي ، ولدى زوجتك . وانقل تحياتي للآخرين.

انجيلو جيوفاني ، التاجر

١– يقصد فترة السنة والنصف السابقة على اقتحام العثمانيين للقسطنطينية في مايو ١٤٥٢م.

٢– مرة أخرى يلجأ لوميللينو، كما لجأ آخرون، إلى تفسير سقوط القسطنطينية ، بأنه نتج عن غضب الرب لما ارتكبه المسيحيون بها من خطايا وآثام.

« الملاحق »

ملحق (١)

معاهدة محمد (الفاتح) مع الجنوية (*)

أنا السيد والأمير العظيم، السلطان محمد بك، ابن السيد والأمير العظيم مراد بك (الثانى).

أقسم بإله السموات والأرض، وبنبينا العظيم محمد، وبالأسماء السبعة(١) التى نعترف بها نحن المسلمين ، وبمائة أربعة وعشرين ألفًا من أنبياء الله(٢)، وبروح أجدادى وآبائى ، وبحياة أبنائى ، وبالسيف الذى أتقلّده .

أنه نظرًا لأن حكام غلطه ، رفيعىّ الشأن، قاموا بارسال سفرائهم ذوى الأصل النبيل إلى بلاطنا، لمقابلة جلالتنا وهم : النبيل مارشيسز دى فرانشى Marcheisis de Franchi ومترجمه نيقولو باجلوتزى Nicolo Pagliuzzi(٣)، الذين قاموا بابداء واجب التوقير والتبجيل لجلالتنا، كما قاموا بابداء الذّلة والمسكنة أمامنا ، ووضعوا أنفسهم تحت سلطان جلالتنا .

---

* انظر النص الأصلى اليونانى لهذه المعاهدة الذى لم يثبته البروفسور جونز فى كتابه. فى المصدر التالى:

Miklosich & Müller , Acta et Deplamata Graeca Res Graecas Italasque Ellustrantia . Wien, 1865, III, pp. 287- 288 .

وقمت بايراده بعد الترجمة العربية مباشرة. ص٣٥١-٣٥٢ .

وتتفق الترجمة الإنجليزية التى قام بها البروفسور جونز Jones مع النص الأصلى اليونانى فى تحديد تاريخ المعاهدة بعام ١٤٥٣م ، ويبدو أنها كانت فى اليوم التالى لسقوط القسطنطينية مباشرة (٣٠ مايو) ، أو فى الأسبوع الأول من شهر يونيه ١٤٥٣م. انظر هايد، المرجع السابق، ج٢ ، ص١٧٠ .

بينما يعتقد البروفسور بابنجر Babinger أنه قد جرى توقيعها فى اليوم الأول من شهر يونيه . انظر "Mehmed The Conquerur and his Time" p. 101

بينما يذكر كل من نعيم زكى، والسيد متولى- خطأ- أنها كانت فى الحادى عشر من مارس ١٤٥٤م. انظر على التوالى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٣م، ص٤٣٥ ، «الدولة البيزنطية فى عالم القرن الخامس عشر»، ص١٥٣ .

والحقيقة أنه لم يكن هناك مبرر لتأخير عقد هذه المعاهدة، فقد كان جنوية غلطه أصدقاءً للسلطان محمد الفاتح ، وهو ما جعل زاجانوس باشا يسارع بالدخول إلى بيرا بعد اقتحام القسطنطينية مباشرة . وأن يوقع هذه المعاهدة بعد فتح القسطنطينية مباشرة.

١- أو الكتب السبعة، (الترجمة الإنجليزية).

٢- لانعرف على وجه الدقة سببًا لما ذكره السلطان الفاتح فى مقدمة هذه المعاهدة، حول اعتراف المسلمين بسبعة أسماء أو سبعة كتب، واعترافهم كذلك بهذا العدد الضخم من الأنبياء .

٣- يظهر نص المعاهدة أسماء السفراء الذين أرسلهم القنصل الجنوى جيوفانى لوميللينو إلى السلطان الفاتح . على حين أن رسالة لوميللينو إلى أخيه، لاتحتوى على أسماء هؤلاء السفراء الجنوية .

إن الجنوية سوف يمتثلون لقوانيننا وأعرافنا فى الأراضى التابعة لنا . كما أننا لن نقوم بهدم تحصيناتهم ، ويمكنهم الاحتفاظ بممتلكاتهم ومنازلهم. ومحلاتهم التجارية، ومزارع الكروم الخاصة بهم . وكذلك طواحينهم، وسفنهم وقواربهم وكذا سلعهم وبضائعهم. وينطبق نفس الأمر على زوجاتهم وأطفالهم.

كما يمكنهم بيع بضائعهم بحريّة تامة فى أية منطقة من المناطق التابعة لنا . وكذلك يمكنهم الحضور والرحيل بحريّة تامة براً وبحراً دون دفع أية ضرائب سوى ضريبة الرأس ، حسب العرف المعمول به فى كل كافة المناطق الخاضعة لنا .

كما أننى سوف أدعهم يعملون فيما بينهم بمقتضى قوانينهم وأعرافهم الخاصة، وسوف أحافظ عليهم حاضراً ومستقبلاً ، وسوف نعتبرهم مقربين منا للغاية، وحلفاءً فى المناطق التابعة لنا.

ويمكنهم (الجنوية) الاحتفاظ بكنائسهم لاقامة شعائرهم بها، شريطة ألاّ يقوموا بدق الأجراس، أو أحداث ضجة بواسطة أصوات Semantra * . ولن نقوم بتحويل كنائسهم إلى مساجد ، لكنهم لن يقوموا ببناء أية كنيسة جديدة.

ويمكن للتجار الجنوية الحضور والرحيل، والقيام بصفقاتهم التجارية بحرية تامة، كما أننا لن ننتزع أبناءهم الصغار من أجل ضمهم إلى الانكشارية، أو حتى نأخذ منهم أيًا من شبانهم لأى غرض.

كذلك يمكنهم (الجنوية) ألاّ يسمحوا للأتراك بالسكن فى أوساطهم، إلاّ إذا كانوا من الطبقة الاجتماعية العليا، أو فى حالة أن جلالتنا قد قررّ ارسال أحد خدمه لمراقبة أحوالهم.

ويسمح لسكان غلطة بتعيين موظف رسمى- من بينهم- لمباشرة إدارة شئونهم التجارية . كما لايسمح لجنود الانكشارية والعبيد بالسكن فيما بينهم.

كما سوف ندعهم يقومون بجمع الضرائب المطلوبة منهم، على أن يحتفظوا بالتقارير التى تثبت كم أنفقوا فى ذلك، بحيث يمكنهم استعادة تلك النفقات من السكان الجنوية.

ولايخضع التجار الجنوية لأوامر مصادرة السلع والبضائع ، ويتمتع تجار جنوا بالحرية التامة فى الحضور أو الابحار ، ويدفعون الضرائب طبقًا للقوانين المطبّقة والعرف السائد.

تم تسجيل هذه المعاهدة على الورق، وتم القسم على تنفيذها بواسطة جلالتنا ، فى العام ٦٩٦١ لنشأة العالم[١]، الموافق للعام ٨٥٧ من الهجرة.

---

* قطع من الخشب، يجرى طرقها لجذب الانتباه . ما زالت تستخدم فى اليونان، (الترجمة الإنجليزية).

١- اعتمد معظم المؤرخين البيزنطيين التقويم الذى يبدأ مع نشأة الكون والعالم ، فاعتقدوا أن ميلاد السيد المسيح عليه السلام، كان فى العام ٥٥٠٨ من تاريخ العالم. وهكذا يمكن مقابلة العام ٦٩٦١ لنشأة الكون والعالم، مع العالم ١٤٥٣ لميلاد السيد المسيح . انظر: Doukas, op. cit, p. 264 , not .1 .

الأصل اليونانى للوثيقة ، تاريخها : جمادى الآخرة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م .

V. 6961 (1453).

Muhammed II. sultanus et Genuenses, incolae Galatae, pacem faciunt.

Ἐγὼ ὁ μέγας αὐθέντης καὶ μέγας ἀμυρᾶς σουλτάνος ὁ Μεχμὲτ μπέης, ὁ υἱὸς τοῦ μεγάλου αὐθέντου καὶ μεγάλου ἀμυρᾶ σουλτάνου τοῦ Μουρὰτ μπέη, ὀμνύω εἰς τὸν θεὸν τοῦ οὐρανοῦ καὶ τῆς γῆς καὶ εἰς τὸν μέγαν ἡμῶν προφήτην τὸν Μωάμεθ καὶ εἰς τὰ ἑπτὰ μουσάφια, ὁποῦ ἔχομεν καὶ ὁμολογοῦμεν, καὶ εἰς τοὺς ρκδ' χιλιάδας προφήτας τοῦ θεοῦ καὶ πρὸς τὴν ψυχὴν τοῦ πάππου μου καὶ τοῦ πατρός μου καὶ πρὸς ἑαυτὸν καὶ πρὸς τὰ παιδία μου καὶ εἰς τὸ σπαθί, ὁποῦ ζώνομαι.

Ἐπειδὴ ἔστειλαν οἱ καθολικοὶ ἄρχοντες τοῦ Γαλατᾶ πρὸς τὴν Πόρταν τῆς αὐθεντείας μου τοὺς τετιμημένους ἄρχοντας, τὸν κύριον Μπαπιλὰν Παραβᾶν καὶ τὸν κύριον μαρκέζον Δριφάγκην καὶ τὸν δραγομάνον των Νικόλαον Πελατζόνην, καὶ ἐπροσκύνησαν τὴν βασιλείαν μου, καὶ ἐδεήθησαν τῆς αὐθεντείας μου, καὶ νὰ ἔχουν τὰς νομὰς κατὰ τὴν συνήθειαν τοῦ καθόλου τόπου τῆς αὐθεντείας μου, νὰ [μὴ] χαλάσω τὸ κάστρον των, αὐτοὶ δὲ νὰ ἔχουν τὰ πράγματά των καὶ τὰ ὀσπήτιά των καὶ τὰ μαγαζία των καὶ τὰ ἀμπέλιά των καὶ τοὺς μύλους των καὶ τὰ καράβιά των καὶ τὰς βάρκας των καὶ τὰς πραγματείας των ὅλας καὶ τὰς γυναῖκάς των και τὰ παιδία των

εἰς τὸ θέλημά των, καὶ νὰ πωλοῦν τὰς πραγματείας των ἐλεύθερα, καθὼς ὅλος ὁ τόπος τῆς αὐθεντείας μου, νὰ πηγαίνουν καὶ νὰ ἔρχωνται ἐλεύθερα διὰ ξηρᾶς καὶ θαλάσσης, καὶ κουμέρκιον νὰ μὴ δίδουν, μήτε φιαστικόν, εἰ μὴ νὰ δίδουν χαράτζιον, ὡς καθὼς εἶναι ὁ τόπος τῆς αὐθεντείας μου, οἱ αὐτοὶ νόμοι καὶ συνήθειαι νὰ εἶναι οἱ αὐτοὶ ἀπὸ τοῦ νῦν καὶ ἔμπροσθεν, καὶ νὰ τοὺς ἔχω ἀκριβοῦς, καὶ νὰ τοὺς διαφεντεύω, ὡς καθὼς διαφεντεύω τὸ πρόσωπόν μου ὅλον. τὰς ἐκκλησίας των νὰ τὰς ἔχουν καὶ νὰ τὰς ψάλλουν, μόνον καμπάναις καὶ σημαντήρια νὰ μηδὲν κτυποῦν, ἀπὸ τὰς ἐκκλησίας μαΐδιον νὰ μὴ ζητήσω, μηδὲ αὐτοὶ νὰ ποιήσουν ἄλλαις ἐκκλησίας. οἱ πραγματευτάδες τῶν Γενουβέζων νὰ πηγαίνουν καὶ νὰ ἔρχωνται ἐλεύθερα, νὰ ποιοῦν τὰς πραγματείας των. παιδία ποτὲ εἰς γιανιτζάρους νὰ μὴ πάρω, μήτε τινὰ νέον. μήτε Τοῦρκοι νὰ εἶναι εἰς τὸ μέσον των, ἀμὴ νὰ εἶναι ἐξόχως, εἰ μὴ τὰ νὰ βάλῃ ἡ αὐθεντεία μου σκλάβον νὰ τοὺς βλέπῃ· αὐτοὶ δὲ οἱ Γαλατιανοὶ νὰ ἔχουν ἄδειαν νὰ βάλλουν πρωτόγηρον εἰς τὸ μέσον των, διὰ νὰ διορθώνῃ τὰς δουλείας, ὁποῦ ἔχουν οἱ πραγματευτάδες. γιανιτζάροι καὶ σκλάβοι νὰ μηδὲν κονεύουν εἰς τὰ ὁσπήτιά των. τὰ κουμέρκια, ὁποῦ χρεωστοῦν. νὰ τὰ μαζώξουν, ἔχουν καὶ χρέος ἀπερνῶντες τὰ ὅσα ἐξόδευσαν, ἔχουν τὴν ἄδειαν νὰ τὰ μαζώξουν ἀπὸ τὴν μέσην τους, διὰ νὰ εὔγουν ἀπὸ τὸ χρέος. οἱ ἄρχοντες καὶ οἱ πραγματευτάδες των νὰ μηδὲν ἀγγαρεύωνται. οἱ πραγματευτάδες τῶν Γενουβέζων νὰ ἔχουν ἄδειαν νὰ πηγαίνουν καὶ νὰ ἔρχωνται, καὶ νὰ δίδουν κουμέρκιον κατὰ τοὺς νόμους καὶ τὴν συνήθειαν.

Ἐγράφη τὸ παρὸν ὁρκομωτικόν, καὶ ὤμωσεν ἡ αὐθεντεία μου ἐν ἔτει ͵ςϡξα΄ ἀπὸ κτίσεως κόσμου, ἐγόρας ωνζ΄.

Subscriptio litteris arabicis: Scriptum ultimis decem diebus mensis gemazul-achir 857 in urbe bene custodita Constantinopoli. Pauper Saganos.

Edidit I. de Hammer, Historia Turciae I. 675, ex originali, quod erat L. B. Antonii de Testa.

ملحق (٢)

شهادة بنفينوتو Benvenuto قنصل الجالية الأنكونية بالقسطنطينية حول الفتح العثمانى ١٤٥٣ *

يؤكد بنفينوتو، المواطن الأنكونى، وقنصل مدينة أنكونا فى القسطنطينية، بأنه قد شاهد بنفسه كل ما قام بكتابته أدناه، باستثناء ساعة موت الامبراطور، والمسئولين عن حراسة الأسوار.

فى البداية ، وصل السلطان التركى على رأس جيشه فى يوم الرابع من أبريل (١٤٥٣م) ، وقام بنصب معسكره ليلاً فى مواجهة أسوار القسطنطينية. وفى اليوم التالى. تم حشد الجيش

---

* انظر :

Pertusi, A. "The Anconitan Colony in Constantinople and the Report of its Consul, Benvenuto , on the Fall of The City", in, Charanis Studies, Essays in Honor of Peter Charanis , New Brunswik, 1980, pp. 199-218 , esp. pp. 207-208 .

كان بنفينوتو على رأس الجالية التجارية الممثلة لمدينة انكونا Ancona الايطالية فى مدينة القسطنطينية، حيث أشرف على ادارة أمورها التجارية والقانونية .

وكان لمدينة أنكونا دورها الكبير فى النشاط التجارى فى القسطنطينية وموانئ البحر المتوسط فى العصور الوسطى، عن ذلك انظر:

Abulafia, D," Ancona, Byzantium and the Adriatic, 1155-1173 ", In , P B S R, 52 , 1982, pp. 195-216 .

rep. in , Idem, Italy , Sicily and The Mediterranean, 1100- 1400, London, 1987 .

والرواية التى بين أيدينا الآن غير موجودة فى متن هذا الكتاب الذى قمت بترجمته لكننى ارتأيت أن أثبتها هنا إلى جوار الروايات السبعة السابقة لأنها موازية لها. علاوة على كون كاتبها يحتفظ بصفته كشاهد عيان معاصر لأحداث الفتح العثمانى للقسطنطينية ١٤٥٣م. وشارك – مع أفراد جاليته– فى الدفاع عن المدينة ابان الحصار العثمانى. ولا أعرف لماذا لم يوردها البروفسور جونز فى كتابه ، ربما كان ذلك لأن البروفسور برتوزى Pertusis قد اكتشف وجودها . وقام بنشر بحثه عنها فى العام ١٩٨٠م. وهو تاريخ لاحق لكتاب البروفسور جونز . مع العلم بأنه لم يقم بترجمتها إلى الإنجليزية.

على أية حال فلم تذكر الروايات السبع السابقة ، أية معلومات عن قنصل تجار أنكونا فى القسطنطينية ، وعن دوره فى القتال، مما يشى بأن دوره لم يكن مهماً .

(التركى) فى مواقعه البرية والبحرية، وبلغ عدد الخيام المنصوبة على البر ٦٠,٠٠٠ ألف خيمة، كما كان هناك حوالى ٣٠٠ ما بين سفينة ومركب صغير فى البحر، على امتداد ثلاثة أميال.

كما بلغ عدد المقاتلين ٣٠٠,٠٠٠ ألف رجل، بينما بلغ عددهم فى البحر ٣٦,٠٠٠ ألف رجل.

وكان هناك مدفع يقوم بقذف ثلاثة أحجار ذات مقاسات مختلفة وغير منتظمة، فقد كان الحجر الأكبر يزن ١٣٠٠ رطل، بينما يزن كلاً من الحجرين الآخرين ٦٠٠ رطل و٣٠٠ رطل.

وقام (السلطان التركى) بنصب معسكره أمام المدينة المذكورة (القسطنطينية) منذ يوم الرابع من أبريل حتى التاسع والعشرين من مايو (١٤٥٣م) لمدة ٥٦ يومًا . وكان (الجيش التركى) يهاجم (المدينة) ثلاث مرات يوميًا ، عبر عدة مواقع مختلفة، مستخدمًا المدافع والسهام والحراب، وتم هدم جزء من الأسوار بواسطة قذائف المدافع.

وكان جستنيانى لونجو يدافع (عن القسطنطينية) مع الإمبراطور ونبلائه ، لكنه هرب منها برفقة ٣٦٠ رجلاً[١] ، وجرى الدفاع عن المدينة ببسالة من قبل المتبقين فيها، بحيث لم يسقط من المدافعين عن المدينة سوى ٤٠ رجلاً ، بينما سقط من الأتراك ٧٠٠٠ آلاف رجل [٢].

وفى الثامن والعشرين من مايو ، ليلاً ، بدأ (الأتراك) الهجوم النهائى من البر والبحر، وأخذ الباقون فى مقاومة الأتراك ببسالة.

لكن، وبعد أن هرب جستنيان ، سقطت مدينة القسطنطينة فى منتصف نهار يوم ٢٩ مايو (١٤٥٣م) .

كما سمع (قنصل أنكونا) من أحد نافخى النفير (المنادين) بأن الإمبراطور البيزنطى قد قُتل ، وأنه جرى تقديم رأسه على حربة إلى السلطان التركى[٣].

١- يتفق بنڤينوتو مع آراء بعض المؤرخين المعاصرين حول هروب جيوفانى جستنيانى لونجو من القسطنطينية، وإن كان لم يتحدث عن اصابة جستنيانى الخطرة . راجع: نيقولو باربارو ، المصدر السابق، ص١٧٣ ، ليونارد الخيوسى، ص١٦٦-١٦٨ ، خالكوكونديلاس ، ص١٩٣ .

٢- هناك مبالغة كبرى من بنڤينوتو فى تقدير القتلى الأتراك ، بالمقارنة مع المدافعين عن القسطنطينية كما تبدو مبالغته فى ما سبق من تقديره لعدد المقاتلين الأتراك بـ ٣٣٦ ألف مقاتل.

٣- عن مقتل آخر الأباطرة البيزنطيين، قسطنطين الحادى عشر، انظر ما سبق ، ص٢٧٢-٢٧٥ .

كذلك لم يعرف (قنصل أنكونا) أية معلومات مؤكدة عن الكاردينال المبجّل (ايزيدور)[١] سوى أنه كان يدافع عن الأسوار، لكنه شاهد عدداً كبيراً من الرجال يسقطون من أعلى الأسوار ، ما بين صرعى وجرحى.

وقبيل بدء المعركة بيومين أذاع سلطان الأتراك بياناً ، أو مرسوماً ، يقضي فيه بأنه بوسع أى مسيحى أن يغادر المدينة (القسطنطينية) بحّرية عبر منطقة بيرا Pera، لأن كل من سيتبقى فى المدينة بعد ذلك، ممن هم فوق سن الثمانى سنوات، سوف يتم قتلهم بلارحمة .

كما ترك (السلطان التركى) المدينة مستباحة للسكمانيين (الأتراك) على مدى يومين للحصول على الغنائم.

وكان خط الدفاع عن الأسوار يبلغ ١١,٠٠٠ ألف قدم . كما كان هناك ٧٠٠٠ رجل لحراسة الأسوار، مع الكاردينال المبجَل (ايزيدور) ، بينما كان عدد المسئولين عن حراسة الأسوار البحرية ٣٠٠ رجل فقط ، على رأسهم قنصل البنادقة [٢]، والمواطن بنڤينوتو قنصل الانكونيين، والقائد العسكرى الأعلى، بارون الامبراطور (....)[٣] ويظن أن جميع المسئولين عن حراسة الأسوار قد لاقوا حتفهم، ونجا هو وحده، بفضل بسالة المشاة فى الميدان (.....).

١- قام العثمانيون بأسر الكاردينال الروسى ايزيدور Isidor، مبعوث البابا نيقولا الخامس، لاقرار الاتحاد الكنسى بين كنيسة روما الكاثوليكية، وكنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية ، لكنهم لم يتعرفوا على شخصيته ، فقاموا بتركه بعد دفع مبلغ نقدى بسيط انظر «ريشيريو، ص٣٢٢ . وإن كانت هناك رواية أخرى تذكر أنه تمكن من الهرب على متن احدى السفن إلى البلوبونيز ، انظر : خالكو كوندیلاس ، ص١٩٧ .

٢- عن الدور الهام الذى قام به قنصل البنادقة ، جيروليمو مينوتو، انظر المؤرخ البندقى نيقولو باربارو ، ص٩٤ ، ٩٧ ، ١٠١-١٠٢ ، ١١٤ ، ١٤٣ ، هامش (٢) ، (٨) ، ليونارد الخيوسى ص٤١ .

٣- على الرغم من وجود فراغ فى هذه الوثيقة ، فإننا يمكن أن نذكر أنه كان لوكاس نوتاراس، الذى نجا من القتل ابان الاقتحام العثمانى للقسطنطينية فى ٢٩ مايو ١٤٥٣م، عن علاقته بالسلطان محمد الفاتح ، الذى أمر بضرب عنقه فيما بعد مع اثنين من أبنائه ، انظر ليونارد الخيوسى، ص١٧١-١٧٢ ، خالكوكونديلاس ، ص٢٠٠-٢٠١ ، دوكاس، ص٢٨٩-٢٩٢ .

Benevenutus, civis Anchonitanus, in Constantinopoli consul, dicit se omnia infra scripta vidisse preter articulum de morte inperatoris et provisorum. In primus, quod quarta die Aprilis inperator Turcorum venit cum exercitu suo noctis tempore ante civitatem Constantinopolis et die sequente complete fuit exercitus per terram et mare collocatus. Item quod fuerunt pavlioni 60.000 per terram, idest sexaginta milia. Item quod fuerunt inter galeas et fustes per mare 300 ⟨per⟩ tria milia. Item quod inter omnes erant homines per terram 300.00 ⟨idest⟩ tercenta milia hominum. Item quod fuerunt per mare homines 36.000, ⟨idest⟩ triginta sex milia. Item quod era una bomberda que simul emittebat tres lapidus inequales: item quod lapis maior erat ponderis 1300 librarum; item quod lapides alii duo erant ponderis 600 librarum pro quolibet 300 librarum. Item quod stetit campus eius sive exercitus ante dictam civitatem a dicta die quarta Aprilis usque ad XXIX Maii, et sunt dies 56 inclusive. Item quod die qualibet ter dabat bellum per terram in diversis locis cum bomberdis, sagittis et scobetis [scoletis]. Item quod, donec Justinianus Longus, custodiens simul cum inperatore Constantinopolitanam et suis nobilibus locum fractum per bomberdas, affugit cum 360 hominibus civitatis, egregie fuit civitas per inexistentes defensata ad modum ut ex custodientibus civitatem solum 40 persone interfecte fuerunt et ex Turcis ultra 7000. Item quod XXVIII Maii de nocte incepit bellum per mare et per terram circumcirca civitatem, et resistebant optime inexistentes ipsi Turco, sed pos⟨t⟩quam dictus Justinianus affugit adveniente die XXIX Maii media hora die⟨i⟩ capta fuit civitas Constantinopolitana. Item quod audivit ab uno trumpeta quod inperator Grecorum fuit interfectus et eius caput super lancea Turcorum domino presentatum. Item quod de reverendissimo domino cardinali nichil scit det⟨er⟩minate, nisi quod stabat super murum ad custodiam; vidit tamen multos eici mortuos et vivos de muris. Item quod, duobus diebus antequam daret bellum, emissum fuit a Turcorum inperatore bannum seu edictum, et quisque christianus libere exire possit per viam

Pere, alias quicumque repertus fuerit in civitate postea, si cum capi contigerit, ab annis octo supra, morti sine venia daretur. Item quod per duos dies dedit civitatem et singula ad predam sakmannis. Item quod erant menie ad custodiendum 11.000 ‹passuum›. Item quod erant tantum homines ad custodiendum menias cum reverendissimo domino cardinali 7000. Item quod provisores solum per terram erant 300, quorum caput erat baiulus Venetorum; predictus Benevenutus, consul, Anchonitanus civis et magnus dux baro inperatoris ‹ . . . ›. Item quod predicti omnes provisores, ut credit, interfecti erant ipseque solus evasit, quia manserunt pedestres in platea ‹ . . . ›

ملحق (٣)

ثبت بأسماء السلاطين العثمانيين والأباطرة البيزنطيين حتى فتح القسطنطينية ١٤٥٣م

السلاطين العثمانيين

- سليمان (- ١٢٣١م)
- أرطغرل (١٢٣١-١٢٨٨م)
- عثمان (١٢٨٨-١٣٢٦م)
- أورخان (١٣٢٦-١٣٥٩م)
- مراد الأول (١٣٥٩-١٣٨٩م)
- بايزيد الأول (١٣٨٩-١٤٠٢م)
- محمد الأول (١٤١٣-١٤٢١م)
- مراد الثانى (١٤٢١-١٤٥١م)
- محمد الثانى (١٤٥١-١٤٨١م)

الأباطرة البيزنطيين

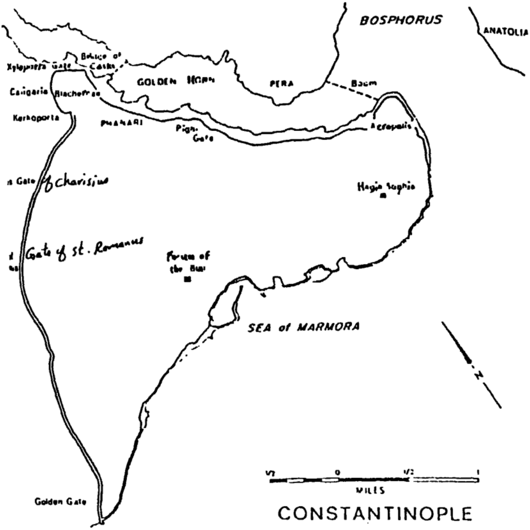
- ميخائيل الثامن باليولوغس (١٢٦١-١٢٨٢م)
- أندرونيكوس الثانى باليولوغس (١٢٨٢-١٣٢٨م)
- أندرونيكوس الثالث باليولوغس (١٣٢٨-١٣٤١م)
- يوحنا الخامس باليولوغس (١٣٤١-١٣٧٦م)

بمشاركة يوحنا السادس كانتاكوزينوس (١٣٤١-١٣٥٤م)

- أندرونيكوس الرابع (١٣٧٦-١٣٧٩م)
- يوحنا الخامس باليولوغس (الفترة الثانية) (١٣٧٩-١٣٩١م)
- يوحنا السابع باليولوغس ١٣٩١م
- مانويل الثانى باليولوغس (١٣٩١-١٤٢٥م)
- أناب عنه فى الحكم يوحنا السابع باليولوغس (١٣٩٩-١٤٠٣م)
- يوحنا الثامن باليولوغس (١٤٢٥-١٤٤٨)م .
- قسطنطين الحادى عشر باليولوغس (١٤٤٨-١٤٥٣)م.

ملحق (٤)

خريطة لمدينة القسطنطينية



قائمة المصادر والمراجع

قائمة المختصرات الموجودة بالكتاب

- A.H.R	- American Historical Review
- B	- Byzantion , Bruxelles
- B.I.H.B.R	- Bulletin de L'Institute Historique Belge de Rome
- BS	- Byzantinoslavica , Prague
- BSOAS	- Bulletin of the School of Oriental and African Studies. London, University.
- B Z	- Byzantinisch Zeitschtift
- C. F. H. S	- Corpus Fontium Historiae Byzantinae
- C. I. E. B	- Congrese International d'Etudes Byzantine
- C. M. H	- Cambridge Medieval History
- C. S. H. B	- Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae
- D. O. P	- Dumbarton Oaks Paper . Washington
- J. E. B. H	- Journal of Economic and Businss History
- M. M	- Mariner's Mirror
-O C P	- Orientalia Christiana Periodica. Roma
- OD B	- Oxford Dictionary of Byzantium.Oxford university
- P B S R	- Papers of British School at Rome. Rome.
- R E I	- Revue des Etudes Islamiques
- R H C. Occ	- Recueil des historiens des Croisades. Historiens Occidentaux . paris.
- SP	- Speculum
- S V	- Studi Veniziani. Venice.
- U B H J	- University of Birmingham Historical Journal.
W N G D	- Webester, New Geographical Dictionary . New York

أولاً : المصادر الأجنبية

١- المصادر البيزنطية :

1- Anna Comnena , The Alexiad . Trans . by , Daws. E. London 1928.

2- Cameron , A & Herrin , J. (eds.) , Constantinople in the Early Eighth Century: The Parastaseis Syntomoi Chronikai, Leiden, 1984 .

3- Choniates , N, O city of Byzantium : Annals of Nikitas Choniates. Trans by. H.J. Magoulias, Detroit, 1981 .

4- Constantine Porphyrogentus , De Adminstrando Imperio. Trans by. Jenkins, R.J.H, Washington , 1974 .

اعتمدت على الترجمة العربية للكتاب : قسطنطين السابع بورفيرو جنتوس، ادارة الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة محمود سعيد عمران، بيروت، ١٩٨٠م، علمًا بأنه للترجمة الإنجليزية للكتاب جزء ثان خاص بهوامشه . لم يترجم بعد .

5- Dölger, F, Regesten der Kaiserur Kunden des Östromischen Rieches, 565-1453 . Teil IV , Munchen, 1925 .

6- Doukas , M, " Historia Turco - Byzantina ". Decline and Fall of Byzantium to Ottoman Turks . Trans. by H.J. Magoulias, Detroit, 1975 .

7- Eusebius , Vita Constantini , (NPNF) I pp. 473-580 .

واعتمدت على الترجمة للكتاب : يوسابيوس القيصرى، حياة قسطنطين العظيم . ترجمة القمص مرقس داود، القاهرة، ١٩٧٥م.

8- Eustathios of Thessaloniki , The Capture of Thessalouiki Trans. by . J.R. Melvieel Johnson, Canberra, 1988 .

9- Kinnamos, J. Deeds of John and Manuel Comnenus Trans. by Brand, ch, New York, 1976 .

10- Kritovoulus, History of Mehmed The Conqueror, Trans, by . C. I, Riggs, Princeton, 1954 .

11- Leo VI , " Eparchikon Biblion ". in , Zepos , J. & p. (eds.) Jus Graeco-Romanorum 5 bols . Athens, 1930-21 .

ولكتاب الوالى عدة ترجمات باللغات الأوربية الحديثة:

Nicole, Le livre du Prifit ou L'edit d' L'Empereur Leon Le Sage. sur les Corporation des Constantinople, Genevensis, 1894 .

Boak, A.E.R, " The Book of the Prefect", in, J.E.B.H, vol . L, 1929 .

Frieshfield, E, Roman Law in the Later Roman Empire, Cambridge, 1938 .

Koder, J, Das Eparchenbuch Leons des Weisen , Einfuhrung, Editon , Ubersetzung undindices . in, C.F.H.B, Series Vindobensis, vol, 33 , Vienna, 1991.

واعتمدت على الترجمة العربية. ليو السادس، كتاب والي المدينة، ترجمة وتعليق السيد الباز العريني، كلية الآداب، جامعة القاهرة ، المجلد التاسع عشر، الجزء الأول، مايو ١٩٥٧م.

12- Miklosich F.R & Müller, J, Acta Et Diplomata Graeca Italasque Illustrantia . Teil. 3, Wien, 1865 .

13- Pachymers, G, De Michaele Palaeologus, vol . 1, ed. Bekker in, C.S.H.B, Bonne. 1885 .

14- Pesellus, M, Fourteen Byzantine Rulers. The Chronographia of Michael Psellus. Trans. by , Sewter , E.R, London, 1966 .

15- Procopius of Caisaria, Buildings. Trans. by Deaving , H.B & Downey, G, London , 1940 .

- Secret History, Trans , by , Attwater , R. Michigan, 1961 .

16- Sphrantzes, G. The Fall of the Byzantine Empire. Achonicle by George Sphrantzes 1401-1477. Trans. by Marios Philippidis, Amherst, 1980 .

17- Talbot, D.M. (ed.), " Life of St. Theodosia of Constantinople" Trans by , Nicholas Constas , in , Byzantine Defender of Images. eight Saints Life in English Translation . Washington D.C, 1998 .

18- Theodore Spandunes, On the Origin of the Ottoman Emperors, Trans. by , Nicol, D, Cambridge, 1997 .

19- Theophanes, The Chronicle of Theophanes (6095-6305) (A.D 602-813) Trans. by , Harry Turtledove, Pennsylvania, 1982 .

كما اعتمدت أيضاً على ترجمة حديثة ووافية لهذا المصدر البيزنطي:

Theophanes, The Chronicle of Theophanes Confessor. Byzantium and Near Eastern History A.D 284 - 813 . Trans. With Introduction and Comment by Cyril Mango and Roger Scot. With Assistance of Goffery Greater . Oxford, 1997 .

٢- المصادر اللاتينية:

1- Anonymous, Gesta Francorum Iherusalem. in , R.H.C. Occ Tome. III, Paris, 1866 .

اعتمدت على الترجمة العربية: المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة وتعليق حسن حبشى، القاهرة، ١٩٥٨م.

2- Benjamin, Tudelensis, Itinerarium Benjamini Tudelensis Arias Montano (ed.), Leibzig, 1664 .

اعتمدت على الترجمة العربية . بنيامين التطيلى ، رحلة بنيامين (٥٦١-٥٦٩هـ)، ترجمة عزرا حداد، مراجعة وتقديم رحاب خضر عكاوى، بغداد ، ١٩٩٦م.

3- Danduli, A, Chronica Per Extensum Descripta aa 461-1280 d.c. Acura di Ester Pastorello, Bologne, 1938 .

4- Einhard and Notker The Stammer, Two Lives of Charlegman. London , 1967 .

5- Fulcher of Charter, A History of Expedition to Jerusalem. H. Find (ed.) , Knoxille , 1969 .

اعتمدت على الترجمة العربية. فوشيه الشارترى ، الوجود الصليبى فى الشرق العربى. ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم ، والكويت، ١٩٨٨م.

6- Joinville, vie de St. Louis, Paris, 1974 .

اعتمدت على الترجمة العربية. القديس لويس ، حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة، ١٩٦٨م.

7- Nicolo Barbaro , Diary of the Siege of Constantinople 1453 . Trans. by . J.R. Jones, New York, 1969 .

اعتمدت على الترجمة العربية. نيقولو باربارو ، الفتح الإسلامى للقسطنطينية ١٤٥٣م. «يوميات الحصار العثمانى» م. دراسة وترجمة وتعليق حاتم عبد الرحمن الطحاوى، القاهرة ٢٠٠٢م.

8- Raymond of Aguilers, Franks Conquers Jerusalem . J.H. Hill & L.L. Hill (eds.), Philadelphia, 1968 .

اعتمدت على الترجمة العربية. ريمونداجيل ، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس. ترجمة وتعليق حسين عطية ، الاسكندرية ، ١٩٩٠م.

9- Robbert Clari, La Conquéte de Constantinople, Philippe, L. (ed.), Paris, 1924 .

اعتمدت على الترجمة العربية . روبرت كلارى ، فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، ترجمة وتعليق حسن حبشى، القاهرة، ١٩٦٤م.

10- Schroeder, O.P. (ed.), Disciplinary Decrees of The General Councils . Text, Translations, and Commentry , London, 1937 .

11- Ubertino Pusculus, Constantinopleos Libri IV-1 in Ellissen, Analekten der mittel - und neugriechischen Litteratur 3, 1857 .

12- Villehardowin, J. La Conquete de Constantinople. Text et Traduction Nouvelle avec notes et Glossaire 2 tome. Paris, 1891 .

اعتمدت على الترجمة العربية، فلهاردوين، فتح القسطنطينية ، ترجمة وتعليق حسن حبشى، جدة، ١٩٨٢م.

13- William of Tyre, A History of The Deeds done Beyond The Sea. Trans. by E.A. Babcock, A.C.Krey, New York , 1974 .

اعتمدت على الترجمة العربية، وليم الصورى ، الحروب الصليبية، ج١، ترجمة حسن حبشى، القاهرة، ١٩٩١م.

٣- المصادر العثمانية:

1-Asik Pasa Oglu, " Asik Pasa Oglu Tarihi, " Hazirlayan, H. Nihal Atsiz, Ankara, 1985.

2- Tursun Bey, Tarih- i Ebül- Feth . Hazirlayan, Mertol Tulum , Istanbul, 1997.

٤- المصادر الفارسية:

١- ابن البيبى (ابن بى بى) (العلامة حسن بن محمد بن على الجعفرى الرغوى) أخبار سلاجقة الروم، مختصر سلجوق نامه، ترجمة محمد السعيد جمال الدين، الدوحة، ١٩٩٤م.

٢- البندارى (الفتح بن على البندارى الأصفهانى) تاريخ دولة آل سلجوق، بيروت. د.ت) .

٣- الحسينى (صدر الدين على بن ناصر) زبدة التواريخ ، أخبار الأمراء السلجوقية، تحقيق محمد نور الدين، بيروت، ١٩٨٦م.

٤- حسن بيرنيا، مشير الدولة، تاريخ ايران القديم من البداية حتى العصر الساسانى ، ترجمة محمد نور عبد المنعم ، السباعى محمد السباعى ، مراجعة وتقديم يحيى الخشاب ، القاهرة، ١٩٩٥م.

٥- المصادر الأرمينية:

1- Mesrob K. Krikorian Und Warner Seibt (eds.) Die Eroberung Konstantinopols in Jahre 1453 Aus Armeinscher Sicht, Kölne, 1981 .

ثانياً : المصادر العربية

١- ابن أبى الفضائل (مفضل بن أبى الفضائل) النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، باريس، ١٩١١م.

٢- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن الشيبانى) الكامل فى التاريخ ، ج٢ ، تحقيق يوسف الدقاق، بيروت، ١٩٨٧م.

٣- ابن العبرى (غريغوريوس أبو الفرج) تاريخ الزمان . ترجمة الاب اسحق أرملة . بيروت، ١٩٩١م.

٤- ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج٧ ، بيروت، د.ت .

٥- ابن القلانسى (أبويعلى حمزة) ذيل تاريخ دمشق . بيروت، ١٩٠٨م.

٦- ابن اياس (محمد بن أحمد بن اياس الحنفى) بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج٢ ، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٨٤م.

٧- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج١٢ ، القاهرة، د.ت.

٨- ابن خرداذبة (أبو القاسم عبدالله) المسالك والممالك . ليدن، ١٨٨٩م.

٩- ابن شداد (بهاء الدين يوسف) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. تحقيق جمال الشيال . القاهرة، ١٩٦٤م

١٠- ابن عربشاه (أبو العباس شهاب الدين بن محمد الدمشقى) عجائب المقدور فى نوائب تيمور، تحقيق فايز الحمصى، بيروت، ١٩٨٦م.

١١- ابن كثير (الحافظ عماد الدين أبو الفدا اسماعيل)، البداية والنهاية. البداية والنهاية ، ج٩ ، طبعة وتوثيق عبد الرحمن الدنى ومحمد غازى بيضون، بيروت، ١٩٩٨م.

١٢- ابن مماتى (شرف الدين أبو المكارم) قوانين الدواوين جمع وتحقيق عزيز سوريال عطيه، القاهرة، ١٩٩١م.

١٣- الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك، ج١،ج٥ . تحقيق محمد أبو الفضل، القاهرة، ١٩٧٩م.

١٤- القرمانى (أبى العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقى) أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ، بيروت، د.ت.

١٥- القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على بن محمد) صبح الأعشى فى صناعة الانشاء، ج٣،ج٤ ، القاهرة، د.ت.

١٦- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٩م.

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج١ ، القاهرة، ٢٠٠٠م

ثالثاً : المراجع الأجنبية

1-Abulafia, D, " Ancona, Byzantium and The Adriatic 1155-1173. in , PBSR , 52 , 1982 .

- Italy , Sicily and The Mediterranean 1100-1400 London, 1987 .

2- Alexandrescu- Dersc, La Campagne de Timur en Anatolia 1402. London, 1972 .

3- ali Sevim, Malazgirt. Maydan Savasi. Ankara, 1971 .

4- Atyia, A.S, the Crusades in the Later Middle Ages. London, 1938 .

5- Babinger, F. Mehmad the Conqueror and his time Trans. by, R. Manhein & W.C, Hickman, Princeton, 1978 .

6- Barker, J., Justinian and The Later Roman Empire, Wisconsin, 1966.

- Manuel II Palaelogus 1391-1425 . A Study in Later Byzantine Statesmanship, New Jersey , 1969 .

7- Bartusis, M, The Late Byzantine Army : Arms and Society , 1204 - 1453 . Philadelphia, 1992 .

8- Brand, Ch, " Byzantium and Saladin : 1185-1192 . opponents to the Third Crusade", in Sp, XXXVII, 1962 .

- Byzantium Confronts The West. 1180-1204. Cambridge, 1968 .

9- Cemal Kafudar , Between Two Worlds. The Construction of the Ottoman State. London, 1995 .

10- Charanis, p." Am Important Short chronicle of the Fourteenthe Century ", in , B, XIII, Bruxelles, 1938 .

- " Monastic Property and The State in The Byzantine Empire" in, D.O.P. IV , 1948 .

- " On the Date of the Occupation of Gallipoli by the Turk", in BS, XVI, 1955 .

وأعاد المؤلف نشر هذه المقالات ، بالإضافة إلى أبحاث أخرى فى
"Social, Economic and Political life, in the Byzantine Empire. Collected Studies, London, 1973 .

11- Concasty , M.L, Les " Informations" de Jacques Tedaldi sur le Siege et la Prise de Constantinople /. in B, vol, 24 , 1954 .

12- Dennis, S.J, " Some Notes on the Devshirme", in, BSOAS, 29 , 1966.

- " The Byzantine - Turkish Treaty 1403", in, OCP, vol, XXXIII, 1967 .

13- Dreksen, D, The Crescent and the Cross. New York, 1964 .

14- Faruk Sumer & Ali Sevim, Islam Kaynaklarina gore Malazgirt Savasi, Ankara, 1971 .

15- Geanakoplis, D.J, Byzantium . Church, Society and Civilization Seen Through Cantemporary Eyes. London, 1984 .

16- Gill, J, Personalities of the Council of Florence. New York, 1964 .

- Byzantium and The Papacy 1198 1400 . New York, 1979 .

17- Goodwine, G, The Janissaries, London, 1977 .

18- Hissen, A, The Ottoman Dynasty . New York, 1912 .

19- Hignette, C, Xerxes's Invasion of Greece Oxford, 1963 .

20- Housley, N, The Later Crusades. from Lyon to Allcazar 1274-1580, Oxford, 1992 .

21- Kielty, B, La Chaute de Constantinople, Paris, 1961 .

22- Kinross, L, The Ottoman Centuries , The Rise and Fall of the Turkish Empire. London, 1977 .

23- Krajcar, J, " Metropolitan Isidor's Journey to The Council of Florence. Some remarks." in , OCP, 38 , 1972 .

24- Lane, F, " Venetian Shipping during the Commercial Revolution". in, A. H. R, vol, XXXVIII, 1933 .

- "The First Infidelities of the Venetian Lire". in, Miskimin & Herlihy & Udovitch (eds.), The Medieval City. Yale, 1977.

25- La Vallée, Les Histoire de l'Empire Ottoman, Paris, 1855.

26- Lewis, A, " The Danube Route and Byzantium 802-1195", in XIV C.I.E, B, Bucarest, 1975.

27- Lopez, R, " Foriengers in Byzantium", in, B.I.H.B. R, XLIV, Rome, 1974.

28- Madden, T.F, " The Fires of The Fourth Crusade in Constantinople 1203-1204. A Damage Assessment", in, BZ, 84-85, 1991-1992.

29- Mango, C, Byzantium. The Empire of New Rome. London, 1980.

30- Menzies, S. History of the Ottoman Empire in Europe, London, 1977.

31- Nicole, D. " A Byzantine Emperor in England. Manuel's Visit to London 1400-1401, in, U.BHJ, XII, 2, 1971.

وأعاد المؤلف نشر هذا البحث فى كتابه:

Byznatium : its ecclesiastical history and relations With Western World. London, 1972.

- The Last Centuries of Byzantium 1261-1453. London, 1972.

- Byzantium and Venice : A Study in diplomatic and Cultural relations, Cambridge, 1988.

32- Papadekis, A." Ginnadius II and Mehmet The Conqueror ". in, B XLII, 1972.

33- Paparrhegopoulos, C, History of the Greek Nation (in Greek) ed. by Karolides, vol.2, Lamintations of Constantinople. Athens, 1903.

34- Pears, E," The Ottoman Turks to The Fall of Constantinople", in C.M.H, I (4), 1927.

- The Destruction of the Greek Empire and The Story of the Capture of Constatinople by The Turks, Athens, 1903 .

35- Pertusi, A, " The Anconitan Colony in Constantinople and The Report of its Consul Benvenuto, on the Fall of the City ", in Charanis Studies, Essays in Honor of Peter Charanis, New Brunswick, 1980 .

36- Peter Alexander (ed.), William Shakespeare. The Complete Works. King Henry The Fourth - Part one . Act. 4. London, 1978 .

37- Pirenne, H, Economic and Social History of Europe. London, 1978 .

38- Polites, N, Proverbs and Traditions of the Greek People, vol.2 (in Greek), A thens, 1904 .

39- Pryor, J, "The Transportation of Horses by Sea during the Era of the Crusades: Eighth Century to 1285 AD", in M.M. 68 , London , 1982 .

40- Queller, Anote on The Reorganization of The Venetian Coinage by The Doge Enrico Dandolo, in, Medieval Diplomacy and The Fourth Crusade London , 1980 .

41- Robbert , L.B, " Ventian Money Market 1150-1229", in SV, XIII, 1971 .

- "Reorganization of the Venetian Coinage by Doge Enrico Dandolo", in, Sp. XLIX, 1974 .

42- Rodney M. Thomson , " An English eye witniss of the Peace of Venice ", in , Sp L, No .1 , 1975 .

43- Ropin Cormack, " Women and Icons, and Women in Icons", in, Women, Men and eunches: Gender in Byzantium . London 1997 .

44- Runciman , S, Eastern Schism , Astudy of The Papacy and The Eastern Churches during the XI and XII the Centuries. Oxford, 1956 .

- The Fall of Constantinople, 1453 , Cambridge, 1965 .

45- Schlumberger, G, Le Siege la Praise et Le Sac de Constantinople par Les Turcs en. 1453 , Paris, 1914 .

46- Semavi Eyice , Malazgirt Savasi Kaybeden Romano IV Diogenes. Ankara, 1971 .

47- Setton , K, " The Catalan in Greece 1311-1380" &" The Catalan and Florentines in Greece 1380-1462" in , Setton & Hazard (eds.) A History of the Crusades. vol.3 Wisconsin, 1975 .

48- Speck, P, Understanding Byzantium : Studies in Byzantine Historical Sources. " The Legand of the Bull in bus Square", in Parastaseis, 42", London, 2002 .

49- Stöckle, A, Spatrömisch und Byzantinisch Zünfte untersuchungen Zum Sogenanten Eparchikon Biblion Leos des Weisen Wiesbaden, 1963.

50- Tougher, sh, The Rign of leo VI (886-912) Politics and People. Leiden, 1997 .

51- Ullman, W, The Origins of the Great Schism , Astudy in Fourteenth Century ecclesiastical history Connecticut, 1972 .

52- Vacalopoulous, Origins of the Greek Nation: The Byzantine Period 1204-1461. Trans. by, Ian Moles, New Brunswick, 1970 .

53- Van Millingen, Byzantine Constantinople. The Wall of the City and Adjoining Historical sities. London, 1899 .

54- Wittek , P. De la defaite D'Ankara a la Praise de Constantinople in, R E I, XII, 1938 .

55- Zachariadou , E, " The Conquest of Adrianople by The Turks", in, SV, XII, 1970 .

56- Ziegler, A.W, " Isidore de Kiev. Apotre de L'Union Florentine , in Ire, 13 , 1939 .

رابعًا : المراجع العربية والمعربة

١- ابراهيم نصحى : تاريخ الرومان ، ج١، القاهرة، ١٩٨٣م .

٢- أحمد رمضان أحمد، تاريخ فن القتال البحرى في العصر الوسيط، القاهرة، د.ت.

٣- أحمد عبد الكريم سليمان، رسالة من البطريرك نيقولا مستيقوس إلى الخليفة العباسى. المجلة التاريخية المصرية، المجلدان ٢٨، ٢٩ . الأعوام ١٩٨١-١٩٨٢م.

٤- اسحق عبيد ، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين (٨٦٩-١٢٠٤م) ، القاهرة، ١٩٧٠م.

- الدولة البيزنطية فى عصر باليولوغس ١٢٦١-١٢٨٢م. بيروت ، د.ت .

٥- اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج١ ، القاهرة، ١٣١٢هـ.

- تاريخ الدولة العثمانية، مراجعة حسن الزين، بيروت ، د.ت.

- معرفة الماضى من هيرودوت إلى توينبى ، القاهرة، ١٩٨١م.

٦- السيد الباز العرينى، الدولة البيزنطية ٣٢٣-١٠٨١م، القاهرة، ١٩٨٢م.

٧- المرسلين البولسيين، الاجتهاد فى سبيل الاتحاد، حريصا ، ١٩٣٩م.

٨- بيريل سمالى، المؤرخون فى العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة، ١٩٧٩م.

٩- تشارلز وورث ، الإمبراطورية الرومانية، ترجمة رمزى عبده جرجس، مراجعة محمد صقر خفاجه، القاهرة، ١٩٥٠م.

١٠- جوزيف داهموس سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى. ترجمة محمد فتحى الشاعر، القاهرة، ١٩٩٢م.

١١- جورج سارتون ، تاريخ العلم، ج٢، ج٢ . ترجمة لفيف من الباحثين ، القاهرة، ١٩٧٢، ١٩٩١ م.

١٢- حاتم عبد الرحمن الطحاوى، بيزنطة والمدن الايطالية ، العلاقات التجارية ١٠٨١-١٢٠٤م، القاهرة ، ١٩٩٨م.

– اقتحام العثمانيين للقسطنطينية ١٤٥٣م: شهادة المؤرخ البيزنطي المعاصر دوكاس، مجلة «الاجتهاد» العددان ٤١،٤٢ ، السنة الحادية عشرة، بيروت، ١٩٩٩م.

١٣– رأفت النبراوى، «الدوكات البندقية» ، مجلة «الدارة»، العدد ٤، السنة ١٧ ، الرياض، رمضان ، ١٤١٢م.

١٤– رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، ج٣ (اثناسيوس)، القاهرة ، ١٩٨٣م.

– «مصر والعرش البيزنطى» بحث منشور فى كتاب: مصر وعالم البحر المتوسط، اعداد وتقديم رؤوف عباس. القاهرة، ١٩٨٦م.

– «الثورة الشعبية فى القسطنطينية ٥٣٢م» بحث منشور فى كتابه : بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة ، القاهرة ١٩٩٧م.

– الفكر المصرى فى العصر المسيحى، القاهرة ، ٢٠٠٠م.

– بالاشتراك مع طارق منصور ، مصر فى العصر البيزنطى ٢٨٤–٦٤١م، القاهرة، ٢٠٠١م.

١٥– زكى على، مصر البطلمية، القاهرة ٢٠٠٠م.

١٦– سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، ج١ التاريخ السياسى ، القاهرة، ١٩٦١م.

١٧– ستيفن رنسيمان ، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، ١٩٩٧م.

١٨– صبرى أبو الخير سليم، تاريخ مصر فى العصر البيزنطى، القاهرة، ١٩٩٧م.

١٩– عادل زيتون ، العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطى والغرب اللاتينى فى العصور الوسطى، دمشق ، ١٩٨٠م.

٢٠– عبد الرحمن فهمى، «ابن ياس واستخدام الأسلحة النارية فى ضوء ما كتبه فى بدائع الزهور» بحث مستخرج من كتاب: ابن اياس (دراسات وبحوث) اشراف أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، ١٩٧٣م.

٢١– عبد اللطيف أحمد على ، مصادر التاريخ الرومانى، القاهرة، ١٩٧٠م .

٢٢- على بن صالح المحاميد ، الدانشمنديون وجهادهم فى بلاد الأناضول، الاسكندرية، ١٩٩٤م.

٢٣- على عبد الواحد وافى، اليهودية واليهود، بحث فى ديانة اليهود وتاريخهم ونظامهم الاجتماعي والاقتصادى، القاهرة د.ت.

٢٤- على عودة الغامدى ، معركة ميريا كيفالون ١١٧٦م، مجلة كلية الشريعة ، جامعة أم القرى، مكة، ١٤٠٤م.

٢٥- فاضل عبد الواحد على، من ألواح سومر إلى التوراة، بغداد، ١٩٨٩م.

٢٦- فراس السواح، مغامرة العقل الأولى ، دمشق ، ١٩٩٠م.

٢٧- قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية، نصوص ووثائق، القاهرة ، ١٩٨٥م.

٢٨- ماير . ل . أ، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتى، مراجعة وتقديم عبد الرحمن فهمى، القاهرة، د.ت.

٢٩- محمد الوسيمى، جامع القسطنطينية الأول ودوره السياسى، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ٦٠ ، العدد ٢ ، أبريل ٢٠٠٠م.

٣٠- محمد خليفه حسن، مدخل نقدى إلى أسفار العهد القديم، القاهرة، ١٩٩٦م.

- تاريخ الديانة اليهودية، القاهرة، ١٩٩٨م.

٣١- محمد فؤاد كوبريللى، قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة، ١٩٩٣م.

٣٢- محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة على مصر، القاهرة، ١٩٨٥م.

- السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور مانويل الأول ١١٤٣-١١٨٠م، الاسكندرية، ١٩٨٥م.

- نيقولا مستيقوس وعلاقة الامبراطورية البيزنطية بالقوى الإسلامية من خلال مراسلاته، بيروت، د.ت.

٣٣- محمود نديم فهيم، الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى البحرى، القاهرة، ١٩٨٣م.

٣٤- مصطفى كمال عبد العليم، اليهود فى مصر فى عصرى البطالمة والرومان ، القاهرة، ١٩٦٠م.

٣٥- موريس كين، حضارة أوربا فى العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم ، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٣٦- موس . هـ . ن ، ميلاد العصور الوسطى ٣٩٥-٨١٤ م، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، السيد الباز العريني، القاهرة، ١٩٦٧م.

٣٧- موفق سالم نورى، العلاقات العباسية البيزنطية ١٣٢-٢٤٧ هـ - ٧٥٠-٨٦١م، بغداد، ١٩٩٠م.

٣٨- نعيم زكى فهمى، طرق التجارة ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٣م.

٣٩- هايد . ف ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة أحمد رضا، مراجعة عز الدين فودة، ج٣، القاهرة، ١٩٩٤م.

٤٠- هسى . ج.م العالم البيزنطى، تقديم وترجمة وتعليق رأفت عبد الحميد، القاهرة، ١٩٩٧م.

٤١- هوميروس، الإلياذة ، ترجمة درينى خشبة ، القاهرة، ١٩٩٨م.

٤٢- وسام عبد العزيز فرج ، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى، الاسكندرية، ١٩٨١م.

- الدولة والتجارة فى العصر البيزنطى الأوسط (من نهاية القرن السابع حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى) ، الحولية التاسعة الرسالة الثانية والخمسين، كلية الآداب، جامعة الكويت، ١٩٨٨م.

- الزواج الرابع للامبراطور ليو السادس ٨٨٦-٩١٢م، الاسكندرية، ١٩٩١م.

خامساً : الرسائل العلمية الجامعية

١- أحمد كامل عبد المقصود، الجماعات القطالونية فى الامبراطورية البيزنطية رسالة ماجستير لم تنشر، كلية الآداب، جامعة المنصورة، ١٩٩٦م.

٢- السيد محمد المتولى، الدولة البيزنطية فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى، رسالة ماجستير لم تنشر ، كلية الآداب - جامعة المنصورة، ١٩٩٨م.

٣- أمل أحمد حامد، مجمع ليون الثانى، ١٢٧٤م . دراسة فى مشروع الوحدة بين كنيستى القسطنطينية وروما فى القرن الثالث عشر الميلادى. رسالة ماجستير لم تنشر، كلية الآداب، جامعة المنصورة، ١٩٩٧م.

٤- زينب عبد المجيد عبد القوى، العلاقات السياسية والدينية بين الامبراطورية البيزنطية وغرب أوربا فى الفترة ١٠٧١-١١٠١م. رسالة ماجستير لم تنشر، كلية الآداب، جامعة الزقازيق ، ١٩٨٥م.

٥- صلاح محمد ضبيع ، العلاقات السياسية بين العثمانيين والامبراطورية البيزنطية فى عصر آل باليولوغس ١٢٦١-١٤٥٣م. رسالة دكتوراه لم تنشر، كلية الآداب ، جامعة جنوب الوادى، ١٩٩٨م.

٦- عبد العزيز محمد عبد العزيز، العلاقات البيزنطية- اللاتينية فى عهد الامبراطور مانويل الأول كومنينوس (١١٤٣-١١٨٠م) رسالة ماجستير لم تنشر ، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٠م.

٧- ناهد عمر صالح ، السياسة الخارجية للدولة البيزنطية فى عهد الامبراطور أندرونيقوس الثانى باليولوغس ١٢٨٢-١٣٢٨م رسالة دكتوراه لم تنشر ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة، ١٩٩٩م.

٨- نجلاء حسين توفيق، سياسة الدولة العثمانية فى البلقان تجاه الصرب (١٣٢٦-١٤٥٩م) رسالة ماجستير لم تنشر، كلية الآداب، جامعة أسيوط، ٢٠٠١م.

٩- نجلاء مصطفى شيحه، مدينة القسطنطينية فى القرن العاشر الميلادى، رسالة ماجستير لم تنشر ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩٩م.

10- Kritike Ekdose, ΤΟ ΑΝΑΚΑΛΗΜΑ ΤΗΣ ΚΩΝΣΤΑΝΤΙΝΟΠΟΛΗΣ , Greece, 1956.

11- Angeliki Stathi, Greek Laments on the Fall of Constantinople in 1453 (Folk Monosies and Traditional Songs). University of Ioannina , Greece , 2001 .

سادساً : المعاجم والقواميس المتخصصة

١- أحمد زكى بك، قاموس الجغرافيا القديمة، القاهرة، ١٣١٧هـ .

٢- ادموند فولر ، موسوعة الأساطير: الميثولوجيا اليونانية والرومانية والاسكندنافية، ترجمة حنا عبود، دمشق ، ١٩٩٧م.

٣- إدى شير، معجم الألفاظ الفارسية المعربة، بيروت، ١٩٩٠م.

٤- بطرس عبد الملك & جون الكسندر طومسون & ابراهيم مطر، قاموس الكتاب المقدس، القاهرة، ١٩٩٩م.

٥- درويش النخيلى ، السفن الإسلامية على حروف المعجم، الاسكندرية، ١٩٧٤م.

٦- فؤاد كامل وآخرون، الموسوعة الفلسفية المختصرة، مراجعة زكى نجيب محمد ، بيروت. د.ت.

٧- كوملان . الأساطير الاغريقية والرومانية، ترجمة أحمد محمد رضا، مراجعة محمود النحاس، القاهرة، ١٩٩٢م.

٨- منير البعلبكى، المورد:.قاموس انجليزى عربى، بيروت، ١٩٨٧م.

٩- نيهارت، أ ، الآلهة والابطال فى اليونان القديمة، ترجمة هاشم حمادى، دمشق، ١٩٩٤م.

١٠- هاووهارد، معجم الأعلام فى الأساطير اليونانية والرومانية، ترجمة أمين سلامة، القاهرة، ١٩٥٥م.

11- Attwater, D, The Penguin Dictionary of Saints, London, 1983 .

12- Bayerle, G, Pashas, Begs and Effendies : A Historical Dictionary of Titles and Terms in Ottoman Empire. Istanbul, 1997 .

13- De Roover, Glossary of Medieval Terms of Business. Italian Series 1200-1600 . Cambridge Mass. 1934 .

14- Dozy, R, Supplement Aux Dictionnaire Arabes. Tome, I Beyrouth , 1981 .

15- Kelly , J.N, Oxford Dictionary of Popes. Oxford, 1986 .

16- Mevlut Sari , El- Mavarid Turkçe- Arabçe Lügati, Istanbul, 1985 .

17- Michael Grant, Myths of The Greeks and Romans. New York , 1962.

18- Midhat Sertoglu, Osmanli Tarih Lugati 2. Baski , Istanbul, 1986 .

19- Nicol, D, A biographical Dictionary of the Byzantine Empire. London, 1991 .

20- Oxford Dictionary of Byzantium, 3 vols, oxford University, 1991 .

21- Sir James W. Redhouse, ATurkish and English Lexicon. Beirut, 1996.

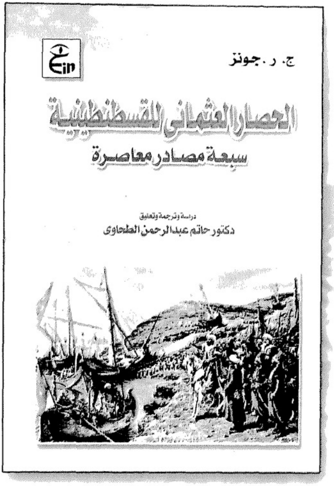
22- Webester New Georgraphical Dictionary , New York.

محتويات الكتاب

صفحة

حصار القسطنطينية ١٤٥٣م
سبعة مصادر معاصرة

رقم الإيداع ٢٣٣٥ /٢٠٠٣
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 322 - 104 - 0
دار روتابرينت للطباعة ت: ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤
٥٣ شارع نوبار - باب اللوق



Ein
للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES